رواية

لوسي مود مونتغومري

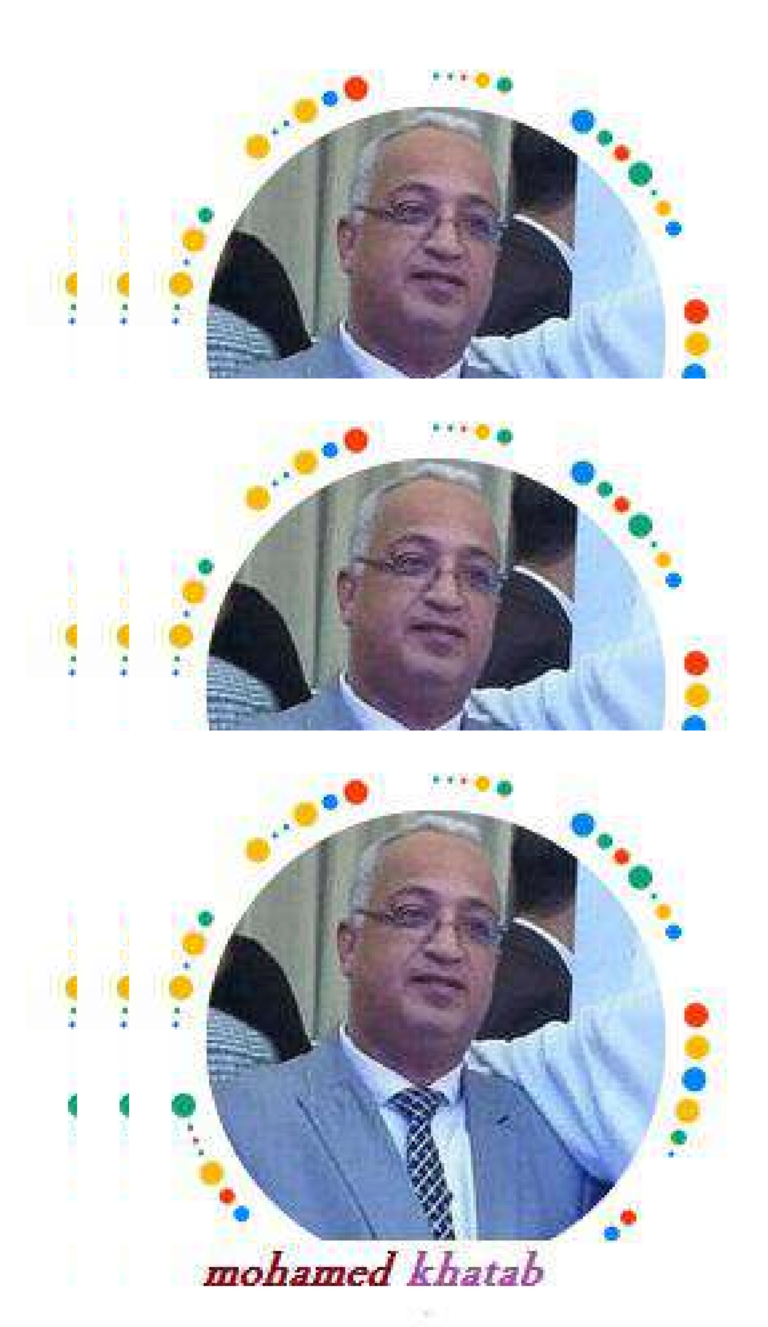
آن في غربة الصفصاف

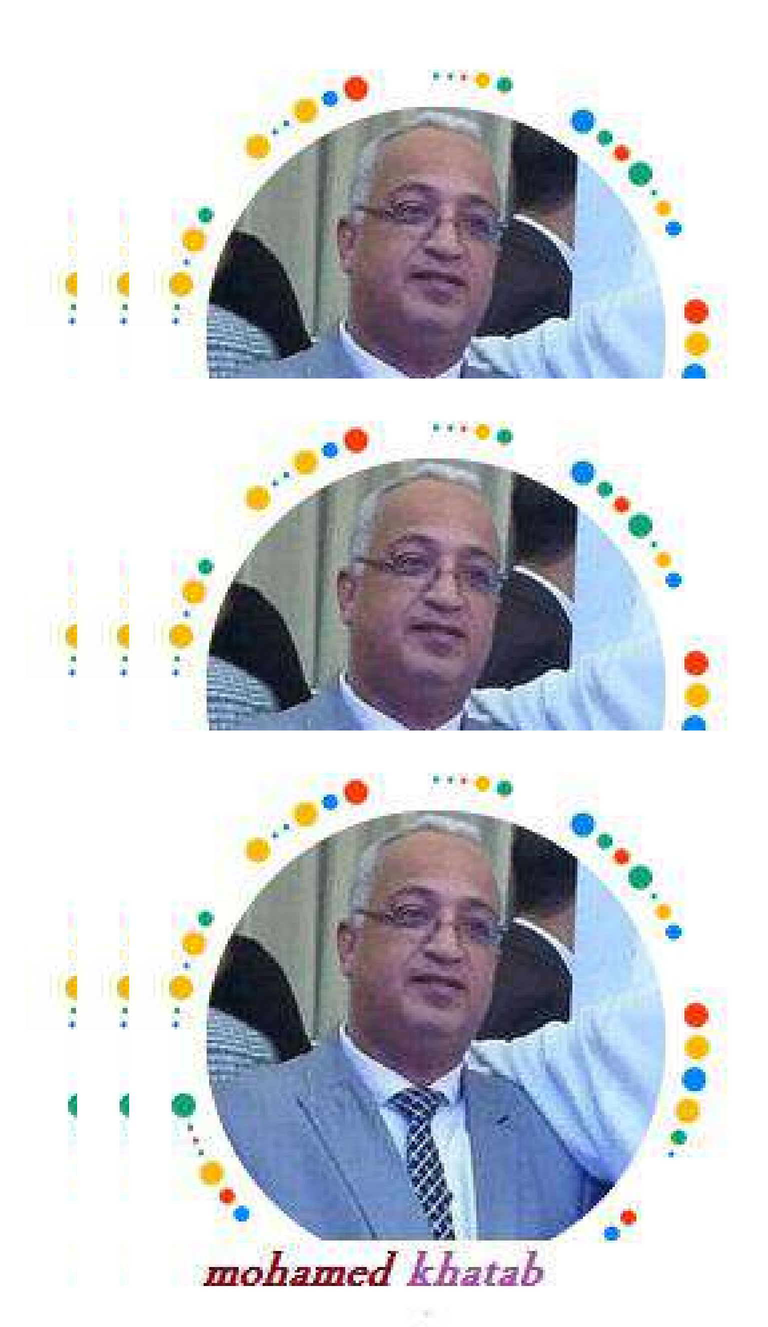
مكتبة

ترجمة: عادل قرامي






mohamed khatab


mohamed khatab

لوسي مود مونتغومري

مكتبة | سُر مَن قرأ

آن في عزبة الصفصاف

رواية

ترجمة: عادل قرامي





الكاتبة: **لوسي مود مونتغومري**

عنوان الكاتب: **آن في عزبة الصفصاف**

ترجمة: **عادل قرامي**

خط الغلاف: **الفنّان عمر الجمني**

تنضيد: **سعيد البقاعي**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوكة**

ر.د.م.ك: **978-9938-9990-7-5**

الطبعة الأولى: 2022



السعودية - عرعر - حي الجوهرة- شارع الخمسين

الهاتف: 00966-547094709

https://rashm-store.com

الإيميل: rashm.ksa@gmail.com



مسكيلياني للنشر والتوزيع

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 508386699(971+) أو 21512226(216+)

الإيميل: anizos55555@yahoo.fr

إلى أصدقاء آن في كلّ مكان

العام الأوّل

(1)

(رسالة من آن شيرلي، ليسانس في الآداب وناظرة المدرسة الثّانويّة في مدينة سامرسايد، إلى جيلبرت بلايث، طالب بكلّيّة ريدموند للطّبّ في كينغسبورت).



عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

سامرسايد، مقاطعة جزيرة الأمير

الاثنين، 12 سبتمبر

عزيزي جيلبرت،

يا له من عنوانٍ! هل سمعت في حياتك اسمًا لعنوان ألذّ وأطيب من هذا؟ «عزبة الصّفصاف» هو الاسم الذي يُطلق على بيتي الجديد، وأنا متيّمةٌ به. أعشق كذلك «درب الأشباح»، وهو مكانٌ ليس له وجودٌ قانونيٌّ. اسمه في الأصل نهج «ترينت»، ولكن قلّما يطلقون عليه هذا الاسم، ما عدا في الأوقات النّادرة الّتي تذكره فيها صحيفة *«السّاعي» الأسبوعيّة*... ثمّ يلتفت النّاس بعضهم إلى

بعضٍ في حيرةٍ متسائلين: «في أيّ مكانٍ على سطح الأرض يوجد هذ الدّرب؟» يوجد في درب الأشباح طبعًا... رغم أنّني لا أستطيع شرح السّبب الّذي سمّي من أجله بهذا الاسم. كنت قد استوضحت الأمر من ريبيكا ديو، ولكن كلّ ما قالته لي هو أنّ الاسم الّذي أُطلِق على هذا الشّارع منذ القدم هو درب الأشباح، ويحكى أنّه كان في أزمانٍ غابرةٍ مسكونًا بالعفاريت. وأضافت ريبيكا ديو أنّها لم ترَ فيه شيئًا فظيعًا سوى منظرها هي.

ومع ذلك، ينبغي ألّا أسبق الأحداث في رسالتي هذه. أنت مازلت لا تعرف ريبيكا ديو. ولكنّك ستعرفها قريبًا. نعم، ستعرفها. أتوقّع أن يَكثُر ظهور ريبيكا ديو في مراسلاتي القادمة.

إنّه الغسق يا حبيبي. (بالمناسبة، ألا تجد كلمة «غسق» رائعةً وشاعريّةً؟ أفضّلها على كلمة «غروب». فالغسق يبدو مخمليًّا ومغشًّى و... وغسقيًّا أكثر من الكلمة الأخرى). إنّني أنتمي في وضح النّهار إلى هذا العالم، وفي دجى اللّيل أنتمي إلى عالم النّوم والأبديّة. ولكن عندما يحين الغسق، أتحرّر من كليهما، وأصبح فقط رهن نفسي... ورهنك أنت. لذلك سأحافظ على قداسة هذا الوقت لكي أكتب إليك، حتّى إن لم تكن هذه الرّسالة رسالة حبٍّ. لديّ قلمٌ يحدث صريرًا، ولا يمكنني خطُّ رسائل حُبٍّ بقلمٍ صرّارٍ... أو بقلمٍ مسنّنٍ... أو بقلمٍ أبتر. سيصلك منّي ذاك النّوع من الرّسائل حين أتحصّل على النّوع المناسب من الأقلام. وفي الأثناء، سأحكي لك عن إقامتي الجديدة وعن سكّانها. جيلبرت حبيبي، إنّهم أعزّاء جدًّا.

بالأمس، أتيت للبحث عن لوكاندة. وكانت السّيّدة رايشل ليند قد رافقتي، في الظّاهر لتتسوّق قليلًا، ولكنّها في الواقع اصطحبتني -وكنت أعلم ذلك- لتختار لي بنفسها مكانًا أقيم فيه. لم تشفع لي دراستي للفنون وإجازتي في الآداب، إذ مازلت السّيّدة ليند تعتقد أنّني فتاةٌ يافعةٌ وغِرّةٌ لم تتمرّس بالحياة بعدُ، وينبغي إرشادها وتوجيهها ومراقبتها.

استقللنا القطار عند المجيء إلى هنا، وكنت قد خبرتُ خلال الرّحلة، يا جيلبرت، حادثةً غريبةً. أنت تعلم أنّني من النّاس الّذين تهلّ عليهم المغامرات دون أن أنشدها. يبدو أنّها تنجذب إليّ دومًا، إذا صحّ التّعبير.

حدث الأمر بالضّبط حين وصل القطار إلى المحطّة وهمّ بالتّوقّف. نهضت من مكاني، وانحنيت لألتقط حقيبة السّيّدة ليند (كانت قد اعتزمت قضاء يوم الأحد عند صديقة لها في سامرسايد)، واتّكأتُ ببراجمي[1] بقوّة على ما خلته في البداية مرفقًا لمّاعًا لأحد المقاعد. لم ألبث أن شعرت بطقطقةٍ عنيفةٍ تسري في مفاصل أصابعي وجعلتني أكاد أعوي من شدّة الألم. عزيزي جيلبرت، ما حسبته ذراعًا للمقعد كان في حقيقة الأمر رأسًا لرجلٍ أصلع. رمقني الرّجل بنظرةٍ شرسةٍ، وكان جليًّا أنّه قد أفاق للتّوّ من نومه. اعتذرت له على فعلي الشّنيع، وغادرت عربة القطار بأقصى سرعةٍ. كان آخر شيءٍ رأيته هو نظراته المحدّقة فيّ. لقد أصيبت السّيّدة ليند

(1) جمع برجمة، وتعني المفصل الظاهر من أصابع اليد.

بالذّعر الشّديد، ومازالت مفاصل أصابعي تؤلمني كثيرًا. لم أتوقّع أن أجد صعوبةً بالغةً في العثور على لوكاندة، لأنّ السّيّدة برينغل، زوجة السّيّد توم برينغل، دأبت على إيواء كلّ نظّار المدرسة الثّانويّة في الخمس عشرة سنةً الأخيرة. لكن، ولسببٍ أجهله، ضجرت السّيّدة برينغل فجأةً من كثرة «إقلاق راحتها»، ورفضت إعاشتي. كانت هناك أماكن أخرى عديدةٌ مستحبّةٌ، وكانت أعذارها مؤدّبةً، وأماكن أخرى لم يكن مرغوبًا فيها بالمرّة. هِمْنا على وجهينا طيلة فترة الظّهيرة، إلى أن شعرنا بالحرّ الشّديد، وأخذ منّا التّعب والاكتئاب كلّ مأخذٍ، وتصدّعت رؤوسنا... على الأقلّ هذا ما شعرت به أنا. كنت على وشك الاستسلام من فرط القنوط... ثمّ، لاح لنا درب الأشباح!

ذهبنا لرؤية السّيّدة برادوك، وكانت صديقةً قديمةً وحميمةً للسّيّدة ليند. قالت السّيّدة برادوك إنّها تعتقد أنّ «الأرملتين» ستستقبلانني.

«لقد سمعتُ أنّهما ترغبان في إيواء مقيمةٍ جديدةٍ لتدفع أجرة ريبيكا ديو. لا يمكنهما تحمّل نفقات ريبيكا إلى وقتٍ أطول، إلّا إذا تدفّق بعض المال الإضافيّ. ثمّ إنّه إذا ما غادرت ريبيكا، فمن سيحلب البقرة الصّهباء الهرِمة؟».

رمقتني السّيّدة برادوك بنظرةٍ متجهّمةٍ وكأنّها تلمّح إلى أنّه ربّما عليّ حَلب البقرة الصّهباء، ولكنّها بالتّأكيد لن تصدّق إذا ما أقسمت لها أنّ بإمكاني فعل ذلك.

سألتها السّيّدة ليند: «من هاتان الأرملتان اللّتان تتحدّثين عنهما؟».

أجابتها السّيّدة برادوك وكأنّه يُفترض على الجميع، حتّى تلك الفتاة المتحصّلة على اللّيسانس، أن يعرفوا من هما: «حسنًا، إنّهما العمّة كايت والعمّة تشاتي. العمّة كايت هي زوجة أماسا ماك كومر (أرملة القبطان)، أمّا العمّة تشاتي فهي أرملة لينكولن ماكلين، وهي أرملةٌ عاديّةٌ. ولكنّ الجميع هنا ينادونهما «العمّة». إنّهما تسكنان في آخر درب الأشباح».

درب الأشباح! هذا يفسّر كلّ شيء. طبعًا، فقدري أن أقيم مع الأرامل.

توسّلتُ إلى السّيّدة ليند قائلةً: «فلنذهب في الحال لرؤيتهما». بدا لي أنّنا إذا تأخّرنا لحظةً عن درب الأشباح فإنّه سيتوارى من جديدٍ في عالم الجنّ.

«يمكنك رؤيتهما، ولكنّ ريبيكا هي من ستقرّر ما إذا كانتا ستقبلانك أم لا. دعيني أقل لك إنّ ريبيكا ديو هي من تدير كلّ شيء في عزبة الصّفصاف».

عزبة الصّفصاف! لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًا... لا إنّه ليس حقيقيًّا بالمرّة. لا شكّ أنّني أحلم. كانت السّيّدة رايشل ليند حينها تقول إنّ هذا الاسم غريبٌ جدًّا ليُطلق على هذا المنزل.

«أوه! الرّيّس ماك كومر هو من أسماه كذلك. لقد كان منزله، إذ غرس حوله كلّ أشجار الصّفصاف الّتي سترَونها، وكان فخورًا

جدًّا بذلك، رغم أنّه نادرًا ما أقام فيه، وحتّى إن فعل، فإنّه لم يكن يقيم فيه لمدّةٍ طويلةٍ. دأبت العمّة كايت على القول إنّ ذلك كان يضايقها كثيرًا، ولم نفهم إلى حدّ الآن ما إذا كانت تقصد بقاءه في المنزل لوقتٍ وجيزٍ أم عودته للعيش فيه. حسنًا أيّتها الآنسة شيرلي، آمل أن تسير الأمور على ما يرام. ريبيكا ديو طبّاخةٌ ماهرةٌ وجنّيّةٌ في طهي البطاطا الباردة. إذا ما استقرّ رأيها عليك فستكون عيشتك هانئةً هنا. أمّا إذا كان رأيها خلاف هذا... فستجري الأمور عكس ذلك، هذا كلّ شيء. لقد سمعت أنّ مصرفيًّا جديدًا حلّ بالمدينة ويبحث عن بنسيون يقيم به، وربّما فضّلته ريبيكا عليك. إنّه لَعَلَى شيءٍ من الغرابة ألّا تقبلكم زوجة توم برينغل. فسامرسايد تعجّ بعائلة برينغل وأشباه عشيرة برينغل. يُسمّونهم «الأسرة الملكيّة»، وعليك أن تحظي باستحسانهم أيّتها الآنسة شيرلي، وإلّا فإنّك لن تحقّقي الشّيء الكثير في مدرسة سامرسايد. إنّهم يتحكّمون في كلّ شيءٍ هنا منذ القدم... بل إنّ هناك شارعًا باسم القبطان العجوز أبرهام برينغل. هم فعلًا يمثّلون عشيرةً كبيرةً، ولكنّ السّيّدتين العجوزين في مزرعة مابلهيرست هما اللّتان تتزعّمان الطّائفة. سمعت أيضًا أنّهما لا تطيقانك».

قلت متعجّبةً: «ولماذا لا تطيقانني؟ أنا غريبة تمامًا عن هذا المكان».

«سعى أحد أبناء ابن ابن عمّ لهما للتّرشّح إلى منصب النّاظر، والعائلة برمّتها كانت تراه الأصلح لذلك. وعندما فزت أنتِ بالمنصب أرخت كلّ العشيرة رؤوسها إلى الخلف وبدؤوا في النّواح.

أنتِ تعرفين أنّ النّاس هم دائمًا هكذا. علينا أن نقبلهم كما هم. سيداهنونك وسيُظهرون لك اللّطف واللّين، ولكنّهم لن يتوانوا في كلّ مرّة عن نصب المكائد لك. لا أريد أن أثبّط من عزيمتك، ولكن لقد أعذر من أنذر. آمل أن تنجحي في عملك، لا لشيء إلّا لتغيظيهم. إذا ما قبلت بك الأرملتان، هل تمانعين في الأكل مع ريبيكا ديو؟ هي ليست خادمةً هنا، ولكنّها ابنة عمٍّ بعيدة للقبطان. وهي لا تجلس إلى طاولة الطّعام حين يزور بعض الأهل المنزل... هي تعرف بالضّبط مكانتها في مثل هذه الأوقات... ولكن إذا أقمتِ هناك فستأنس إليك بطبيعة الحال ولن تعتبرك من الأهل الزّائرين».

طمأنتُ السّيّدة برادوك الجزِعة، وقلت لها إنّني أحبّ تناول الطّعام مع ريبيكا ديو، ثمّ جذبت السّيّدة ليند بعيدًا. لا بدّ أن أصل قبل أن يسبقني إليهما المصرفيّ.

تبعتنا السّيّدة برادوك إلى الباب.

«ورجاء لا تخدشي مشاعر العمّة تشاتي. فمشاعرها مرهفةٌ جدًّا. إنّها حسّاسة جدًّا تلك المسكينة. فهي لا تملك الكثير من المال مثل العمّة كايت... بالرّغم من أنّ العمّة كايت لا تملك أيضًا أموالًا طائلةً. ثمّ إنّ العمّة كايت كانت تحبّ زوجها كثيرًا... أعني زوجها هي بطبيعة الحال... ولكنّ العمّة تشاتي لم تكن كذلك... أعني أنّها لم تكن تحبّ زوجها هي. ولا عجب في ذلك! فقد كان زوجها لينكولن ماكلين عجوزًا خَرِفًا وغريب الأطوار... وهي

تعتقد أنّ النّاس كانوا يجتنبونها من أجل ذلك. من حسن الحظّ أنّ اليوم هو السّبت. ولو كان يوم الجمعة لما فكّرت العمّة تشاتي لحظةً في قبولك داخل المنزل. ربّما ستخالينها من العجائز اللاّتي يؤمنّ بالخرافات، أليس كذلك؟ ولكنّ البحّارة هكذا دومًا، وهكذا هي العمّة تشاتي... بالرّغم من أنّ زوجها كان نجّارًا. كانت فائقة الجمال في ما مضى، تلك المسكينة».

طمأنتُ السّيّدة برادوك بأنّ مشاعر السّيّدة تشاتي ستكون مقدّسةً عندي، ولكنّها تابعت الطّريق معنا إلى آخر الممشى.

«لن تفتّش كايت وتشاتي في أمْتِعتك عندما تكونين خارج البيت. فهما من أصحاب الضّمائر الحيّة. ربّما تفعل ريبيكا ديو ذلك، ولكنّها لن تشِي بك إليهما البتّة. لو كنت مكانك فلن أذهب أبدًا ناحية الباب الأماميّ. فهنّ تستعملنه فقط حين يطرأ أمرٌ جَلَلٌ، ولا أظنّه فُتح منذ جنازة السّيّد أماسا. حاولي استعمال الباب الجانبيّ. عادةً ما يتركن المفتاح تحت المزهريّة الموضوعة على عتبة النّافذة. إذا لم تجدي في المنزل أيّة واحدةٍ منهنّ، فافتحي فقط قُفل الباب بالمفتاح، وادخلي وانتظريهنّ. وفي كلّ الأحوال، لا تكثري من الثّناء على القطّ، فريبيكا ديو تكنّ له حقدًا دفينًا».

وعدتها ألّا أُثني على القطّ، وانطلقنا بعيدًا هذه المرّة عن السّيّدة برادوك. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى ألفينا أنفسنا في درب الأشباح. كان ممرًّا جانبيًّا غير طويلٍ، ويفتح في آخره على البادية، وفي الأفق البعيد انتصبت تلّةٌ زرقاء كانت خلفيّةً رائعةً له. لم تكن في جانبٍ

من الدّرب أيّة منازل، وكانت الأرض تنحدر فيه حتّى تبلغ المرفأ. وفي النّاحية الأخرى، انتصبت ثلاثة منازل فقط. أوّلها كان منزلًا عاديًّا... ولا شيء يمكن قوله عنه. أمّا التّالي، فكان صرحًا فخمًا وموحشًا، قُدَّ من لبناتٍ حمراء من الصّخر المنحوت، ويعلوه سقفٌ منحدر الجانبين غطّته الكثير من النّتوءات والرّواشن[1]، وقضبانٌ حديديّةٌ تحيط بإفريز الحائط، بينما تكاثفت أشجار الرّاتينجة والتّنوب حول المنزل فلا يكاد النّاظر يبصر منه شيئًا، ولا ريب في أنّ العتمة والغموض كانا يكتنفانه في الدّاخل على نحوٍ مخيفٍ. وأمّا الثّالث والأخير، فكان عزبة الصّفصاف الّتي تقع عند الزّاوية، ويمتدّ إليها من الأمام مسلكٌ معشّبٌ وطريقٌ ريفيّةٌ حقيقيّةٌ زادتها جمالًا ظلالُ الأشجار من الجانب الآخر.

لقد تعلّقت بالمكان من أوّل وهلةٍ. تعرف أنّ هناك منازل تطبع قلبك منذ اللّحظة الأولى، ولسببٍ لا يمكنك بيانه. عزبة الصّفصاف هي من بين تلك المنازل. ربّما أصفه لك، فهو منزلٌ خشبيٌّ أبيض... ناصع البياض... تتخلّله مصاريع نوافذ خضراء... خضراء يانعة... ويعلوه «برج» في زاويةٍ منه وروشن في كلّ جانبٍ. وفيه سورٌ منخفضٌ يفصل المنزل عن الطّريق، كان قد شيّد من الصّخر، وتنبت على طوله، وعلى مسافاتٍ متباعدةٍ، أشجار الصّفصاف والحَوْر الرّجراج، فضلًا عن حديقةٍ واسعةٍ في الخلف، تختلط فيها الأزهار بالخضراوات على نحوٍ يسرّ النّاظرين. ولكنّ هذا القول لن

---

(1) جمع روشن. وهو فتحةٌ أو خرقٌ في الحائط أو في السَّقف يدخل منه الهواء والضوء.

يفي حقّ هذا المنزل وسحره. خلاصة الوصف أنّه منزلٌ ذو شخصيّةٍ عذبةٍ، وفيه شيءٌ من نفحات غرين غايبلز[1].

قلتُ وقد جَذلت طربًا: «هذا هو المكان الّذي خلق من أجلي... الأمر مقدّرٌ بقضاءٍ».

بدا وكأنّ السّيّدة ليند لا تثق كثيرًا في القضاء والقدر. قالت وقد تملّكها الشّكّ: «ستكون مسافةً طويلةً حتّى تبلغي المدرسة».

«لا يهمّ ذلك كثيرًا. سأعتبرها فرصةً رائعةً للمشي والرّياضة. أوه، انظري إلى تلك الأيكة البديعة من شجر التّامول والقيقب على الجانب الآخر من الطّريق».

تأمّلت السّيّدة ليند المنظرَ ولكنّها لم تقل سوى: «آمل ألّا يضايقك البعوض هنا».

«آمل ذلك أيضًا. أمقت البعوض. يمكن لبعوضةٍ واحدةٍ فقط أن تجعلني صاحيةً طوال اللّيل أكثر ممّا يفعله الإحساس بتأنيب الضّمير».

شعرت بالفرح عندما تركنا الباب الرّئيسيّ جانبًا ولم ندخل منه. كان يبدو بالفعل بغيضًا ومنفّرًا إلى أبعد الحدود، إذ لم يكن سوى هيكلٍ ضخمٍ ومزدوج الدّفّتين، كان قد صنع من ألياف الأخشاب، وعلى جانبيه ألواحٌ من الزّجاج الأحمر والمزركش برسوم الأزهار. لم يكن يبدو بأيّة حال أنّه يتماهى مع باقي المنزل. أمّا الباب الجانبيّ الأخضر الصّغير، وقد بلغناه عبر ثنيّةٍ بديعةٍ من الصّخور الرّمليّة

---

(1) منزل آن شيرلي الأصليّ وسط مزرعة في منطقة آفونلي في مقاطعة جزيرة الأمير إدوارد.

المسطّحة كانت قد انحسرت في العشب على مسافاتٍ متباعدةٍ، فقد كان أكثر حميميّةً وجاذبيّةً. كانت على حافّة المسلك أحواضٌ أنيقةٌ وحسنة التّرتيب من عشب القصب الأصفر، وقلب مريم، والزّنبق المرقّط، والقرنفل الملتحي، والقيصوم الذّكر، ومسكة العروس، والأقاحي الحمراء والبيضاء، وما تسمّيه السّيّدة ليند «الصّنوبر القزم». وبطبيعة الحال لم تكن كلّ هذه النّباتات مزهرةً في هذا الفصل، ولكن يمكن للنّاظر أن يرى أنّها قد أينعت في ما مضى في الوقت المناسب، وعلى نحوٍ بديعٍ. كان هناك أيضًا مغرسٌ من الورود في ركنٍ بعيدٍ بين عزبة الصّفصاف والمنزل الموحش، ومحاذٍ لجدارٍ من الآجرّ تسلّقت على طوله نبتة الكرمة العذراء، وتوسّطه بابٌ باللّون الأخضر الباهت، تعلوه تعريشةٌ مقنطرةٌ. وعبر باب هذا الحائط امتدّت داليةٌ فهمتُ منها أنّه لم يُفتح منذ زمنٍ. لم يكن في الحقيقة سوى نصف بابٍ، لأنّ نصفه العلويّ لم يكن إلّا فتحةً مستطيلةً يمكن من خلالها إلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على حديقة المنزل المحاذي، وهي حديقةٌ تشبه الأدغال.

حين دخلنا عبر بوّابة حديقة عزبة الصّفصاف، جلبت انتباهي كومةٌ صغيرةٌ من البرسيم تكدّست على حافّة المسلك. دفعني شيءٌ من الغريزة إلى الانحناء والتّمعّن فيها. هل تصدّق يا جيلبرت؟ كانت نصب عينيّ ثلاثُ عشبات برسيم ذات أربع وريقات![1]

(1) نبتة البرسيم ذات الأوراق الأربع هي نوع نادر من البرسيم (عادة ما تتكوّن من ثلاث ورقات)، وتقول الأسطورة إنّ من يجد واحدة منها سيرافقه الحبّ والإيمان والأمل والحظّ.

أرأيت حين نتحدّث عن الطّالع! حتّى عائلة برينغل لن تجادل في ذلك. شعرت حينها أنّه ليس على هذه الأرض فرصةٌ للمصرفيّ كي ينافسني.

كان الباب الجانبيّ مفتوحًا، فكان من البديهيّ أن يوجد أحدهم بالدّاخل، ولم تكن لنا حاجة للنّظر تحت الزّهريّة. طرقنا الباب فأتت ريبيكا ديو إلى الباب. أدركنا على الفور أنّها ريبيكا ديو، فمن غير الممكن أن تكون أيّ شخصٍ آخر في هذا العالم كلّه، ومن المستحيل أن يكون لها اسمٌ غير هذا الاسم.

كانت ريبيكا ديو تناهز الأربعين من عمرها، ولو كان لحبّة الطّماطم شعرٌ أسود فاحمٌ يتطاير بعيدًا عن جبهتها، وعينان سوداوان وصغيرتان لا تكفّان عن التلألؤ، وأنفٌ دقيقٌ ومكعبرٌ في نهايته، وفمٌ مشرومٌ، فإنّ حبّة الطّماطم هذه ستشبهها تمامًا. كان كلّ شيءٍ فيها يتّسم ببعض القِصَر... ذراعاها وساقاها وعنقها وأنفها... كلّ شيءٍ ماعدا ابتسامتها. لقد كانت عريضةً بما فيه الكفاية حتّى تمتدّ إلى أذنيها.

ولكنّنا في ذلك الوقت لم نلحظ ابتسامتها بعدُ. بدا وجهها عبوسًا ومكفهرًّا حين سألتها عمّا إذا كان لقاء السّيّدة ماك كومر ممكنًا.

أجابتني بنبرة توبيخٍ، وكأنّ دزينة من السّيّدات ماك كومر يسكنّ في هذا المنزل: «تعنين السّيّدة زوجة الرّيّس ماك كومر؟»

قلت بوداعة الحمل: «نعم». ثمّ لم تلبث أن أرشدتنا إلى ردهة

الاستقبال وتركتنا فيها. كانت حُجرةً صغيرةً وجميلةً إلى حدٍّ مّا. وكانت مبعثرةً ومكتظّةً قليلًا بأغطية أذرع الكراسي ورؤوسها، ولكنّها تبعث على السّكينة والألفة، ممّا جعلني أتعلّق بها. كان لكلّ جزءٍ من الأثاث مكانٌ خاصٌّ به لم يبرحه منذ سنين. كم كان ذاك الأثاث يلمع! لا يمكن لأيّ ورنيش لمّاعٍ يُباع في السّوق أن يُحدث ذلك اللّمعان الّذي يشبه بريق المرآة المصقولة. أعلم أنّ ريبيكا ديو قد بذلت قصارى جهدها في تنظيف هذا الأثاث. استرعت انتباه السّيّدة ليند، بشدّةٍ، سفينةٌ مجهّزةٌ بعُدّةٍ كاملةٍ كانت قد حُفظت في زجاجةٍ على رفّ الموقد. لم يكن بإمكانها تخيّل الطّريقة الّتي زُجّت بها السّفينة داخل القارورة... ولكنّها فكّرت في أنّها أضفت على الغرفة جوًّا من الملاحة البحريّة.

جاءت الأرملتان، وأعجبتُ بهما على الفور. كانت العمّة كايت فارعة الطّول ونحيفةً، وكان رأسها قد اشتعل شيبًا وسحنتها مكفهرّةً... تمامًا مثل ماريلا[1]. أمّا العمّة تشاتي فكانت قصيرة القامة، ونحيفة الجسم، وشيباء الشّعر، وعلى شيءٍ من الكآبة. ربّما كانت في ما مضى فاتنةً جدًّا، ولكن لم يبق من جمالها شيءٌ سوى عينيها. عيناها جميلتان جدًّا... ناعمتان وواسعتان وكستنائيّتان.

شرحت لهما مأموريّتي، فتبادلت الأرملتان النظرات.

قالت العمّة تشاتي: «علينا أن نستأنس برأي ريبيكا ديو».

أردفت العمّة كايت قائلةً: «دون أدنى شكٍّ».

---

(1) شخصيّة في مجموعة روايات «آن في غرين غايبلز»، وكانت الوصيّة على آن شيرلي.

على هذا الأساس، دُعيَت ريبيكا ديو من المطبخ. ودخل القطّ في أعقابها... قطٌّ مالطيٌّ ضخمٌ ومنتفشٌ، ذو صدرٍ أبيض، ويحمل في عنقه قلادةً بيضاء. وددت لو داعبته قليلًا، لكنّني تجاهلته حين تذكّرت تحذير السّيّدة برادوك.

أخذت ريبيكا تحملق فيّ دون أن تعلو محيّاها أدنى ابتسامةٍ.

قالت العمّة كايت الّتي اكتشفتُ أنّها لا تُهدر الوقت بالحديث: «ريبيكا، تودّ الآنسة شيرلي الإقامة هنا. لا أعتقد أنّ بمقدورنا استقبالها».

أجابتها ريبيكا ديو: «لِمَ لا؟».

قالت العمّة تشاتي: «أخشى أن يكون ذلك عناءً إضافيًّا لك».

«لقد تعوّدت كثيرًا على المشقّة والعناء». وسكتت ريبيكا ديو. لا يمكنك، يا جيلبرت، الفصل بين هذين الاسمين. إنّه أمرٌ مستحيلٌ بالنّسبة إليّ... ولكنّ الأرملتين تستطيعان ذلك. تناديانها «ريبيكا» فقط عندما تتوجّهان إليها بالكلام. لا أعلم بالضّبط كيف تقدران على ذلك.

قالت العمّة تشاتي وهي تصرّ على موقفها: «نحن طاعنات في السّنّ، ولا يمكننا قبول فتاةٍ يافعةٍ ترتع في المنزل جيئةً وذهابًا».

أجابتها ريبيكا ديو: «تحدّثي عن نفسك فقط. عمري خمسٌ وأربعون سنةً فحسب، ومازلت أقدر على استعمال ملَكاتي كلّها. ثمّ إنّني أعتقد أنّ من الجميل أن يكون لنا شخصٌ في ريعان شبابه ينام في هذا المنزل. وفتاةٌ شابّةٌ ستكون في كلّ الأحوال أفضل من

الفتيان. إذا ما وافقتم على إقامة فتًى هنا، فسيمضي كامل النّهار في تدخين السّجائر، وسيضرم النّار فينا ونحن نائماتٌ. إذا ما قرّرتما قبول مقيم مّا، فنصيحتي هي أن تأخذا هذه الفتاة. ولكن، هو في نهاية الأمر منزلكما».

قالت قولها وتوارت عن الأنظار.. مثلما كان الشّاعر هوميروس يقول دومًا بشغفٍ. كنت قد أيقنت أنّ الأمور حُسمت، ولكنّ العمّة تشاتي أخبرتني أنّ عليّ الصعود إلى غرفتي والتّأكّد من أنّها تناسبني.

«عزيزتي، سنعطيك الغرفة الّتي في البرج. هي ليست رحبةً مثل غرفة نوم الضّيوف، ولكنّها تحتوي على فتحة مدخنةٍ يمكن استعمالها مدفأةً في الشّتاء، ثمّ إنّ لها إطلالةً جميلةً من فوق. يمكنك أن تري منها المقبرة القديمة».

كنت أعلم مسبقًا أنّني سأولع بالغرفة... فالاسم في حدّ ذاته أسَرني: «غرفة البرج». شعرتُ وكأنّنا نعيش في تلك الأنشودة الّتي طالما ردّدناها في مدرسة آفونلي، الأنشودة الّتي تتغنّى بفتاةٍ عذراء «كانت تسكن برجًا شاهقًا على حافّة بحرٍ رماديٍّ». لقد تبيّن لاحقًا أنّها أحبُّ الأماكن إلى قلبي. صعدنا إلى الغرفة عبر عدد من الدّرجات الجانبيّة الصّغيرة انطلاقًا من بسْطة السّلّم[1]. كانت الغرفة في الحقيقة متواضعة الحجم... ولكن لم تكن البتّة بصغر حجم تلك الغرفة المروّعة في آخر الرّدهة، وفيها أمضيت أوّل عام لي بـريدموند. كانت لغرفتي الجديدة نافذتان، وروشن يطلّ في اتّجاه

(1) مساحة مسطّحة منبسطة يدور عندها السّلّم ويغيّر اتّجاهه.

الغرب، وفتحة في الجملون[1] تطلّ في اتّجاه الشّمال، فضلاً عن نافذةٍ ذات ثلاثة جوانب في الرّكن الّذي يشكّله البرج، تُفتح مصاريعها إلى الخارج، ورفوفٍ تحتها لأرتّب كتبي عليها. كانت الأرضيّة مغطّاةً بسجّادات مضفورةٍ في شكلِ دوائر، أمّا الفِراش الكبير فله ستارةٌ فوقه، ولحافٌ تزيّن بصور الإوزّ البرّيّ وبدا ناعمًا وسويًّا جدًّا، إلى حدّ أنّه من المؤسف إفساده بالنّوم فيه. ودعني أقل لك، يا جيلبرت، إنّه عالٍ جدًّا وعليّ أن أصعد إليه باستعمال مجموعةٍ عجيبةٍ من الدّرجات الصّغيرة الّتي يمكن نقلها ودسّها خلال النّهار تحته. يقال إنّ القبطان ماك كومر هو من ابتاع هذه البدعة الغريبة من بلدٍ أجنبيٍّ وجلبها إلى المنزل.

في ركنٍ من الغرفة انتصبت أيضًا خزانةٌ صغيرةٌ ومحبّبةٌ إلى قلبي، ذات رفوفٍ منمنمةٍ بورقٍ صدفيٍّ أبيض، وباقات ورودٍ مرسومة على بابها. وكذا يوجد نُمرق[2] مدوّرٌ أزرق على المقعد أسفل النّافذة... نُمرق يتوسّطه زرٌّ غائرٌ يجعله يبدو مثل كعكةٍ حلَقيّةٍ سمينةٍ وزرقاء. وتوجد أيضًا منضدةٌ لغسيل الوجه بها رفّان... الرّفّ الأعلى واسعٌ بما يكفي ليتّسع لطشتٍ وإبريقٍ أزرق في لون بيض أبي الحنّاء[3]، أمّا الرّفّ الأسفل ففيه حمّالة صابونٍ ودورقٌ للماء السّاخن. ويوجد في المنضدة كذلك دُرج مقبضه من النّحاس ومملوءٌ بالمناشف، وعلى

(1) سقف محدّب على هيئة سَنام الجمل.

(2) وسادة صغيرة يُتّكأ عليها.

(3) يبيض طائر أبو الحناء الأمريكيّ أجمل بيض طيور في العالم، ويكون لونها ضاربًا إلى الزّرقة.

رفٍّ أعلاه جلست سيّدةٌ من الخزف الأبيض، تنتعل حذاءً زهريًّا وتلبس نطاقًا مذهّبًا، وفي شعرها الذّهبيّ المصنوع من الفخّار غُرست وردةٌ خزفيّةٌ حمراء.

كان المكان كلّه مضاءً بنورٍ ذهبيٍّ ينبعث من بين السّتائر الملوّنة بأكواز الذّرة. وعلى الحيطان المجيّرة ألصقت أكثر الأبسطة ندرةً، وارتسمت عليها تصاميم ظلال شجر الحَوْر الرّجراج... إنّها أبسطة حيطانٍ مفعمة بالحياة، تتغيّر وتتموّج دون هوادةٍ. بدت لي الغرفة مبتهجةً على طريقتها، وشعرت وكأنّني أغنى فتاةٍ في هذا العالم كلّه.

قالت لي السّيّدة ليند ونحن نغادر الغرفة: «ستكونين آمنةً هنا، هذا ما يمكنني قوله».

أجبتها ممازحةً: «أتوقّع أن تقيّدني بعض الأشياء هنا بعد كلّ تلك الحرّيّة الّتي كنت أتمتّع بها في منزل باتي»[1].

قالت السّيّدة ليند بازدراءٍ: «حرّيّة! آن، لا تتحدّثي مثل اليانكيّين»[2].

لقد جئت إلى هنا اليوم، ومعي كلّ شيءٍ. لا أطيق طبعًا فراق غرين غايبلز، ولا يهمّ طول المدّة وعدد المرّات الّتي سأكون فيها بعيدةً عن منزلي هناك، ففي اللّحظة الّتي تحلّ فيها عطلةٌ مّا سألتقي به من جديدٍ كما لو أنّي لم أغادره البتّة، وقلبي يكاد يتمزّق لفراقه. ولكنّني

(1) منزل صغير عاشت فيه آن لسنتين خلال دراستها في كلّيّة ريدموند.
(2) لفظ مهين يعني الأمريكيّين.

أعرف أنّي أحبّ بيتي الجديد. وهو يحبّني أيضًا. لطالما عرفتُ في قرارة نفسي ما إذا كانت المنازل تحبّني.

المشاهد من نوافذي بديعة... بما فيها منظر المقبرة القديمة المحاطة بصفٍّ من أشجار التّنّوب القاتمة، وإليها يمكن الوصول عبر جادّةٍ ملتويةٍ يحدّها حاجزٌ صخريٌّ. يمكنني من أعلى نافذتي الغربيّة أن أشاهد المرفأ بوضوحٍ، وحتّى الشّطآن البعيدة الّتي اكتنفها الضّباب، وكذا تلك القوارب الصّغيرة العزيزة الّتي أعشقها، والسّفن الّتي بدأت تمخر عباب البحر نحو «موانئ غير معلومةٍ»... يا لها من عبارةٍ ساحرةٍ! فيها «نطاقٌ رحبٌ من الخيال» كما يُقال! ومن النّافذة الشّماليّة، يمكنني أن أمتّع النّظر في أيكات التّامول والقيقب على الجانب الآخر من الطّريق. تعرف أنّني أقدّس الأشجار. عندما درسنا الشّاعر تينيسون في حصّة الإنجليزيّة في ريدموند، كان قلبي يتفطّر حزنًا مع المسكينة إينون وهي تبكي صنوبراتها المنهوبة.

وراء الأجمة والمقبرة يسيل وادٍ بديعٌ، وعبره تمتدّ طريقٌ متموّجةٌ في شكل شريطٍ أحمر لامعٍ، وعلى طوله انتصبت منازل بيضاء مثل خطٍّ مرقّطٍ. بعض الأودية تبعث الرّوح في القلب... لا أعلم لماذا. مجرّد النّظر إليها يشعرك بالطّرب. ووراءه كالعادة كانت تلّتي الزّرقاء شامخةً. سأسمّيها «ملكة العواصف»... فهي شغفي الأوّل الآن.

يمكنني أن أنعزل في غرفتي بقدر ما أشاء. تعرف أنّ من الجميل أن يمكث المرء وحيدًا بين فينةٍ وأخرى. وحينئذٍ تصبح

الرّياح صديقاتي. ستولول وستتنهّد وستترنّم حول برج غرفتي... تلك الرّياح البيضاء في الشّتاء... والخضراء في الرّبيع... والزّرقاء في الصّيف... والأرجوانيّة في الخريف... والرّياح الهوجاء في كلّ الفصول... «رياح عاصفةٌ تحقّق وعد الرّبّ». لطالما فُتنت بهذه الآية من الإنجيل... وكأنّ كلّ ريحٍ تحمل رسالةً لي. لطالما غبطت أيضًا ذاك الطّفل الّذي يطير مع ريح الشّمال، في تلك القصّة الرّائعة لجورج ماك دونالد. تعرف يا جيلبرت، في ليلة مّا سأفتح نافذة البرج وسأرتمي في أحضان الرّيح... ولن تعلم ريبيكا ديو لماذا بقي فراشي مرتّبًا تلك اللّيلة.

عندما نعثر على منزل أحلامنا، يا عزيزي، آمل أن تعصف حوله الرّياح. أتساءل أين يمكنه أن يكون... هذا المنزل المجهول. هل سأحبّه أكثر تحت ضوء القمر أم عند السّحر؟ ذلك البيت الآتي الّذي سننعم فيه بالحبّ والصّداقة والعمل... وبعض المغامرات العجيبة الّتي سنضحك عند تذكّرها ونحن طاعنان في السّنّ. الكبر في السّنّ! هل سنبلغ الشّيخوخة يا جيلبرت؟ يبدو ذلك مستحيلًا.

من نافذة البرج اليسرى يمكنني أن أتأمّل أسطح بيوت المدينة... هذا المكان الّذي سأعيش فيه مدّةَ عامٍ على الأقلّ. سيصبح هؤلاء النّاس تحت أسقف تلك المنازل أصدقائي، رغم أنّني لا أعرفهم بعدُ. وربّما سيكونون أعدائي. فأمثال عائلة «باي»[1] في كلّ

(1) عائلة «باي» في رواية سابقة هي أكبر العائلات في آفونلي وأكثرها قبحًا وأذًى.

مكانٍ، وتحت أسماء عديدةٍ، وأنا أعرف حقّ المعرفة أنّه لا ينبغي الاستهانة بعائلة برينغل. سيبدأ عملي غدًا في المدرسة. سوف أدرّس الهندسة الرّياضيّة! وتعليم الهندسة هو على الأقلّ ليس أسوأ من تعلّمها بالتّأكيد. أتضرّع إلى السّماء ألّا يأتيني نوابغ في الرّياضيّات من عائلة برينغل.

لم يمرّ على مجيئي إلى هنا سوى نصف يومٍ، غير أنّي أشعر وكأنّني أعرف الأرملتين وريبيكا ديو منذ أمدٍ بعيدٍ. لم تلبث الأرملتان أن طلبتا منّي مناداتهما «العمّة»، وقد طلبتُ منهما مناداتي «آن». أمّا ريبيكا ديو فقد ناديتها «الآنسة ديو» ... مرّةً واحدةً.

قالت لي: «الآنسة ماذا؟».

أجبتها بوداعةٍ: «ديو. أليس هذا لقبك؟».

«نعم، إنّه كذلك، ولكن لم ينادِني أحدٌ «الآنسة ديو» منذ زمنٍ بعيدٍ، ولقد ذُهلت لسماعه. من الأفضل ألّا تعيدي الكرّة مرّةً أخرى، أيّتها الآنسة شيرلي، فأنا لست متعوّدةً عليه».

قلت لها: «سأتذكّر ذلك جيّدًا، يا ريبيكا ... ديو»، وحاولت جاهدةً أن أستغني عن لقب «ديو»، ولكن دون جدوى.

كانت السّيّدة برادوك على حقٍّ حين قالت إنّ العمّة تشاتي مرهفة الإحساس كثيرًا. اكتشفت ذلك وقت العشاء. كانت العمّة كايت قد روت شيئًا عن «عيد ميلاد تشاتي السّادس والسّتّين». اتّفق حينها أن لحظت العمّة تشاتي، فرأيتها... لا، لم تنفجر بالبكاء. تلك عبارةٌ صادمةٌ جدًّا ولا تعكس أداءها الحقيقيّ. لقد اغرورقت عيناها فقط.

امتلأت تينك العينان الواسعتان والكستنائيّتان بالدّمع، ثمّ فاض من مقلتيها في سكينةٍ ودون جهدٍ.

سألتها العمّة كايت على نحوٍ كالحٍ نسبيًّا: «ما الأمر الآن يا تشاتي؟».

قالت تشاتي: «إنّه ... إنّه فقط عيد ميلادي الخامس والسّتّون».

أجابتها العمّة كايت: «أنا آسفةٌ جدًّا يا شارلوت». وعادت الأمور إلى سالف عهدها مرّةً أخرى.

كان القطّ اللّطيف ذو العينين الذّهبيّتين هرًّا ذكرًا، ويكسوه فروٌ رماديٌّ ناعمٌ لا غبار عليه. تناديه العمّتان كايت وتشاتي «داستي ميلر»، أمّا ريبيكا ديو فتسمّيه «ذلك القطّ» لأنّها كانت تمقت لزوم إعطائه إنشًا مربّعًا من الكبد كلّ صباحٍ وكلّ مساءٍ، وإزالة شعره من فوق أريكة غرفة الاستقبال بفرشاة أسنان قديمة كلّما تسلّل إليها، ومطاردته لإرجاعه إلى البيت حين يبقى خارجًا في اللّيل.

أسرّت لي العمّة تشاتي: «لم تحبّ ريبيكا ديو يومًا القطط، وهي تكره داستي ميلر على وجه الخصوص. كان كلب السّيّدة كامبل العجوز... -وكانت تربّي كلبًا فيما مضى-... قد أحضره بين فكّيه إلى هنا منذ عامين. أظنّ أنّ الكلب لم يكن يرى أيّ فائدةٍ من أخذه إلى السّيّدة كامبل. كم كان مسكينًا وشقيًّا ذلك الهرّ الصّغير! كان مبلّلًا بالكامل ومقرورًا، وكانت عظامه الواهنة تكاد تلتصق وتنتأ من تحت فروه. حتّى أكثر القلوب قسوةً لم تكن قادرةً على رفض إيوائه. فتبنّيناه أنا وكايت، ولكنّ ريبيكا ديو لم تغفر لنا ذلك قطُّ.

لم نحسن التّدبير حينها، وكان علينا أن نرفض إيواءه. لا أعلم إن لاحظتِ..». ثمّ نظرت السّيّدة تشاتي من حولها بحذرٍ في اتّجاه الباب الّذي يفصل غرفة السّفرة عن المطبخ... «لا أعلم إن لاحظتِ كيف نتعامل مع ريبيكا ديو».

لقد لاحظت ذلك بالفعل... وكم كان جميلًا مشاهدة ما يجري. ربّما تعتقد كلّ مدينة سامرسايد وريبيكا ديو نفسها أنّها هي من تسيطر على زمام الأمور، ولكن كان للأرملتين رأيٌ مخالفٌ.

«لم نكن نرغب في قبول المصرفيّ في هذا البيت... فشابٌّ يافعٌ سيكون مثيرًا للقلاقل، وسيساورنا الكثير من القلق إذا ما لم يرتد الكنيسة بانتظامٍ. ولكنّنا تظاهرنا بأنّنا اخترناه هو، ورفضت ريبيكا ديو تمامًا هذا العرض. أنا سعيدةٌ بوجودك هنا يا عزيزتي. أنا متأكّدةٌ أنّك ستكونين شخصًا لطيفًا يمكننا أن نطبخ له. آمل أن نعجبك نحن أيضًا. لريبيكا ديو بعض الميزات الرّائعة. لم تكن مرتّبةً في عملها كما هي الآن حين قدمت منذ خمس عشرة سنةً. ذات مرّةٍ كان على كايت أن تكتب اسمها... «ريبيكا ديو» ... على مرآة الصّالون لتلفت انتباهها إلى الغبار المتكدّس فيه، ولكنّها لم تُعد الكرّة ثانيةً. فريبيكا تفهم من إشارةٍ واحدةٍ. آمل أن تكون غرفتك مريحةً. يمكنك أن تفتحي النّافذة ليلًا. صحيحٌ أنّ كايت لا تحتمل نسيم اللّيل، ولكنّها تعلم جيّدًا أنّ للمقيمين هنا بعضَ الامتيازات. نحن الاثنتان ننام في الغرفة نفسها، واتّفقنا على أن تُغلَق النّافذة لها في ليلةٍ وتُفتح لي في اللّيلة الموالية. يمكن للمرء دائمًا أن يجد تسويةً للمشاكل

من هذا النّوع، ألا تعتقدين ذلك؟ إذا ما صدق العزم وضح السّبيل. لا تجزعي حين ترين ريبيكا ديو تطوف في المكان خلسةً. إنّها كثيرًا ما تسمع أصواتًا في أرجاء المنزل وكثيرًا ما تنهض من فراشها حتّى تتبيّن الأمر. أظنّها رفضت قبول المصرفيّ لهذا السّبب. فقد كانت تخشى أن تصادفه ليلًا وهي في قميص نومها. أتمنّى ألّا يقلقك كثيرًا تحفّظ كايت على الكلام، فتلك طبيعتها. لا شكّ أنّ لها الكثير من الحكايات الّتي يمكن أن ترويها... فقد جابت العالم مع السّيّد أماسا ماك كومر في شبابها. أتمنّى لو كانت عندي مواضيع الحديث الّتي تملكها، ولكنّني لم أغادر يومًا مقاطعة جزيرة الأمير إدوارد. أتساءل دومًا لماذا قُدّرت الأمور على هذا النّحو... أنا الّتي أعشق الحديث ولا موضوع للحديث فيه، وكايت الّتي لديها كلّ شيءٍ وتمقت الكلام. ولكنّني أعتقد أنّ للعناية الإلهيّة حكمتَها».

صحيح أنّ العمّة تشاتي مِهذارةٌ في الكلام، ولكنّها لم تقل لي كلّ ما سبق دون فترات استراحة بين فينةٍ وأخرى. كنت، في الحديث الّذي دار بيننا، قد أقحمت بعض ملاحظاتٍ في فتراتٍ محدّدةٍ، ولكن لم تكن بتلك الأهمّيّة لأذكرها هنا.

كنّ يربّين أيضًا بقرةً ترعى الكَلأَ في مزرعة السّيّد جايمس هاملتون عند أعلى الدّرب، وتذهب ريبيكا إلى هناك لتحلِبها. لدينا ما يكفينا من القشطة، وكنت كلّ صباحٍ ومساءٍ أرى ريبيكا ديو تمرّر من خلال فتحةٍ في الجدار كأسًا من الحليب الطّازج إلى «المرأة» في منزل السّيّدة كامبل. كان الحليب لـ«إليزابيث الصّغيرة» الّتي

عليها تناوله بناءً على أوامر الطّبيب. من تكون تلك المرأة، هذا ما سأكتشفه في القريب العاجل. السّيدة كامبل هي ساكنة تلك القلعة المجاورة ومالكتها... ويسمّى هذا الحصن المنزل «الدّائم الخضرة».

لا أتوقّع أن أنام اللّيلة... لم أنَمْ البتّة طوال اللّيلة الأولى في فراشٍ غريبٍ عنّي، والفراش هنا من أغرب ما رأت عيناي. ولكن لا مانع عندي. فأنا عاشقةٌ للّيل ولا ضَيْرَ في الاستلقاء مستيقظةً هذه اللّيلة والتّفكيرِ بكلّ شيءٍ في هذه الحياة، ماضيها وحاضرها وآتيها. آتيها على وجه الخصوص.

هذه رسالةٌ عديمة الرّحمة يا جيلبرت. لن أسلّط عليك هذا العذاب الطّويل مجدّدًا. أردت فقط أن أخبرك بكلّ شيء، حتّى ترتسم في ذهنك صورة المحيط الجديد الّذي سأعيش فيه. سأنهي رسالتي في الوقت الحاضر لأنّ القمر البعيد هناك وراء المرفأ قد بدأ «ينحسر في أرض الظّلال». مازال عليّ أن أكتب رسالةً أخرى إلى ماريلا. سوف تصل إلى غرين غايبلز في اليوم الّذي يلي الغد، وسيحضرها دايفي من مكتب البريد، وسيتحلّق هو ودورا حول ماريلا عند فتحها الرّسالةَ، وستفتح السّيّدة ليند أذنيها... أوه! هذا يجعلني أحنّ كثيرًا إلى هناك. طابت ليلتك يا عزيزي.

آن، الّتي تحبّك وستحبّك إلى الأبد.

(2)

(مختارات من رسائل عديدةٍ بين المرسل والمرسل إليه نفسيهما)

26 سبتمبر

هل تعرف إلى أين أذهب لقراءة رسائلك؟ إلى الجانب الآخر من الدّرب وسط أجمة الأشجار. هناك يوجد وادٍ صغيرٌ منعزلٌ، ينعطف على طوله جدولٌ صغيرٌ، حيث ترسل الشّمس ألوانها على أوراق السّرخس. هناك أجلس على جذع شجرةٍ أعوج ومكسوٍّ بالطّحلب، قبالة صفٍّ من أجمل شجرات التّامول الّتي تبدو مثل الشّقيقات. وبعد ذلك، وحين يراودني حلمٌ مّا... حلمٌ أخضر مثل الذّهب أو قرمزيٌّ مثل الدّم... الحلم الّذي يختلف عن باقي الأحلام... أمتّع خيالي بفكرة أنّه يأتيني من الوادي السّحريّ الّذي يعبق بشجر التّامول، ويولد من رحم رابطةٍ خفيّةٍ بين أكثر الأشجار الشّقيقات رهافةً ورقّةً وهذا الجدول البديع المترنّم. أحبّ كثيرًا أن أجلس هناك وأصغي إلى سكون هذه الأيكة من الأشجار. هل لاحظت يا جيلبرت كم هي مختلفةٌ تلك الأنواع من السّكون؟ سكون الغابة... والشّاطئ... والمروج... واللّيل... وأماسيّ الصّيف. كلّها مختلفةٌ لأنّ النّغمات الخفيفة والفروق الدّقيقة الّتي

تُنسج منها مختلفةٌ. أكاد أجزم أنّني حتّى لو كنت لا أرى شيئًا ولا أحسّ بالحرّ والبرد، فإنّني سأعرف وبسهولةٍ المكان الّذي أنا فيه، وذلك بالتّعرّف على نوع السّكون الّذي يكتنفني.

لقد بدأت التّدريس منذ أسبوعَين، وكلّ أمتعتي وشؤوني مرتّبةٌ على نحوٍ جيّدٍ الآن. ولكنّ السّيّدة برادوك كانت على حقٍّ... مشكلتي هي عائلة برينغل. وإلى حدّ الآن لا يمكنني أن أعرف بالضّبط الطّريق إلى حلّها، رغم وجود عشبات البرسيم الجالبة للحظّ. وكما قالت السّيّدة برادوك، هم ناعمون مثل القشطة تمامًا... وزلقون مثلها أيضًا.

عائلة برينغل هم من نوع العشيرة الّتي لا يكفّ أفرادها عن مراقبة بعضهم بعضًا، والعراك فيما بينهم أحيانًا، ولكنّهم يتكاتفون ويقفون جنبًا إلى جنبٍ حين يتعلّق الأمر بدخيلٍ عليهم. وقد توصّلت إلى استنتاج وجودِ نوعَين من النّاس في سامرسايد... أولئك الّذين ينتمون إلى عشيرة برينغل، والآخرين الّذين لا ينتمون إليها.

يعجّ الصّفّ الّذي أدرّسه بطلّابٍ كثيرين من عائلة برينغل، وبعددٍ آخر من التّلاميذ الّذين يحملون لقبًا مغايرًا ولكنّ دماء برينغل تجري في عروقهم. يبدو أنّ رئيسة العصابة هي جان برينغل، بنتٌ مزعجةٌ ذات عينين خضراوين، ولا شكّ أنّ بيكي *شارب*[1] كانت تشبهها حين كانت في الرّابعة عشرة من عمرها. أعتقد أنّها

(1) بطلة الرّواية الشّهيرة *سوق الأباطيل* (Vanity Fair)، لصاحبها وليام ثاكري.

بصدد تنظيم حملةٍ مدبَّرةٍ وغير معلنةٍ من العصيان وعدم الاحترام، وسيكون من العسير عليّ التّصدّي لها. فهي تملك موهبةً غريبةً في رسم تعابير هزليّةٍ على وجهها لا تقاوم، وعندما تتناهى إلى مسامعي موجاتٌ من الضّحك المكتوم تسري في أرجاء قاعة التّدريس خلف ظهري، أكون على يقين تامٍّ بأنّها هي الّتي سبّبتها، ولكنّني لم أستطع إلى حدّ الآن الإمساك بها متلبّسةً. كانت متّقدة الذّكاء أيضًا... تلك الشّقيّة! فهي قادرةٌ على إنشاء إنتاجاتٍ كتابيّةٍ بأسلوبٍ يقرب من الأدبيّ، وهي أيضًا بارعةٌ في الرّياضيّات... يا لَشقائي! هناك *شرارةٌ* مّا في كلّ شيءٍ تقوله أو تفعله، وفي وضعيّاتٍ مضحكةٍ كثيرةٍ لها حسٌّ فكاهيٌّ كان يمكن أن يكون فاتحة صلة تقاربٍ بيننا، لو لا أنّها بدأت بمناصبتي العداءَ والكراهيةَ. إذا ما بقيت الأمور على حالها، فسيمرّ وقتٌ طويلٌ جدًّا قبل أن نضحك *معًا* على أيّ شيءٍ.

أمّا ميرا برينغل، وهي ابنة عمّ جان، فكانت حسناء المدرسة... ويبدو أنّها بلهاء أيضًا. يحدث أن ترتكب ميرا أحيانًا بعض هفواتٍ مسلّيةٍ... من قبيل ما قالته اليوم في درس التّاريخ عن الهنود الّذي كانوا يعتقدون حسب رأيها أنّ شامبلان[1] ورجاله كانوا آلهةً أو «أشياء غير آدميّة».

عائلة برينغل هي من النّاحية الاجتماعيّة ما تسمّيه ريبيكا ديو «نوخبة» سامرسايد. كنتُ قد دُعيت مرّتين إلى العشاء عند آل برينغل... لأنّ من اللّباقة أن تُدعَى المدرّسة الجديدة للعشاء، وعائلة

(1) صمويل دو شامبلان هو مستوطن ومستكشف ومؤرّخ فرنسي، أسّس كيبك وفرنسا الجديدة في 1608. وهو شخصية مهمّة في التّاريخ الكندي.

برينغل لن تتخلّى أبدًا عن عاداتها الحميدة. كنت البارحة ضيفة جايمس برينغل... والد جان الّتي سبقت الإشارة إليها. كان يبدو وكأنّه بروفيسور في الجامعة، ولكنّه في الحقيقة تافهٌ وجاهلٌ. تحدّث بإسهابٍ عن *الانضباط* وهو ينقر حينًا على مفرش الطّاولة بإصبع كشف عن ظُفرٍ غير خالٍ من العيوب، أو يظلّ ينكّل بقواعد اللّغة والنّحو أحيانًا أخرى حين يتكلّم. دائما ما طلبَت مدرسة سامرسايد الثّانويّة قبضةً قويّةً وحازمةً... أي مدرّسًا ذا خبرةٍ، ويفضَّل أن يكون رجلًا. كان السّيّد برينغل يخشى أن أكون مدرّسةً صغيرةً *جدًّا* في السّنّ... قائلًا بتحسّرٍ إنّها «غلطةٌ سيصحّحها الزّمن سريعًا جدًّا». لم أردّ على قوله بأيّ شيءٍ، لأنّني لو أنطق بشيءٍ فربّما أقول الكثير. لذلك كنت ناعمةً مثل القشطة كأيّ فردٍ من أفراد عائلة برينغل في مثل هذه المواقف، واكتفيت بالنّظر إليه على نحو رائقٍ وأنا أقول في قرارة نفسي: «أيّها العجوز المتعجرف والمتحامل!».

لا ريب في أنّ جان قد ورثت فطنتها عن أمّها... الّتي أثارت في الحقيقة إعجابي. كانت جان في حضور والديها مثالًا للأدب واللّباقة. ولكن رغم كياسة ألفاظها، كانت نبرتها في غاية الوقاحة. وكلّما نطقت بعبارة «الآنسة شيرلي» ابتدعت نغمةً أقرب إلى الشّتيمة. وكلّما نظرَت إلى شعري، خُيّل لي أنّه أصهب في لون الجزر. لا أحد من عشيرة برينغل –وأنا متأكّدة من ذلك– يمكنه أن يعترف بأنّ شعري أصحر[1] في لون الكميت.

---

(1) في لونه حمرة خفيفة.

أحببت أسرة مورتن برينغل أكثر من البقيّة... رغم أنّ مورتن برينغل لا يصغي في الحقيقة لأيّ شيءٍ تريد قوله. يخبرك بشيءٍ، ثمّ وأنت بصدد إجابته، ينشغل بالتّفكير في تعليقه التّالي.

البارحة، كتبَت إليّ زوجة السّيّد ستيفن برينغل... وهي أرملة عشيرة برينغل... وما أكثر الأرامل في سامرسايد... رسالةً... رسالةً لطيفةً ومؤدّبةً ولكنّها مسمومةٌ. قالت إنّ لدى ميلي واجباتٍ منزليّةً كثيرةً... وميلي طفلةٌ رقيقةٌ لا ينبغي إجهادها بالعمل. لم يعطها السّيّد «بال» *يومًا* فرضًا تنجزه في المنزل. هي فتاةٌ حسّاسةٌ، وعلى الجميع *تفهّمها*. السّيّد «بال» يفهمها جيّدًا! والسّيّدة ستيفن برينغل متأكّدةٌ أنّني سأفهمها أيضًا، إذا ما حاولتُ ذلك!

لا أشكّ لحظةً في أنّ أرملة ستيفن برينغل تعتقد أنّني أنا من جعلت أنف آدم برينغل ينزف في حصّة اليوم، ممّا أجبره على العودة إلى منزله. ثمّ إنّني أفقت ليلة البارحة ولم أعد إلى النّوم مجدّدًا، لأنّني تذكّرت حرفًا لم أضع نقطةً عليه في سؤالٍ كتبته على السّبّورة. أنا متأكّدةٌ أنّ جان قد فطنت إلى ذلك وأنّ الخبر سيسري بسرعةٍ في أوساط العشيرة.

قالت لي ريبيكا ديو إنّ كلّ أفراد عشيرة برينغل سيدعونني للعشاء، ما عدا العجوزين في مزرعة مابلهيرست، ثمّ سيتجاهلونني إثرها وإلى الأبد. وبما أنّهم «النّوخبة»، فيمكن أن يعني ذلك أنّني ربّما سأصبح شخصًا غير مرغوبٍ فيه بسامرسايد. حسنًا، سوف نرى. المعركة مستمرّةٌ ولا فائز فيها ولا خاسر إلى حدّ هذه اللّحظة.

ورغم هذا، أشعر بالتّعاسة جرّاء ذلك. لا يمكنك أن تجادل شخصًا حجبت عنه الأحكامُ المسبقةُ الحقيقةَ. وأنا مازلتُ كما عهدتُ نفسي في زمن الطّفولة... لا أقدر على تحمّل كره النّاس لي. من المؤلم أن تشعر بأنّ عائلات نصف طلّابك تمقتك، ودون أن أكون سببًا في ذلك. يُقِضّ هذا *الإجحاف* مضجعي. إليك أحرفًا مائلةً أخرى! فالكتابة بأحرفٍ مائلةٍ تخفّف من وقع هذا الشّعور بالحيف.

بعيدًا عن عشيرة برينغل، أنا أحبّ طلّابي في المدرسة كثيرًا. فمنهم من هو نبيهٌ وطموحٌ ونشيطٌ في عمله، ويهمّه كثيرًا أن يتعلّم. يدفع لويس آلان مثلًا ثمن إعاشته من خلال القيام بأعمالٍ منزليّةٍ في مكان إقامته، ولا يستحي من ذلك مطلقًا. بينما تمتطي صوفي سينكلار، دون صهوةٍ، ظهر فرس أبيها الهرمة والرّماديّة، وذلك لمسافة ستّة أميالٍ كلّ يومٍ. يا لها من شجاعةٍ! هل مازلت سأفكّر في عائلة برينغل إذا ما استطعت مساعدة طفلة مثل هذه؟

المعضلة هي أنّه... إذا لم أنجح في جعل عشيرة برينغل في صفّي، فلن تكون لديّ الفرصة لمساعدة أيٍّ كان.

ولكنّي أهيم بعزبة الصّفصاف. إنّها ليست لوكاندة... بل هي موطنٌ لي! وهم يحبّونني هنا... حتّى القطّ داستي ميلر يحبّني، بالرّغم من أنّه في بعض الأحيان يستنكر وجودي، ويُظهر ذلك بالجلوس قصدًا وهو يدير نحوي ظهره، ثمّ يرمقني عَرَضًا من فوق كتفه بإحدى عينيه الذّهبيّتين ليرى ردّ فعلي. لا أداعبه كثيرًا حين تكون ريبيكا ديو في الجوار، لأنّ ذلك يعكّر صفوها فعلًا.

هو في النّهار حيوانٌ بَيْتيٌّ مريحٌ وكثير التّأمّل... ولكنّه قَطعًا مخلوقٌ غريب الأطوار في اللّيل. قالت لي ريبيكا ذلك لأنّه لا يُسمح له بالبقاء خارجًا حين يحلّ الظّلام. إنّها تكره أن تقف في الفناء الخلفيّ لتناديه. قالت إنّ الجيران جميعهم سيسخرون منها. فهي تناديه دومًا بصوتٍ شرسٍ وجهوريٍّ يكاد يُسمع في كلّ أرجاء المدينة في ليلةٍ هادئةٍ، وهي تصيح «بش... بش ... بش»! إذا ما أوت الأرملتان إلى فراشيهما وعلمتا أنّ داستي ميلر بقي خارج المنزل فستعتريهما نوبةٌ هستيريّةٌ. أكّدت لي ريبيكا أنّه «ما من أحدٍ يعلم قدر المتاعب الّتي واجهتها بسبب ذلك القطّ... النّكرة».

يأبى طول الدّهر أن يترك أثره على الأرملتين، فيزداد حبّي لهما يومًا بعد يومٍ. لا تعتقد العمّة كايت في قراءة الرّوايات، ولكنّها أعلمتني أنّها لن تقترح مراقبة ما أقرأ من كتبٍ. أمّا العمّة تشاتي فكانت مولعةً بقراءة القصص، ولها مخبأٌ تضعها فيه... وتعمل على تهريب الكتب من مكتبة المدينة وإليها... صحبة علبة من الورق للعب السوليتار، أو أيّ شيءٍ آخر تكره أن تراه كايت. لقد كان المخبأ في مقعدةِ كرسيٍّ لا يعلم أحدٌ أنّها في الحقيقة أكثر من أن تكون كذلك. كانت قد باحت لي بسرّها، لا لشيءٍ إلّا لأنّها تريدني أن أتواطأ معها وأحرّضها على عمليّة التّهريب الّتي أشرتُ إليها. لا حاجة فعلًا إلى مخابئ في عزبة الصّفصاف، لأنّني لم أرَ في حياتي منزلًا يحتوي على هذا العدد من الدّواليب الغامضة. ولكنّني متأكّدة أنّ ريبيكا ديو لن تجعلها تبدو غامضة، فهي تنظّفها دائمًا بكلّ ضراوة. «لن يُنظّف المنزل نفسه بنفسه»، هكذا كانت تقول بكلّ حزنٍ كلّما اعترضت

إحدى الأرملتين على ذلك. أكاد أزعم أنّها ستتخلّص بسرعةٍ من أيّ روايةٍ أو لعبة ورق ستجدها. فذلك يُفزع روحها الحنيفة والقويمة. كانت ريبيكا ديو دائمًا تردّد أنّ أوراق اللّعب هي كتب إبليس، وأمّا الرّوايات فهي ألعن من ذلك. الشّيء الوحيد الّذي تتصفّحه ريبيكا، إلى جانب الإنجيل، هو أعمدة الصّفحة الاجتماعيّة في صحيفة الغارديان بمونتريال. فهي مولعةٌ بتأمّل قصور المليونيرات وأثاثهم وتصرّفاتهم.

قالت لي بنبرةٍ حزينةٍ: «فقط تخيّلي، أيّتها الآنسة شيرلي، الانغماس في حوض استحمامٍ من الذّهب».

ولكنّها في مقابل ذلك امرأةٌ في غاية الحنان. لقد جلبَت من حيث لا أعلم كرسيًّا مجنّحًا مُريحًا، وموشًّى بقطيفةٍ شاحبة اللّون. كان يليق تمامًا بنزواتي. قالت لي ريبيكا ديو: «إنّه كرسيّك. خذيه، فهو لك». لم تكن تدعُ داستي ميلر ينام فوقه، خشية أن يلتصق بعض شعره بتنّورة المدرسة فيُفسَح المجال لآل برينغل للتّندّر بذلك.

كنّ ثلاثتهم مهتمّاتٍ كثيرًا بخاتمي المرصّع بالجواهر... وبما يعنيه ذلك. أرتني العمّة كايت خاتم خطوبتها (لا يمكنها أن تلبسه الآن لأنّه أضحى أصغر من إصبعها) المرصّع بأحجار الفيروز. ولكنّ المسكينة العمّة تشاتي اعترفت لي والدّموع في عينيها أنّها لم تحظ في شبابها بخاتم خطوبة... لقد ارتأى زوجها أنّه من «النّفقات غير الضّروريّة». كانت حينها في غرفتي تحمّم وجهها وتدهنه بلبن مَخيضٍ. هي تفعل ذلك كلّ ليلةٍ حتّى تحافظ على نقاء بشرتها،

وجعلتني أقسم على عدم البوح بسرّها، لأنّها لم تكن ترغب في أن يكون لكايت علمٌ بذلك.

«ستعتقد أنّه تبرّجٌ لا طائل منه لعجوزٍ في مثل سنّي. وأنا متأكّدةٌ أنّ ريبيكا ديو تؤمن بأنّه لا يجوز للنّساء المسيحيّات السّعيُ إلى أن يكنّ جميلات. كنت دائمًا أتسلّل إلى المطبخ في الطّابق الأسفل لأفعل ذلك عندما تخلد كايت إلى النّوم، ولكنّي كنت أخاف مجيء ريبيكا ديو إلى المطبخ. فلها أُذُنَا قطٍّ حتّى وإن كانت تغطّ في نومٍ عميقٍ. كم أتمنّى أن آتي إلى هنا كلّ ليلة لأتجمّل... آه، شكرًا يا عزيزتي».

اكتشفتُ بعض الأشياء بشأن جيراننا في المنزل «الدّائم الخضرة». تبلغ السّيّدة كامبل (والّتي كانت قبل زواجها تحمل لقب برينغل!) ثمانين حَوْلًا. لم أرها إلى حدّ الآن، ولكنّي سمعت رواياتٍ عن كونها عجوزًا مقيتةً. لها خادمةٌ تدعى مارثا مونكمان، تضاهي السّيّدة كامبل تجهّمًا وعُبوسًا، ويشار إليها عادةً بـ»امرأة السّيّدة كامبل». وكانت لها أيضًا ابنة حفيدة تعيش معها، وتدعى إليزابيث غرايسن. تبلغ إليزابيث... الّتي لم يقع نظري عليها البتّة بالرّغم من إقامتي هنا منذ أسبوعين... ثمانيةَ أعوامٍ، وتذهب إلى المدرسة الحكوميّة عبر «الطّريق الخلفيّة»... وهي طريقٌ مختصرةٌ تشقّ السّاحات الخلفيّة للقلعة... لذلك لم ألتقِ بها يومًا، سواء عند الذّهاب أو الإياب. كانت أمّها الّتي ماتت منذ زمنٍ حفيدةَ السّيّدة كامبل، والّتي كانت قد ربّتها كذلك... بعد موت أبويها. كانت الأمّ قد تزوّجت من شخصٍ يُدعى بيرس غرايسن، «يانكيّ» كما تقول السّيّدة رايشل ليند. ثمّ ماتت عندما

وضعت مولودها الجديد إليزابيث، وغادر بيرس غرايسن أمريكا على الفور للإشراف على فرعٍ من أعمال شركته في باريس، وأرسلت الرّضيعة إلى السّيّدة كامبل العجوز. تقول القصّة إنّه «لم يتحمّل رؤية ابنته» لأنّ ولادتها أودت بحياة أمّها، وأنّه لم يسعَ قَطُّ إلى تتبّع أخبارها. هذه طبعًا مجرّد إشاعةٍ، لأنّه لا السّيّدة كامبل ولا فتاتها فتحت فاها للحديث عنه.

أخبرتني ريبيكا ديو أنّهما صارمتان جدًّا مع الطّفلة إليزابيث، ممّا جعلها تعيسةً معهما.

«إنّها لا تشبه الأطفال الآخرين... تبدو كبيرة السّنّ مقارنةً بفتاة مثلها في الثّامنة من عمرها. غريبة هي الأشياء الّتي تقولها أحيانًا! قالت لي ذات يوم: "ريبيكا، تخيّلي أنّه في الوقت الّذي تأوين فيه إلى فراشك يقرص أحدهم كاحلك". لا شكّ أنّها تخاف من الذّهاب إلى النّوم في الظّلام. وهما تجبرانها على فعل ذلك. تقول السّيّدة كامبل إنّها لن تسمح بوجود جبناء في منزلها. إنّهما تراقبانها مثل قطّتين تترصّدان فأرًا، وتستبدّان بها حتّى نغّصتا عليها حياتها. حين تُحدث أقلّ جلبة يكاد يغمى عليهما. "صه، صه" كلّ الوقت. يمكن أن أقول لك إنّهما يسكتانها حدّ الموت. وماذا عسانا أن نفعل بشأنها؟».

بالفعل، ماذا يمكننا أن نفعل؟

أشعر برغبةٍ جامحةٍ في رؤيتها. تبدو لي شجيّةً وحزينةً. قالت العمّة كايت إنّهما تعتنيان بها جيّدًا من النّاحية المادّيّة... وما تريد

العمّة كايت قوله هو إنّهما «تطعمانها جيّدًا وتحافظان على حسن هندامها». ... ولكن، لا يمكن لطفلٍ أن يعيش فقط ليأكل ويلبس. لا يمكنني أن أنسى أبدًا كيف كانت حياتي قبل أن أنتقل للعيش في غرين غايبلز.

سأعود إلى الدّيار مساء الجمعة القادم لقضاء يومين رائعين في آفونلي. المشكلة الوحيدة هي أنّ الجميع سيسألونني عن رأيي في تجربة التّدريس بسامرسايد.

ولكن تخيّل غرين غايبلز الآن يا جيلبرت... «بحيرة المياه المتلألئة» ومسحةٌ من الضّباب الأزرق تعلوها... أشجار القيقب في النّاحية الأخرى من الجدول وقد بدأ لونها يميل إلى الأرجوانيّ... ذلك اللّون القسطليّ المذهّب للسّراخس في «الغابة المسكونة»... وظلال المغيب في «درب الحبّ»، ذلك المكان هو قرّة عيني. أتمنّى من كلّ قلبي لو كنت مع... مع... احزر مع مَن؟

هل تعلم يا جيلبرت، تمرّ عليّ أوقاتٌ أشكّ فيها بشدّةٍ أنّي أحبّك!

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

سامرسايد،

10 أكتوبر

«سيّدي المبجّل والمحترم»:

هكذا كانت تستهلّ جدّة العمّة تشاتي رسائل حبّها إلى زوجها. أليس ذلك عذبًا؟ عليك أن تتخيّل النّشوة والحظوة الّتي كانت تبعثها مثل هذه الكلمات في نفس الجدّ! ألا تفضّلها على «عزيزي جيلبرت، إلخ».؟ ولكن على العموم، أنا سعيدةٌ لأنّك لست الجدّ الّذي أتحدّث عنه... أو فقط لأنّك لست *جدًّا*. من الرّائع أن نشعر أنّنا في ريعان شبابنا والحياة بأسرها أمامنا... *سويًّا*... أليس ذلك صحيحًا؟

(وقع حذف بضع صفحاتٍ، لأنّ قلم آن لم يكن مسنّنًا ولم يكن أبتر ولم يكن صدئًا).

أنا جالسة الآن على المقعد المحاذي لنافذة البرج، أتأمّل الأشجار في الخارج وهي تتموّج قبالة السّماء الّتي اتّشحت بلون العنبر، وأمتّع ناظريّ بجمال المرفإ خلفها. في اللّيلة الماضية قمت بنزهةٍ رائقةٍ وحدي. كان عليّ أن أنطلق إلى مكان مّا لأنّ عزبة الصّفصاف تدثّرت وقتئذٍ بشيءٍ الكآبة. كانت العمّة تشاتي تغالب الدّمع في حجرة الجلوس لأنّ مشاعرها قد خُدشت مرّةً أخرى، وكانت العمّة كايت تبكي أيضًا في غرفة النّوم لأنّ اليوم كان ذكرى وفاة الرّيّس أماسا، أمّا ريبيكا ديو فكانت تنتحب في المطبخ لسببٍ لم أستطع كشفه. لم أرَ البتّة ريبيكا ديو تبكي من قبلُ. ولكن حين حاولت بلباقةٍ معرفةَ السّبب، نهرتني بعصبيّةٍ وقالت ألا يمكن لأحدٍ أن يهنأ بنوبة بكاءٍ حين يريد ذلك. فجمعت أمتعتي وتسلّلت إلى خارج المنزل تاركةً إيّاها تتلذّذ متعتها.

خرجتُ ومشيت في الطّريق المنحدرة نحو المرفإ. كان المكان يعبق برائحةٍ صقيعيّةٍ و*أكتوبريّةٍ* عطرةٍ، امتزجت بشذا الحقول المحروثة حديثًا. واصلتُ السّير إلى أن بات الشّفق ليلًا خريفيًّا يضيئه نور القمر. كنت بمفردي ولكنّني لم أكن وحيدةً. تبادلتُ أطراف حديثٍ من وحي الخيال مع رفقاء خياليّين، وابتدعت عددًا من الحِكم السّاخرة ممّا جعلني أسرّ وأندهش من نفسي. لم يمنعني جَزَعي من عشيرة برينغل من الاستمتاع بوقتي في تلك اللّحظة.

دفعتني هذه الحالة من النّشوة إلى العواء والصّراخ في ضربٍ من الاحتجاج على عائلة برينغل. أكره أن أعترف بذلك، ولكنّ الأمور لا تسير على ما يرام في مدرسة سامرسايد. لا شكّ في أنّ مكيدةً مّا تُحاك ضدّي هناك.

أوّل همومي هو أن لا أحدَ من أفراد عائلة برينغل وأشباه عائلة برينغل أنجز حتّى الآن الفرض المنزليّ. ولا رجاء في مناشدة العون من أوليائهم. فهم دمثو الأخلاق ومؤدّبون، ولكنّهم مراوغون بارعون. أنا أعرف كلّ التّلاميذ الّذين لا ينتمون مثلي إلى هذه العشيرة، ولكنّ داء العصيان لدى آل برينغل بدأ ينتشر ويقوّض معنويّات الفصل كلّه. ذات صباحٍ وجدت مكتبي مقلوبًا رأسًا على عقبٍ، ولا أحد يعلم مَن فعل ذلك، بطبيعة الحال. ولا أحد أخبرني أو أراد إخباري في يومٍ آخر مَن الطّالب الّذي ترك صندوقًا انبجس منه رأس أفعى زائفةٍ عندما فتحته. كلّ برينغل في هذه المدرسة يصرخ ضحكًا كلّما رأى وجهي، وأفترض أنّني أبدو حينها كمَن ينكص فزعًا.

تأتي جان برينغل في نصف الأوقات متأخّرةً عن الدّرس، وفي جعبتها دائمًا عذرٌ لا جدال معه، تقدّمه لي بكلّ أدبٍ، ولكن مصحوبًا بتلك الإمالة الوقحة لفمها. ثمّ إنّها تمرّر داخل الفصل أوراقًا لزميلاتها تحت سمعي وبصري، وقد عثرتُ على بصلةٍ مقشّرةٍ في جيب معطفي حين ارتديته اليوم. كم بودّي أن أحبس تلك الفتاة وأطعمها خبزًا وماءً فقط إلى أن تتهذّب في تصرّفاتها.

أسوأ شيءٍ حصل لي إلى حدّ الآن هو العثور على كاريكاتور لي على السّبّورة السّوداء ذات صباحٍ... رُسم بطبشورٍ أبيض وشعري باللّون *القرمزيّ*. أنكروا جميعهم هذه الفعلة، جان والبقيّة، ولكنّني كنت أعلم أنّها هي الوحيدة في الصّفّ الّتي يمكنها التّصوير على ذلك النّحو. لقد كان رسمًا متقنًا. أنفي... الّذي كان، كما تعلم، مصدرَ فخري وبهجتي الوحيد دائمًا... كان معقوفًا. وفمي يشبه فم تلك العانس النّكدة الّتي درّست فصلًا يعجّ بتلاميذ من عشيرة برينغل مدّةَ ثلاثين عامًا. ولكنّ ذلك الرّسم كان يشبهني جدًّا. أفقت على السّاعة الثّالثة تلك اللّيلة وأخذت أتقلّب وأتلوّى من ذكرى تلك الصّورة. أليس من الغريب أنّ الأشياء الّتي تقضّ مضاجعنا في اللّيل نادرًا ما تكون الأشياء الحقيرة؟ فقط تلك المهينة منها.

لقد حِيكَتْ عنّي كلّ أنواع القصص والإشاعات. اتُّهِمتُ «بالتّخفيض» في أعداد أوراق الامتحان الخاصّة بهاتي برينغل، فقط لأنّها تنتمي إلى هذه العائلة. قيل أيضًا إنّني «أتهكّم على الصّغار حين يرتكبون أخطاء في الفصل». (في الحقيقة ضحكتُ مرّةً حين عرّف

فريد برينغل «السينتوريون»[1] بأنّه «رجلٌ عاش مدّة مائة عامٍ». لم أقدر على تمالك نفسي).

لم يكفّ جايمس برينغل عن القول: «لا يوجد انضباطٌ في المدرسة... ليست هناك ذرّة انضباطٍ». وتسري في المدرسة إشاعةٌ بأنّني طفلةٌ لقيطةٌ.

بدأتُ أيضًا أواجه عداء عائلة برينغل في مواضع أخرى. إذ يبدو أنّ مدينة سامرسايد تخضع بالكامل من النّاحية الاجتماعيّة والتّعليميّة لهذه العشيرة. فلا عجب أن يسمّيهم النّاس هنا العائلة الملكيّة. لم أُدْعَ إلى الفسحة على الأقدام الّتي نظّمتها أليس برينغل يوم الجمعة الفارط. وعندما أقامت زوجة السّيّد فرانك برينغل حفلةَ شايٍ لمؤازرة مشروعٍ للكنيسة (أخبرتني ريبيكا ديو أنّ السّيّدات يعتزمن «تشييد» برج جرس للكنيسة!)، كنتُ الفتاة الوحيدة في الكنيسة المشيخيّة الّتي لم يُطلب منها الجلوس إلى الطّاولة. سمعتُ أيضًا أنّ زوجة القسّيس، الّذي لم يمض الكثير على قدومه إلى سامرسايد، اقترحتني للغناء ضمن جوقة المنشدات، ولكنّها علمت أنّ كلّ المنشدات هنّ من عائلة برينغل وسيتركن الجوقة إذا ما انضممت إليها. كان ذلك سيحدث فراغًا كبيرًا لا يمكن للجوقة تحمّله.

بطبيعة الحال، لست الوحيدة من بين المدرّسين الّذين لهم بعض المشاكل مع الطّلّاب. عندما يرسلون إليّ تلاميذهم «لتأديبهم»...

---

(1) قائد رومانيّ معناه باللّاتينيّة «قائد المائة».

كم أكره هذه الكلمة!... بكون نصفهم من آل برينغل. ولكن لا تشكّيات البتّة من المعلّمين الآخرين.

احتفظتُ منذ يومين بجان برينغل بعد الدّروس المسائيّة لتنجز بعض الفروض الّتي أهملتها عمدًا. لم تمضِ عشر دقائق حتّى توقّفت عربةٌ قادمةٌ من مزرعة مابلهيرست أمام مبنى المدرسة ونزلت منها الآنسة إلين... امرأةٌ عجوزٌ متأنّقة اللّباس وعذبة الابتسامة، لها أنفٌ دقيقٌ ومعقّفٌ مثل الصّقر، وتلبس في يديها قفّازين من الدّانتيلا. كانت تبدو وكأنّها خرجت من صندوقٍ للألبسة يعود إلى الأربعينيّات من القرن التّاسع عشر. عبّرت عن أسفها الشّديد وسألتني عمّا إذا كان بالإمكان أخذ جان معها، فهي تعتزم زيارة صديقاتٍ لها في لوفيل ووعدت جان باصطحابها. غادرت جان المدرسة وعلامات النّصر باديةٌ على وجهها، وأدركتُ مجدّدًا كنه القوى الّتي تتحالف ضدّي.

كنت في أكثر أمزجتي تشاؤمًا أرى عشيرة برينغل خليطًا من عائلة «سلون» وعائلة «باي»[1]. ولكنّني أعلم أنهّم ليسوا كذلك. أشعر بإمكان استلطافهم لو لم يناصبوني العداء، فهم في أغلب الأحيان أناسٌ صادقون وظرفاء ومخلصون. يمكنني حتّى أن أحبّ السّيّدة إلين. ولكنّني لم أحظَ قطّ بمعرفة السّيّدة سارّة، فهي لم تبرح مزرعة مابلهيرست منذ عشر سنين.

(1) عائلتا «سلون» و«باي» من العائلات الكبيرة والبغيضة في آفونلي.

قالت لي ريبيكا ديو في ازدراءٍ: «رقيقةٌ ومرهفةٌ جدًّا... أو هكذا يُخيّل إليها. ولكنّ الأمر لا يتعلّق بكبريائها، فكلّ العشيرة مفاخرون متشامخون، ولكنّ هاتين الآنستين العجوزين قد تجاوزتا كلّ الحدود. عليك أن تنصتي إليهما حين تتحدّثان عن أجدادهما وأسلافهما. الحقيقة أنّ أباهما العجوز، القبطان أبراهام برينغل، كان رجلًا في غاية اللّطف، أمّا أخوه «مايروم» فلم يكن لطيفًا جدًّا، ولن تسمعي عائلة برينغل تتحدّث عنه كثيرًا. أخشى كثيرًا أن يتمادوا جميعهم في مضايقتك. فهم حينما يحسمون أمرهم بشأن شخص مّا، من المحال ثنيُهم عن ذلك. ولكن أَبقي على هامتك مرفوعةً أيّتها الآنسة شيرلي... احتفظي بهدوئك في الأوقات العصيبة».

تنهّدت العمّة تشاتي قائلة: «أتمنّى لو أحصل على وصفة إعداد الكعكة الإسفنجيّة[1] للسّيّدة إلين. لقد وعدتني بها مرارًا عديدةً، دون أن تصلني منها. إنّها وصفةٌ إنجليزيّةٌ تختصّ بها العائلة منذ قديم الزّمان، وهم يستأثرون كثيرًا بوصفاتهم ويمنعونها عن الآخرين».

في أكثر أحلامي الورديّة والجامحة أراني أُرغم السّيّدة إلين على تسليم تلك الوصفة إلى العمّة تشاتي، وهي جاثيةٌ على ركبتيها، ثمّ ألتفت إلى جان برينغل وأوبّخها على ألفاظها وأفعالها. الشّيء الّذي يثير سخطي هو أنّني قادرةٌ وبسهولةٍ على ذلك بنفسي لو لم تجتمع عليّ العشيرة كلّها وتساندُها في أفعالها الشّرّيرة.

---

(1) كعكة تقليديّة التّحضير، وتسمّى أيضا الكعكة الرّطليّة لأنّ فيها رطلا من كلّ مكوّن للوصفة.

(حذفت صفحتان).

«خادمتك المطيعة»

آن شيرلي

ملاحظة: هكذا كانت جدّة العمّة تشاتي تختم رسائل الحبّ.

15 أكتوبر

سمعنا اليوم أنّ سرقةً حصلت ليلة أمس. إذ اقتُحِم منزلٌ في النّاحية الأخرى من المدينة وسُرق مبلغٌ من المال ودزينة من الملاعق الفضّيّة. وعلى هذا الأساس ذهبت ريبيكا ديو إلى منزل السّيّد هاملتون لترى إذا ما كانت تستطيع استعارة كلبٍ لتربطه في الفراندة الخلفيّة. ونصحتني بوضع خاتم خطبتي في مكان مّا وإحكام إغلاقه!

بالمناسبة، عرفتُ سبب بكاء ريبيكا ديو في تلك المرّة. يبدو أنّ الأمر يتعلّق ببعض التّشنّج العائليّ. لقد أساء داستي ميلر «التّصرّف» مرّةً أخرى ولم يعد إلى البيت، وقالت ريبيكا ديو للعمّة كايت إنّه عليها فعل شيءٍ بشأن ذلك القطّ الّذي أفقدها أعصابها. كانت تلك المرّة الثّالثة في هذا العام، وكانت تعلم أنّه فعلها متعمّدًا. أجابتها العمّة كايت بأنّها لو سمحت للقطّ بالخروج كلّما أخذ في المواء لما كان هناك خطرٌ عليه ولا خوفٌ من إساءته التّصرّف.

قالت ريبيكا ديو: «حسنًا، لقد طفح الكيل».

ثمّ تبعتها أنهارٌ من الدّموع!

يزداد الوضع مع عائلة برينغل حدّةً وتعقيدًا كلّ أسبوع. كُتبت البارحة ألفاظٌ بذيئةٌ على أحد كتبي، وتشقلب هومر برينغل على يديه طوال الممشى وهو يغادر المدرسة. تلقّيت أيضًا رسالةً مجهولة المصدر ومليئةً بإساءاتٍ مبطّنةٍ بغيضةٍ. لا يمكنني اتّهام جان بتلك الفظاعات هذه المرّة، فرغم أنّها عفريتة، توجد أشياء منحطّة لا يمكن أن تنزل إليها. استشاطت ريبيكا ديو غضبًا، وانتابتني قشعريرةٌ حين جال بخاطري ما يمكن أن تفعله بعائلة برينغل إذا ما أحكمت القبضة على أحدهم. حتّى ما تمنّاه نيرون في أسوإ تهيّؤاته لا يقارن بذلك. أنا لا أؤاخذها على ذلك، إذ يحصل أن أشعر أنّني أنا أيضًا قادرةٌ، وبكلّ ابتهاجٍ، على تقديم شرابٍ مسمومٍ خمّره آل بورجيا[1].

لا أعتقد أنّني أخبرتك الكثير عن المدرّسين الآخرين. هناك اثنان منهم، كاثرين بروك في فصل المبتدئين، وهي نائبة النّاظرة، وجورج ماكاي في الفصل التّحضيريّ. لا يوجد حديثٌ كثيرٌ يمكن قوله عن جورج. فهو شابٌّ خجولٌ وسهل المراس، يبلغ من العمر عشرين سنةً. لديه لكنةٌ خفيفةٌ ولذيذةٌ من مرتفعات إسكتلندا، تحيلك بالذّاكرة إلى الأكواخ الجبليّة للرّعاة والجزر الملفوفة في الضّباب. كان «أبوه من جزيرة سكاي»، ولا غبار على عمله في الأقسام التّحضيريّة. من خلال ما أسمعه عنه فأنا أكنّ له كلّ الودّ.

(1) عائلة ازدهرت خلال عصر النّهضة، وعرفت في المخيال الشّعبيّ بدسائسها وتخلّصها من أعدائها باستعمال شراب مسموم.

ولكنّني أخشى أن أواجه المتاعب مع كاثرين بروك وألّا أبادلها هذا الودّ.

كاثرين فتاة تناهز الثّمانية والعشرين ربيعًا في ما أعتقد، رغم أنّها تبدو في الخامسة والثّلاثين من عمرها. حُدّثتُ بأنّ الأمل في التّرقية إلى خطّة النّاظر كان يحدوها، وأفترض أنّها مغتاظةٌ من حصولي على هذا المنصب، ولاسيّما أنّني أصغُرها سنًّا. هي مدرّسةٌ جيّدةٌ... متشدّدةٌ نسبيًّا... ولكن ليست لها حظوةٌ عند أحدٍ. ولا يعكّر ذلك صفوها مطلقًا! لا يبدو أنّ لها أصدقاء أو أقارب من المقيمين معها في منزلٍ موحشٍ بذلك الشّارع الصّغير والوضيع المسمّى «شارع تامبل». هي امرأةٌ زَرِيَّةُ الملبس، ولا تخرج للقاء النّاس، ويقال إنّها «لئيمةٌ». تسخر كثيرًا من الطّلاب الّذين تروّعهم تعليقاتها اللّاذعة، وقيل لي إنّ لها طريقةً ترفع بها حاجبيها الكثيفين والأسوَدَين ثمّ تتشدّق بالكلام، تجعلهم يتمنّون لو كانوا ترابًا. أتمنّى لو أنّني كنت قادرةً على فعل الشّيء نفسه مع تلاميذ عشيرة برينغل، ولكن لا ينبغي أن أسود بالتّرهيب كما تفعل هي. أريد أن أكون محبوبةً لدى تلاميذي.

وعلى الرّغم من أنّها في الظّاهر لا تجد صعوبةً في جعلهم يذعنون لأوامرها، كانت ترسل إليّ بعضهم باستمرارٍ... وبالخصوص من طلاّب برينغل. أعلم أنّها تتعمّد ذلك، وأنا متيقّنةٌ من أنّها تبتهج ابتهاجًا شديدًا حين تراني أواجه المتاعب، وأعلم أنّها ستنتشي إذا ما ازدادت الأمور سوءًا.

قالت لي ريبيكا ديو أن لا أحد يريد التّعرّف عليها ومصاحبتها. كانت الأرملتان قد دعتاها مرّاتٍ عديدةً إلى عشاء يوم الأحد... وقد كانت العمّتان الحبيبتان تفعلان ذلك من أجل الأشخاص الّذين يعيشون بمفردهم، تعدّان لهم ألذّ سلطة دجاج... ولكنّ كاثرين لم تلبِّ الدّعوة يومًا. ولذلك كفّتا عن دعوتها لأنّه كما تقول العمّة كايت «للصّبر حدود».

ثمّة حديث عن كونها شديدة الذّكاء، ويمكنها الغناء والإنشاد ... «خطيبة» كما تقول ريبيكا ديو... ولكنّها لا تريد أن تفعل أيًّا منهما. كانت العمّة تشاتي قد طلبت منها ذات مرّةٍ الإنشاد في عشاء أقامته الكنيسة.

قالت العمّة كايت: «نعتقد أنّها رفضت ذلك على نحوٍ فظٍّ».

وقالت ربيكا ديو: «لقد هدرت بصوتها فقط».

لكاثرين صوتٌ جهوريٌّ نابعٌ من أعماق حنجرتها... مثل صوت الرّجال تقريبًا... فيبدو للسّامع أنّها تهدر وتزمجر حين تكون في مزاجٍ سيّئٍ.

ليست جميلة الوجه ولكن يمكنها أن تجعله أكثر قبولًا. كانت داكنة الوجه وكامدة اللّون، ولها شعرٌ باهرٌ تشدّه دومًا إلى الخلف من أعلى جبهتها وتعقصه في عقلة خرقاء عند أسفل رقبتها. أمّا عيناها فلا ينسجمان مع شعرها، إذ هما بلون العنبر الباهت تحت حاجبين شديدي السّواد. وأمّا أذناها فعليها ألّا تخجل من إظهارهما، تمامًا مثل يديها اللّتين لم أرَ في حياتي أجمل منهما، وأمّا فمها فهو مرسومٌ

بعنايةٍ. ولكنّ لباسها كان دائمًا على قدرٍ كبيرٍ من الفظاعة، ويبدو أنّ لها موهبةً كبيرةً في اختيار الألوان والخطوط الّتي لا ينبغي ارتداؤها. ألوان خضراء باهتة وداكنة تمتزج مع ألوانٍ رماديّةٍ شاحبةٍ، بينما هي مصفرّةٌ ولا يليق بها الأخضر والرّماديّ، وأشرطة تجعلها نحيفةً وفارعةَ الطّول أكثر ممّا هي عليه. أمّا ثيابها فكانت تبدو وكأنّها لا تخلعها حين تأوي إلى الفراش.

تصرّفاتها أيضا منفّرةٌ... كما دأبت ريبيكا ديو على القول، فهي عدوانيّةٌ ولها نزعةٌ إلى الشّجار لا تنضب. كلّما مررتُ بجانبها على الدّرج أشعر أنّها تكيد لي كيدًا عظيمًا، وكلّما بادرتها بالحديث تجعلني أشعر بأنّني لم أحسن الكلام. ومع ذلك، فإنّني أشفق على حالها... رغم عِلمي أنّها ستقابل شفقتي بامتعاضٍ وجحودٍ شديدين. ثمّ إنّه لا يمكنني فعل شيءٍ من أجلها، لأنّها ترفض مساعدة أيٍّ كان. وأنا أجدها بغيضةً حقًّا. ذات يومٍ، عندما كنّا نحن ثلاثتنا، أي المدرّسين، في القاعة المخصّصة لنا، فعلتُ شيئًا يبدو أنّه انتهك أحد القوانين غير المكتوبة للمدرسة، فقالت كاثرين بشكلٍ جارحٍ: «ربّما خلتِ نفسك فوق القوانين، أيّتها الآنسة شيرلي». ومرّةً أخرى حين اقترحتُ بعض التّغييرات الّتي تصبّ في مصلحة المدرسة، قالت في ابتسامة تهكّمٍ: «أنا لست مولعةً بحكايات الجنّ والحوريّات». ذات مرّةٍ أيضًا، عندما أثنيتُ على عملها ومناهجها في التّدريس، قالت لي: «وما نوع الحبّة الّتي سأبتلعها مع كلّ هذا الكمّ من الكلام المعسول؟».

ولكنّ أكثر الأشياء الّتي ضايقتني... هو ذلك اليوم الّذي أخذتُ فيه كتابًا لها من قاعة المدرّسين، وتفحّصت الصّفحة الأولى منه، ثمّ قلت:

«أنا سعيدة لأنّك تكتبين اسمك بحرف K. فاسم كاثرين بهذا الحرف يبدو أكثر سحرًا وفتنةً من كتابته بحرف C. وحرف K في حدّ ذاته يبدو «غجريًّا» أكثر من المتأنّق C».

لم تجبني على الفور، ولكنّ المذكّرة التّالية الّتي أرسلتها إليّ كانت مختومةً باسم كاثرين بروك بحرف C!

ظللت أعطس على طول الطّريق إلى المنزل.

كنت سأتخلّى وإلى الأبد عن محاولة التّقرّب إليها ومصادقتها، لولا ذلك الإحساس الغريب وغير القابل للتّفسير بأنّ وراء ذاك الجفاء والانطواء توجد في حقيقة الأمر روحٌ ظمآنةٌ إلى الصّحبة والعِشرة.

على العموم، وأنا أغالب هذا العداء الّذي تناصبني إيّاه كاثرين وعشيرة برينغل، لا أعلم ماذا كنت سأفعل من دون ريبيكا ديو ومن دون رسائلك... والصّغيرة إليزابيث.

ذلك لأنّني تعرّفت على الصّغيرة إليزابيث أخيرًا. ويمكنني القول إنّها دخلت قلبي دون استئذان.

منذ ثلاث ليالٍ أخذتُ كأس الحليب إلى باب السّور، وكانت إليزابيث نفسها تنتظر هناك لتَسلُّمه عوضًا عن «المرأة». كان رأسها لا يكاد يطلّ من فوق الجزء الصّلب من الباب، على نحوٍ توسّط فيه

إطارًا صُنِع من نبات اللّبلاب. كانت فتاةً صغيرة الحجم، شاحبة اللّون وكئيبة الطّلعة. وكانت عيناها، اللّتان حدّقتا فيّ تحت شفق الخريف، واسعتين وذهبيّتين في لون حبّات البندق. أمّا شعرها الفضّيّ المذهّب فكان يتوسّطه مفرقٌ، ويسترسل بنعومةٍ من فوق رأسها في تسريحةٍ دائريّة الشّكل، لينسدل متموّجًا على كتفيها. كانت ترتدي فستانًا أزرق شاحبًا من قماش الجنجهام[1]، وترتسم على مظهرها سيماء أميرةٍ من بلاد العفاريت. كان مظهرها يوحي بما تسمّيه ريبيكا ديو «مسحةً من الرّقّة والهشاشة»، وتركت لي انطباعًا بأنّها طفلةٌ تعاني من سوء التّغذية... ليس في جسمها، بل في روحها. كانت أشبه أو أقرب إلى ضوء القمر الباهت منها إلى نور الشّمس السّاطعة.

قلت لها: «هل هذه إليزابيث؟».

أجابتني بجدّيّةٍ بالغةٍ: «ليس اللّيلة. هذه اللّيلة أصبح فيها «باتي» لأنّني أحبّ كلّ شيءٍ في هذا العالم. كنت «إليزابيث» البارحة، وليلة الغد ربّما أكون «باث». الأمر كلّه يتوقّف على الشّعور الّذي ينتابني».

كنت كمَن حرّكت وجداني روحٌ شقيقةٌ لي. شعرت في الحال برعدةٍ تسري في جسدي.

«كم جميلٍ أن يكون لك اسمٌ يمكن تغييره بهذه السّهولة، وتشعرين في الآن ذاته أنّه مِلكُك».

(1) نسيج قطنيّ مخطّط.

أومأت إليزابيث برأسها موافقةً: «يمكنني أن أشتقّ منه أسماء كثيرةً. «إيلسي»، و«باتي»، و«باس»، و«إليزا»، و«ليزباث»، و«باث».. ولكن ليس «ليزي». لا أشعر البتّة أنّ بإمكاني أن أكون «ليزي»».

قلت: «ومن يستطيع ذلك؟».

«هل ترين كلّ هذا سخيفًا، أيّتها الآنسة شيرلي؟ جدّتي والمرأة تريانه كذلك».

قلتُ لها: «إطلاقًا، بالعكس.. فيه الكثير من الحكمة والطّرافة».

اتّسعت عينا إليزابيث الصّغيرة كصحنٍ، وهي تنظر إليّ من فوق حافّة كأس الحليب. انتابني إحساسٌ بأنّني أسبح في انسجامٍ روحيٍّ خفيٍّ مع نفسي، وتملّكتني البهجة حين أدركتُ أنّها أنِسَتْ إليّ. فقد طلبَت منّي الصّغيرة إليزابيث معروفًا... والصّغيرة إليزابيث لا تطلب معروفًا إلّا من الأشخاص الّذين ترتاح إليهم.

سألتني بخجلٍ: «هل تمانعين في أن ترفعي القطّ وتدعيني أربّت عليه قليلًا؟».

كان داستي ميلر يتحكّك على ساقيّ، فرفعته إلى أعلى ووضعت الصّغيرة إليزابيث يدها الدّقيقة وداعبت رأسَه في حُبورٍ.

قالت لي: «أنا أحبّ القطط أكثر من الأطفال الرُّضَّع»، ورمقتني بنظرة تحدٍّ فيه شيءٌ من الغرابة، وكأنّها تعلم أنّني سأندهش لذلك، ولكن عليها أن تصدع بالحقيقة في كلّ الأحوال.

قلتُ مبتسمةً: «أظنّ أنّك لم تَرَي أطفالًا رضّعًا من قبل، لذلك أنت لا تعرفين كم هم لطفاء. هل تملكين قطّة؟».

هزّت إليزابيث رأسها نافيةً: «أوه، كلّا. جدّتي لا تحبّ القطط. والمرأة تحقد عليها أيضًا. لقد خرجت «المرأة» هذه اللّيلة، لذلك استطعت المجيء لأخذ الحليب. أنا أحبّ القدوم إلى هنا من أجل الحليب، لأنّ ريبيكا ديو امرأةٌ طيّبةٌ جدًّا».

ضحكت ثمّ قلت: «هل تأسفين لعدم مجيئها اللّيلة؟».

هزّت الصّغيرة إليزابيث رأسها نافيةً:

«كلاّ، فأنت في غاية اللّطف أيضًا. كنت أودّ التّعرّف إليك، ولكنّني خشيت ألّا يحدث ذلك قبل أن يأتي يوم «الغد»».

وقفنا هناك وهلةً نتحدّث، بينما ترشّفت إليزابيث حليبها بشهيّةٍ، وأخبرتني كلّ شيءٍ عن «الغد». لقد قالت لها «المرأة» إنّ «الغد» لن يأتي أبدًا، ولكنّ إليزابيث كانت تعرف أنّ ذلك غير صحيح. سوف يأتي يومًا مّا. وستستيقظ ذات صباحٍ جميلٍ وتجد أنّه بداية «الغد». ثمّ ستحدث أشياء عديدةٌ... أشياء رائعةٌ. ويحدث أنّه قد يكون لها يومٌ تفعل فيه ما تشاء بالضّبط، دون أن يراقبها أحد... وإن كنت أظنّ أنّ *ذلك* سيكون أروع من أن يتحقّق، حتّى ولو أتى «الغد». أو ربّما ستكتشف نهاية طريق المرفإ... تلك الطّريق الهائمة على وجهها والملتوية كأفعى حمراء جميلةٍ، طريق تُفضي، كما تخالها إليزابيث، إلى نهاية العالم. ربّما تكون «جزيرة السّعادة» هناك، فإليزابيث تعتقد جازمةً أنّه توجد جزيرةٌ للسّعادة في مكان مّا على هذا الكون، حيث تُرسي جميع البواخر الّتي لا تعود إلى هنا، وستكشف مكانها حين يأتي «الغد».

قالت إليزابيث: «وعندما يأتي «الغد»، سيكون لي مليون كلبٍ وخمسةٌ وأربعون قطًّا. لقد أخبرت جدّتي بهذا، أيّتها الآنسة شيرلي، حين رفضت أن تكون لي قطّةٌ صغيرةٌ، فاستشاطت غضبًا وقالت: «لم أعتدْ على أن يخاطبني النّاس بهذا الشّكل، أيّتها الآنسة «وقاحة»». ثمّ عُوقبتُ بالنّوم دون عشاء... ولكنّني لم أقصد أن أكون وقحةً. لم أتمكّن من النّوم ليلتها، أيّتها الآنسة شيرلي، لأنّ «المرأة» قالت لي إنّها تعرف طفلًا مات ذات مرّةٍ أثناء نومه بعد أن تكلّم مع أهله بصفاقةٍ.

حين أنهت إليزابيث شرب حليبها، تناهى إلى مسامعي قرعٌ حادٌّ على نافذةٍ مستترةٍ من نوافذ القلعة، خلف أشجار الرّاتينجة. أعتقد أنّنا كنّا مراقبين طيلة الوقت. أخذت فتاتي الجنّيّة في العدو، وشعرها الذّهبيّ يتلألأ عبر الممشى بين أشجار الرّاتينجة القاتمة، إلى أن توارت عن الأنظار.

قالت لي ريبيكا ديو حين أخبرتها بمغامرتي... فعلًا إنّها مغامرةٌ يا جيلبرت، فلها كلّ خصائصها: «إنّها كائنٌ صغيرٌ من عالمٍ سحريٍّ. لقد قالت لي ذات مرّةٍ: «هل تخافين من الأسود، يا ريبيكا ديو؟» فأجبتها بأنّني لم ألتق يومًا بأسدٍ ولا يمكنني أن أعرف. فقالت لي: «سيكون هناك جمعٌ غفيرٌ من الأسود في «الغد»، ولكنّها ستكون في غاية اللّطف». قلت لها: «ستَحْوَلّين يا بنيّتي إذا ما استمررت في التّحديق بهذا الشّكل». فقد كانت تنظر من خلالي مباشرةً إلى شيءٍ تراه هي فقط في ذلك «الغد» الّذي تحلم به. قالت لي: «تجول بذهني

أفكارٌ عميقةٌ جدًّا، يا ريبيكا ديو». المشكلة مع هذه الصّبيّة أنّها لا تضحك بما فيه الكفاية».

أذكر أنّ إليزابيث لم تضحك ضحكةً واحدةً خلال حديثنا عند السّور. أشعر وكأنّها لم تتعلّم كيف تضحك. فذلك المنزل الضّخم هادئٌ جدًّا، ومنعزلٌ جدًّا، ولا ضحكة واحدة تصدر منه. لقد بدا كئيبًا ومتجهّمًا، حتّى في هذا الوقت من الخريف الّذي اكتست فيه الأرض ألوانه الزّاهية. وفي هذا المنزل دأبت الصّغيرة إليزابيث على الإنصات كثيرًا إلى الهمسات الضّائعة داخله.

أعتقد أنّه من بين أحد واجباتي في سامرسايد هو أن أعلّمها كيف تضحك.

«رفيقتك المخلصة الحنون».

آن شيرلي

ملاحظة: خاتمةٌ أخرى اقتبستُها من رسالةٍ لجدّة العمّة تشاتي!

(3)

عزبة الصّفصاف
درب الأشباح
سامرسايد، مقاطعة جزيرة الأمير

الاثنين، 25 أكتوبر

عزيزي جيلبرت:

قل لي ما هو رأيك؟ لقد دعيتُ للعشاء في مزرعة مابلهيرست!

كتبت السّيّدة إلين بنفسها رسالة الدّعوة. كانت ريبيكا ديو متحمّسةً جدًّا... لم يخطر ببالها قطّ أن يأبه أهل المزرعة بي. وكانت شبه متأكّدةٍ أنّ الدّعوة ليست بداعي الودّ والتّلطّف.

صرخَت في دهشةٍ: «لديهم دافعٌ لئيمٌ، أنا متأكّدةٌ من ذلك!».

وفي الواقع، كان شيءٌ من هذا الشّعور يخامرني أنا أيضًا.

أوعزت إليّ ريبيكا ديو بحزمٍ: «عليك أن تضعي أفضل ما لديك من لباسٍ».

ارتديتُ فستانًا فاتنًا في لون القشدة، من قماش تشالي[1]،

(1) قماش منسوج خفيف الوزن، ويصنع عادة من الحرير والصّوف.

ومزدانًا بزهر البنفسج. وسرّحتُ شعري على نحوٍ جديدٍ، وتركته ينسدل على جبيني. لقد كان جذّابًا جدًّا.

السّيّدتان في مزرعة مابلهيرست، يا جيلبرت، مثيرتان فعلًا للإعجاب ولكن على طريقتهما الخاصّة. كنت سأحبّهما لو تركتا لي الفرصة. أمّا مابلهيرست فهو منزل فاخرٌ وأنيقٌ، ومحاطٌ بالأشجار من كلّ النّواحي، ولا شبه بينه وبين بقيّة المنازل العاديّة. فقد انتصبت في بستان الفواكه امرأةٌ ضخمةٌ وبيضاء من الخشب، كانت قد أخذت من جؤجؤ[1] السّفينة الشّهيرة للقبطان أبراهام، والمسمّاة «*اذهب واسألها*»، بالإضافة إلى أمواجٍ من عشبة القيصوم قرب الدّرجات الأماميّة، جلبها أوّل مهاجرٍ من عائلة برينغل منذ أكثر من مائة عامٍ من بلد العشيرة الأصليّ. كان للسّيّدتين سلفٌ آخر شارك في معركة ميندن، وتدلّى سيفه على حائط غرفة الاستقبال حذوَ صورةٍ للقبطان أبراهام. كان الرّيّس أبراهام والدهما، وكان من البديهيّ أن تفخرا به كثيرًا.

لفتت نظري مرايا مهيبةٌ عُلّقت فوق رُفوف المدافئ السّوداء القديمة والمحزّزة، فضلًا عن صندوقٍ زجاجيٍّ فيه أزهارٌ من الشّمع، وصورٌ فائقة الجمال لسفنٍ من أزمانٍ غابرةٍ، وإكليلُ شعرٍ فيه ضفائر لكلّ فردٍ من أفراد عائلة برينغل، وأصدافٌ كبيرة الحجم، وغطاء لحافٍ مبطّن على فراش غرفة الضّيوف، رُسِمَت عليه مراوح متناهية الصّغر.

(1) مقدّمة السّفينة وصدرها.

جلسنا على مقاعد شيراتون[1] من خشب الماهوجني، في الصّالون الّذي تغطّت حيطانه بورق جدرانٍ مخطّطٍ بأشرطةٍ فضّيّة. أمّا النّوافذ فانسدلت عليها ستائر سميكةٌ وموشّاةٌ بالدّيباج، بينما تغطّت الطّاولات بالمرمر، وعلى إحداها مجسّمٌ جميلٌ لباخرةٍ ذات هيكلٍ قرمزيٍّ وأشرعةٍ بيضاء كالثّلج. لقد كانت سفينة *«اذهب واسألها»*. وقد عُلِّقت في السّقف ثريّا هائلة الحجم كلّها من البلّور المتدلّي، وتسمّرت على الحائط مرآةٌ دائريّة الشّكل تتوسّطها ساعةٌ... تحفةٌ كان الرّيّس أبراهام قد جلبها إلى المنزل من «أصقاع بعيدة». لقد كانت رائعةً بالفعل، وأريد واحدةً مثلها في بيت أحلامنا.

حتّى الظّلال الّتي في داخل المنزل كانت في غاية الفصاحة والعتاقة. أطلعتني الآنسة إلين على ملايين... تزيد أو تنقص قليلًا... من الصّور الفوتوغرافيّة لعشيرة برينغل، وكان الكثير منها صورًا داغريّة[2] في أغلفةٍ من الجلد. أتى قطٌّ ضخمٌ كان لون فروه مثل صدفة ظهر السّلحفاة ونطّ على ركبتيّ، ولكن سرعان ما أخرجته الآنسة إلين من الغرفة نحو المطبخ. اعتذرت منّي عن ذلك، وكذا توقّعتُ أنّها ربّما اعتذرت أيضًا للقطّ في المطبخ.

استأثرت الآنسة إلين بالحديث كلّه. أمّا الآنسة سارة، ذلك الشّيء الصّغير الملتفّ في رداءٍ أسود من الحرير وتنّورةٍ تحتانيّةٍ منشّاةٍ، وذات الشّعر الأبيض كالثّلج والعينين السّوداوين مثل

(1) أسلوب في فنّ الأثاث يعود إلى القرن الثّامن عشر.

(2) أسلوب مبكّر في التّصوير الفوتوغرافيّ، نسبة إلى مخترعه لويس داغير.

ثوبها، والنّحيفة الجسم، وذات اليدين الكثيرة العروق والمكتوفة على حجرها والمطلّة من كُمّين رقيقين من الدّانتيلا، وذات السّحنة الحزينة، والوجه المليح، فإنّها بدت ضعيفةً وهشّةً جدًّا ولا تقدر على الكلام. ورغم ذلك، خامرني انطباعٌ، يا جيلبرت، أنّ كلّ فردٍ من أفراد عشيرة برينغل، بما فيهم الآنسة إلين نفسها، يأتمر بأوامرها وينصاع لإرادتها.

كان العشاء شهيًّا. وكانت برودة الماء منعشةً، والملاءات بديعةً، والأطباق والأواني الزّجاجيّة رقيقةً. تعهّدتنا خادمةٌ كانت تضاهي صاحبتَي البيت في تحفّظهما ونفسهما الأرستقراطيّ. وكانت الآنسة سارة تتصنّع شيئًا من الصّمم كلّما توجّهت إليها بالحديث، حتّى خيّل إليّ أنّني سأغصّ بالطّعام مع كلّ لقمةٍ أتناولها. لقد تلاشى كلّ ما كنت أتحلّى به من شجاعةٍ، وشعرت وكأنّني ذبابةٌ مسكينةٌ علقت في ورقٍ مبيدٍ للذّباب. أتعرف يا جيلبرت، لا يمكنني أبدًا، أبدًا، أن أنتصر وأظفر بقبول «العائلة الملكيّة»، وإنّي أرى نفسي مستقيلةً بحلول العام الجديد. ليست لديّ أيّة فرصةٍ أمام مثل هذه الطّائفة.

ومع ذلك، لم أستطع أن أكبح شعوري بالشّفقة تجاه هاتين السّيّدتين العجوزين، وأنا أجول بناظريّ في أرجاء المنزل. لقد *عاش* هذا المنزل منذ قديم الزّمان... وولد فيه أناسٌ كثيرون... وماتوا... وابتهجوا... وعرفوا فيه النّوم، واليأس، والحبّ، والأمل، والكراهية. ولم يتبقّ منه الآن سوى الذّكريات الّتي يحيون بها... وكبرياؤهم فيها.

انزعجت العمّة تشاقي كثيرًا، لأنّها حين بسطت ملاءاتٍ نظيفةً لتضعها على فراشي اليوم وجدَت في وسطها ثنْية في شكلٍ معيّنٍ، كانت متأكّدة أنّها تُنبئ بموت أحدهم في هذا المنزل. أمّا العمّة كايت فقد كانت مستاءةً جدًّا من تطيّر المشعوذات هذا. ولكنّني في الواقع أحبّ الأشخاص الّذين يؤمنون بالخرافات، فهم يضفون على الحياة مسحةً من الألوان. ألن يكون هذا العالم رتيبًا وباهتًا إذا ما كان كلّ شخصٍ فيه حكيمًا وعاقلًا... وخيّرًا؟ وما الّذي سنجده حينها لنتحدّث عنه؟

منذ ليلتين، حلّت بنا مصيبةٌ هنا. بقي داستي ميلر في الخارج كامل اللّيل، رغم هتافات ريبيكا ديو الجهوريّة «بش... بش» في السّاحة الخلفيّة. وعندما ظهر في الصّباح... أوه، يا له من منظرٍ! كانت إحدى عينيه مغمضةً بالكامل، وعلى فكّه انتفاخٌ كبيرٌ في حجم بيضةٍ. وكان فروه متيبّسًا من كثرة الوحل، ولاحت عضّةٌ في إحدى كفّيه. ولكن كم كانت مظفّرةً وغير نادمةٍ تلك النّظرة الحادّة في عينه السّليمة! تملّك الفزع الأرملتين، ولكنّ ريبيكا ديو قالت بغبطةٍ شديدةٍ: «لم يدخل ذلك القطّ مطلقًا في معركةٍ حقيقيّةٍ من قبل. وأراهن أنّ القطّ الآخر كان أسوأ حالًا منه في العراك!».

كان الضّباب يزحف صعودًا من المرفإ في هذه اللّيلة، ويشوب الطّريق الحمراء الّتي تريد الصّغيرة إليزابيث اكتشافها. كانت الحشائش الضّارّة وأوراق الأشجار تحترق في كلّ الحدائق بمنازل المدينة، وكان هذا الخليط بين الدّخان والضّباب يجعل من درب

الأشباح مكانًا عجيبًا وأخّاذًا وسحريًّا. أصبح الوقت متأخّرًا فقال لي فراشي: «الديّ بعض النّعاس من أجلك». ثمّ إنّني بدأت أتعوّد على تسلّق ذلك العدد من الدّرجات إلى فراشي... والنّزول منها. آه يا جيلبرت، لم أخبر أحدًا بهذا، ولكنّ الأمر مضحكٌ جدًّا ولا أستطيع إخفاءه أكثر من ذلك. حين أفقتُ في الصّباح الأوّل من إقامتي بعزبة الصّفصاف، نسيتُ أمر تلك الدّرجات وقفزت من سريري قفزةً صباحيّةً كلّها ابتهاجٌ وسرورٌ. نزلت على الأرض مثل كومةٍ من الآجرّ كما كانت ريبيكا ديو تردّد دائمًا. لم أكسر عظامي لحسن الحظّ، ولكن عَلَت جسمي، ولمدّة أسبوعٍ، كدماتٌ سوداء وزرقاء عديدةٌ.

أصبحت الصّغيرة إليزابيث صديقةً حميمةً لي. فقد دأبت على القدوم كلّ مساءٍ من أجل حليبها، لأنّ «المرأة» طريحة الفراش بسبب «التهام» في رئتيها كما تقول ريبيكا ديو. كنت دائمًا أعثر عليها عند بوّابة السّور في انتظاري وعيناها الواسعتان تضيئان مثل نور الشّفق. كنّا نتبادل أطراف الحديث، وكانت البوّابة الّتي لم تُفتح منذ سنين طويلةٍ تفصل بيننا. كانت إليزابيث ترتّشف كأس الحليب بكلّ ما أوتيت من تُؤَدَةٍ، وذلك حتّى تطيل في الحديث. ودائمًا، حين تنضب القطرة الأخيرة من الكأس، يأتي ذلك القرع على النّافذة.

علمتُ أنّ من بين الأشياء الّتي ستحدث في «الغد» هو أنّها ستتلقّى رسالةً من أبيها. لم يسبق أن تلقّت أيّ رسالةٍ من قبل، وبقيتُ حائرة في السّبب الّذي جعل الرّجل يغفل عن ذلك.

قالت لي: «تعلمين أيّتها الآنسة شيرلي أنّه لا يطيق النّظر إليّ، ولكن لا مانع في أن يكتب إليّ».

سألتها وقد تملّكني شعورٌ بالسّخط الشّديد: «ومن قال لك إنّه لا يطيق النّظر في وجهك؟».

«إنّها «المرأة». (دائمًا حين تنطق إليزابيث كلمة «المرأة» أتخيّلها في شكل حرف ميم ضخمٍ وبغيضٍ، يحمل عصاه الطّويلة) «ولا شكّ أنّ الأمر صحيحٌ وإلّا فإنّه كان سيأتي لزيارتي أحيانا».

كانت تُسمّي نفسها «باث» تلك اللّيلة.. وحين تكون «باث» فقط يمكن لها التّحدّث عن أبيها. حين تكون «باتي»، فإنّها تلوي قسمات وجهها في ظهر جدّتها و«المرأة». ولكن حين تصبح «إيلزي»، فهي تندم على ذلك وتفكّر في ضرورة الاعتراف بذنبها، ولكنّها تخشى فعل ذلك. كانت نادرًا ما تلبس جبّة «إليزابيث»، وعندئذٍ يتّخذ وجهها ملامح شخصٍ يستمع إلى موسيقى سحريّةٍ، ويصغي إلى الحديث الدّائر بين الورود وأعشاب البرسيم. إنّها مخلوقٌ عجيب جدًّا، يا جيلبرت... ومرهفة الشّعور مثل ورقة صفصافٍ في مهبّ الرّيح، وأنا أحبّها من أجل ذلك. ويشتدّ غضبي حين أعلم أنّ تينك العجوزان البغيضتان تجبرانها على الذّهاب إلى النّوم في الظّلام الدّامس.

«قالت لي «المرأة» إنّني كبرتُ الآن ويمكنني النّوم في العتمة. ولكنّي أجدُني صغيرةً جدًّا، أيّتها الآنسة شيرلي، لأنّ اللّيل كبيرٌ ومريعٌ جدًّا. ثمّ إنّه يوجد غرابٌ محشوٌّ في غرفتي وأنا أخافه كثيرًا.

قالت لي «المرأة» إنّه سيقتلع عينيّ إذا ما بكيت. طبعًا أنا لا أصدّق ذلك أيّتها الآنسة شيرلي، ومع هذا فإنّني أشعر بالذّعر. الأشياء في غرفتي تهمس فيما بينها كامل اللّيل. ولكن حين يأتي «الغد» لن أخشى أيّ شيءٍ... حتّى إن اختطفوني!».

«ولكن لا خطر عليك من الاختطاف، يا إليزابيث».

«قالت لي «المرأة» إنّ الخطر موجودٌ حين أذهب إلى أيّ مكانٍ بمفردي أو أتحدّث إلى أشخاصٍ غرباء. ولكنّك لست من الغرباء أيّتها الآنسة شيرلي، أليس كذلك؟».

قلتُ لها: «كلّا يا عزيزتي. نحن الاثنتان تعرف إحدانا الأخرى منذ كنّا في عالم «الغد»».

(4)

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

سامرسايد،

10 نوفمبر

عزيزي،

أكثر شخصٍ أكرهه في هذا العالم هو ذلك الّذي يفسد سنّ قلمي. ولكنّني لا أستطيع أن أكره ريبيكا ديو، حتّى وإن دأبت على استعماله لنسخ بعض وصفات الطّبخ حين أكون في المدرسة. لقد فعلت ذلك من جديدٍ، وبالنتيجة لن تحصل على رسالة حبٍّ طويلةٍ هذه المرّة. (يا حبيبي).

لقد ترنّم الصّرّار بآخر أغنياته، وأصبحت الأمسيات باردةً جدًّا، حتّى إنّني تحصّلت على موقد خشب غليظ المظهر، مستطيل الشّكل. لقد جلبته ريبيكا ديو إلى أعلى وهيّأته... ولذلك أغفر لها ما فعلته بقلمي. إنّها بالفعل امرأةٌ لا تتوانى عن فعل كلّ شيءٍ، ودائما ما أجدها قد أوقدت النّار فيه عند عودتي من المدرسة. هو من أصغر المواقد الّتي رأيتها... ويمكنني حمله بين يديّ. يبدو مثل

كلبٍ أسود صغيرٍ وقليل الحياء، وهو يقف على أرجله الأربعة الحديديّة والمقوّسة. ولكن حين تملؤه بعيدان من الخشب الصّلب، يتورّد حياءً، ويتلوّن بأحمر مائلٍ إلى الزّهريّ، وينفث حرارةً رائعةً لا يمكنك أن تتخيّل الدّفء الّذي تُحدثه. أنا أجلس أمامه الآن وساقاي على أرض المدفأة الصّغيرة، أخربش لك بعض الكلمات على ركبتي.

كلّ سكّان سامرسايد... يزيدون وينقصون... في حفلة الرّقص لدى هاردي برينغل. أمّا *أنا* فلم أكن من بين المدعوّين. وغضبت ريبيكا ديو لذلك كثيرًا حتّى إنّني أشفقت على نفسي من أن أكون داستي ميلر في تلك اللّحظة. ولكن حين أفكّر في ميرا ابنة هاردي، تلك الحسناء الخفيفة العقل، الّتي حاولت في ورقة الامتحان أن تبرهن على أنّ *«الزّانيتين»* (هذا ما كتبَته) الموجودتَين في قاعدة مثلّثٍ متساوي الأضلاع هما زاويتان متقايستان، فإنّني أغفر لعشيرة برينغل ما تقدّم وما تأخّر. وفي الأسبوع الفارط كانت قد أدرجت الشّجرة الّتي تُستعمل مشنقةً ضمن قائمة أنواع الأشجار الّتي طلبتها منهم! وإحقاقًا للحقّ، لا تتأتّى جميع هذه الأغلاط الفاحشة فقط من عائلة برينغل. بلايك فانتن مثلًا، قدّم تعريفًا للتّمساح بأنّه «نوعٌ ضخم من الحشرات». تلك هي النّقاط المضيئة حقًّا في حياة المعلّمين!

الجوّ ينبئ بتساقط الثّلوج هذه اللّيلة. وأنا أعشق الأمسيات الّتي تبشّر بسقوط الثّلج. الرّيح تعصف «في البرج والشّجر»[1]

(1) من قصيدة «الأخوات» لألفريد تينيسون.

وتجعلني أشعر بالدّفء والرّخاء في غرفتي أكثر من ذي قبل. هذه اللّيلة، ستجرف الرّيح آخرَ الأوراق الذّهبيّة لشجر الحَوْر الرّجراج.

أظنّ أنّني دعيتُ حتّى الآن إلى العشاء في كلّ مكانٍ... أعني في منازل كلّ طلاّبي، سواء في المدينة أو في الرّيف. ودعني أقل لك يا حبيبي جيلبرت، لقد سئمت كثيرًا مربّى القرع! لا تحاول أبدًا، أبدًا، أن تجلب لنا مربّى القرع إلى دار أحلامنا.

تقريبًا في كلّ الأماكن الّتي زرتها خلال الشّهر الماضي تناولتُ «الميم قاف» عند العشاء. كنت قد تلذّذت أكله كثيرًا في المرّة الأولى... لقد كان مذهّبًا جدًّا حتّى خلتُ نفسي آكل مربّى أشعّة الشّمس... وأطنبتُ على نحوٍ متعجّلٍ في الثّناء عليه. ثمّ شاع الخبر أنّني مولعةٌ بالميم قاف، وأضحى النّاس يطبخونه من أجلي. كنتُ أتأهّب في اللّيلة الفارطة للذّهاب إلى منزل السّيّد هاملتون، وطمأنتني ريبيكا ديو أنّهم لن يقدّموا على المائدة ذلك الميم قاف لأنّه ما من فردٍ في عائلة هاملتون يحبّ أكله. ولكن حين جلسنا إلى طاولة الطّعام، كانت هناك على البوفيه الجانبيّ سلطانيّةٌ من الزجاج المحفور مُلئت ميمًا وقافًا.

قالت السّيّدة هاملتون وهي تغرف لي صحنًا سَخِيًّا: «لم أصنع مربّى قرعٍ من قبل، ولكنّني سمعت أنّك مغرمةٌ به. لذلك حينما ذهبتُ يومَ الأحد الماضي لرؤية ابنة عمٍّ لي في لوفيل، قلت لها: «دعوتُ الآنسة شيرلي إلى العشاء هذا الأسبوع وهي مولعةٌ بمربّيات اليقطين. آمل أن تقرضيني آنيةً من أجلها». وها قد فعلت ذلك، ويمكنك أن تأخذي إلى منزلك ما تبقّى منها».

عليكَ أن ترى وجه ريبيكا ديو حين وصلتُ إلى الدّار قادمةً من عند عائلة هاملتون، وأنا أحمل آنيةً زجاجيّةً مُلِئ ثلثاها بالميم قاف! لا أحد في عزبة الصّفصاف يريد أكله، فدفنّاه خلسةً في اللّيل البهيم، داخل حفرةٍ في الحديقة.

سألتني ريبيكا ديو بقلقٍ: «لن تضعيها في إحدى حكاياتك، أليس كذلك؟» منذ اللّحظة الّتي اكتشفَت فيها ريبيكا ديو أنّني أنشر من حينٍ إلى آخر بعضَ القصص الخياليّة في عددٍ من المجلّات، كانت دائمًا على خوفٍ... أو على أملٍ، لا أعرف بالضّبط... أن أسرد كلّ شيءٍ يحدث بعزبة الصّفصاف في القصص الّتي أكتبها. كانت تريدني أن «أكتب عن عشيرة برينغل وأنتقدهم». ولكن للأسف، فتلك العائلة هم الّذين يجرّحون ويوبّخون دومًا. وبين مقاومتهم وعملي في المدرسة، لا أكاد أجد وقتًا لكتابة القصص.

لم يبقَ في الحديقة الآن سوى أوراق الأشجار الذّابلة وسيقان النّباتات الّتي لفّها الجليد. ربطت ريبيكا ديو سيقان الورود ولفّتها في أكياس بطاطا من النّسيج الخشن. وعند الغسق، كانت الورود تبدو وكأنّها مجموعةٌ من العجائز الّذين احدودبت ظهورهم وهم يتّكئون على عصيّهم.

اليوم تلقّيتُ بطاقةً بريديّةً من دايفي الّتي رسمت عليها عشر قبلاتٍ، ورسالةً أخرى من صديقتها بريسيلا، كانت مكتوبةً على نوع من الورق «بعثت به إليها إحدى صديقاتها في اليابان»... وهو نوع من الورق الرّقيق والنّاعم مثل الحرير، ألصقت فوقه أزهار كرز

شاحبةً مثل الأشباح. أصبحت الشّكوك تخامرني بشأن صاحبتها هذه. ولكنّ رسالتك الكبيرة الدّسمة والأرجوانيّة كانت أجمل هديّة قُدّمت لي هذا اليوم. قرأتها من جديدٍ أربع مرّاتٍ لأستمتع بنكهة كلّ حرفٍ فيها... مثل كلبٍ نهمٍ يلمّع بلسانه طبق الأكل! هذا ليس بالتّأكيد تشبيهًا يليق بحديثنا الرّومانسيّ، ولكنّه التّشبيه الّذي خطر ببالي في هذه اللّحظة. ومع ذلك فإنّ الأحرف، وإن كانت الأروع، لن تشفي *غليلي*. أريد أن أراك. أحمد الله على أنّه لم يبقَ سوى خمسة أسابيع على عطلة نهاية السّنة.

(5)

كانت آن تجلس حذو نافذة البرج في إحدى الأمسيات من آخر شهر نوفمبر، وقلمها بين شفتيها وأحلامها في عينيها، وتطلّ من خارج النّافذة على عالمٍ لفّه الغسق، وفجأةً فكّرت في نزهةٍ تقودها إلى المقبرة القديمة. لم تزرها إلى حدّ الآن، وقد فضّلت أجَمَةَ التّنّوب والقيقب أو طريق المرفإ للقيام بجولاتها المسائيّة. ولكنّ في شهر نوفمبر، بعد أن تسقط أوراق الخريف، حيّزًا من الزّمن تشعر فيه آن بأنّ من الشائن التّوغّل في الغابة... فقد تلاشت الآن هالتها الأرضيّة، ولم تكتنفها بعدُ تلك الهالة السّماويّة من البياض والصّفاء الرّوحيّ. لذلك اتّجهت آن إلى المقبرة عوضًا عن الغابة. كانت في تلك اللّحظة منقبضة الصّدر ويائسةً إلى حدّ أنّها خالت المقبرة مكانًا يصلح للتّرويح عن النّفس قليلًا. وفضلًا عن ذلك، كانت المقبرة تعجّ بعشيرة برينغل كما قالت ريبيكا ديو. فقد دَفنوا فيها أجيالًا وأجيالًا من موتاهم، مفضّلين هذا المكان على المقبرة الجديدة، إلى أن «يستحيل حشر أيّ فردٍ منهم فيها». شعرت آن أنّ من المريح جدًّا رؤية المكان الّذي يرقد فيه آل برينغل من غير أن يقلقوا راحة أحدٍ.

أمّا في خصوص الأحياء منهم، فقد شعرت آن أنّ قواها قد خارت وصبرها قد نفد. شيئًا فشيئًا، أصبح الوضع برمّته مثل كابوسٍ لعينٍ. فتلك الحملة الخفيّة من التّمرّد وعدم الاحترام بقيادة جان برينغل قد بلغت أوجَها. ذات يوم، منذ أسبوع، طلبت من الطّلّاب الأكبر سنًّا إنتاجًا كتابيًّا حول «أهمّ ما حصل خلال الأسبوع». حرّرت جان برينغل مقالةً رائعةً... تلك العفريتة الدّاهية... وضمّنتها شتيمةً ماكرةً وجّهتها إلى معلّمتها... شتيمةً لاذعةً لا يمكن التّغافل عنها. طردتها آن وأرسلتها إلى منزلها قائلةً إنّ عليها أن تعتذر قبل السماح لها بالعودة إلى الصّفّ. لقد صبّت آن الزّيت على النّار وأجّجتها. إنّها حربٌ مفتوحةٌ الآن بينها وبين آل برينغل. والمسكينة آن تعرف، بلا ريبٍ، الطّرفَ الّذي سيلوّح براية النّصر في نهاية المطاف. فمجلس إدارة المدرسة لن يتوانى عن مساندة عائلة برينغل، وسيضعونها بين خيارَين، إمّا الإذعان وقبول جان في المدرسة من جديدٍ أو إرغامها على الاستقالة.

شعرت بكثيرٍ من المرارة. لقد فعلت كلَّ ما في وسعها، وهي تعلم أنّه كان بإمكانها النّصر لو سنحت لها فرصة للقتال.

قالت في قرارة نفسها وهي تجترّ مرارةَ الهزيمة: «إنّها ليست غلطتي. مَن كان له أن يهزم مثل هذه الكتيبة ومثل هذه التّكتيكات في القتال؟».

سوف تعود إلى منزلها في غرين غايبلز وهي تجرّ أذيال الهزيمة! عليها أن تصبر على سخط السّيّدة ليند وابتهاج عائلة باي! حتّى

تعاطف أصدقائها لن يكون سوى نوعٍ آخر من العذاب. ومع فشلها في سامرسايد الّذي سيسري في البلاد كالنّار في الهشيم، لن تكون قادرةً على العمل ناظرةً في مدرسةٍ أخرى.

ولكنّهم على الأقلّ لم ينالوا منها حين أعدّت تلك المسرحيّة. ضحكت آن ضحكةً شقيّةً، وتلألأت عيناها في سعادةٍ ماكرةٍ حين عاودتها ذكرى ما حدث.

كانت قد أنشأت ناديًا للفنّ المسرحيّ في المدرسة الثّانويّة، وأشرفت على إخراج مسرحيّةٍ صغيرةٍ أعدّتها لجمع بعض الأموال لأحد مشاريعها المحبّبة إلى قلبها... شراء بعض النّقوشات الجيّدة لتزدان بها قاعات الفصل. وطلبت من كاثرين بروك مدَّ يد العون لأنّ كاثرين دائمًا ما تبدو منبوذةً ومستبعَدةً من كلّ شيءٍ. وقد ندمت آن على ذلك كثيرًا، لأنّ كاثرين أظهرت فظاظةً وتهكّمًا أكثر من ذي قبل. فهي لم تترك أيّة فرصةٍ تمرّ خلال التّدرّب على المسرحيّة دون أن تدلي بملاحظاتها المقذعة ودون أن تُجهد حاجبيها الكثيفين. الأسوأ من ذلك أنّها أصرّت على أن تتولّى جان برينغل دور ماري ملكة اسكتلندا.

قالت وقد بدأ صبرها ينفد: «لا أحد يمكنه أداء هذا الدّور مثلها. ولا أحد يمكنه أن يجسّد مكنون الشّخصيّة غيرها».

لم تكن آن متأكّدةً كثيرًا من ذلك. كانت تعتقد أنّ صوفي سينكلار، تلك الفتاة الطّويلة القامة الّتي لها عينان في لون البندق وشعرٌ غزيرٌ في لون الكستناء، يمكنها تقمُّص دور الملكة ماري

أفضل من جان. ولكنّ صوفي لم تكن حتّى عضوًا في النّادي، ولم تمثّل يومًا على الرّكح.

قالت كاثرين بنبرةٍ بغيضةٍ: «لا نريد مبتدئين من غير ذوي التجربة في هذه المسرحيّة. لن أشارك في شيءٍ مصيرُه الفشل». ولم يكن للآنسة شيرلي حينها إلّا أن أذعنت لها. لا يمكنها أيضًا أن تنكر براعة جان في ذلك الدّور، فلها موهبةٌ غريزيّةٌ في التّمثيل، ويبدو أنّها انغمست في الدّور بكلّ ما أوتيت من قوّة. تدرّب الممثّلون لمدّة أربع أمسيات في الأسبوع، وفي الظّاهر كان كلّ شيءٍ يسير على أحسن ما يرام. بدت جان منصبّة التّركيز على الدّور إلى حدّ أنّها تصرّفت بأدبٍ خلال كامل البروفات. لم تحشر آن نفسها معها، بل تركت مِرانها تحت إشراف كاثرين. ولكنّها لمحت مرّةً أو مرّتين نظرة انتصارٍ ماكرةً ومحيّرةً على وجه جان. لم تستطع حينها تخمين ما يدور بخلدها.

وذات مساءٍ، ولم يمضِ على بداية التّدريبات وقتٌ طويلٌ، وجدت آن الطّفلة صوفي سينكلار وهي تذرف الدّمع في غرفة ملابس الفتيات. في البدء، أخذت صوفي تطرِف بعينيها بقوّةٍ وأنكرت ذلك... ثمّ انفجرت بالبكاء.

قالت وهي تبكي بحرقةٍ: «لقد رغبت كثيرًا في أن أكون في المسرحيّة... أن أكون الملكة ماري. لم تُتح لي الفرصة مطلقًا... فأبي كان يرفض التحاقي بالنّادي لأنّ هناك مساهمةً ينبغي دفعها، وتعلمين أنّ لكلّ قرشٍ في عائلتي ثمنه. وطبعًا لم تكن لديّ التّجربة.

لطالما أحببت الملكة ماري... يجعلني ذكر اسمها فقط أرتعش حتّى أخمص قدميّ. لا أصدّق... ولن أصدّق أبدًا أنّ لها دخلًا في اغتيال دارنلي. كم كان من الرّائع لو أنّها تقمّصت دورها ولو لوهلةٍ قصيرةٍ!».

إثر ذلك، خلصت آن إلى أنّ ملاكها الحارس هو الّذي أسرّ إليها بهذه الإجابة:

«سوف أكتب الدّور لكِ يا صوفي، وسأشرف على تدريبك. سيكون مرانًا جيّدًا لك. وبما أنّنا نعتزم تمثيل المسرحيّة في أماكن أخرى إذا ما نجحت هنا، فستكون فكرةً جيّدةً أن نجد بديلًا إذا تخلّفت جان عن التّمثيل. ولكن لن نخبر أحدًا بذلك».

حفظت صوفي الدّور عن ظهر قلبٍ بحلول اليوم الموالي. كانت تذهب كلّ مساءٍ رفقة آن إلى عزبة الصّفصاف بعد نهاية الدّروس، وتتمرّن في البرج على دورها. لقد استمتعا كثيرًا في تلك الأوقات، فقد كانت صوفي تتّقد حيويّةً هادئةً. حُدّد تاريخ عرض المسرحيّة في آخر يوم جمعةٍ من شهر نوفمبر، أمّا مكانها فكان مبنى البلديّة. وقد تمّ الإشهار لها في كلّ مكانٍ، وبيعت المقاعد المحجوزة حتّى آخر مقعدٍ في القاعة. أمضت آن وكاثرين مساءين كاملين لتجميل القاعة وتزويقها، وأُجِّرَتْ فرقةٌ، بالإضافة إلى سوبرانو مرموقةٍ ستأتي مباشرةً من شارلوتاون للغناء بين المشاهد. حقّقت البروفة الأخيرة نجاحًا باهرًا، وكانت جان ممتازةً بالفعل وأطرى على أدائها كلّ الممثّلين. وفي صباح الجمعة الموعود، لم تأتِ جان إلى المدرسة،

وبعثت أمّها في المساء تقول إنّ جان مريضةٌ وتشعر بألمٍ حادٍّ في حلقها... وتخشى أن يكون التهابًا في اللّوزتين. جزع جميع مَن عمل على المسرحيّة وأحسّوا بحسرةٍ كبيرةٍ، إذ لم يكن واردًا على الإطلاق أن تلعب جان دورها تلك اللّيلة.

حملقت كاثرين وآن إحداهما في الأخرى، وقد جمعتهما هذه المرّة حيرةٌ مشتركةٌ.

قالت كاثرين ببطءٍ: «سيكون علينا أن نلغي العرض. وهذا يعني فشلنا الذّريع. وحين يأتي ديسمبر سينشغل النّاس عنّا. أمّا أنا فقد كنتُ دائمًا أعتقد أنّ من التّهوّر عرض مسرحيّةٍ في هذا الوقت من السّنة».

قالت آن وقد لمعت عيناها الخضراوان الشّبيهتان بعينَي جان: «لن نؤجّل العرض». لن تقول شيئًا لكاثرين بروك، ولكنّها كانت تعلم، كما كانت تعلم دائمًا كلّ شيءٍ يجري في حياتها، أنّ جان برينغل لم تكن أكثر منها عرضةً لخطر الإصابة بالتهاب اللّوزتين. سواء كان أفراد آخرون من عشيرة برينغل أطرافًا فيها أم لا، فقد كانت تلك مكيدةً مدبّرةً لإحباط المسرحيّة، لأنّها هي، آن شيرلي، مَن تعهّدت بكلّ شيءٍ فيها.

قالت كاثرين وهي تهزّ كتفيها في لامبالاةٍ بغيضةٍ: «ولكن ما الّذي تنوين فعله؟ هل ستضعين شخصًا يقرأ الدّور بأكمله؟ سوف يُفسد ذلك المسرحيّةَ كلّها... فالملكة ماري هي لبّ المسرحيّة وروحها».

«يمكن لصوفي سينكلار أن تؤدّي الدّور على نحوٍ جيّدٍ كما لو كانت جان. ستناسبها الأزياء، وحمدا لله أنّك أنتِ من صمّم اللّباس وجلبه، وليس جان».

عُرضت المسرحيّة في تلك اللّيلة أمام جمهورٍ غصّت به القاعة. أدّت صوفي وأمتعت في دور ماري... لقد كانت ماري *نفسها*، ولم يكن لجان برينغل أن تؤدّيه أفضل منها... كانت *تبدو* ماري نفسها في كسوتها المخمليّة، وطوق رقبتها، وحُليّها. وكان طلّاب المدرسة الثّانوية بسامرسايد يحدّقون فيها بذهولٍ، فهم لم يروا صوفي من قبل سوى في فساتينها البسيطة والبالية الّتي قدّت من الأنسجة الصّوفيّة الدّاكنة، وفي معطفها القبيح وقبّعاتها المبتذلة. ألحّ الجميع على عين المكان أن تصبح عضوًا دائمًا في نادي الفنون المسرحيّة -آن نفسها هي مَن سيدفع ثمن اشتراكها- ومنذ ذلك الحين أضحت من التّلميذات اللّاتي يحسب لهنّ حسابٌ في مدرسة سامرسايد. ولكن لم يكن أحدٌ يعلم أو حتّى يحلم -صوفي نفسها على الأقلّ- بأنّها ستخطو في تلك اللّيلة الخطوة الأولى على طريق النّجوم والمشاهير. فبعد ذلك بعشرين سنةً، ستصبح صوفي سينكلار إحدى أبرز الممثّلات في أمريكا. ولكنّها ربّما لن تحظى بهتافاتٍ وتصفيقٍ أجمل وقعًا على أذنيها من تلك الهتافات المجنونة حين نزل السّتار تلك اللّيلة في مبنى بلديّة سامرسايد.

نَقَلَت زوجة السّيّد جايمس برينغل الخبرَ إلى ابنتها جان، الّتي لا شكّ في أنّ عينيها الخضراوين قد زادتا اخضرارًا من فرط الغيظ

والغيرة. وكما قالت ريبيكا ديو بكثيرٍ من الإحساس، فقد تلقّت جان، ولو لمرّةٍ واحدةٍ، قصاصًا عادلًا وعقابًا لاحقًا لما كتبته من شتيمةٍ في الإنتاج الكتابيّ الّذي كان موضوعه «أهمّ ما حصل خلال الأسبوع».

نزلت آن من برجها إلى المقبرة القديمة، وسارت على طول مسلكٍ مُحَفَّرٍ بأخاديد عميقةٍ، بين الحواجز الصّخريّة العالية المكسوّة بالطّحالب والمزركشة بأوراق السّرخس المتجلّدة. وعلى طول المسلك، وعلى مسافاتٍ متباعدةٍ فيه، كانت قد بَسَقَت أشجارُ الحَوْر الأسود الهيفاء والمدبّبة، تلك الأشجار الّتي لم تنزع عنها رياح نوفمبر كلّ أوراقها بعدُ، وقد بدت داكنةً قبالة اللّون البنفسجيّ للتّلال البعيدة. ولكنّ المقبرة القديمة، الّتي تمايلت شواهد قبورها كالسّكارى الثّملين، كانت محاطةً بصفٍّ مربّع الشّكل من أشجار التّنّوب. لم تكن آن تتوقّع أن تجد أحدًا هناك. فقد أُخذت على حين غرّةٍ حين التقت، وهي تعبر بوّابة المقبرة، بالآنسة كورتالو، ذات الأنف الطّويل الدّقيق، والفم الأهيف الرّقيق، والكتفين المنحدرتين الرّقيقتين، وهالة السّيّدات اللّاتي لا يُقهَرن. كانت بطبيعة الحال تعرف الآنسة فالنتاين، كما يعرفها كلّ سكّان سامرسايد. فهي *خيّاطة* الملابس في المدينة. وما لا تعرفه عن النّاس، أحياء كانوا أو أمواتًا، لا يهمّها بالمرّة. ودّت آن لو أنّها قامت بنزهتها وحدَها، لتقرأ تلك المرثيّات القديمة والغريبة على شواهد القبور وتفكّ طلاسم أسماء العاشقين المنسيّين من تحت الطّحالب والفطريّات الّتي نبتت فوقها. ولكنّها لم تفلح في التّملّص من الآنسة فالنتاين الّتي دسّت

ذراعها في ذراع آن، وشرعت في أداء واجب زيارة المقبرة الّتي كان من البديهيّ أن يكون عدد آل كورتالو المدفونين فيها يضاهي عشيرة برينغل. لم تكن في الآنسة فالنتاين قطرةٌ واحدةٌ من دم عشيرة برينغل، وكان ابن أختها من بين أفضل طلّابها في المدرسة. لذلك لم تجهد آن عقلها كثيرًا حتّى تكون لطيفةً معها، ما عدا حذرها من ألّا تذكر أبدًا ولو بالتّلميح أنّها «تخيط من أجل لقمة العيش». إذ يقال إنّ الآنسة فالنتاين حسّاسةٌ جدًّا حين يتعلّق الأمر بهذه النّقطة بالذّات.

قالت الآنسة فالنتاين: «أنا سعيدةٌ بالصّدفة الّتي جعلتني أكون هنا هذا المساء. يمكنني أن أخبرك كلّ شيءٍ عن كلّ الّذين غيّبهم الموت في هذه المقبرة. أنا أردّد دائمًا أنّه على المرء أن يعرف بواطن الجثامين وظواهرها لينعم بنزهةٍ رائقةٍ في المقبرة. أحبّ التّجوّل هنا أكثر من ذلك المدفن الجديد. وحدها العائلات *العريقة* تُوارى التّراب هنا، ولكن عامّة النّاس تُدفن في المقبرة الجديدة. عائلة كورتالو مدفونةٌ في هذا الرّكن. يا إلهي، لقد شهدت عائلتنا عددًا هائلًا من الجنائز».

أجابتها آن، فقط لأنّه من الجليّ أنّ الآنسة فالنتاين كانت تتوقّع منها أن تقول شيئًا: «أعتقد أنّ كلّ عائلةٍ عريقةٍ شهدت ذلك أيضًا».

قالت الآنسة فالنتاين وقد تملّكتها الغيرة: «لا تقولي لي إنّ *كلّ* العائلات كانت لها مآتم في عدد مآتمنا. نحن عشيرة تتأثّر كثيرًا بالأمراض الصّدريّة، وأغلب من مات فينا كان جرّاء سعلةٍ واحدةٍ.

هذا قبر العمّة بيسي. كانت قدّيسةً، لو أنّه وُجدت بالفعل قدّيساتٌ. ولكن لا شكّ في أنّ الحديث كان أكثر متعةً مع أختها العمّة سيسيليا. قالت لي آخر مرّةٍ رأيتُها فيها: «اجلسي يا عزيزتي، اجلسي. سأموت اللّيلة على السّاعة الحادية عشرة وعشر دقائق، ولكنّ هذا ليس سببًا يمنعنا من أن نمتّع أنفسنا ببعض القيل والقال لآخر مرّةٍ». الأمر الغريب أيّتها الآنسة شيرلي أنّها فارقت الحياة على السّاعة الحادية عشرة وعشر دقائق. هل لك أن تقولي لي كيف كانت تعرف ذلك؟».

لم تكن آن تعلم كيف لذلك أن يحصل.

«جَدُّ جدّي، السّيّد كورتالو، مدفونٌ *هنا*. قدم إلى هنا في العام 1760، وكان يصنع دواليب الغزل ليقتات منها. سمعتُ أنّه صنع ألفًا وأربعمائة منها خلال حياته. وعندما مات، ذكر القسّيس في خطبته آيةً من الكتاب تقول: «وتتبعهم أعمالهم»، فقال العجوز مايروم برينغل إنّ الطّريق إلى الجنّة وراء جدّ جدّي ستغصّ، في هذه الحالة، بعجلات الغزل. هل تظنّين أيّتها الآنسة شيرلي أنّه من حسن الذّوق قول مثل هذه التّعليقات؟».

لو أنّ أحدًا آخر من خارج عائلة برينغل قالها، لما امتعضت آن بكلّ ذلك الحزم قائلةً: «طبعًا لا»، ثمّ تفحّصت شاهدة قبرٍ مزركشٍ بجمجمةٍ وعظمتين متقاطعتين، وكأنّها تتساءل عمّا إذا كان هذا أيضًا من حسن الذّوق.

«ابنة عمّتي دورا مدفونةٌ *هنا*. تزوّجت ثلاث مرّاتٍ، ولكنّهم ماتوا جميعهم بسرعةٍ. إذ يبدو أنّه لا حظّ للمسكينة دورا في العثور

على رجلٍ ينعم بصحّةٍ جيّدةٍ. كان اسم زوجها الأخير بينجامين بانينغ... غير مدفونٍ هنا... بل في لوفيل حذو زوجته الأولى... ولم يكن يقبل بفكرة الموت. كانت دورا تقول إنّه ذاهبٌ إلى عالمٍ أفضل، وكان يجيبها المسكين «بين»: «ربّما، ربّما، ولكنّني تعوّدت نسبيًّا على عِلل هذا العالم». تناول واحدًا وستّين نوعًا من الدّواء، ورغم ذلك بقي حيًّا لمدّةٍ طويلةٍ. أمّا العمّ دافيد كورتالو، فعائلته كلّها *هنا*. توجد وردةٌ أرجوانيّةٌ مغروسةٌ عند قدم كلّ قبرٍ من قبورهم، ويا إلهي كم تنبت هذه الورود بسرعةٍ هنا! آتي هنا كلّ صيفٍ وأقطفها لأضعها في آنية الورود في بيتي. من المؤسف أن ندعها تضيع هدرًا، ألا تعتقدين ذلك؟».

«أ... أعتقد ذلك».

تنهّدت الآنسة فالنتاين وقالت: «*هنا* ترقد أختي المسكينة هاريت الّتي تصغرني سنًّا. كان لها شعرٌ يأخذ بالألباب... لونه مثل لون شعرك... ولكن ربّما لم يكن بتلك الحُمرة. كان يصل إلى ركبتيها. لقد كانت مخطوبةً حين وافاها الأجل. أخبروني أنّك مخطوبةٌ أيّتها الآنسة شيرلي. لم أحبّ فكرة الزّواج كثيرًا، ولكن ربّما من الجميل لو كنت مخطوبةً. أوه، بطبيعة الحال تسنّت لي فرصٌ عديدةٌ... ربّما كنتُ صعبة الإرضاء... ولكن لا يمكن لأيّ فتاةٍ من عائلة كورتالو أن تتزوّج هكذا من *أيّ* شخصٍ يعترضها، أليس كذلك؟».

طبعًا لا يمكنها ذلك.

«فرانك ديغبي... هناك في ذلك الرّكن تحت نبات السّماق...

كان يريدني. شعرتُ *في السّابق* بقليلٍ من الندم لأنّي رفضته... ولكن يا إلهي، إنّه من عائلة ديغبي! كان قد تزوّج بعد ذلك من جورجينا تروب. دأبت على الذّهاب إلى الكنيسة متأخّرةً قليلًا حتّى تتبختر أمام الجميع بملابسها. يا إلهي، كم كانت مولعةً بالملابس! لقد دُفنت في فستانٍ أزرق رائعٍ... كنتُ قد خِطته لها لتلبسه في حفل زواجها، ولكنّها ارتدته في النّهاية يوم جنازتها. لها ثلاثة أطفالٍ صغارٍ لطفاء. لطالما كانوا يجلسون أمامي في الكنيسة، وكنت دائمًا أعطيهم الحلوى. هل تعتقدين أيّتها الآنسة شيرلي أنّه من غير الجائز إعطاء الأطفال الحلوى داخل الكنيسة؟ لم تكن حلوى بالنّعناع... كان ذلك سيكون مقبولًا جدًّا... هناك نفسٌ دينيٌّ في حلوى النّعناع، ألا تعتقدين ذلك؟ ولكنّ أولئك الأطفال المساكين لا يحبّونها بالنّعناع».

عندما نفد كلّ التّراب المأهول بأموات عشيرة كورتالو، أصبحت ذكريات الآنسة فالنتاين أكثر طعمًا وحيويّةً. وحينها لم يكن يهمّ في الحقيقة أن تكون من هذه العائلة أم لا.

«ترقد زوجة السّيّد راسل برينغل هنا. غالبًا ما أتساءل عمّا إذا كانت في الجنّة أم لا».

قالت آن وقد انقطع نفسها من الصّدمة: «ولكن لماذا؟».

«كانت شديدة الكره لأختها، ماري آن، الّتي فارقت الحياة قبلها بأشهرٍ. وتردّد دائمًا: «إذا ذهبت آن ماري إلى الجنّة، فلن أمكث هناك». وهي امرأةٌ دائمًا ما أوفت بوعودها يا عزيزتي... على طريقة كلّ عشيرة

برينغل. ولدت ولقبها برينغل، وتزوّجت من ابن عمّها راسل. وأمّا هذه فهي زوجة السّيّد دان برينغل... جانيتا بيرد. حين ماتت، كان عمرها سبعين سنةً ينقصها يومٌ واحدٌ. يقول النّاس إنّها كانت تعتقد أنّ من الخطيئة الموت بعد يومٍ واحدٍ من عمر السّتّين وعشرة أعوامٍ، لأنّ ذلك هو الحدّ الّذي وضعه الكتاب المقدّس. النّاس يقولون أشياء غريبة، أليس كذلك؟ سمعتُ أيضًا أنّ الموت هو الشّيء الوحيد الّذي تجرّأت على فعله دون طلب ذلك من زوجها. هل تعلمين يا عزيزتي ماذا فعل حين اشترت قبّعةً لم ترق له؟».

«لا يمكنني تخيّل ذلك».

قالت الآنسة فالنتاين بنبرةٍ مهيبةٍ: «لقد ازدردها. طبعًا كانت قبّعةً صغيرة الحجم... رباط وبعض الزّهور... لم يكن عليها ريشٌ. ورغم ذلك لا شكّ أنّه وجد صعوبةً بالغةً في هضمها. سمعتُ أنّه عرف أوجاعًا في بطنه أقضّت مضجعه وقتًا طويلًا. طبعًا لم أره يأكلها، ولكنّ أناسًا كثيرين أكّدوا لي صحّة ما أقول. هل تظنّين أنّ الحكاية كانت صحيحةً؟».

قالت آن بشيءٍ من المرارة: «أصدّق كلّ شيءٍ يمكن أن يصدر عن عائلة برينغل».

ضغطت الآنسة فالنتين على ذراعها في شيءٍ من التّعاطف.

«أنا أشفق عليك... فعلًا أنا أحسّ بما تحسّين. تلك الطّريقة الّتي يعاملونك بها شائنةٌ. ولكنّ سامرسايد ليست *كلّها* برينغل، أيّتها الآنسة شيرلي».

قالت آن في ابتسامةٍ كئيبةٍ: «يهيّأ لي في بعض الأحيان أنّها كذلك».

«كلّا، إنّها ليست كذلك. وهناك أناسٌ كثيرون يريدون أن يروا كعبك أعلى منهم. لا ترضخي لهم مهما فعلوا. إنّه فقط إبليس العجوز الّذي بداخلهم. ولكنّهم متماسكون ومتكاتفون بعضهم مع بعضٍ، والسّيّدة سارة كانت ترغب بشدّةٍ في أن يتسلّم ابن عمّها مقاليد المدرسة.

ترقد عائلة نايثن برينغل *هنا*. كان نايثن مهووسًا بفكرة أنّ زوجته كانت تحاول دسّ السّمّ له، ولكن يبدو أنّه لم يكن يمانع في ذلك. قال إنّ ذلك جعل حياته أكثر إثارةً. ذات مرّةٍ ساورته الشّكوك في أنّها وضعت له الزّرنيخ[1] في عصيدته. فخرج وأطعمها لخنزيرٍ. مات الخنزير إثرها بثلاثة أسابيع. ولكنّه قال إنّها قد تكون مصادفة، وأنّه في كلّ الأحوال لم يكن متأكّدًا أنّه الخنزير نفسه. ماتت في النّهاية قبله، ولطالما ردّد بعد ذلك أنّها كانت دائمًا زوجةً صالحةً، ما عدا في تلك الحادثة. أظنّ أنّ من الإحسان القول إنّه كان مخطئًا في *ذلك*».

«تخليدا لذكرى *الآنسة كينزي*». قرأت آن ذلك على إحدى الشّواهد وقالت في ذهولٍ: «كم هو رائعٌ هذا النّقش! هل كان لهذه الآنسة اسمٌ، إلى جانب لقبها؟».

أجابتها الآنسة فالنتاين: «حتّى إن كان لها اسمٌ، فلا أحد يعرفه هنا. لقد أتت من اسكتلندا الجديدة[2]، وعملت لدى عائلة جورج

(1) عنصر كيميائيّ سامّ، ويدخل في تركيبة العديد من المعادن.

(2) مقاطعة في شرق كندا.

برينغل على مدى أربعين سنةً. قدّمت نفسها على أنّها الآنسة كينزي، وناداها الجميع بهذا الاسم. ماتت على حين غرّةٍ، ثمّ اكتشف النّاس أن لا أحد يعرف اسمها الأوّل، ولم يكن لها أقرباء يمكن العثور عليهم. فوضعوا ذلك على شاهدة قبرها... لقد أحسنت عائلة برينغل دفنها، ودفعوا المال لإقامة ذلك النّصب. لقد كانت مخلصةً وكادحةً في عملها، ولكن لو رأيتها فستظنّين أنّها *ولدت* فعلًا الآنسة كينزي. وهنا ترقد عائلة جايمس مورلي. كنت حاضرةً في احتفالهما بمرور خمسين سنةً على زواجهما. يا لها من جعجعة!... هدايا وخُطبٌ وورودٌ... وكلّ أولادهما يشاركونهما الفرح... ثمّ الكثير من الابتسام والانحناء، وهما يكرهان بعضهما حدّ الموت».

«يكرهان بعضهما؟».

«كرهًا شديدًا يا عزيزتي. والجميع يعرفون ذلك. كانا لا يطيقان العيش معًا لسنواتٍ طويلةٍ... تقريبا كلّ سنوات زواجهما في الحقيقة. لقد تخاصما وهما في طريق العودة من الكنيسة إلى منزلهما مباشرةً بعد حفل الزّفاف. غالبًا ما أتساءل كيف يرقدان هنا بسلامٍ جنبًا إلى جنبٍ».

ارتعدت آن مرّةً أخرى. كم هو فظيعٌ أن... يجلسا متقابلين على الطّاولة... وأن يستلقيا جنبًا إلى جنب خلال اللّيل... وأن يذهبا إلى الكنيسة وأبناؤهما في أحضانهما لتعميدهم... وهما يتبادلان الكره كلّ ذلك الوقت! ولكن لا شكّ أنّهما قد أحبّا بعضهما في البداية. هل

يمكن أن تكون هي وجيلبرت... ما هذا الهراء! لقد بدأت عشيرة برينغل تثير أعصابها.

«الوسيم جون ماك تاب مدفونٌ هنا. لطالما شكّ النّاس أنّه السّبب في انتحار أنيتا كينيدي غرقًا. لقد كان جميع أفراد عائلة ماك تاب في غاية الوسامة، ولكن لا يمكن تصديق أيّ كلمةٍ كانوا ينطقون بها. كانت هنا شاهدة قبرٍ باسم عمّه صامويل، الّذي راجت أخبارٌ عن غرقه منذ خمسين عامًا. ولمّا ظهر بعد ذلك حيًّا، أزيلت تلك الشّاهدة. ولكنّ الرّجل الّذي اشترتها العائلة من عنده رفض استرجاعها، فاستعملتها زوجة السّيّد صامويل خوانًا تعجن عليه الدّقيق. إنّني أتحدّث عن لوحٍ من الرّخام لخلط الدّقيق وعجنه فوقه! قالت الزّوجة إنّ تلك اللّوحة تفي تمامًا بالغرض. وكان أطفال عائلة ماك تاب يأتون إلى المدرسة ومعهم بسكويت نتأتْ منه حروفٌ وأرقامٌ... وفتاتُ ما بقي من رخامة قبرٍ. كانوا يغدقونها علينا بسخاءٍ، ولكنّني لم أستطع إقناع نفسي بأكل واحدةٍ منها. السّيّد هارلي برينغل يرقد *هنا*. كان عليه ذات مرّةٍ أن يدفع على طول الشّارع الرّئيسيّ، وهو يلبس قلنسوته، برويطةً[1] قبع فيها بيتر، وذلك بعد رهانٍ انتخابيٍّ. حضر لمشاهدة العرض كلّ أهالي سامرسايد... ما عدا عشيرة برينغل، بطبيعة الحال. كادوا يموتون من العار. وهنا ترقد ميلي برينغل. كنت شغوفةً بها، حتّى وإن كانت من عائلة برينغل. كانت فاتنة الحسن ورشيقة الخطى

(1) عربة يدويّة صغيرة.

مثل جنّيّةٍ. تخامرني يا عزيزتي في بعض الأحيان فكرةُ أنّها في ليالٍ مثل هذه تتسلّل ولا شكّ من خارج قبرها، وترقص كما كانت تفعل دومًا. ولكنّني أظنّ أنّ مسيحيًّا جيّدًا يجب ألّا تراوده مثل هذه الأفكار. وهذا قبر هارب برينغل. كان من بين الظّرفاء في هذه العشيرة، وكان يجعل الجميع يضحكون. ضحك ذات مرّةٍ ضحكةً دوّت لها الكنيسة... حين سقط فأرٌ من بين الأزهار الّتي تزيّن قبّعة ميتا برينغل بينما كانت تنحني في صلاتها. ولكنّني لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بالضحك في تلك اللّحظة، ولم أكن أعرف إلى أين ذهب الفأر. فشددتُ تنورتي بإحكامٍ حول كاحليَّ وبقيت على تلك الحال إلى أن انتهى القدّاس، ولكنّ ذلك أفسد خطبة القسّيس كلّها. كان هارب برينغل يجلس خلفي حين أطلق تلك الضّحكة المدوّية. ظنّ النّاس الّذين لم يروا الفأر أنّه أصيب بمسٍّ من الجنون. لقد خيّل لي حينها أنّ تلك الضّحكة لا *يمكنها* أن تموت أبدًا. لو كان على قيد الحياة لوقف إلى جانبكِ، في مواجهة سارة وغير سارة. أمّا *هذا*، فهو بطبيعة الحال نُصب القبطان أبراهام برينغل».

كان الضّريح يهيمن على المقبرة كلّها. وكانت هناك أربع منصّاتٍ صخريّةٍ منحسرةٍ تكوّن الرّكيزة المربّعة الشّكل الّتي انتصب عليها عمودٌ ضخمٌ من الرّخام، تعلوه جرّة سخيفةٌ وملفوفةٌ في رداءٍ، وتحتها تمثال كاروبيم[1] ينفخ في بوقٍ.

قالت آن دون مواربةٍ: «كم هو قبيحٌ!».

(1) ملاك طائر في الدّيانة المسيحيّة.

قالت الآنسة فالنتاين وقد بدت مشدوهةً قليلًا: «أوه، هل تعتقدين ذلك بالفعل؟ لقد رأى النّاس أنّ هذا النّصب في غاية الجمال حين شُيّد هنا. من المفترض أن يكون هذا الملاك إسرافيل وهو ينفخ في الصّور. أظنّ أنّه يضفي على المقبرة مسحةً من الأناقة. لقد تكلّف ذلك تسعمائة دولار. لقد كان القبطان أبراهام رجلًا راقيًا جدًّا. خسارةٌ كبيرةٌ أن يموت. لو عاش إلى اليوم فلن تضطهدك العشيرة كما تفعل الآن. لا عجب في افتخار سارة وإلين به، ولكنّهما تبالغان في ذلك قليلًا».

التفتت آن عند بوّابة المقبرة ونظرت إلى الوراء. كان صمتٌ غريبٌ وهادئٌ يكتنف تلك الرّقعة من الأرض الّتي خمد فيها الرّيح. أخذت الأصابع الطّويلة لضوء القمر تتسرّب بين أشجار التّنّوب القاتمة، وتلامس شواهد القبور هنا وهناك، محدثةً ظلالًا غير مألوفةٍ بينها. ومع ذلك، لم تكن المقبرة في تلك اللّيلة مكانًا للحزن على أيّة حالٍ. إذ بدا النّاس فيها أحياء يرزقون، لاسيّما بعد القصص الّتي روتها الآنسة فالنتاين عنهم.

لّما كانتا تسيران على طول المسلك، قالت لها الآنسة فالنتاين وقد بدا عليها القلق: «سمعتُ أنّك تكتبين. لن تضعي الأشياء الّتي قلتها لك في قصصك، أليس كذلك؟».

طمأنتها آن قائلة: «تأكّدي أنّني لن أفعل ذلك أبدًا».

همست الآنسة فالنتاين وقد زاد هاجسها: «ألا تظنّين أنّ من الشائن... أو الخطير... أن نغتاب الأموات؟».

قالت آن: «لا أعتقد ذلك بالضّبط. فقط هو... من الجائر الحديث عنهم... مثل ضرب العزّل الّذين لا يقدرون على الدّفاع عن أنفسهم. ولكنّك أيّتها الآنسة كورتالو، لم تقولي أيّ شيءٍ مهينٍ عن أيّ واحدٍ منهم».

«بلى، قلتُ لك إنّ نايثن برينغل كان يعتقد أنّ زوجته تحاول دسّ السّمّ في أكله...».

«ولكنّك منحتها مبدأ الانتفاع بقرينة الشّكّ..» فسلكت الآنسة فالنتاين طريقها إلى منزلها قريرة العين.

(6)

كتبت آن إلى جيلبرت بعد أن عادت إلى منزلها: «ضربتُ الأرض في اتّجاه المقبرة هذا المساء». أعتقد أنّ «ضربت الأرض» عبارةٌ رائعةٌ وأريد دسّها حيثما استطعت ذلك. ربّما يبدو الأمر غريبًا حين أقول إنّني تمتّعتُ بجولتي في المقبرة، ولكنّها كانت فعلًا نزهةً رائقةً. وحكايات الآنسة كورتالو كانت مسلّيةً جدًّا. تمتزج الملهاة بالمأساة كثيرًا في هذه الحياة يا جيلبرت. الهاجس الوحيد الّذي سكن كياني هو حكاية الزّوجين اللّذين عاشا معًا خمسين عامًا، وتبادلا الكُره طيلة هذا الوقت. لا أصدّق أنّهما فعلا ذلك حقًّا. أحدهم قال إنّ «الكره هو الحبّ الّذي ضَلّ طريقه». أنا متأكّدةٌ أنّهما من وراء كلّ ذلك الكره، كانا يتبادلان الحبّ... كما كنت أحبّك بصدقٍ طيلة كلّ السّنين الّتي ظننت فيها أنّني أكرهك... وأعتقد أنّ الموت برهن لهما على ذلك. أنا سعيدة لأنّني أدركت هذه الحقيقة وأنا مازلت في هذه الحياة. كما أدركتُ أنّ هناك من عائلة برينغل من هم شرفاء ووقورون... ولكنّهم في عداد الأموات الآن.

عندما نزلتُ البارحة بحثًا عن شربة ماءٍ، ألفيتُ العمّة كايت

ترطّب وجهها باللّبن المخيض في غرفة المؤونة. طلبَت منّي ألّا أخبر تشاتي... لأنّها ستُسيء الظّنّ بها. وعدتُها ألّا أقول شيئا.

مازالت إليزابيث تأتي لتناول الحليب، بالرّغم من أنّ «المرأة» قد استعادت عافيتها من الالتهاب في رئتيها. ساورتني الشّكوك في إخلاء سبيل الصّغيرة، ولاسيّما أنّ السّيّدة كامبل العجوز هي من آل برينغل. عندما افترقنا ليلة السّبت الماضي، شرعت إليزابيث... وأظنّها كانت «بيتي» تلك اللّيلة... في العدو وهي تغنّي، وسمعتُ بوضوحٍ «المرأة» تقول لها عند باب السّقيفة: «نحن في يوم السّبت المقدّس، ولا يجدر بك أن تغنّي مثل *هذه* الأغنية». أنا شبه متأكّدةٍ أنّ «المرأة» كانت ستمنع إليزابيث من الغناء متى استطاعت، وفي أيّ يومٍ من أيّام الأسبوع!

في تلك اللّيلة ارتدت إليزابيث فستانًا جديدًا في لون النّبيذ الدّاكن... كانتا *بالفعل* تهتمّان بهندامها... وقالت لي بنبرةٍ حزينةٍ: «أظنّ أنّني أبدو على شيءٍ من الجمال هذه اللّيلة حين أرتدي هذا الفستان، أيّتها الآنسة شيرلي، وأتمنّى لو كان أبي هنا ليراني. طبعًا سيراني في هذا الفستان حينما يأتي «الغد»... ولكنّ هذا «الغد» يبدو متثاقلًا في المجيء. أتمنّى لو يمكننا التّسريع في الزّمن قليلًا أيّتها الآنسة شيرلي».

عليّ الآن، يا عزيزي جيلبرت، أن أقوم ببعض تمارين الهندسة. لقد غلبت تمارين الهندسة الرّياضيّة على «جهودي الأدبيّة» كما تقول ريبيكا. والهاجس الّذي يقضّ مضجعي كلّ يومٍ وأنا في طريقي إلى

المدرسة هو الخوف من تمرينٍ يُثار فجأةً في الصّفّ ولا يمكنني حلّه. ماذا سيقول عنّي آل برينغل حينها، آه، ثمّ... آه، ماذا سيقولون عنّي!

في الأثناء، وبما أنّك تحبّني وتحبّ فصيلة السّنّوريّات، صلِّ معي لذلك القطّ المكسور القلب الّذي يعامل بقسوةٍ. منذ بضعة أيّامٍ، داس فأرٌ على ساق ريبيكا ديو في غرفة المؤونة، ولم يهدأ غضبها منذ تلك اللّحظة. «ذلك القطّ لا يفعل شيئًا سوى الأكل والنّوم وترك الفئران تَعيث في المكان فسادًا. لقد طفح الكيل». صارت تلاحقه من مكانٍ إلى آخر، وتطرده من وسادته المفضّلة... أعرف هذا لأنّني رأيتها تفعل ذلك... وتدفعه بساقها في قسوةٍ حين تدعه يخرج من المنزل.

(7)

ذات مساء جمعةٍ، وفي نهاية يومٍ من أيّام ديسمبر المعتدلة والمشمسة، ذهبت آن إلى لوفيل لتشارك في عشاء الدّيك الرّوميّ بالكنيسة. كان منزل ويلفراد برايس في لوفيل حيث يعيش مع عمٍّ له، وكان قد طلب منها بخجلٍ الخروجَ معه بعد الدّروس، والذّهاب إلى عشاءٍ على ديكٍ روميٍّ في الكنيسة، وقضاء يوم السّبت في منزله. وافقت آن على ذلك، ممنّيةً النّفس بإقناع عمّه حتّى يترك ابن أخيه يواصل دراسته. كان ويلفراد جزعًا من أن يُحرم المدرسةَ بعد رأس السّنة. كان طفلًا حاذقًا وطموحًا، وشعرت آن باهتمامٍ كبيرٍ نحوه.

يمكن القول إنّها لم تستمتع كثيرًا بتلك الزّيارة، ما عدا الارتياح الّذي خلّفته في نفس ويلفراد. فقد كان عمّه وعمّته غريبَي الأطوار وسَمْجَي السّلوك. كان صباح يوم السّبت قاتمًا وكثير الرّياح مع نُدَفٍ من الثّلج، وأوّل شيءٍ فكّرت فيه آن هو كيف لها أن تقضّي ذلك اليوم هناك. شعرت بالإعياء والنّوم بعد السّاعات المتأخّرة الّتي قضّتها في عشاء الكنيسة، وكان على ويلفراد مساعدة عمّه في درس الحنطة بالبيدر، فضلًا عن عدم وجود أيّ كتابٍ في المنزل

لتقرأه. ثمّ جال بذهنها صندوق البحّارة القديم والرّثّ الّذي لمحته خلف سلالم البهو، وتذكّرت طلب السّيّدة ستانتن. كانت السّيّدة ستانتن بصدد كتابة تاريخ مقاطعة برينس، وقد طلبت من آن ما إذا كانت تعرف، أو تستطيع البحث عن أيّة مذكّراتٍ أو وثائق قديمةٍ يمكن أن تساعدها في عملها.

قالت السّيّدة ستانتن: «بالتّأكيد لدى عشيرة برينغل أشياء كثيرةٌ يمكن الاستعانة بها. ولكنّني لا أستطيع طلب ذلك منهم. تعرفين العداوة بين عائلتَيْ برينغل وستانتن».

قالت آن: «ولا أستطيع طلب ذلك منهم أيضًا، للأسف».

«أوه، أنا لا أنتظر منك أن تطلبي منهم شيئًا. ما أريده هو أن تبقي مفتوحة العينين عند زياراتك منازلَ النّاس الآخرين، وإذا عثرتِ أو سمعتِ عن أيّة مذكّراتٍ أو خرائط قديمةٍ أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل، فحاولي أن تقترضيها من أجلي. لا يمكنك أن تتخيّلي الكمّ الهائل من الأشياء المهمّة الّتي عثرت عليها في اليوميّات القديمة... شذراتٌ صغيرةٌ من الحياة الحقيقيّة ستجعل المستكشفين القدامى يعيشون بيننا من جديدٍ. أريد مثل هذه الأشياء في كتابي، بالإضافة إلى بعض الإحصاءات وجداول سلالات النّسب».

سألت آن السّيّدة برايس عمّا إذا كانت تملك مثل هذه السّجلّات المحفوظة، ولكنّها هزّت رأسها نافيةً:

«كلّا، على حدّ علمي. ولكن على فكرة..». ثمّ قالت وقد تألّق وجهها: «في الأعلى هناك صندوقٌ للعمّ آندي. ربّما تجدين شيئًا فيه.

كان بحّارًا مع القبطان أبراهام برينغل. سأخرج وأسأل دانكن عمّا إذا كنتِ تستطيعين النّبش فيه».

جاء الرّدّ من دانكن أنّها تستطيع «النّبش» فيه إذا ما رغبت في ذلك، وأنّ بإمكانها الاحتفاظ بأيّ وثيقةٍ تعثر عليها. على أيّة حالٍ، لقد كان ينوي حرقَ كلّ محتويات الصّندوق ووضعَ بعض الأدوات فيه. وتبعًا لذلك، نقّبت آن عن ضالّتها، ولكنّها لم تعثر سوى على مذكّرةٍ قديمةٍ اصفرّت أوراقُها و«سجلٍّ» يبدو أنّ آندي برايس كان قد احتفظ به طوال كلّ السّنين الّتي قضّاها في البحر. شغلت آن نفسها طيلة فترة الضّحى بقراءة السّجلّ باهتمامٍ ومتعةٍ. لقد كان آندي عارفًا بشؤون البحر وعلومه، وخاض رحلاتٍ بحريّةً كثيرةً مع القبطان أبراهام برينغل، الّذي كان من الواضح أنّه يكنّ له الكثير من الإعجاب. كانت المذكّرة تعجّ بعبارات المدح المليئة بأخطاء النّحو والرّسم، والّتي تثني على شجاعة القبطان ودهائه، ولاسيّما أثناء رحلةٍ جنونيّةٍ قادتهما حول رأس هورن[1]. ولكن يبدو أنّ إعجابه هذا لم يمتدّ إلى «مايروم»، أخي أبراهام، الّذي كان قبطانًا أيضًا، ولكن على باخرةٍ أخرى.

«كنتُ لدى مايروم برينغل هذه اللّيلة. أغضبته زوجته كثيرًا، فنهض من مكانه وألقى بكأس ماءٍ على وجهها».

«لقد عاد مايروم إلى الدّيار. احترقت سفينته فالتجؤوا إلى القوارب. كادوا يموتون من فرط الجوع. وفي النّهاية أكلوا جوناس

(1) آخر بقعة من الجزء الجنوبيّ للقارّة الأمريكيّة.

سيلكيرك الّذي أطلق النّار على نفسه. اقتاتوا منه إلى أن انتشلتهم الباخرة «ماري جي» من الموت. لقد أخبرني مايروم ذلك بعظمة لسانه. كنت أظنّها دعابةً جيّدةً.

ارتعدت أوصال آن حينما قرأت المدخل الأخير، وقد زاد من هوله عرضُ آندي هذه الأحداثَ المقيتةَ بكلّ هدوءٍ. ثمّ استسلمت لأحلام يقظتها. لم يكن في كتاب المذكّرات شيءٌ يمكن أن تستفيد منه السيّدة ستانتن، ولكن ألا يهمّ هذا الأمر الآنستين سارة وإلين، بما أنّه يتضمّن الكثير عن أبيهما الّذي تُجِلّانه بقوّةٍ؟ ماذا لو أرسلت الكتاب إليهما؟ لقد أكّد لها دانكن برايس أنّها يمكن أن تفعل بمحتويات الصّندوق ما يحلو لها.

لا، لن تفعل ذلك. هل كان عليها أن تحاول إرضاءهما أو تغذية أَنَفَتِهما السّخيفة والمتعاظمة إلى حدّ الآن، وهي أَنَفَةٌ لا تحتاج إلى مزيد تطعيمها؟ لقد اعتزمتا إخراجها من المدرسة، وهما على وشك النّجاح في ذلك. وألحقتا بها الهزيمة، هما والعشيرة كلّها.

أخذها ويلفراد ذلك المساء في طريق العودة إلى عزبة الصّفصاف، وكلاهما يشعران بالغبطة. فقد تحدّثت آن إلى دانكن برايس، وأقنعته بالسّماح لويلفراد بإتمام السّنة الدّراسيّة في المدرسة الثّانويّة.

قال ويلفراد: «ثمّ سأنجح في الذّهاب إلى جامعة كوينز لمدّة عامٍ، وأدرّس إثرها وأواصل تعليمي. كيف لي أن أردّ لك الدّين، أيّتها الآنسة شيرلي؟ لم يكن عمّي ليصغي لأيٍّ كان، ولكنّه يحبّك ويحترمك. قال لي ذلك ونحن في البيدر: «يمكن لأيّ فتاةٍ حمراء

الشّعر أن تفعل بي ما تشاء». ولكن لا أعتقد أنّ الأمر يتعلّق بشعرك يا آنسة شيرلي، رغم أنّه جذّابٌ جدًّا، بل ... بك أنت».

أفاقت آن تلك اللّيلة على السّاعة الثّانية، وقرّرت إرسال يوميّات آندي برايس إلى مزرعة مابلهيرست. فبالرّغم من كلّ شيء، هي تُكِنُّ للسّيّدتين العجوزين بعض الإعجاب. وهما تعيشان عيشةً ليس فيها أشياء كثيرةٌ تثلج الصّدر... فقط مفاخرتهما بأبيهما. أفاقت من جديدٍ على السّاعة الثّالثة، وعَدَلَتْ عن قرارها الأوّل. فالآنسة سارّة تتصنّع الصّمم ولا تريد الإصغاء إليها! في الرّابعة صباحًا، تملّكها الشّكّ والتّردّد من جديدٍ. وأخيرًا عَزَمت على إرسالها إليهما. لن تكون حقيرةً. وآن تخشى كثيرًا من تحقير نفسها... مثلما تفعل عائلة «باي».

بعد أن حسمت آن الأمر، خلدت إلى نومٍ عميقٍ وهي تفكّر كم هو جميل أن تستيقظ في عتمة هذا اللّيل وتنصت إلى أوّل العواصف الثّلجيّة في هذا الشّتاء وهي تعوي حول برجها، ثمّ تستكين إلى فراشها تحت الملاءات الدّافئة لتسبح في عالم الأحلام ثانيةً.

في صباح يوم الاثنين، لفّت آن اليوميّات العتيقة بعناية وبعثت بها إلى الآنسة سارة، مع رسالة قصيرة.

عزيزتي الآنسة برينغل،

لا أدري إن كانت هذه المذكّرات القديمة تهمّك. منحني إيّاها السّيّد برايس وهي للسّيّدة ستانتن، ولكنّي لا أظنّها تفيدها في كتابها حول تاريخ المقاطعة، وفكّرتُ أنّها قد تعجبك.

تحيّة طيّبة/ الآنسة شيرلي

قالت آن لنفسها: «يا لها من رسالةٍ جافّةٍ ومنقبضةٍ، ولكن لا يمكن الكتابة إليهما بشكلٍ طبيعيٍّ، ولن أتفاجأ لحظةً إذا ما أعادتا لي الهديّة بتكبّرهما المعهود».

في مساءٍ من أمسيات بداية الشّتاء الّذي اكتسى فيه لونًا أزرق بديعًا، تلقّت ريبيكا ديو صدمةً حياتها. كانت العربة القادمة من مابلهيرست تسير فوق الثّلج النّاعم على طول درب الأشباح، ثمّ توقّفت أمام البوّابة الأماميّة. ترجّلت منها الآنسة إلين ثمّ.. ولذهول الجميع.. تلتها الآنسةُ سارة، الّتي لم تبرح مابلهيرست لعشر سنواتٍ.

قالت ريبيكا ديو وقد انقطعت أنفاسها وأصابها الفزع: «إنّهما قادمتان نحو الباب الأماميّ».

سألتها العمّة كايت: «ومن أين تريدين أن يحلّ علينا أحدٌ من عائلة برينغل؟».

قالت ريبيكا في نبرةٍ مأسويّةٍ: «طبعًا... طبعًا... ولكنّه يلتصق ويصعب فتحه. إنّه يلتصق وأنت تعرفين ذلك. ثمّ إنّه لم يُفتح منذ نظّفنا المنزل كلّه في الرّبيع الماضي. *لقد* طفح الكيل».

كان الباب الأماميّ عالقًا فعلًا في إطاره... ولكنّ ريبيكا ديو جذبته بعنفٍ شديدٍ كادت تقتلعه معه، ورحّبت بسيّدتَيْ مابلهيرست وأدخلتهما إلى صالة الاستقبال.

قالت في نفسها: «حمدًا لله أنّ لدينا بعض النّار المشتعلة اليوم، وآمل أنّ ذلك القطّ لم يسقط شعره على الأريكة. لو علق شعر القطّ في فستان سارة برينغل، وفي صالة استقبالنا..».

لم تتجرّأ ريبيكا ديو على تخيّل العواقب. ذهبت لتنادي آن من غرفة البرج بعد أن سألتها الآنسة سارة عمّا إذا كانت الآنسة شيرلي موجودةً في البيت، ثمّ انطلقت إلى المطبخ، وهي تكاد تجنّ من الفضول والتّساؤل عن السّبب الّذي يجعل عانستَيْ برينغل تأتيان إلى هنا لرؤية الآنسة شيرلي.

قالت ريبيكا ديو بنبرةٍ غامضةٍ: «إذا قدمتا هنا لمزيد اضطهادها، فسوف..».

آن نفسها نزلت الدّرج وهي ترتعد من الخوف. هل قدمتا لتعيدا اليوميّات ومعها مزيدٌ من التّرفّع والنّظرات المتجمّدة؟

لقد كانت الآنسة سارة – تلك السّيّدة القصيرة القامة والمجعّدة الوجه والقاسية العينين – هي الّتي نهضت من مكانها وتحدّثت دون مقدّمةٍ عندما دخلت آن الغرفةَ.

قالت بشيءٍ من المرارة: «لقد قدمنا هنا للاستسلام. لا يمكننا فعل أيّ شيءٍ آخر... طبعًا أنت تعلمين هذا حين عثرتِ على ذاك المدخل المخزي حول العمّ مايروم المسكين. لم يكن ذلك صحيحًا... لا يمكن أن يكون كذلك. كان العمّ مايروم يريد فقط استفزاز آندي برايس بهذه الحكاية... وصدّقها آندي سريعًا. ولكنّ كلّ مَن هم خارج العائلة سيكونون سعداء جدًّا بتصديقها. تعرفين أنّ مثل هذه القصص يمكن أن تجعل منّا أضحوكةً بين النّاس... وأكثر من ذلك. أوه، أنتِ شديدة الذّكاء. نحن نقرّ *بذلك*. ستعتذر منك جان وستتصرّف بأدبٍ من الآن فصاعدًا... أنا، سارة برينغل أؤكّد

لك ذلك. فقط عديني ألّا تخبري السّيّدة ستانتن... أو أيّ شخص آخر... لن نفعل لك شيئًا... مطلقًا».

اعتصرت الآنسة سارة منديلها الأنيق من الدّانتيلا بين يديها الصّغيرتين اللّتين تخلّلتهما عروقٌ زرقاء. كانت يداها ترتجفان.

حدّقت فيها آن بذهولٍ... ورعبٍ. يا للعجوزين المسكينتين! لقد ظنّتا أنّها تهدّدهما!

هتفت آن في دهشةٍ وقد أمسكت بيدَي الآنسة سارة المثيرتين للشّفقة: «لقد أسأتما فهمي كثيرًا. أنا... أنا لم أتخيّل قَطُّ أنّكما ستظنّان أنّي أحاول... أوه، لقد فكّرت فقط في أنّكما ستسرّان حين تطّلعان على كلّ هذه التّفاصيل المثيرة للاهتمام حول والدكما الرّائع. لم أتخيّل قطُّ أنّي أبدي ذلك المدخل من المذكّرات أو أتحدّث عنه لأيّ أحدٍ. لم أعتقد حتّى أنّه بتلك الأهمّيّة. ولن أفعل ذلك ما حييتُ».

خيّم الصّمت على الغرفة لوهلةٍ. ثمّ سحبت الآنسة سارة يديها بلطف، ومسحت بالمنديل عينيها، وقد علت محيّاها الجميل المتجعّد حمرةٌ خفيفةٌ.

«نحن.. نحن فعلًا أسأنا فهمك، يا عزيزتي. وكنّا.. كنّا بغيضتين معك. هلّا غفرت لنا؟».

بعد نصف ساعةٍ... نصف ساعةٍ فارقت فيها ريبيكا ديو هذه الحياة... غادرت الآنستان برينغل عزبة الصّفصاف. كانت نصف ساعةٍ من الحديث والنّقاش الودّيّ حول البنود الّتي لا تثير الفتن في يوميّات آندي. وعند الباب الأماميّ، استدارت الآنسة سارة...

الّتي لم يكن لها أيّ مشكلٍ في السّمع خلال المقابلة... وأخذت من حقيبة يدها ورقةً صغيرةً كتب عليها بأحرفٍ جميلةٍ وثاقبةٍ: «لقد كدت أنسى... وعَدنا السّيّدة ماكلين منذ مدّةٍ بإرسال وصفة الطّبخ الخاصّة بالكعكة الإسفنجيّة. لعلّك لا تمانعين في تسليمها إيّاها؟ وأخبريها أنّ عمليّة الإنضاج غاية الأهمّيّة... لا مناص منها فعلًا. إلين، قبّعتك مائلةٌ قليلًا وتغطّي إحدى أذنَيك. من الأفضل أن تعدّليها قبل أن نغادر. لقد كنّا... كنّا مرتبكتين قليلًا حين ارتدينا ملابسنا».

أخبرت آن الأرملتين وريبيكا ديو أنّها سلّمت سيّدات مابلهيرست يوميّات آندي برايس القديمة، وأنّهما قدمتا إلى هنا امتنانًا منهما لهذه الهديّة. وبهذه التّعلّة كنّ ثلاثتهنّ قد صدّقن ورضين بالأمر، رغم أنّ ريبيكا ديو كانت دائمًا تشعر بأنّ شيئًا أكبر من ذلك وراء هذه الزّيارة... شيئًا أكبر بكثيرٍ. فالامتنان من أجل مذكّراتٍ مترهّلةٍ وباهتةٍ ومبقّعةٍ بالتّبغ لا يمكن أن يكون السّبب الّذي جعل سارة برينغل تأتي بنفسها إلى باب عزبة الصّفصاف الأماميّ. بحر هذه الآنسة شيرلي عميقٌ... عميقٌ جدًّا!

قالت ريبيكا ديو وهي تأخذ على نفسها عهدًا: «بعد الّذي حدث، سأفتح ذلك الباب الأماميّ مرّةً كلّ يومٍ، حتّى لا يهلك ويدوم استعماله. كدت أفترش الأرض حينما قارب الباب على الإذعان لي. على أيّة حالٍ، لقد ظفرنا بوصفة الكعكة الإسفنجيّة. ستّ وثلاثون بيضةً! إذا تخلّصنا من ذلك القطّ، وتركتموني أربّي بعض الدّجاجات، يمكن لنا أن نعدّ هذه الكعكة ولو مرّةً واحدةً».

ومن ثمّ، سارت ريبيكا ديو نحو المطبخ وتواطأت مع المصير المحتوم للقطّ المسكين، وأعطته بعض الحليب وهي تعرف جيّدًا أنّه يريد قطعة من الكبد.

ولّى زمن الضّغينة بين الآنسة شيرلي وعائلة برينغل. لا أحد من خارج العائلة كان يعرف السّبب، ولكنّ سكّان سامرسايد فهموا أنّ الآنسة شيرلي هزمت بمفردها، وعلى نحوٍ فيه الكثير من الغموض، كلَّ العشيرة الّتي أصبحت منذ ذلك اليوم تسعى إلى أن تخطب ودّها.

عادت جان إلى المدرسة في اليوم الموالي واعتذرت بكلّ وداعةٍ من آن، وأمام جميع زملائها في الدّراسة. أصبحت بعد ذلك تلميذةً مثاليّةً وخطا على دربها كلّ التّلاميذ من عائلة برينغل. وأمّا الرّاشدون من العشيرة، فقد تبخّرت عداوتهم لها كما ينقشع الضّباب أمام أشعّة الشّمس. اختفت الشّكاوى المتعلّقة بـ«الانضباط» والواجبات المنزليّة، وتلاشت كلّ مظاهر الازدراء المنمّق والخفيّ الّذي كان يميّز الأسرة ومن لفّ لفّهم. ثمّ إنّهم تدافعوا لكسب ودّها، ولم تعد حفلات الرّقص والزّحلقة تخلو من حضورها مطلقًا. وبالرّغم من أنّ الآنسة سارة كانت قد ألقت بالمذكّرة الفتّاكة لتلتهمها النّيران، فإنّ الذّكرى باقيةٌ لا تموت، وللآنسة شيرلي قصّةٌ ترويها إذا ما أرادت ذلك. ولكن مهما يكن من أمرٍ فإنّه لا ينبغي لتلك الفضوليّة السّيّدة ستانتن معرفةُ أنّ القبطان مايروم برينغل كان آكلًا للحوم البشر!

(8)

(مقتطفات من رسالةٍ إلى جيلبرت)

أنا في برجي الآن، وريبيكا ديو تترنّم في المطبخ بأنشودةٍ من أناشيد عيد الميلاد تُدعى «*هل كان بالإمكان غير الصّعود؟*» وقد ذكّرني غناؤها بطلبٍ من زوجة القسّيس دعتني فيه إلى الغناء ضمن الجوقة! وبطبيعة الحال فإنّ عائلة برينغل اقترحت عليها ذلك. قد أفعل ذلك في الآحاد الّتي لا أقضّيها في غرين غايبلز. لقد مدّت لي عشيرة برينغل «يمين الشّركة»[1] وكأنّها تريد أن تثأر من شيءٍ مّا... لقد قبلوا بي قلبًا وقالبًا. يا لها من عشيرةٍ!

حضرتُ ثلاث حفلاتٍ أقامتها عائلة برينغل. ليس من التباهي في شيءٍ حين أقول إنّ كلّ فتيات هذه العائلة أصبحن يقلّدنني في أسلوب تصفيف شعري. لا شكّ في أنّ «التّقليد هو أصدق أشكال الإطراء». وأنا حقًّا أحبّهنّ يا جيلبرت، كما كنت أعلم دائمًا كلّما أعطينني الفرصة. وقد بدأت أشعر أيضًا أنّي سأجدُني عاجلًا أو آجلًا معجبةً بالطّفلة جان. إنّها ساحرةٌ وجذّابةٌ حين تريد أن تكون كذلك، ومن الجليّ أنّها تريد هذا بشدّة.

(1) من العهد الجديد في الإنجيل، وتعني اليد اليمنى للصّداقة.

ليلة البارحة واجهتُ الأسد في عرينه... فقد صعدتُ بكلّ جرأةٍ الدّرجات الأماميّة للمنزل «الدّائم الخضرة»، نحو السّقيفة المربّعة الشّكل، وجرّاتها الحديديّة الأربع والمطليّة باللّون الأبيض والمنتصبة في كلّ ركنٍ منها، ثمّ قرعتُ الجرس. عندما فتحت الآنسة مونكمان الباب، طلبتُ منها أن تسمح لإليزابيث بمرافقتي في نزهةٍ. كنتُ أتوقّع الرّفض، ولكن بعد أن عادت «المرأة» إلى الدّاخل واجتمعت بالسّيّدة كامبل، ظهرت من جديدٍ وقالت بنبرةٍ قاسيةٍ إنّ إليزابيث يمكنها الذّهاب معي ولكنّها طلبت منّي ألّا أتأخّر في العودة بها. شككت لوهلةٍ في أنّ السّيّدة كامبل تتلقّى الأوامر من عند الآنسة سارة.

أتت إليزابيث وهي ترقص على الدّرج الكالح، وبدت وكأنّها جنّيّةٌ صغيرةٌ في معطفها الأحمر وقبّعتها الصّغيرة الخضراء. كانت معقودة اللّسان من فرط السّرور.

حالما ابتعدنا قليلًا، همست لي قائلةً: «أشعر بالخجل والسّعادة يسريان في كلّ جسدي. أنا «بيتي» اليوم... أكون «بيتي» دومًا حين ينتابني هذا الشّعور».

تجرّأنا على المشي بعيدًا حتّى آخر «الطّريق الّتي تُفضي إلى نهاية العالم»، ثمّ سلكنا طريق العودة ذاتها. البارحة كان المرفأ، وهو يسبح تحت أشعّة الشّمس القرمزيّة والمائلة إلى الغروب، يبدو مليئًا بإيحاءاتٍ تستحضر «عوالم الجنّ المهجورة» والجزر الغامضة المتناثرة في بحارٍ مجهولةٍ. سرت في جسدي قشعريرةٌ أحسستُ أنّها انتقلتْ إلى المخلوقة الصّغيرة الّتي تمسك بيدي.

قالت لي في فضولٍ: «لو عدونا بكلّ قوّتنا أيّتها الآنسة شيرلي، هل يمكننا اللّحاق بذلك الغروب والانغماس فيه؟» تذكّرتُ حينها قصّة «بول» وتخيّلاته حول «أرض الغروب».

قلت لها: «علينا أن ننتظر «الغد» قبل أن نفعل ذلك. انظري يا إليزابيث إلى تلك الجزيرة الذّهبيّة من السّحاب فوق مدخل الميناء. فلنتخيّل أنّها جزيرة السّعادة الّتي حدّثتني عنها».

قالت إليزابيث حالمةً: «توجد جزيرةٌ هناك في الأسفل، في مكانٍ مّا. اسمها «الغيمة الطّائرة». أليس هذ اسمًا رائعًا... كأنّه اسمٌ آتٍ من «الغد»؟ يمكنني رؤيتها من نافذة العلّيّة في البيت. هي لرجلٍ نبيلٍ من بوسطن، ولديه فيها منزلٌ صيفيٌّ. ولكنّي سأتخيّل أنّها على مِلكي.

انحنيتُ عند الباب وقبّلت خدّ إليزابيث قبل أن تدخل. لن أنسى حينها البريق الّذي لمع في عينيها. إنّها يا جيلبرت طفلةٌ تتحرّق شوقًا إلى شيءٍ من الحبّ».

هذه اللّيلة، حينما جاءت من أجل حليبها، لاحظتُ أنّها كانت تبكي.

قالت وهي تنشُجُ: «لقد جعلوني... جعلوني أمسح القبلة عن خدّي، أيّتها الآنسة شيرلي. لم أكن أريد البتّة أن أغسل وجهي مرّةً أخرى. لقد أخذتُ *عهدًا* على نفسي بذلك. لأنّني لم أرد أن تذهب تلك القبلة. لقد توجّهتُ إلى المدرسة هذا الصّباح دون أن أمسحها، ولكن أمسكتني «المرأة» هذه اللّيلة وحكّتها عن وجهي».

تمالكتُ نفسي من الضّحك وقلتُ لها: «لا يمكنك يا عزيزتي أن تقضّي حياتك كلّها دون أن تغسلي وجهك من حينٍ إلى آخر. ولكن لا تقلقي بشأن القبلة. سأقبّلك كلّ ليلةٍ حين تأتين للحليب، ولن يهمّ كثيرًا إذا ما محتها «المرأة» في الصّباح الموالي».

قالت إليزابيث: «أنت الإنسان الوحيد الّذي يحبّني في هذا العالم. عندما تتحدّثين إليّ، أشعر أنّني أستنشق عبق البنفسج».

هل يوجد على هذه الأرض مَن يستطيع يَصُوغَ الثّناء بهذه الرّوعة؟ ولكنّني لم أدع الجملة الأولى تمرّ دون استفسار.

«جدّتك تحبّك أيضًا يا إليزابيث».

«كلّا، إنّها تكرهني».

«أنت فقط شاردة الذّهن قليلًا يا عزيزتي. جدّتك والآنسة مونكهان كلاهما طاعنتان في السّنّ، والطّاعنون في السنّ يمكن بسهولة إقلاق راحتهم وتكدير بالهم. أنتِ بالتّأكيد تضايقينهما أحيانًا. ثمّ... إنّه لا شكّ... حين كانتا أصغر سنًّا، كان الأطفال في زمنهما يتربّون بصرامةٍ أكثر ممّا هو عليه الحال الآن. هما فقط تتشبّثان بالطّريقة التّقليديّة».

شعرتُ أنّني لم أقنع إليزابيث. هما لا تحبّانها في نهاية الأمر، وهي تعلم ذلك جيّدًا. ألقت نظرةً حذرةً إلى الخلف لترى ما إذا كان الباب مغلقًا، ثمّ قالت بتأنٍّ: «جدّتي و«المرأة» هما فقط عجوزان مستبدّتان، وعندما يحينُ «الغد» سأهرب منهما إلى الأبد».

أظنّها كانت تتوقّع أن أفزع لذلك... فقد شعرتُ أنّها قالت

ذلك لتضفي قليلًا من الإثارة. ضحكتُ فقط، وقبّلتها. آمل أن تكون مارثا مونكمان قد رأتني أقبّلها من نافذة المطبخ.

يمكنني أن أطلّ على سامرسايد من النّافذة الّتي على يسار البرج. المدينة الآن هي فقط حشدٌ من الأسقف البيضاء الأليفة... أخيرًا أليفةٌ لأنّ آل برينغل هم أصدقائي الآن. وبين فينةٍ وأخرى يشعّ نورٌ من جلمون إحدى المنازل أو روشنها. وينبعث من هنا وهناك دخانٌ أشبه بالأشباح. كانت النّجوم متراصّةً ومنخفضةً تكاد تلامس الأسقف. إنّها «مدينةٌ حالمةٌ». أليست هذه عبارةً رائعةً؟ هل تذكر... «الفارس جالاهاد وهو يشقّ طريقه عبر المدن الحالمة»؟[1]

أشعر بسعادةٍ غامرةٍ يا جيلبرت. في أعياد الميلاد لن أعود إلى منزلي في غرين غايبلز مهزومةً وموصومةً. الحياة رائعةٌ... رائعةٌ جدًّا!

وكذلك هي الكعكة الإسفنجيّة للآنسة سارة. أعدّت ريبيكا ديو واحدةً و«أنضجتها» وفق التّوجيهات... ولا يعني ذلك سوى أنّها لفّتها في طبقاتٍ عديدةٍ من ورق الكرافت، ثمّ لفّت كلّ ذلك في عدد من المناشف وتركتها تنضج لثلاثة أيّامٍ. أنا أنصحك بها يا جيلبرت.

(هل تُكتب كلمة «أنصحك» بالسّين أم بالصّاد؟ فأنا وإن كنتُ متحصّلةً على الليسانس، فإنّني لست متأكّدةً من ذلك. تخيّل لو اكتشفت عائلة برينغل ذلك قبل أن أعثر على يوميّات آندي!).

---

(1) من قصيدة «السّير جالاهاد» لألفريد تينيسون.

(9)

تكوّرت تريكس تايلور على نفسها في البرج ذات ليلةٍ من ليالي فبراير، بينما هسهست على النّوافذ هبّاتٌ خفيفةٌ من الثّلج، وخرخر ذلك الموقد الصّغير بلا جدوى، مثل قطٍّ أسود متوهّج. كانت تريكس تشكو همومها إلى آن. وقد بدأت هذه الثانية تجد نفسها محلًّا لثقة الجميع من كلّ جانبٍ. الكلّ يعلم أنّها مخطوبةٌ، ولا خشية أن تكون منافِسةً محتمَلةً لفتيات سامرسايد، بالإضافة إلى ميزةٍ متأصّلةٍ فيها تجعلك تبوح لها بكلّ أسرارك في أمانٍ.

في المساء الموالي، جاءت تريكس إلى غرفة آن لدعوتها على العشاء. كانت فتاةً صغيرة الحجم ومرحة الابتسامة ومكتنزة الجسم، ذات عينين كستنائيّتين برّاقتَين وخدّين مورّدَين، ولم يكن يبدو أنّ الحياة قد طحنتها كثيرًا وهي في العشرين من عمرها. ولكن من الجليّ أنّ بعض المشاكل قد أرّقتها في الآونة الأخيرة.

«سيأتي الدّكتور لينوكس كارتر إلى العشاء ليلة الغد. ولهذا السّبب بالخصوص أردناك أن تأتي. إنّه مدير قسم اللّغات الحيّة في ريدموند، وهو ألمعيٌّ على نحوٍ مخيفٍ، لذلك أردنا أن يشاركنا الطّاولة شخصٌ أريبٌ مثلك للحديث معه. تعرفين أنّني لا أقدر

على التّفاخر كثيرًا بالذّكاء والفطنة، ولا حتّى برينغل نفسه في حقيقة الأمر. أمّا بالنّسبة إلى إيسمي ... تعرفين يا آن أنّها أحلى ما في هذا العالم، وهي متّقدة الذّكاء حقًّا، ولكنّها خجولةٌ وضعيفة القلب حتّى إنّها لا تقدر على استعمال العقل الّذي تملكه حين يكون الدّكتور كارتر بجانبها. إنّها متيّمةٌ جدًّا بحبّه، وهي فعلًا تثير الشّفقة. *أنا* مثلًا أحبّ جوني كثيرًا... ولكنّني لم أكن قطّ في مثل هذه الحالة من الذّوبان من أجله!».

«هل إيسمي والدّكتور كارتر مخطوبان؟».

«ليس بعد»... لقد كان ذلك جليًّا. «ولكنّها، يا عزيزتي آن، تأمل أن يطلب يدها هذه المرّة. هل سيأتي من الجزيرة لزيارة ابن عمّه في منتصف المدّة الدّراسيّة دون أن تكون له نيّةٌ في ذلك؟ آمل أن يخطبها رسميًّا، وذلك فقط من أجل إيسمي، لأنّها ببساطةٍ ستموت إذا لم يفعل ذلك. ولكن ليبقَ سرًّا بيني وبينك وعمود السّرير هذا، لا يروق لي كثيرًا أن يصبح الدّكتور كارتر صهري. فهو صعب الإرضاء حسب قول إيسمي، وهي تخشى كثيرًا ألّا يقبل *بنا*. إذا لم نعجبه فإنّ إيسمي متأكّدةٌ أنّه لن يتزوّجها أبدًا. لذلك لن تتخيّلي مدى انشغالها بأن يكون العشاء ليلة الغد على أحسن ما يرام. ولا أرى السّبب الّذي يجعله لا يكون كذلك... ماما هي أروع طبّاخةٍ رأيتها في حياتي... ولدينا خادمةٌ جيّدةٌ، ثمّ إنّي أغريتُ برينغل بنصف مصروفي الأسبوعيّ حتّى يراعي سلوكه غدًا. هو بطبيعة الحال لا يحبّ الدّكتور كارتر أيضًا... قال إنّ رأسه منفوخٌ

جدًّا... ولكنّه يحبّ إيسمي كثيرًا. أتمنّى فقط ألّا تتملّك بابا نوبةٌ من التّجهّم والوجوم حينها!».

سألتها آن: «هل لديك سببٌ واحدٌ لتخشي ذلك؟» كان الجميع في سامرسايد على علمٍ بحالات العبوس الّتي تنتاب سايرس تايلور.

قالت تريكس بكآبةٍ شديدةٍ: «لا يمكن التّنبّؤ متى تصيبه هذه النّوبات. لقد تعكّر صفوه على نحوٍ رهيبٍ هذه اللّيلة لأنّه لم يجد قميص نومه الجديد والمصنوع من قماش الفانلّة. لقد وضعته إيسمي في الدّرج الخطإ. ربّما يتجاوز حالته هذه بحلول الغد، وربّما لا. إذا لم يتعاف منها، فسوف يجلب لنا العار كلّنا، وسيخلص الدّكتور كارتر إلى أنّه لا يمكنه مصاهرة هذه العائلة. على الأقلّ هذا ما قالته إيسمي، وأخشى أنّها قد تكون على حقٍّ. في مقابل ذلك أعتقد، يا آن، أنّ لينوكس كارتر مغرمٌ جدًّا بإيسمي... فهو يراها «زوجةً مناسبةً جدًّا» له... ولكنّه لا يريد التّسرّع في فعل أيّ شيءٍ أو المخاطرة بنفسه الرّائعة. سمعتُ أنّه قال لأحد أقربائه إنّ على الرّجل أن يكون دقيقًا ومتأنّيًا جدًّا في اختيار العائلة الّتي سيصاهرها. وهو الآن عند مفترق طرقٍ، ويمكن لأيّ شيءٍ تافهٍ وزهيدٍ أن يجعله يغيّر رأيه. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ نوبات التّجهّم الّتي تصيب والدي ليست من التّفاهة في شيءٍ».

«ألا يحبّ الدّكتور كارتر؟».

«بلى، إنّه يحبّه. ويرى أنّه الزّوج المثاليّ لإيسمي. ولكن حين ينتابه ذلك العبوس، فلا شيء يمكنه التأثير فيه مادامت تلك الحالة

مستمرّةً. إنّه دم عشيرة برينغل الّذي يجري في عروقه. تعرفين أنّ جدّة تايلور كانت من عائلة برينغل. لا يمكنك أن تتخيّلي، يا آن، حجم المتاعب الّتي أصابت عائلتنا. فأبي لا يُصاب بالهيجان الشّديد... مثل العمّ جورج، الّذي لا تمانع عائلته في ذلك. حين يستشيط العمّ جورج غضبًا فإنّه ينفجر تمامًا... يمكنكِ أن تسمعيه على بعد ثلاثة شوارع... ثمّ يعود وديعًا كالحمل، ويُحضر لكلّ واحدةٍ من عائلته فستانًا جديدًا لاسترضائهنّ. ولكن في مقابل ذلك، يظلّ أبي مكفهرّ الوجه مقطّب الحاجبين، ولا ينبس بكلمةٍ إلى أيّ/أحد أثناء تناول وجبات الأكل. تقول إيسمي إنّ ذلك يكون في كلّ الأحوال أفضل ممّا يفعله ابن عمّنا ريتشارد تايلر، الّذي يتحدّث دومًا بسخريّةٍ لاذعةٍ وهو على الطّاولة، ويوجّه الشّتائم إلى زوجته. ولكن بالنّسبة إليّ، لا شيء أسوأ من تلك الفترات من الصّمت الّتي تنتاب بابا. إنّها تضايقنا كثيرًا، ونخاف أن نفتح أفواهنا. لن يكون الأمر كارثيًّا جدًّا إذا ما كان يفعل ذلك ونحن وحدنا في المنزل، ولكنّها تنتابه حين يكون لنا ضيوفٌ. لقد ضقنا ذرعًا، أنا وإيسمي، من شرح التزام والدنا بذلك الصّمت المهين. وهي الآن مرعوبةٌ من ألّا يقدر على تجاوز أزمة قميص النّوم قبل ليلة الغد... وماذا سيقول عنّا لينوكس؟ بالمناسبة، إيسمي تريدك أن تلبسي فستانك الأزرق. فستانها الجديد أزرق أيضًا، لأنّ لينوكس يحبّ هذا اللّون. ولكنّ بابا يكره ذلك الفستان. قد يتصالح أبي مع الأزرق حين تلبسينه أنت».

«أليس من الأفضل لها أن تلبس شيئًا آخر؟».

«ليس لديها شيءٌ آخر لائقٌ تلبسه في مثل هذه المناسبات، ما عدا الفستان الأخضر من البوبلين[1] الّذي أهداه إيّاها أبي في أعياد الميلاد. هو في حدّ ذاته فستانٌ جميلٌ... وأبي يريدنا أن نكون متأنّقاتٍ دائمًا... ولكن لن تتخيّلي كم تبدو إيسمي بشعةً في اللّون الأخضر. يقول برينغل إنّه يجعلها تبدو وكأنّها في المراحل الأخيرة من مرض السّلّ. وقد أسرّ ابن خال لينوكس كارتر إلى إيسمي أنّ الدّكتور كارتر لن يتزوّج أبدًا من فتاةٍ ضعيفة البنية. أنا سعيدةٌ جدًّا لأنّ جوني ليس «صعب الإرضاء» مثله».

سألتها آن وهي تعرف كلّ شيءٍ عن قصّة الحبّ الّتي تجمعها بجوني: «هل تحدّثتِ إلى أبيك عن خطوبتك من جوني؟».

تأوّهت تريكس وقالت: «كلّا، لا يمكنني أن أستجمع الشّجاعة الكافية يا آن. أعرف أنّه سيغضب. لطالما احتقر أبي جوني لأنّه فقيرٌ، ولكنّه ينسى دائمًا أنّه كان في خصاصةٍ أكثر منه حين فتح محلّه لبيع الموادّ والمعدّات المعدنيّة. بطبيعة الحال سأخبره في القريب العاجل... ولكنّني أريد أن أنتظر حتّى تُسوّى حكاية إيسمي قبل كلّ شيءٍ. أعرف أنّني إن أخبرته فلن يكلّم *أيّ أحدٍ* منّا لمدّة أسابيع، وستتضايق ماما كثيرًا... فهي لا تُطيق أن ترى والدي في تلك الحال من الوجوم. نحن كلّنا جبناء أمام والدي. صحيحٌ أنّ ماما وإيسمي خجولتان بطبعهما مع الجميع، ولكنّ مزاجنا، أنا وبرينغل، حادٌّ قليلًا. الشّخص الوحيد القادر على ترويعنا هو أبي. أفكّر أحيانًا في

---

(1) قماش قويّ من الحرير والصّوف.

مَن يمكن له أن يساندنا... ولكن لا يوجد أحدٌ، ونشعر بالعجز لذلك. لا يمكنك أن تتخيّلي، يا عزيزتي آن، كيف يبدو العشاء الّذي ندعو إليه ضيوفًا، حين يصاب أبي بنوبةٍ من العبوس. ولكن إذا ما تحلّى باللّباقة ليلة الغد سأغفر له كلّ ما سبق. يمكنه أن يكون لطيفًا ومستساغًا من الجميع إذا ما أراد ذلك... أبي مثل تلك الطّفلة الصّغيرة في شِعر لونغفيلو[1]... «عندما يكون لطيفًا فهو لطيفٌ جدًّا، وعندما يكون فظيعًا فهو لا يطاق». لقد حضرتُ ذات مرّةٍ حفلةً لولاه لَخَلَت تمامًا من الروح».

«كان لطيفًا جدًّا تلك اللّيلة الّتي تناولت فيها العشاء معكم منذ شهرٍ».

«أوه، هو يحبّك كما قلتُ. وهذا من بين الأسباب الّتي جعلتنا نريدك في هذا العشاء معنا. قد يكون لحضورك تأثيرٌ إيجابيٌّ عليه. لم ندّخر جهدًا في توفير الأشياء الّتي تروق له. ولكن حين تخيّم عليه نوبةٌ شديدةٌ من التّجهّم والعبوس، فهو لا يطيق أيّ شيءٍ وأيّ أحدٍ. على أيّة حال، لقد أعددنا لعشاءٍ فاخرٍ، ومهلّبيّة برتقالٍ بديعة للتّحلية بعد الطّعام. أرادت ماما كعكةً، فهي دائمًا تردّد أنّ الرّجال كلّهم في هذا العالم، ما عدا بابا، يحبّون كعكةً للتّحلية، أكثر من أيّ شيءٍ آخر... حتّى أساتذة اللّغات الحيّة. ولكنّ أبي لا يحبّها، لذلك لم نخاطر بذلك في عشاء الغد، ولاسيّما أنّ كلّ شيءٍ يتوقّف على مزاجه. مهلّبيّة البرتقال هي الأكلة التي يفضّلها للتّحلية. أمّا أنا

(1) شاعر وتربويّ أمريكيّ.

وجوني المسكين، أظنّ أنّه لم يبقَ لي سوى أن أهرب معه يومًا مّا، ولن يغفر لي بابا ذلك أبدًا».

«أعتقد أنّه إذا كانت لك الجرأة وأقدمتِ على إخباره، ثمّ تحمّل نوبات الوجوم الّتي ستتبع ذلك، فإنّك ستجدينه يرحّب عن طيب خاطرٍ بالفكرة في النّهاية، وسوف توفّرين شهورًا من اللّوعة والتّفجّع».

قالت تريكس بنبرةٍ كئيبةٍ: «أنتِ لا تعرفين أبي».

«لعلّي أعرفه أكثر ممّا تعرفينه أنت. لقد فقدتِ بوصلتك في خضمّ كلّ هذا».

«فقدتُ... ماذا؟ عزيزتي آن، تذكّري، أنا لستُ حاصلةً على اللّيسانس. كنتُ قد أنهيتُ فقط دراستي الثّانويّة. وودتُ لو أنّي ذهبتُ إلى الجامعة، ولكنّ بابا لا يؤمن كثيرًا بالتّعليم العالي للفتيات».

«كنت أعني فقط أنّك قريبةٌ منه كثيرًا، إلى حدّ عدم فهم ما يريدُ. يمكن لغريبةٍ عن الدّار مثلي أن تراه بوضوحٍ أكبر... وأن تفهمه على نحوٍ أفضل».

«ما أفهمه هو أنّه ما من شيءٍ في هذا العالم يمكنه تحفيز أبي على الكلام إذا ما صمّم وقرّر أن... لا شيء. إنّها مسألة كبرياء بالنّسبة إليه».

«ولماذا إذَن لا تواصل بقيّتكم الحديثَ وكأنّ شيئًا لم يحدث؟».

«لا نستطيع ذلك ... قلت لك إنّه يصيبنا بالعجز والشّلل. سترين ذلك بنفسك ليلة الغد إذا لم تهدأ حدّته بشأن قميص النّوم.

لا أعرف بالضّبط كيف تأتيه تلك الحالة، ولكنّها في الأخير تنتابه وتلبسه. لا أظنّ أنّنا نكترث كثيرًا لطبعه النّكد لو كان يتبادل الحديث معنا. صمته هو الّذي يحطّمنا. لن أغفر لبابا إذا تصرّف بعبثٍ ليلة الغد، وهو يدرك أنّ أمورًا كثيرةً على المحكّ».

«فَلْنَتَمَنّ الأفضل يا عزيزتي».

«أنا أحاول ذلك. وأعرف أيضًا أنّ وجودك سيساعدنا. فكّرت ماما في دعوة كاثرين بروك أيضًا، ولكن كنت أعرف أنّه ليس لها تأثيرٌ على بابا. إنّه لا يُطيقها. الحقّ أنّي لا ألومه على *ذلك*. أنا أيضًا لا أستسيغها. لا أفهم كيف يمكنك أن تكوني لطيفةً معها».

«أنا أشفق عليها. يا عزيزتي تريكس».

«تشفقين عليها! ولكنّ الغلطة غلطتها إذا كان جميع النّاس يتحاشونها. أوه، حسنًا، نحتاج إلى كلّ أنواع البشر لنشكّل هذا العالم... ولكنّ سامرسايد يمكنها أن تتشكّل من دون كاثرين بروك... تلك الهرّة المتجهّمة العجوز!».

«إنّها مُدرّسةٌ ممتازةٌ، يا تريكس..».

«أوه، هل ستخبرينني بذلك؟ لقد كنت في الصّفّ الّذي تدرّسه. لقد *كانت* تُتخم رأسي بأشياء... وتسلخني إلى العظم بتهكّمها المقيت. والطّريقة الّتي ترتدي بها ملابسها! لا يُطيق بابا رؤية امرأةٍ رديئة الملبس. قال إنّه لا يكترث للنّساء المبتذلات في اللّباس، وهو لا يشكّ في أنّ السّماء تشاطره هذا الرّأي. ستصاب ماما بالصّدمة إذا ما علمت أنّني أخبرتكُ بهذا. لطالما وجدت له

أمّي أعذارًا لهذا التكبّر لأنّه ببساطةٍ رجلٌ. وكأنّ هذا هو الشّيء الوحيد الّذي سنعذره به! والمسكين جوني لا يكاد يجرؤ على القدوم إلى المنزل الآن لأنّ أبي يعامله بفظاظةٍ شديدةٍ. أتسلّل من المنزل في اللّيالي المعتدلة الجوّ، وأطوف رفقته مرّاتٍ ومرّاتٍ بالمنتزه حتّى نكاد نتجمّد».

تنفّست آن الصّعداء حين غادرت تريكس، ثمّ تسلّلت إلى الأسفل عساها أن تظفر بوجبةٍ خفيفةٍ من عند ريبيكا ديو.

«ستذهبين إلى منزل عائلة تايلور للعشاء؟ حسنًا، آمل أن يتصرّف العجوز سايرس بأدبٍ. إذا لم تكن عائلته تهابه كثيرًا حين تنتابه تلك الحال من الوجوم، فأغلب الظّنّ أنّه لم يكن ليتمادى في ذلك، أنا متأكّدةٌ من هذا. دعيني أقُل لك أيّتها الآنسة شيرلي، إنّه يستمتع بنوبات وجومه. والآن عليّ أن أسخّن الحليب لذلك القطّ. يا له من حيوانٍ مدلّلٍ!».

(10)

حين وصلت آن إلى منزل سايرس تايلور في المساء الموالي، أحسّت بفتورٍ في الأجواء حالما وطئت عتبة الباب. قادتها خادمةٌ مهندمةٌ إلى غرفة الضّيوف في الطّابق العلويّ. وبينما كانت آن تتسلّق السّلالم لمحت زوجةَ السّيّد سايرس تايلور وهي تُسرِع من غرفة السّفرة نحو المطبخ، وتمسح الدّموع عن وجهها الشّاحب المهموم الّذي ما يزال رغم ذلك يحافظ على نضارته. من الواضح جدًّا أنّ سايرس لم «يتجاوز» أمر قميص النّوم.

وتأكّد ذلك حين تسلّلت تريكس إلى غرفة الضّيوف مهمومةً، وهمست في توتّرٍ:

«آه يا آن، مزاجه رهيبٌ جدًّا. بدا ودودًا جدًّا هذا الصّباح، وانتعشت آمالنا. ولكن هيو برينغل هزمه في لعبة الدّاما هذا المساء، وأبي لا يطيق خسارة جولةٍ واحدةٍ في الدّاما. وبطبيعة الحال، فإنّ على هذه الكارثة أن تقع اليوم بالذّات. لقد وجد إيسمي «تتأمّل نفسها في المرآة» كما قال، فأخرجها من الغرفة وأحكم إغلاق الباب. كانت تلك المسكينة ترى فقط ما إذا كان لباسها سيعجب لينوكس كارتر، الحاصل على الدّكتوراه. لم يترك لها حتّى الفرصة لتضع عقد

لؤلؤها. ثمّ انظري إليّ أنا. لم أجرؤ على ضفر شعري... بابا لا يحبّ الضفائر الّتي لا تبدو طبيعيّة... إنّني أبدو كالغول. ليس لأنّني أكترث كثيرًا لنفسي، ولكن لأريك ماذا يفعل. لقد رمى بالأزهار الّتي وضعتها ماما على طاولة السّفرة، وقد ساءها ذلك كثيرًا... فقد عانت الأمرّين للحصول عليها... ثمّ إنّه لم يدعها تضع أقراط العقيق الّتي تفضّلها. لم تصبه مثل هذه النّوبة اللّعينة منذ أن عاد إلى المنزل من «الغرب» في الرّبيع الماضي، ووجد أنّ ماما قد وضعت السّتائر الحمراء في الصّالون، بينما كان هو يحبّ تلك الّتي في لون التّوت. أوه يا آن، إذا ما بلع لسانه اللّيلة، أرجوك أن تتحدّثي ما استطعت خلال العشاء. إذا لم تتكلّمي أنت اللّيلة فسيكون الأمر محرجًا *جدًّا*».

قالت آن وهي تعدها بذلك: «سأفعل كلّ ما في وسعي». لم يكن بالتّأكيد يعوزها الكلام في أيّ موضوعٍ، ولكنّ آن لم تجد نفسها من قبلُ في وضعٍ مثل الّذي تواجهه الآن.

تحلّق الجميع حول طاولة السّفرة... طاولةٍ بديعة المنظر وحسنة التّأثيث بالرّغم من غياب الأزهار عليها. كانت لزوجة السّيّد سايرس، الّتي ارتدت فستانًا رماديًّا من الحرير، سحنةٌ أشدّ قتامةً من فستانها. أمّا إيسمي حسناء العائلة... والّتي كان جمالها شاحبًا جدًّا، وشعرها الذّهبيّ باهت اللّون، وشفتاها الورديّتان شاحبتين، وعيناها باهتتين في لون زهرة «لا تنسيْني»[1]... فقد كانت تلك

---

(1) نبات أزرق فاتح يسمّى أيضا «أذن الفأر»، وهو رمز للصّداقة والحبّ. ويقال إنّ آخر ما قاله الحبيب لحبيبته في أسطورة وردت فيها هذه الزّهرة هو «لا تنسيني».

اللّيلةَ شاحبةً أكثر من العادة، وبدت وكأنّها على وشك الإغماء عليها. وأمّا برينغل، الّذي كان طفلًا شقيًّا في الرّابعة عشرة من عمره، وكان ممتلئَ الجسم ومفعمًا بالحيويّة، وذا عينين دائريّتين كانتا تلمعان من تحت النّظّارتين، وشعرٍ يكاد يبيضّ من فرط اشْقراره، فقد كان يبدو ككلبٍ مقيّدٍ إلى الطّاولة. بينما جلست تريكس وقد بانت على محيّاها علامات الفزع مثل تلميذةٍ في المدرسة.

كان الدّكتور كارتر وسيم الوجه ومميّز الملامح على نحوٍ لا يمكن إنكاره، وذا شعرٍ أسود متجعّدٍ، وعينين قاتمتين، ونظّارتين تَزيّن إطارهما بالفضّة. كان يبدو لآن، في الأيّام الماضية حين كان أستاذًا مساعدًا في ريدموند، شخصًا ثقيل الظّلّ ومختالًا، أمّا هذه اللّيلة، فكانت تظهر عليه علامات الانشغال والاضطراب. كان بلا ريبٍ يشعر أنّ شيئًا مّا لا يسير على ما يرام... وتلك خلاصةٌ معقولةٌ حين يدخل مضيّفك ويمشي ببطءٍ وخيلاء ليترأّس الطّاولة ويلقي بنفسه على كرسيّه دون أن ينبس بكلمةٍ واحدةٍ يوجّهها إليك أو إلى أيّ من الجالسين.

لم يبارك سايرس الطّعام يومًا. تمتمت زوجته على نحوٍ يكاد يتعذّر سماعه، وقد تورّدت وجنتاها مثل الشّمندر الأحمر: «نشكر الرّبّ بصدقٍ على ما سنحظى به الآن». بدأ العشاء على نحوٍ لا يبشّر بخيرٍ حين أسقطت إيسمي المتوتّرة شوكتها. جفل جميع الحاضرين، ماعدا سايرس، لأنّ أعصابهم كانت هي أيضًا مشدودةً إلى أقصى درجةٍ. رمق سايرس ابنته بعينيه الزّرقاوين

والجاحظتين، في نوعٍ من الهدوء المستعِر. ثمّ حدّق في الجميع ليتجمّد الكلام بين شفاههم حدّ البُكم. وبنظرةٍ حادّةٍ رمق أيضًا السّيّدة كارتر، وهي تتناول مقدارًا من صلصة الفجل الحارّ، وقد ذكّرتها النظرة في الحال بمعدتها السّقيمة، وجعلتها تكفّ عن الطّعام... لقد كانت مولعةً بهذه الصّلصة كثيرًا. لم تكن تصدّق أنّها ستسبّب لها الأوجاع، ولكنّها فقدت كلّ شهيّةٍ للأكل، وكذلك إيسمي، فأكملتا العشاء وهما تتصنّعان الأكل. تواصل العشاء في سكونٍ موحشٍ كسر جدارَه بشكلٍ متقطّع حديثٌ عن الطّقس دار بين تريكس وآن. تضرّعت تريكس إلى آن بعينيها كي تتحدّث، ولكنّ آن وجدت نفسَها ولأوّل مرّةٍ في حياتها عاجزةً عن قول أيّ شيءٍ. شعرت برغبةٍ يائسةٍ في الكلام، ولكن لم تتبادر إلى ذهنها سوى أكثر الأفكار سخافةً... أشياء لا يمكن الإفصاح عنها بصوتٍ عالٍ. هل كان كلّ الحاضرين مسحورين؟ من المثير للفضول حجم هذا الأثر الّذي يمكن أن يتركه فيك وجوم رجلٍ مكابرٍ مثل السّيّد كارتر. قبل المجيء إلى هنا، لم تكن آن تعتقد أنّ هذا الأمر ممكنٌ، ولا ريب في أنّه يشعر بكثيرٍ من الرّضا والسّعادة حين يدرك أنّه جعل كلّ الجالسين على طاولته يشعرون بعدم ارتياحٍ فظيعٍ. ما الّذي يجري بحقّ السّماء في ذهنه؟ هل سينتفض ألمًا إذا ما نخسه أحدهم في جنبه؟ كم ودّت آن لو صفعته... ودقّت مفاصل أصابعه... وجعلته يقف في ركنٍ من الغرفة... وعاملته مثل طفلٍ مدلّلٍ (كان فعلًا كذلك)، على الرّغم من شعره الأشيب الشّائك وشاربه العدوانيّ.

الأهمّ من ذلك كلّه هو أن تجعله يتكلّم. أحسّت في قرارة نفسها أنّه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يكون عقابًا له مثل جرّه إلى الكلام بينما هو عازمٌ على عكس ذلك.

لنفترض مثلا أنّها نهضت من مقعدها، وحطّمت عمدًا تلك المزهريّة الضّخمة والقبيحة الّتي عفا عليها الزّمن، والمنتصبة على طاولةٍ في أحد أركان الغرفة. بدا أنّ من الصعب جدًّا إزالة الغبار عن ذلك الشّيء المزخرف والمغطّى بأكاليل من الورود وأوراق النّباتات والشّجر، في حين أنّه يفترض تنظيفه بعنايةٍ. كانت آن تعلم أنّ كلّ أفراد العائلة يشمئزّون من تلك المزهريّة، ولكنّ سايرس تايلور كان يرفض تمامًا نفيها إلى علّيّة البيت لأنّها تذكّره دائمًا بأمّه. لو كان تحطيمها سيجعل سايرس يستشيط غضبًا تضجّ فيه الأصوات، لما توانت لحظةً عن القيام بذلك دون رهبةٍ من أحدٍ.

لماذا لا يتكلّم الدّكتور لينوكس كارتر؟ ربّما لو نطق بشيءٍ فإنّها، أيْ آن، يمكن أن تبادله الحديث، وربّما كسرت تريكس وبرينغل السّحر الّذي ألجم لسانيهما وشاركا في محادثةٍ ربّما كانت ممكنةً. ولكنّ الدّكتور لم يفعل شيئًا سوى الجلوس والأكل. ربّما فكّر في أنّ السّكوت هو أفضل شيءٍ يمكن القيام به... ربّما أيضًا كان يخشى أن يقول شيئًا يثير به حفيظةً ما انفكّت في الأصل تعتمل في صدر والد الخطيبة المرتقبة.

قالت السّيّدة تايلور بنبرةٍ خافتةٍ: «رجاءً، هلّا مرّرت لي الطّرشي المخلّل أيّتها الآنسة شيرلي؟».

اعتملت في تلك اللّحظة فكرةٌ ماكرةٌ في ذهن آن، ولم تمرّر المخلّلات فحسب، بل مرّرت أيضًا ملاحظةً عابرةً. إذ أنّها دون أن تتوقّف عن التّفكير، انحنت إلى الأمام، وعيناها الرّائعتان الرّماديّتان المائلتان إلى الخضرة تلمعان بصفاءٍ ورونقٍ، ثمّ قالت بلطفٍ:

«هل ستندهش أيّها الدّكتور كارتر حين تعرف أنّ السّيّد تايلور أصابه الصّمم فجأةً الأسبوع الماضي؟».

ثمّ عادت واتّكأت على المقعد، بعد أن ألقت قنبلتها الموقوتة. لم تكن تعرف بالضّبط انتظاراتها من هذا السّؤال أو تداعيات ما قالت. إن تشكّل لدى الدّكتور كارتر انطباعٌ بأنّ مضيّفه أصمّ، بدلًا من أن يكون في حالةٍ مفرطةٍ من السّخط المكتوم، فقد يحلّ ذلك عقدةً من لسانه. ثمّ إنّها لم تقل خبرًا مغلوطًا... ولم تقل إنّ سايرس تايلور أصمّ بطبعه. كانت تأمل أن تجعل ملاحظتها سايرس تايلور ينطق بشيءٍ، ولكنّه ظلّ يحملق فيها بشراسةٍ، دون أن ينبس بكلمةٍ.

بيد أنّ ملاحظة آن كان لها على تريكس وبرينغل تأثيرٌ بالغٌ لم تكن تحلم به قطٌّ. لقد كانت تريكس هي أيضًا في حالةٍ من الغضب المكتوم، وكانت قبل أن ترشق آن الحاضرين بسؤالها الإنكاريّ قد لمحت إيسمي وهي تكفكف دمعةً سالت خلسةً من إحدى عينيها الزّرقاوين والقانطتين. كان كلّ شيءٍ مثيرًا للإحباط واليأس... ففي هذه الظّروف لن يطلب لينوكس كارتر أبدًا يد إيسمي للزّواج... ولم يعد يهمّ ما يقوله أو يفعله أيّ أحدٍ من الجالسين على الطّاولة. فجأةً انتابت تريكس رغبةٌ جامحةٌ في تصفية حسابها

مع أبيها الفظّ، وكانت كلمات آن قد ألهمتها على نحو عجيبٍ. أمّا برينغل، ذاك البركان النّائم من العفرتة الصاخبة، فقد طرف لوهلةٍ بأهدابه الشّقراء في ذهولٍ، ثمّ فعل ما فعلته أخته. لن تنسى آن وإيسمي والسّيّدة تايلور ما حَيِين ذلك الرّبع ساعةٍ المريع الّذي تلا هذا الأمر.

قالت تريكس، وهي تخاطب الدّكتور كارتر الجالس في الجانب الآخر من الطّاولة: «لقد كانت فاجعةً كبيرةً على بابا. إنّه لم يتجاوز الثّامنة والسّتّين من عمره».

نتأت حدبتان صغيرتان في زاويتي مناخير سايرس تايلور حين سمع أنّ عمره قد تقدّم بستّ سنواتٍ. ولكنّه حافظ على عبوسه وصمته.

ثمّ قال برينغل بصوتٍ واضحٍ وجليٍّ: «يا لها من متعةٍ ودلالٍ أن نحظى بمثل هذا العشاء الرّائع. ما رأيك أيّها الدّكتور كارتر في رجلٍ يقضي أن تعيش عائلته على الفاكهة والبيض... لا شيء سوى الفاكهة والبيض... فقط لنزوةٍ انتابته؟».

همّ الدّكتور كارتر بالسّؤال وقد أصابه الذّهول: «هل والدكم ...؟».

قاطعته تريكس قائلةً: «ما رأيك في زوجٍ يعضّ زوجته عندما تُعلّق ستائر لا تروق له... كان يقضمها بأسنانه عمدًا؟».

وأضاف برينغل بكآبةٍ: «إلى أن سال دمها».

«هل تعني أنّ أباك..؟».

قالت تريكس: «ماذا تقول في رجلٍ يمزّق فستان زوجته الحريريّ فقط لأنّه صُمّم على نحوٍ لم يلائم مزاجه؟».

وتبعها برينغل قائلًا: «وماذا تقول في رجلٍ يرفض أن تملك زوجته كلبًا؟».

وأردفت تريكس وهي تتنهّد: «لقد كانت تتمنّى لو امتلكت جروًا صغيرًا».

ثمّ واصل برينغل على الوتيرة نفسها وقد بدأ ينتشي كثيرًا بما يقوله: «وما قولك في رجلٍ يهدي زوجته في أعياد الميلاد حذاءً مطّاطيًّا... لا شيء سوى حذاءٍ مطّاطيٍّ».

قال الدّكتور كارتر موافقًا: «لا يمكن للأحذية المطّاطيّة أن تدفئ القلب». التقت عيناه بعينَي آن، وعلت وجهَه ابتسامةٌ. حاولت آن أن تتذكّر ما إذا كانت قد رأته يبتسم من قبلُ. لقد غيّرت الابتسامة من سحنته كثيرًا. ماذا كانت تريكس تقول؟ من كان يظنّ أنّها شرّيرةٌ بهذا الشّكل؟

«هل تساءلت مرّةً أيّها الدّكتور كارتر كم هو مروّعٌ أن تعيش مع رجلٍ لا يفكّر في شيءٍ... لا شيء البتّة – سوى الإمساك بالأكل المطبوخ في الفرن، وإلقائه على الخادمة إذا لم تحمّره جيّدًا؟».

حدّق الدّكتور كارتر في سايرس تايلور بقلقٍ، وكأنّه خشي أن يُقدم على رشق أحد الجالسين على الطّاولة بعظام الدّجاج. ثمّ بدا وكأنّه شعر بالارتياح حين تذكّر أنّ مضيّفه مصابٌ بالصّمم.

سأله برينغل: «ما رأيك في رجلٍ يؤمن بأنّ الأرض مسطّحةٌ؟».

خُيّل لآن أنّ سايرس سيتكلّم هذه المرّة. فقد سرت في وجهه المتورّد رجفةٌ، دون أن تخرج الكلمات من بين شفتيه. ولكنّها في مقابل ذلك كانت متأكّدةً أنّ شاربه المتمرّد قد بدأ يفقد بعضًا من عصيانه وتحدّيه.

سألت تريكس: «ما رأيك في رجلٍ يترك عمّته... عمّته الوحيدة ... تسكن في دارٍ لإيواء الفقراء؟».

ثمّ أردف برينغل قائلًا: «ويرعى بقرته في المقبرة؟ لم تنسَ سامرسايد ذلك المشهد إلى حدّ الآن».

سألت تريكس: «ماذا تقول في رجلٍ يدوّن كلّ يومٍ في مذكّراته ما تناوله في العشاء؟».

قال الدّكتور كارتر في ابتسامةٍ أخرى: «العظيم صامويل بيبيز[1] فعل ذلك في يوميّاته». بدت نبرته وكأنّه على وشك الانفجار ضاحكًا. قالت آن في نفسها إنّه ربّما لم يكن في نهاية الأمر متفاخرًا إلى ذلك الحدّ... فقط هو شابٌّ يافعٌ وخجولٌ وجدّيٌّ بشكلٍ مبالغٍ فيه. ولكنّها كانت مشدوهةً على نحوٍ إيجابيٍّ، ولم تتصوّر أن تفضي الأحداث إلى ما آلت عليه. أدركت أنّ من السّهل كثيرًا أن تبدأ الأشياء ولا تقدر على إنهائها. كانت أسئلة برينغل وتريكس شيطانيّةً وماكرةً، فهما لم يقولا إنّ أباهما قد فعل كلّ ما نطقا به، وتخيّلت آن الصّبيّ برينغل يقول وعيناه تستديران من فرط تصنّع البراءة: «لقد طرحت هذه الأسئلة على الدّكتور كارتر *للعلم* بالشّيء لا أكثر».

---

(1) صامويل بيبيز مؤلّف إنجليزيّ اشتهر بمذكّراته بعنوان «يوميّات».

واصل برينغل على الإيقاع نفسه: «ماذا تقول في رجلٍ يفتح رسائل زوجته ويقرؤها؟».

وسألت تريكس: «ما رأيك في رجلٍ يحضر جنازةً... جنازة أبيه... في ميدعة الورشة؟».

فيمَ سيفكّران بعد كلّ هذا؟ كانت السّيّدة تايلور تنتحب على نحوٍ علنيٍّ، بينما اكتنف إيسمي هدوءٌ مشوبٌ باليأس. لم يعد أيّ شيء مهمًّا الآن. التفتت إيسمي وحدّقت مباشرة في الدّكتور كارتر الّذي شعرت أنّها قد فقدته إلى الأبد. ولأوّل مرّةٍ في حياتها قفزت إلى ذهنها فكرةٌ بارعةٌ حقًّا.

سألت بهدوءٍ: «وما رأيك في رجلٍ يقضّي كامل اليوم في البحث عن هريراتٍ صغيرةٍ لقطّةٍ مسكينةٍ قُتلت بطلقٍ ناريٍّ، لأنّه لا يستطيع تحمّل مجرّد التّفكير في رؤية صغارها تموت جوعًا؟».

خيّم على الغرفة صمتٌ غريبٌ. بدا وكأنّ تريكس وبرينغل قد شعرا بالخزي من نفسيهما. ثمّ تكلّمت زوجة سايرس فجأةً، وقد شعرت أنّ واجبها من موقع الزوجة يحتّم عليها مساندة إيسمي في الدّفاع غير المتوقّع عن أبيها.

«ويمكنه أن يحوك النّسيج ببراعةٍ... لقد نسج في الشّتاء الماضي تلك القطعة الباهرة الّتي تتوسّط طاولة الصّالون، حين كان طريح الفراش جرّاء ألمٍ أسفل ظهره».

لكلّ إنسانٍ حدٌّ في تحمّل الأشياء، وكانت درجة تحمّل سايرس تايلور في تلك اللّحظة قد بلغت منتهاها. نهض فجأةً ودفع كرسيّه

إلى الوراء بغضبٍ شديدٍ، فانطلق كالسّهم عبر الأرضيّة المصقولة وارتطم بالطّاولة الّتي انتصبت عليها المزهريّة. انقلبت الطّاولة وتهشّمت المزهريّة وتشظّت إلى ألف قطعةٍ كما يُقال. ووقف سايرس وقد تسمّر شعر حاجبيه الكثيفين من شدّة الغيظ وانفجر قائلًا:

«أنا لا أحيك أيّتها المرأة! هل سيلطّخ منديل طاولةٍ وضيعٌ سمعتي إلى الأبد؟ كنت سيّئ المزاج بذلك الألم اللّعين أسفل ظهري حتّى إنّني لم أكن أعي ما أفعل. وهل أنا أصمّ أيّتها الآنسة شيرلي، أليس كذلك؟».

لم تكن تريكس تخشى أباها أكثر إلّا حينما يتشكّل مزاجه في الصوت.

قالت باكيةً: «لم تقل إنّك أصمّ، بابا».

«آه، بطبيعة الحال لم تقل شيئًا. لا أحد منكم نطق بشيءٍ! لم تقولي إنّني في الثّامنة والسّتّين من عمري والحال أنّني لم أبلغ الثّانية والسّتّين، أليس كذلك؟ لم تقولي إنّني منعت أمّك من تربية كلبٍ! يا إلهي، أيّتها المرأة، يمكنك أن تربّي أربعين ألف كلبٍ إذا أردت هذا، وأنت تعلمين ذلك! متى حرمتك من أيّ شيءٍ كنت تريدينه... متى كان ذلك؟».

قالت زوجته في نشيجٍ وقلبها يتفطّر: «إطلاقًا بابا، إطلاقًا. لم أرد يومًا أن أحصل على كلبٍ. لم أفكّر يومًا في الحصول على كلبٍ يا بابا».

«متى فتحتُ رسائلك؟ ومتى دوّنت مذكّراتي ووضعتها في

يوميّاتٍ؟ يوميّات! ومتى لبست ميدعة شغلٍ في المآتم؟ ومتى رعيت بقرةً في المقبرة؟ ومن هي العمّة الّتي توجد في ملجإ الفقراء؟ هل ألقيت في حياتي مرّةً الأكل المحمّر في الفرن على أحدٍ؟ هل أجبرتكم في حياتي على العيش على الفواكه والبيض؟».

أجابته السّيّدة تايلور باكيةً: «كلّا يا بابا. مطلقًا. كنت دائمًا مُعيلنا الرّائع... أنت الأفضل دائمًا».

«ألم تخبريني أنّك *تريدين* أحذيةً مطّاطيّة في عيد الميلاد الفارط؟».

«نعم، أوه، نعم، طبعًا أخبرتك بذلك يا بابا. وقد لاءمني ذلك الحذاء كثيرًا في قدمي، وتركها دافئةً طوال الشّتاء».

ألقى سايرس نظرةً مظفّرةً في أرجاء الغرفة وقال: «حسنًا، إذَن!» التقت عيناه بعينَي آن. وفجأةً وقع ما لم يتوقّعه أحدٌ. ضحك سايرس ضحكةً خافتةً، وظهرت نُقرةٌ في كلِّ خدٍّ من خدّيه. لقد صنعت تينك النّقرتان معجزةً في تعابير كامل وجهه. أعاد كرسيّه إلى الطّاولة وجلس عليه.

«لديّ عادة سيّئةٌ هي الوجوم يا دكتور كارتر. لكلّ إنسانٍ عادته السّيّئة... تلك عادتي. ولعلمك، هي الوحيدة. هيّا يا ماما، كفكفي دموعك. أقرّ بأنّني أستحقّ كلّ ما قلتموه عنّي، ما عدا تلك الدّعابة الأخيرة عن إتقاني الحياكة. إيسمي يا عزيزتي، لن أنسى أنّك الوحيدة الّتي وقفت إلى جانبي ودافعت عنّي. أخبري ماغي أن تأتي وتزيل هذه الفوضى... أعلم أنّكم جميعكم مسرورون لتحطّم هذا الشّيء اللّعين... وأحضروا المهلّبيّة الآن».

لم تكن آن لتصدّق أنّ أمسيةً بدأت على ذاك النّحو الرّهيب يمكنها أن تنتهي بمثل ذلك الحبور. تبيّن أن لا أحد في مثل لطف سايرس ورفقته، وبطبيعة الحال لم تحصل إثرها أيّة تصفية حساباتٍ، فحين قدمت تريكس لتزور آن بعد أيّامٍ عديدةٍ قالت إنّها استجمعت بعض الشّجاعة لإخبار والدها بشأن جوني.

«هل غضب كثيرًا يا تريكس؟».

قالت تريكس بخجلٍ: «لم يغضب البتّة. شخر فقط، وقال لقد حان الوقت ليطلب جوني يدك بعد أن قضّى عامين وهو يحوم بك إلى أن انفضّ جميع الرّجال من حولك. أظنّ أنّه لن يصاب في المستقبل القريب بنوبةٍ أخرى من العبوس بعد تلك النّوبة. وتعرفين يا آن، يصبح أبي بين نوبات عبوسه شخصًا رائعًا ولطيفًا جدًّا».

قالت آن في نبرةٍ تضاهي نبرة ريبيكا ديو: «أظنّ أنّه أبٌ أروع من أن تستحقّيه. لقد كنت مخزيةً في ذلك العشاء يا تريكس».

قالت تريكس: «في الواقع، أنت من بدأت كلّ شيءٍ. وذلك الشّقيّ برينغل ساعد على تأجيج الموقف قليلًا. العبرة بخواتيم الأمور... وحمدًا لله أنّني لن أزيل الغبار عن تلك المزهريّة ثانيةً».

(11)

(مقتطفات من رسالة إلى جيلبرت بعد أسبوعَين)

لقد أُعلِن عن خطوبة إيسمي تايلور من طرف الدّكتور لينوكس كارتر. فهمتُ ممّا تلقّفته من رواياتٍ محلّيّةٍ عديدةٍ أنّه قرّر في تلك اللّيلة المشهودة ليوم الجمعة أن يحميها وأن ينقذها من براثن أبيها وعائلتها.. وربّما أصدقائها أيضًا! إذ من الواضح أنّ محنتها قد حرّكت فيه ضربًا من النّخوة والمروءة. مازالت تريكس تصرّ على أنّني كنتُ الوسيلة الّتي بها تحلحلت الأمور. ربّما ساهمتُ في ذلك، ولكنّني لا أظنّ أنّني سأكرّر مثل هذه التّجربة مرّةً أخرى. لقد كنتُ كمَن يحاول الإمساك بمذنّبٍ في السّماء من ذَنَبِه.

لا أعلم ما الّذي اعتراني يا جيلبرت. ربّما هو الأثر الّذي خلّفه بُغضي القديم لكلّ شيءٍ يعبق برائحة عشيرة برينغل. يبدو وكأنّه أمرٌ قد ولّى الآن، ومُحي من ذاكرتي تقريبًا. ولكنّ بعض النّاس الآخرين مازالوا يتساءلون عمّا حدث. سمعتُ الآنسة فالنتاين كورتالو تقول إنّها لم تفاجأ البتّةَ بانتصاري على عائلة برينغل لأنّه «كانت لي طريقةٌ خاصّةٌ في التّعامل مع الأشياء»، أمّا زوجة القسّيس فتعتقد جازمةً

أنّ ما وقع كان استجابةً لصلواتها. حسنًا، ولكن من يعرف حقًّا سبب ذلك؟

مشيتُ أنا وجان بالأمس على طول جزءٍ من الطّريق المؤدّية إلى المنزل، وتحدّثنا عن «السّفن والأحذية والشّمع الأحمر الّذي يُستعمل للختم»... تحدّثنا تقريبًا في كلّ شيءٍ ما عدا الهندسة الرّياضيّة، وكنّا نتجنّب الخوض في ذلك الموضوع. كانت جان تعرف أنّني لا أعلم الكثير عن الهندسة، ولكنّ معلوماتي المحدودة جدًّا عن القبطان مايروم قد عدّلت الكفّة. أقرضتُ جان *«كتاب الشّهداء»*[1] لجون فوكس، وإن كنت أكره أن أعير كتابًا أحبّه... لأنّني حين أسترجعه لا يبدو لي مطلقًا مثل الكتاب الّذي أعرته... ولكنّني أحبّ هذا الكتاب بالذّات، لأنّ السّيّدة آلان هي مَن سلّمتني إيّاه ذات يوم أحدٍ في حفلٍ لتوزيع الجوائز المدرسيّة كانت قد مرّت عليه سنواتٌ عديدةٌ. لا أحبّ القراءة عن الشّهداء لأنّهم يجعلونني أشعر بتفاهتي وبالخجل من نفسي... أخجل مثلًا من الاعتراف بأنّي أكره مغادرة فراشي الدّافئ في أوقات الصّباح الباردة، وأنّني أنكص فزعًا من الذّهاب إلى طبيب الأسنان!

فرحت كثيرًا لأنّ إيسمي وتريكس كلاهما سعيدتان. منذ أن أينعت قصّة الحبّ الّتي أعيشها معك وأنا أهتمّ أكثر بحكايات العشّاق الآخرين. إنّه اهتمام *عذبٌ* كما تعرف يا جيلبرت. ليس

---

(1) مؤلّف عن تاريخ البروتستانت ومعاناتهم في ظلّ الكنيسة الكاثوليكيّة.

ذلك من الغرور أو المكر في شيءٍ، وإنّما أطرب حين أرى هذا الكمّ من السّعادة يغمر من هُم حولي.

لم ينته شهر فبراير بعدُ، «وفوق سطح ديْر الرّاهبات تتلألأ الثّلوج مبتسمةً للقمر»[1]... فقط لم يكن المكان ديرًا هذه المرّة... بل سقف مخزنِ السّيّد هاملتون. بدأت أفكّر في أنّه لم يبق سوى بعض أسابيع على حلول الرّبيع... وبعض أسابيع أخرى على إتيان الصّيف... والعطلة... وغرين غايبلز... وأشعّة الشّمس الذّهبيّة في مروج آفونلي... وذلك السّاحل الّذي سيتلوّن بالفضّة عند السّحر، وبالياقوت الأزرق عند الظّهيرة، لينتهي قرمزيًّا عند الغروب... وأنت.

لم أتوقّف أنا وإليزابيث عن إعداد المخطّطات لفصل الرّبيع، فقد أصبحنا أصدقاء لا تفترق مطلقًا. كنت آخذ الحليب إليها كلّ مساءٍ، ومرّةً بعد جهدٍ، يُسمح لها بالذّهاب معي في نزهةٍ. اكتشفنا أنّ عيد ميلادنا يوافق اليوم نفسه من السّنة، وتورّدت وجْنَتَا إليزابيث بأحمر زهريٍّ ربّانيٍّ من فرط إعجابها بهذه المصادفة. إنّها كالملاك حين يتورّد خدّاها. كانت في العادة تبدو شاحبة الوجه، ولا يحمرّ وجهها البتّة بسبب الحليب الطّازج. فقط عند الرّجوع من مواعيدنا الغسقيّة وقد لسعت وجنتيها رياحُ المساء، تتلوّن سحنتها بمسحةٍ من اللّون الورديّ. قالت لي ذات مرّةٍ بجدّيّةٍ بالغةٍ: «هل ستكون لي عندما أكبر بشرةٌ جميلةٌ وفي لون القشدة مثل بشرتك، أيّتها الآنسة شيرلي، حين

(1) من قصيدة «القدّيسة آغنيس» لألفريد تينيسون.

أضع اللّبن المخيض كلّ ليلةٍ على وجهي؟» يبدو أنّ اللّبن المخيض هو أكثر موادّ التّجميل رواجًا في درب الأشباح. اكتشفتُ أنّ ريبيكا ديو تدهن به وجهها أيضًا، وقد أخذت عليّ عهدًا أن أكتم هذا السّرّ عن الأرملتين لأنّهما ستجدانه عملًا أرعن لا يليق بسنّها. إنّ عدد الأسرار الّتي عليّ كتمانها في عزبة الصّفصاف يجعلني أتقدّم في السّنّ قبل الأوان. لقد فكّرت أنا نفسي بوضع القليل من اللّبن المخيض على أنفي لعلّه يزيل تلك النّمشات السّبع. وبالمناسبة، هل تبادر إلى ذهنك ولو مرّةً واحدةً يا سيّدي أنّ بشرتي «جميلةٌ وفي لون القشدة»؟ وإذا كنت قد فكّرت في ذلك حقًّا، فإنّك لم تقل هذا الكلام قطُّ. وهل تدرك جيّدًا أنّني، مقارنةً بالأخريات، حسناء وبهيّة الطّلعة؟ لقد اكتشفت أنّني كذلك.

سألتني ريبيكا ديو بنبرةٍ جادّةٍ ذات يومٍ... عندما ارتديت وشاحي الّذي كان في لون البسكويت: «ما معنًى أن يكون الإنسان جميلًا، يا آنسة شيرلي؟».

أجبتها: «لقد خامرني هذا السّؤال كثيرًا».

قالت ريبيكا ديو: «*ولكنّك* جميلةٌ».

قلتُ معاتبةً: «لم أتصوّر بتاتًا أن يصل بك التّهكّم إلى هذا الحدّ».

«لم أقصد السّخريّة مطلقًا، يا آنسة شيرلي. أنت جميلةٌ.. بالمقارنة».

«آه، بالمقارنة!».

قالت ريبيكا ديو وهي تشير بإصبعها: «انظري إلى المرآة في الخوان الجانبيّ. بالمقارنة بي أنت جميلةٌ».

في هذه الحال كنتُ كذلك فعلًا.

ولكنّني لم أُنهِ حكايتي مع إليزابيث. ذات مساءٍ عاصفٍ عوت فيه الرّياح على طول درب الأشباح، لم نكن قادرتين على الذّهاب في نزهةٍ، فصعدنا إلى غرفتي وأخرجنا خارطةً لعالم الجنّ والعجائب. جلست إليزابيث على وسادتي الزّرقاء الّتي تشبه الكعكة الحلقيّة، حتّى تكون عاليةً أكثر. وبدت، وهي تنحني على الخارطة وفي تلك السّحنة الجادّة، وكأنّها تمثالٌ لقزم الحديقة.

لم تكتمل خارطتنا بعدُ... وكلّ يوم نفكّر في شيءٍ تضعه فيها. حدّدنا البارحة موقع منزل «ساحرة الثّلج» ورسمنا خلفه ثلاثة تلالٍ مكسوّةٍ بأشجار الكرز البرّيّة الّتي بدأت تزهر. (بالمناسبة، أريد بعض أشجار الكرز البرّيّة بالقرب من منزل أحلامنا، يا جيلبرت). وبطبيعة الحال فكّرنا في وضع يوم «الغد» على الخارطة... وحدّدنا موقعه في شرق «اليوم» وغرب «الأمس»... ولم تكن لنا بعالم الجنّ نهايةٌ في «الزّمن». كان هناك «وقت الرّبيع»، «وقتٌ طويلٌ»، «وقتٌ قصيرٌ»، «وقت طلوع البدر»، «وقت ليلةٍ سعيدةٍ»، «الوقت الآتي»... ولكن لم يكن هناك قطّ «آخر وقت»، لأنّه وقتٌ حزينٌ جدًّا ولا يليق بأرض الجنّ. ثمّ إنّه كان هناك «وقتٌ للكبار»، و«وقتٌ للصّغار»... لأنّه إذا وُجد وقتٌ للكبار فلا بدّ أن يكون مثله للصّغار أيضًا. «وقت الجبل»... لأنّ فيه صدًى ينعش الرّوح. «وقت اللّيل» و«وقت النّهار»... ولكن لا «وقت» للذّهاب إلى النّوم أو المدرسة. «وقت عيد الميلاد». ولا يوجد «الوقت الوحيد» لأنّ ذلك يبعث

على الكآبة... ولكن هناك «وقتٌ ضائعٌ» لأنّ من الجميل العثور عليه. هناك أيضًا «بعض الوقت»، و«وقتٌ رائعٌ»، و«وقتٌ سريعٌ»، و«وقتٌ بطيءٌ»، «وقتٌ لقبلة ونصف»، «وقت للعودة إلى المنزل»، وأوقاتٌ أخرى موغلةٌ في القدم... وهي من أحلى العبارات في هذا العالم. وقد رسمنا أيضًا أسهمًا صغيرةً وماكرةً في كلّ مكانٍ وتشير إلى هذه «الأوقات المختلفة». أدرك أنّ ريبيكا ديو تظنّني متصابيةً. ولكن آه يا جيلبرت لا تدعنا نكبر ونصبح عقلاء... فذلك لا يصلح في أرض الجنّ وسيكون أمرًا *سخيفًا* جدًّا.

أنا متأكّدةٌ من أنّ ريبيكا ديو تساورها الشّكوك حول تأثيري الإيجابيّ في حياة إليزابيث. تعتقد أنّني أحثّها على أن تكون «كثيرة الأوهام». ذات مساءٍ، عندما كنت بعيدةً عن المنزل، حملت ريبيكا ديو الحليب إليها، ووجدتها في الانتظار عند البوّابة وهي تحدّق في السّماء باهتمامٍ شديدٍ، حتّى إنّها لم تسمع وقع أقدام ريبيكا (الّذي لم يكن سحريًّا بالمرّة).

قالت وهي تشرح الأمر: «لقد كنت أصغي إلى أصوات يا ريبيكا».

قالت ريبيكا باستنكار: «أنت تصغين كثيرا هذه الأيّام».

ابتسمت إليزابيث على نحو متزمّت، وكأنّها في عالم آخر. (لم تستعمل ريبيكا ديو هذه الألفاظ، ولكنّني أعرف بالضّبط كيف تبتسم إليزابيث).

قالت إليزابيث بنبرة جعلت ريبيكا تحسّ بقشعريرة تسري في

عظامها ... أو هكذا أكّدت لي: «ستفاجئين يا ريبيكا حين أخبرك بما أسمع في بعض الأحيان».

ولكنّ إليزابيث طفلة تعيش دائما في هذا العالم من السّحر، وما عسانا نفعل بشأن ذلك؟

آن، الّتي أسرتَ قلبها.

ملاحظة رقم 1: لن أنسى ما حييتُ وجه سايرس تايلور عندما اتّهمته زوجته بحياكة النّسيج. ولكنّني سأحبّه من الآن فصاعدًا لأنّه كان دائم الانشغال بالعثور على تلك القطط الصّغيرة. وأحبّ إيسمي لأنّها وقفت إلى جانب أبيها رغم التّحطّم المزعوم لكلّ آمالها في تلك اللّحظة.

ملاحظة رقم 2: أكتب الآن بقلمٍ جديدٍ. وأنا أحبّك لأنّك لست مختالًا مثل الدّكتور كارتر... وأحبّك لأنّك لا تملك أذنين بارزتين مثل جوني. والسّبب الحقيقيّ الّذي يجعلني أحبّك أكثر... هو أنّك جيلبرت لا غير!

(12)

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

30 مايو

عزيزي وأعزّ ما عندي،

إنّه الرّبيع!

لعلّك وأنت في خضمّ الامتحانات الّتي غُصت فيها إلى العينين في كينغسبورت، لم تشعر البتّة بقدومه. أمّا أنا فقد لبستُ الرّبيع من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ. سامرسايد كلّها أحسّت بقدومه. حتّى أكثر الشّوارع بشاعةً ازدان مظهرها بالأشجار المزهرة الّتي امتدّت أغصانها فوق الأسيجة الخشبيّة القديمة، وبشريطٍ من الهندباء البرّيّة ارتفع في العشب الّذي يحدّ الأرصفة. حتّى السّيّدة الخزفيّة على الرّفّ في غرفتي أحسّت بقدومه، وأعرف أنّه لو صادف وأفقت من نومي على حين غرّةٍ في بعض اللّيالي لفاجأتها وهي ترقص رقصةً أحاديّة بذلك الحذاء الورديّ ذي الكعب المذهّب.

كلّ شيءٍ هنا يهتف بقدوم الرّبيع.. الجداول الصّغيرة الضّاحكة، الضّباب الأزرق الخفيف على تلّتي «ملكة العواصف»، أشجار

القيقب في الأكمة الّتي أعودها لقراءة رسائلك، أشجار الكرز البيضاء على طول درب الأشباح، طيور أبي الحنّاء النّاعمة والجسورة وهي تنطّ في الفناء الخلفيّ متحدّيةً القطّ داستي ميلر، ذلك النّبات الزّاحف الّذي يتدلّى في خضرةٍ أنيقةٍ على نصف الباب الّذي تأتي إليه إليزابيث لأخذ حليبها، أشجار التّنّوب حول المقبرة وهي تتباهى ببراعم أزهارها الجديدة... حتّى المقبرة القديمة ذاتها، والّتي أخرجت فيها كلّ أنواع الأزهار المغروسة عند رؤوس القبور براعمَها وأوراقها، وكأنّها تقول: «حتّى هنا تنتصر الحياة على الموت». تمتّعتُ في ليلةٍ من اللّيالي بنزهةٍ رائقةٍ حول المقبرة. (أنا متأكّدة من أنّ ريبيكا ديو تخال ذوقي في الفسحات الّتي أقوم بها مروّعًا على نحوٍ تقشعرّ له الأبدان. قالت لي ذات مرّةٍ: «لا أستطيع أن أفهم لماذا تشتاقين دائمًا إلى هذه الأماكن المشؤومة؟») حمتُ حولها مثل سنّور انتشى في الضّوء الخافت بالخضرة العبقة الّتي كست المكان، وتساءلتُ عمّا إذا كانت زوجة نايثن برينغل قد حاولت فعلًا وضع السّمّ له في الطّعام. فقد بدا قبرها في غاية البراءة بعشبه الجديد وزنابق يونيو اليانعة، حتّى خلصتُ إلى أنّه تمّ الافتراء عليها حتمًا.

شهرٌ واحدٌ فقط وسأكون في منزلي بمناسبة العطلة! أفكّر دائمًا في ذلك البستان العتيق في غرين غايبلز، بأشجاره الّتي لا شكّ أنّ أزهارها الآن في أوج تفتّحها... أفكّر في الجسر القديم على «بحيرة المياه المتلألئة»... وفي همس موج البحر في الآذان... وفي أماسي الصّيف بـ«درب العشّاق» ... وفيك *أنت*!

لديّ اللّيلة ذلك النّوع المناسب من الأقلام يا جيلبرت، وسوف...

(حذفت صفحتان)

كنتُ في منزل عائلة جيبسون هذا المساء. كانت ماريلا قد طلبت منّي منذ وقتٍ طويلٍ أن أزورهم، فهي صديقة العائلة حين كانت تعيش في وايت صاندز. فذهبتُ إلى المنزل على هذا الأساس وصرت أزور العائلة منذ ذلك الحين كلّ أسبوع لأنّ بولين تبتهج كثيرًا بمجيئي، وأنا أشفق عليها كثيرًا. لم تكن سوى أَمَةٍ صاغرة لأمّها... الّتي كانت امرأةً فظيعةً جدًّا.

كانت السّيّدة أدونيرام جيبسون في الثّمانين من عمرها وتمضي بقيّة حياتها على كرسيٍّ متحرّكٍ. وكانتا قد انتقلتا إلى سامرسايد منذ خمس عشرة سنةً. بولين هي الصّغرى من بين إخوتها وأخواتها الّذين عقدوا جميعهم العزم على عدم إعالة السّيّدة أدونيرام في منازلهم. كانت بولين تحافظ على البيت نظيفًا ومرتّبًا، وتعتني بكلّ أمور أمّها. كانت شاحبة الوجه قليلًا، وذات عينين مثل عينَي ظبيةٍ، وشعرٍ ذهبيٍّ يميل إلى الكستنائيّ ومازال يحافظ على لمعانه وجاذبيّته. كانتا في سَعَةٍ من العيش، ولولا أمّها لكانت بولين تعيش عيشةً راضيةً جدًّا. هي تحبّ العمل في الكنيسة، وتسعد كثيرًا حين تشارك في نشاطات «السّيّدات المعينات»[1] أو «الجمعيّات التّبشيريّة»، مثل

(1) جمعيّة نسائيّة تكرّس نشاطها لتوفير ما يلزم الجنود على أرض المعركة، وللعناية بالمرضى والمصابين منهم.

الإعداد لحفلات العشاء وتجمّعات «الاستقبال» باسم الكنيسة، ناهيك عن ابتهاجها وافتخارها الشّديدين بأنّها تملك أرقّ نباتات لبلابٍ في المدينة. ولكنّها لا تكاد تبرح المنزل، حتّى لتذهب إلى الكنيسة في أيّام الأحد. ولا أرى مخرجًا لها من ذلك، إذ يبدو أنّ السّيّدة جيبسون تنوي العيش حتّى تبلغ المائة. وبما أنّها عاجزة عن استعمال ساقيها، فما مِن مشكلٍ في لسانها. فكثيرًا ما أجلس هناك عاجزةً وأنا غاضبةٌ جدًّا حين أسمعها تشبع المسكينة بولين بأقذع أنواع التّوبيخ والتّقريع. وقد أسرّت لي بولين أنّ أمّها «تقدّرني وتحترمني كثيرًا» وتصبح أكثر لينًا حين أكون في الجوار. إذا كان الأمر كذلك، فإنّ مجرّد تخيّل معاملتها لها عندما لا أكون في الجوار يصيبني برجفةٍ يقشعرّ لها جسدي كلّه.

لا تتجرّأ بولين على فعل أيّ شيءٍ دون موافقة أمّها، ولا تستطيع حتّى شراء ملابسها الخاصّة... ولا حتّى الجوارب النّسائيّة. على كلّ شيءٍ أن يُرسَل إلى السّيّدة جيبسون للحصول على مباركتها، على كلّ شيءٍ أن يُلبس حتّى يبلى ويتآكل. لقد ارتدت بولين القبّعة ذاتها لأربعة أعوامٍ.

لا تطيق السّيّدة جيبسون أيّ دوشة داخل المنزل أو أيّ نسيمٍ من الهواء العليل يتسرّب إليه. يقال إنّها لم تبتسم يومًا في حياتها... وعلى كلّ حالٍ لم أرها يومًا تفعل ذلك، وعندما أحدّق في وجهها تتبادر إليّ في الحال فكرةُ ما الّذي يمكن أن يحدث لتلك السّحنة لو علتها ابتسامةٌ يومًا مّا. ثمّ إنّه لا يمكن لبولين أن تتفرّد بغرفتها لها وحدها. كان عليها أن تنام مع أمّها في الغرفة نفسها، وتفيق بين

السّاعة والأخرى في اللّيل لتدعك ظهر السّيّدة جيبسون، أو لتناولها قرص دواءٍ، أو لتحضر لها قارورةً من الماء السّاخن... *ساخنًا*، وليس فاترًا!... أو لتغيّر وسائدها، أو لتتفقّد ذلك الصّوت الغامض والقادم من ساحة البيت الخلفيّة. لقد دأبت السّيّدة جيبسون على النّوم بعد الظّهيرة، وتمضي اللّيل كلّه في استنباط الأعمال وإثقال كاهل بولين بها.

ولكن لم يكن أيّ شيءٍ يُشعر بولين بالمرارة. فهي لطيفةٌ وغير أنانيّةٍ وصبورةٌ، وأنا سعيدةٌ لأنّ لها كلبًا تحبّه. كان الأمر الوحيد الّذي تفعله على هواها هو تربية ذلك الكلب... ولأنّه أيضًا حدث سطو بدافع السّرقة في مكان مّا من المدينة، وفكّرت السّيّدة جيبسون أنّ الكلب قد يكون نوعًا من الحماية لهما. لم تكن بولين تجرؤ على إظهار تعلّقها الكبير بالكلب، فالسّيّدة جيبسون تكرهه وتشتكي دائمًا من أنّه يُحضر العظام إلى داخل الدّار، ولكنّها لم تشر يومًا إلى ضرورة طرده من المنزل، للدّافع الأنانيّ الّذي بداخلها.

غير أنّني حصلت في الأخير على فرصةٍ لمساعدة بولين وسأمضي في ذلك بالتّأكيد. سوف أمنحها *يومًا*، وفكّرت في التّخلّي عن قضاء عطلة نهاية الأسبوع القادم في غرين غايبلز.

عندما ذهبتُ اللّيلة، لاحظتُ أنّ بولين كانت تبكي. لم تتركني السّيّدة جيبسون للظّنون كثيرًا حول سبب انتحاب ابنتها، وقالت: «تريد بولين أن تذهب وتتركني، أيّتها الآنسة شيرلي. هذه البنت اللّطيفة والمطيعة، أليس كذلك؟».

قالت بولين وهي تبتلع شهقة بكاءٍ وتحاول الابتسام: «اليومٍ واحدٍ فقط، ماما».

«ليوم واحدٍ فقط! تعلمين كيف أقضي أيّامي هنا، أيّتها الآنسة شيرلي... كلّ النّاس يعلمون ذلك. ولكنّك لا تعلمين... *إلى حدّ الآن*... أيّتها الآنسة شيرلي، وآمل ألّا تعرفي ذلك ما حييتِ، ما أطول اليوم الّذي تعانين فيه وتتعذّبين».

كنت أعلم أنّ السّيّدة جيبسون لا تعاني من أيّ شيءٍ في تلك اللّحظة، لذلك لم أحاول التعاطف معها.

قالت بولين: «بطبيعة الحال، سوف أحضر شخصًا يبقى إلى جانبك». ثم التفتت إليّ وشرحت الأمر: «ستحتفل ابنة عمّي لويزا في وايت صاندز بعيد زواجها الخامس والعشرين، وتريدني أن أذهب إلى هناك. كنتُ وصيفتَها حين تزوّجت من موريس هيلتون. أودّ *كثيرًا* الذّهاب إلى عيد الزّواج الفضّيّ هذا إذا ما وافقت ماما على ذلك».

قالت السّيّدة جيبسون: «إذا لم يكن بدٌّ من موتي، فلا رادَّ لذلك. سأترك الأمر لضميرك يا بولين».

أدركتُ أنّها معركةٌ خاسرةٌ لحظةَ تركت السّيّدة جيبسون القرار لضمير بولين. لقد شقّت السّيّدة جيبسون طريقها خلال كلّ حياتها بترك الأشياء لضمائر النّاس. سمعت أنّ شخصًا تقدّم للزّواج من بولين منذ سنواتٍ عديدةٍ، وحالت السّيّدة بولين دون ذلك حين تركت الأمر إلى ضمير ابنتها.

مسحت بولين الدّموع من عينيها، واستجمعت ابتسامةً جديرةً بالشّفقة، ثمّ أخذت الفستان الّذي كانت تحوكه... كان قماشًا بغيضًا من الطّرطان[1] الأخضر والأسود.

قالت السّيّدة جيبسون: «لا تقطّبي حاجبيك يا بولين. أنا لا أطيق الأشخاص العبوسين. وهلّا وضعت ياقةً على ذلك الفستان. هل تصدّقين أيّتها الآنسة شيرلي، تريد أن تصنع لنفسها فستانًا من دون ياقةٍ؟ تريدني أن أسمح لها بارتداء فستانٍ من دون رقبةٍ».

نظرتُ إلى المسكينة بولين وجيدِها الصّغير والرّقيق... الّذي كان إلى حدٍّ مّا مكتنزًا وجذّابًا... والمطوّق في ياقةٍ مشبّكةٍ طويلةٍ ويابسةٍ كالعظم.

قلت لها: «الفساتين من دون ياقاتٍ هي من الموضة الآن».

قالت السّيّدة جيبسون: «الفساتين من دون ياقاتٍ مخلّةٌ بالحياء».

(ملاحظة: كنتُ حينئذٍ ألبس فستانًا دون ياقةٍ).

وواصلت السّيّدة جيبسون حديثها وكأنّ الأمر يتعلّق بالموضوع نفسه: «ثمّ إنّني لم أطق يومًا موريس هيلتون. أمّه تنحدر من عائلة كروكيت، ولم يتحلَّ يومًا بآداب اللّياقة... كان دومًا يقبّل زوجته في مواضع غير لائقةٍ بالمرّة!».

(هل أنت متأكّدٌ يا جيلبرت أنّك قبّلتني في مواضع ملائمةٍ؟ أخشى أن تذهب السّيّدة جيبسون إلى أنّ قفا العنق مثلًا موضعٌ غير ملائمٍ بالمرّة).

---

(1) نوع من قماش صوفيّ ذي خطوطٍ وألوانٍ متنوّعةٍ ابتدعه الأسكتلنديّون.

«ولكن يا أمّي، تعرفين أنّ ذلك حصل يومَ كاد حصان هارفي ويثر يدهسها بعد أن أخذ يركض بجنونٍ في حديقة الكنيسة. فكان من الطّبيعيّ أن يكون موريس متأثّرًا قليلًا».

«بولين، رجاءً لا تعارضي رأيي. *مازلتُ* أعتقد أنّ درجات سلّم الكنيسة ليست مكانًا لائقًا لتقبيل أيّ أحدٍ. ولكن لم تعد آرائي بطبيعة الحال تهمّ *أيّ أحدٍ* منكم. ولاشكّ في أنّ كلّ النّاس يتمنّون موتي. سأرتاح أكثر في قبري. أعلم أنّني عبءٌ ثقيلٌ عليكم. من الأفضل أن أرحل عن هذا العالم. لا أحد يريدني على قيد الحياة».

قالت بولين متوسّلةً: «لا تقولي مثل هذا الكلام يا ماما».

«سوف *أقوله* وأعيده. وها أنت مصرّةٌ على الذّهاب إلى ذلك الاحتفال بعيد الزّواج رغم أنفي».

«ماما عزيزتي، لستُ ذاهبةً... لم أفكّر قطُّ في الذّهاب دون إذنك. لا تنفعلي كثيرًا..».

«آه، معنى ذلك أنّه ليس من حقّي أن أنفعل قليلًا، لإضفاء بعض الأجواء على هذه الحياة المملّة؟ طبعًا ستغادريننا بعد قليلٍ، يا آنسة شيرلي؟».

شعرتُ أنّني لو بقيت مدّةً أطول فسأفقد صوابي أو سأصفع السّيّدة جيبسون على وجهها الّذي يشبه كسّارة الجوز. فقلت إنّ لديّ أوراق امتحانٍ تنتظر إصلاحها.

تنهّدت السّيّدة جيبسون وقالت: «آه حسنًا، أتصوّر أنّ امرأتين طاعنتين في السّنّ مثلنا ليستا بالرّفقة الجيّدة لفتاةٍ في ريعان شبابها

مثلك. بولين ليست بشوشةً جدًّا... أليس كذلك يا بولين؟ ليست بشوشةً بالمرّة. ولا عجب أن تعجّل الآنسة شيرلي بمغادرتنا».

خرجت معي بولين إلى السّقيفة. كان ضوء القمر يشعّ على حديقتها الصّغيرة، ويتلألأ فوق مياه المرفإ. بينما أخذ نسيم عليلٌ ورائقٌ في الحديث إلى شجرة تفّاحٍ اتّشحت باللّون الأبيض. إنّه الرّبيع... الرّبيع! حتّى السّيّدة جيبسون نفسها لا تستطيع منع أزهار شجر الإجّاص من التّفتّح. كانت عينا بولين النّاعمتان والرّماديّتان المائلتان إلى الزّرقة قد اغرورقتا بالدّموع.

أطلقت زفرة يأسٍ يخالطها الكثير من الاستكانة وقالت: «أتشوّق فعلًا إلى الذّهاب إلى هذا العيد الفضّيّ للزّواج».

قلت لها: «ستذهبين».

قالت بولين: «أوه، كيف لي ذلك يا عزيزتي، لا يمكنني أن أبرح هذا المكان. لن توافق المسكينة أمّي أبدًا. سأتخلّى فقط عن التّفكير في الأمر». ثمّ أضافت في نبرةٍ عاليةٍ غلبت عليها البهجة: «أليس القمر جميلًا هذه اللّيلة؟».

نادتها السّيّدة جيبسون من غرفة الجلوس قائلةً: «لم أسمع في حياتي سوى الحكايات المروّعة جرّاء التّحديق في القمر. كفّي عن الطّقطقة بلسانك يا بولين، وتعالي إلى الدّاخل وناوليني شباشب غرفة النّوم المبطّنة في أعلاها بالفرو، أعني الشّباشب الحمراء. هذا النّعل الّذي ألبسه يعصر قدميّ بشكلٍ رهيبٍ. ولكن لا أحد يكترث لمعاناتي».

شعرتُ حينها بالفعل أنّني لا أكترث لمعاناتها. مسكينةٌ تلك الفتاة بولين! ولكنّ يومًا من الرّاحة قادمٌ إليها لا محالةَ، وسوف تحضر هذا العيد الفضّيّ للزّواج. أنا، آن شيرلي، اتّخذتُ هذا القرار الّذي لا رجعةَ فيه.

أخبرتُ ريبيكا ديو والأرملتين بكلّ ما حدث عندما عدتُ إلى البيت، وتسلّينا كثيرًا بالرّجوع إلى كلّ الكلام الرّائع والمسيء الّذي توجّهت به إلى السّيّدة جيبسون. لا تعتقد العمّة كايت أنّني سأنجح في جعل السّيّدة جيبسون توافق على ذهاب بولين، أمّا ريبيكا ديو فقد كانت واثقةً من قدراتي وقالت: «على أيّة حالٍ، إذا لم تقدري أنتِ على ذلك، فلن يستطيع أحدٌ فعله؟».

منذ أيّام تناولتُ العشاء مع زوجة السّيّد توم برينغل، الّتي رفضَت سابقًا أن أقيم عندها. (تقول ريبيكا ديو إنّني أفضل مقيمٍ يدفع كامل ثمن إقامته على الإطلاق، لأنّه غالبًا ما تقع دعوتي على العشاء خارج المنزل). وأنا سعيدةٌ جدًّا لأنّها فعلت ذلك. صحيحٌ أنّها لطيفةٌ وقريرة العين، وتسبقها شهرتها في صنع الحلويّات، ولكنّ منزلها ليس عزبة الصّفصاف، ولا تسكن في درب الأشباح، وليست مثل العمّة كايت أو العمّة تشاتي أو ريبيكا ديو. أنا أحبّهنّ ثلاثتهنّ، وسأقيم هنا في العام القادم والّذي يليه. مقعدي في عزبة الصّفصاف يُدعى «مقعد الآنسة شيرلي»، وأخبرتني العمّة تشاتي أنّه حين أغيب عن المنزل، تُعدّ ريبيكا ديو مكاني على الطّاولة كما لو أنّني موجودةٌ، وذلك «حتّى لا يبدو المكان فارغًا». وأحيانًا يتعكّر

مزاج العمّة تشاقي قليلًا، ولكنّها تطمئنني دائمًا أنّها تتفهّمني الآن، وتعرف جيّدًا أنّني لا أتعمّد إيذاء مشاعرها.

صرتُ أتنزّه الآن مع الصّغيرة إليزابيث مرّتين في الأسبوع. لقد وافقت السّيّدة كامبل على ذلك، ولكن يجب ألّا يتجاوز عدد المرّات هذا الحدّ، ولا نزهات *أبدًا* أيّام الآحاد. تصبح الأمور أفضل بكثيرٍ للصّغيرة إليزابيث في فصل الرّبيع. وحتّى ذلك المنزل القديم المتجهّم تدخله بعض أشعّة الشّمس، فيصبح حين تراه من الخارج بديعًا وظلالُ أعالي الشّجر ترقص في جنباته. ومع ذلك، كانت إليزابيث تودّ دائمًا الهروب منه قدر المستطاع. كنّا بين فينةٍ وأخرى نذهب إلى الجزء الأعلى من المدينة حتّى تتسنّى لإليزابيث رؤية واجهات المحلّات. ولكنّنا كنّا في أغلب الأوقات نسلك «الطّريق الّتي تُفضي إلى نهاية العالم»، ونتشوّق إلى اكتشاف تعاريجه ومنعطفاته مثلما نخاطر بذلك، وكأنّنا سنجد «الغد» بعد نهايته، بينما تلوح لنا من بعيدٍ صغرى التّلال الخضراء وهي تستكين في المساء بعضها إلى بعضٍ.

من الأشياء الّتي تنوي إليزابيث القيام بها عندما يحين «الغد» هو «الذّهاب إلى فيلادلفيا ورؤية الملاك في الكنيسة»[1]. لم أقل لها... ولن أقول أبدًا... إنّ فيلادلفيا الّتي كتب عنها القدّيس يوحنّا لم تكن فيلادلفيا الّتي توجد في ولاية بنسيلفانيا. نحن نفقد أوهامنا بسرعةٍ كبيرةٍ. وإذا ما تمكّنّا من النّفاذ إلى «الغد» بأيّ طريقةٍ من الطّرق،

(1) من سفر رؤيا يوحنّا، الإصحاح الثّالث. وفيلادلفيا في العصور القديمة مدينة في تركيا.

فمن يعرف ما الّذي يمكننا أن نجده هناك؟ قد نجد ملائكةً في كلّ مكانٍ.

كنّا نتأمّل في بعض الأحيان البواخر وهي تدخل إلى المرفإ في مسارٍ متوهّجٍ، وقد دفعتها رياحٌ مواتيةٌ عبر أثير الرّبيع الشّفّاف، فتتساءل حينها إليزابيث عمّا إذا كان أبوها على متن واحدةٍ منها. كان يحدوها أملٌ في أن يأتي ذات يومٍ من الأيّام، ولا أستطيع أن أتخيّل السّبب الّذي يجعله لا يقدم إلى هنا. أنا متأكّدةٌ أنّه سيأتي إلى هنا يومًا حين يعرف أنّ له ابنةً صغيرةً تسرّ النّفس وتشتاق إلى رؤيته كثيرًا. أظنّه لا يدرك أنّها كبرت الآن... وأظنّ أنّه مازال يحسبها تلك الرّضيعة الصّغيرة الّتي كلّفت زوجته حياتها.

خلال أيّامٍ أكون قد أنهيتُ عامي الأوّل في مدرسة سامرسايد الثّانويّة. كان الثلاثيّ الأوّل منه كابوسًا لعينًا، ولكنّ الأخيرتين كانتا رائعتين. عائلة برينغل هم *أناس ممتعون*. كيف استطعت أن أقارنهم بعائلة باي؟ اليوم جلب لي «سيد برينغل» الكثير من نباتات التريليوم الرّائعة. جان ستكون الأولى على الفصل، وحُدِّثتُ أنّ الآنسة إلين قالت إنّني المدرّسة الوحيدة الّتي فهمت *حقًّا* هذه الطّفلة! الشّوكة الوحيدة في حلقي هي كاثرين بروك الّتي تواصل فظاظتها وانعزالها. سأتخلّى عن فكرة مصادقتها. في نهاية الأمر، وكما تقول ريبيكا ديو، للصّبر حدودٌ.

آه، كدتُ أنسى أن أخبرك... لقد طلبت منّي سالي نيلسون أن أكون إحدى وصيفاتها في حفل زفافها. ستتزوّج آخرَ شهر يونيو

في «بونيفيو»، حيث توجد الإقامة الصّيفيّة للدّكتور نيلسون، وهي في آخر الدّنيا. ستتزوّج من غوردون هيل، وستصبح بذلك نورا نيلسون الابنة الوحيدة الّتي لم تتزوّج إلى حدّ الآن من بين جميع بنات الدّكتور نيلسون. جيم ويلكوكس صاحبها على مدى سنواتٍ عديدةٍ... «على نحوٍ متقطّع» كما تقول ريبيكا ديو... ولكن يبدو أنّ علاقتهما لن تسفر عن شيءٍ، ولا أحد هنا يظنّ عكس ذلك. أنا مغرمةٌ جدًّا بصديقتي سالي، ولكنّني لم أفلح قطّ في ربط أواصر علاقةٍ جيّدةٍ معها. هي تكبُرني بِسنوات عديدةٍ، طبعًا، ومنكمشةٌ على نفسها وبها شيءٌ من الترفّع. ولكن أودّ أن نصبح صديقتين. ليست بالفتاة الفاتنة أو المتّقدة ذكاءً وجاذبيّةً، ولكنّ لها *ميزاتها* الخاصّة. لديّ إحساسٌ أنّها تستحقّ أن يعرف بعضنا بعضًا أكثر.

على ذكر حفلات الزّفاف، تزوّجت إيسمي تايلور من دكتورها الشّهر الماضي. وبما أنّه كان مساء يوم أربعاء، لم أستطع الذّهاب إلى الكنيسة لرؤيتها، ولكنّ الجميع أكّدوا لي أنّها بدت ساحرةً وفي غاية السعادة، أمّا لينوكس فقد بدا واثقًا من أنّه فعل ما يجب فعله، ووافقه في ذلك عقله وضميره. أصبحت أنا وسايرس تايلور صديقين رائعين. كان دائمًا يشير إلى ذلك العشاء الّذي اعتبره دعابةً رائعةً من الجميع. قال لي: «لم أتجرّأ على العبوس منذ تلك اللّيلة. ويمكن لزوجتي أن تتّهمني بخياطة كشكولٍ في المرّة القادمة». ثمّ طلب منّي أن أبلّغ سلامه إلى الأرملتين. النّاس هنا طيّبون يا جيلبرت، والحياة لذيذةٌ، وأنا...

ملكُك إلى الأبد!

ملاحظة: أنجبت بقرتنا الصّهباء العجوز الّتي عند السّيّد هاملتون عجلًا مرقّطًا. فظللنا نشتري الحليب من ليو هانت على امتداد ثلاثة أشهرٍ. قالت ريبيكا ديو إنّنا ستتمتّع بالقشدة مجدّدًا الآن... وإنّها كثيرًا ما سمعت أنّ البئر الّتي في منزل عائلة هانت لا تنضب أبدًا، وإنّها تصدّق ذلك الآن. لم تكن ريبيكا ديو في السّابق تريد لهذا العجل أن يولد بتاتًا. وحتّى تتقبّل الأمر الواقع، كان على العمّة كايت أن تُحضر السّيّد هاملتون ليخبرها أنّ البقرة طاعنةٌ جدًّا في السّنّ ولا تستطيع الإنجاب».

(13)

انتحبت السّيّدة جيبسون قائلةً: «آه، عندما تصبحين طاعنة في السّنّ وطريحة الفراش لسنوات مثلي، سوف ستتعاطفين معي أكثر».

بعد نصف ساعةٍ من الجهد المهدور شعرت آن برغبةٍ في أن تدقّ عنق السّيّدة جيبسون فقالت: «رجاءً أيّتها السّيّدة جيبسون، لا تحسبيني منعدمة الإحساس والشّفقة». لا شيء كان سيمنعها من الاستسلام في يأسٍ والرّجوع إلى منزلها، لولا العينان المتضرّعتان لبولين المسكينة الّتي كانت واقفةً وراء أمّها. «أؤكّد لك، لن تكوني بمفردك أو عرضةً للإهمال. سأكون هنا طيلة اليوم وسأعمل على ألّا تحتاجي إلى أيّ شيءٍ مطلقًا».

قالت السّيّدة جيبسون وهي لا تكترث لأيّ شيءٍ قيل للتّوّ: «أوه، طبعًا لا أصلح الآن لأيّ أحدٍ. لا حاجة إلى تذكيري بذلك عمدًا أيّتها الآنسة شيرلي. أنا مستعدّةٌ للموت في أيّ وقتٍ... أيّ وقتٍ. وحينئذٍ يمكن لبولين أن تهيم على وجهها كما يحلو لها. لن أكون حينها هنا لأشعر بالإهمال والتّجاهل. شبّان اليوم لا يملكون من الإحساس شيئًا. طائشون... ومتهوّرون جدًّا».

لم تعرف آن ما إذا كانت السّيّدة العجوز، أمّ ابنتها الشّابّة، هي الطّائشة والمتهوّرة الّتي لا إحساس لديها، ومع ذلك قرّرت استعمال الطّلقة الأخيرة الّتي في تملكها.

«تعرفين أيّتها السّيّدة جيبسون، سيتحدّث النّاس بسوءٍ عن بولين إذا لم تذهب إلى عيد زواج ابنة عمّها الفضّيّ».

قالت السّيّدة جيبسون بحدّةٍ: «يتحدّثون! ما الّذي سيتحدّثون عنه؟».

«عزيزتي السّيّدة جيبسون...» (وقالت في نفسها: «أطلب المعذرة لاستعمال هذا النّعت!») «أعرف أنّك خلال عمرك المديد تعرّضت لأبشع الأحاديث من بعض الألسنة الخبيثة».

انفجرت السّيّدة جيبسون قائلةً: «لا أحتاج إلى أن تذكّريني بطول عمري. ولا طائل من إخباري أنّ هذا العالم انتقاديٌّ وعيّاب. أعرف ذلك... أعرف ذلك جيّدًا جدًّا. ولا حاجة أيضا إلى إخباري بأنّ هذه المدينة مليئةٌ بالضّفادع الثّرثارة. ولكنّني لا أطيق الاستماع إليهم وهم يتحدّثون عنّي... كقولهم مثلا إنّني عجوزٌ مستبدّةٌ، ولا أتوانى عن حبس بولين في البيت. ألم أترك ذلك الأمر لضميرها؟».

قالت آن وقد تصنّعت نبرةً حزينةً: «القليل فقط من النّاس سيصدّقون ذلك».

أخذت السّيّدة جيبسون في امتصاص قطعة حلوى بالنّعناع الفلفليّ لمدّة دقيقةٍ أو دقيقتين. ثمّ قالت: «سمعتُ أنّ هناك عدوى النّكاف في وايت صاندز».

«ماما، عزيزتي، تعرفين أنّني مرضتُ بها من قبل واكتسبتُ مناعةً».

«ثمّة مَن مرِض بها مرّتين. وستكونين أنتِ يا بولين من بين الّذين سيصابون بها مرّتين. أنت تلتقطين أيّ مرضٍ ينتشر في المدينة. لن تذكري تلك اللّيالي الطّويلة الّتي كنتُ فيها إلى جانبك، وأنا أخشى ألّا يطلع عليك النّهار حيّةً! آه، لا أحد يتذكّر لمدّةٍ طويلةٍ تضحيات أمٍّ تخشى على ابنتها. ثمّ كيف لكِ أن تذهبي إلى وايت صاندز؟ لم تستقلّي قطارًا منذ سنواتٍ طويلةٍ. ولا يوجد أيّ قطارٍ يعود من ذلك المكان ليلة السّبت».

قالت آن: «يمكنها أن تركب قطارَ صباح السّبت. وأنا متأكّدة أنّ السّيّد جايمس غريغور سيصحبها بنفسه إلى هنا».

«لم أطق في حياتي جيم غريغور. كانت أمّه من عائلة تاربوش».

«سيأخذ سيّارته ذات المقعدين ويتّجه إلى هناك يوم الجمعة، وإلّا فإنّه كان سيأخذها معه أيضًا. ولكنّها ستكون آمنةً في القطار، أيّتها السّيّدة جيبسون. محطّةٌ واحدةٌ إلى سامرسايد... وأخرى إلى وايت صاندز... ولا وجود لمحطّات ترابطٍ».

قالت السّيّدة جيبسون وقد بدأت تساورها الشّكوك: «ثمّة شيءٌ يُحاك من وراء كلّ هذا. لماذا تهتمّين جدًّا بذهابها أيّتها الآنسة شيرلي؟ أريد أن أعرف فقط».

قالت آن وقد علت محيّاها ابتسامةٌ انبعثت من عينيها الصّغيرتين البرّاقتين: «لأنّني أرى أنّ بولين فتاةٌ رائعةٌ، وابنةٌ حنونٌ ومطيعةٌ

لك، أيّتها السّيّدة جيبسون، وتحتاج بين حين وآخر إلى يوم فراغٍ يكون لها وحدها، كما هو شأن جميع النّاس».

يقال إنّ أغلب النّاس في المدينة لا يستطيعون مقاومة ابتسامة آن. إمّا أن يكون الأمر كذلك، أو أنّ الخوف من الشّائعات هو ما أثنى السّيّدة جيبسون.

«أظنّ أنّه لم يخطر لأحدٍ أنّني *أنا أيضًا* أحتاج إلى يوم فراغٍ أغادر فيه هذا الكرسيّ المتحرّك لو استطعتُ. ولكنّني لا أستطيع... عليّ فقط أن أتحمّل كَربي هذا بكلّ صبرٍ. حسنًا، إذا أرادت أن تذهب، فلها ذلك. فهي دائمًا تفعل ما يمليه عليها عقلها. إذا أصيبت بعدوى النّكاف أو تسمّمت جرّاء بعوضةٍ غريبةٍ عنّا، فلا تلوماني على ذلك. عليّ أن أفلح في تدبّر الأمور ما استطعت. أوه، أظنّ أنّك ستكونين هنا إلى جانبي، ولكنّك لست متعوّدةً على حياتي اليوميّة مثل بولين. أعتقد أنّ بإمكاني تحمّل ذلك ليومٍ. إذا لم أقدر على ذلك، فأنا أعيش منذ سنواتٍ عالةً على هذا الزّمن، فما الفرق إذَن؟».

لم تكن في كلّ الأحوال موافَقةً عن طيب خاطرٍ، ولكن بالنّهاية كانت موافَقةً. ألفَت آن نفسها، وهي في غمرة الارتياح والامتنان، تفعل شيئًا لم يكن حتّى ليخطر على بالها... انحنت وقبّلت السّيّدة جيبسون من خدّها المجلّد، وقالت «شكرا لك».

قالت لها السّيّدة جيبسون: «دعي عنك هذا الأسلوب المتملّق، أيّتها الآنسة شيرلي، وخذي قطعة حلوى بالنّعناع الفلفليّ».

قالت بولين وهي تتمشّى مع آن قليلًا على طول الشّارع: «كيف لي أن أشكرك أيّتها الآنسة شيرلي؟».

«بالذّهاب إلى وايت صاندز خالية البال، والانتشاء بكلّ دقيقةٍ من وقتك هناك».

«أوه، طبعًا سأفعل ذلك. لن تتخيّلي كم يعني لي هذا، أيّتها الآنسة شيرلي. ليست فقط لويزا الّتي أودّ رؤيتها. منزل عائلة لاكلي القديم والمجاور لها سيُباع، واشتقت كثيرًا إلى رؤيته قبل أن تتسلّمه أيادٍ غريبةٌ. ماري لاكلي... هي الآن زوجة السّيّد هاورد فليمينغ وتعيش في «الغرب»... كانت صديقتي المفضّلة في صِباي. كنّا مثل الأختين، وكنتُ أزور منزل عائلة لاكلي كثيرًا، وقد اشتقت إليه كثيرًا. لطالما حلمتُ بالرّجوع إلى ذلك المكان. تقول ماما إنّني كبرتُ على الأحلام. هل تظنّين ذلك يا آنسة شيرلي؟».

«لا أحد يكبر على الأحلام، والأحلام ذاتها لا سنّ لها».

«كم أنا سعيدة لسماع ذلك. أوه يا آنسة شيرلي، كم أحلم بأن أرى ساحل البحر ثانيةً. لم أره منذ خمس عشرة سنةً. المرفأ هنا جميلٌ، ولكنّه ليس مثل السّاحل. أشعر الآن وكأنّني أسبح في السّماء، وأنا مدينةٌ لك بذلك. لقد تركتني أمّي أذهب فقط لأنّها تحبّك. لقد جعلتِني سعيدة... أنت دائمًا تجعلين النّاس سعداء. هذا صحيحٌ، كلّما دخلتِ مكانًا يا آنسة شيرلي، إلّا وزادت سعادة الموجودين فيه».

«هذا ألطف إطراءٍ سمعته في حياتي يا بولين».

«يوجد فقط شيءٌ وحيدٌ يا آنسة شيرلي... ليس لديّ ما ألبسه سوى ذلك الفستان من قماش التفتا. إنّه موحشٌ ولا يليق بحفل زفافٍ، أليس كذلك؟ ثمّ إنّه أصبح واسعًا منذ نحفتُ قليلًا. لقد مرّت ستّة أعوامٍ منذ اشتريته».

قالت آن والأمل يحدوها كالعادة: «علينا أن نحاول إقناع أمّك للحصول على فستانٍ جديدٍ».

ولكن تبيّن إثرها أنّ ذلك يتجاوز قدراتها بكثيرٍ. فقد كانت السّيّدة جيبسون متعنّتةً وصلبةً كالصّخر، وفي رأيها أنّ ذلك الفستان من قماش التفتا مناسبٌ جدًّا لبولين كي تلبسه في زواج لويزا هيلتون.

«لقد دفعتُ منذ ستّ سنواتٍ دولارين للمتر الواحد من القماش، وثلاثة دولارات لجاين شارب حتّى تخيطه. كانت جاين خيّاطة ملابس جيّدةً. أمّها من عائلة سمايلي. وماذا دهاك يا بولين جيبسون حتّى تلبسي شيئًا «فاتحا»؟ لو كان بيدها، يا آنسة شيرلي، لارتدت ثيابًا فاضحةً من رأسها إلى قدميها. إنّها فقط تنتظر موتي لتفعل ذلك. ستتحرّرين قريبًا من كلّ المتاعب الّتي أسبّبها لك يا بولين. ويمكنك أن تلبسي ثيابًا خليعةً وطائشةً كما يحلو لك، ولكن مادمتُ حيّة ستكونين محتشمةً. ثمّ ما شأن قبّعتك؟ لقد حان الوقتُ لتلبسي قلنسوةً على أيّة حالٍ».

كانت بولين ترتاع لفكرة ارتداء القلنسوة، وتودّ لو تضع على رأسها تلك القبّعة القديمة طوال حياتها على أن تلبس قلنسوة.

قالت بولين وهي تصطحب آن إلى الحديقة لقطف باقةٍ من زنابق يونيو وقلوب مريم للأرملتين: «سأسعى إلى أن أكون سعيدةً من الدّاخل، وسأتجاهل ملابسي».

«لديّ خطّةٌ». قالت آن ذلك وهي تنظر بحذرٍ ناحية السّيّدة جيبسون لتتأكّد من أنّها لا تسمعهما، وإن كانت تراقبهما من نافذة قاعة الجلوس. «هل تعرفين فستاني الفضّيّ الرّماديّ من قماش البوبلين؟ سأعيرك إيّاه لتلبسيه في ذلك الزّفاف».

سقطت السّلّة من يد بولين لفرط اضطرابها، وشكّلت الأزهار حوضًا من اللّونين الورديّ والأبيض عند قدمَي آن.

«آه يا عزيزتي، لا يمكنني قبول هذا العرض... لن تسمح لي ماما بذلك».

«لن تعرف شيئًا عن هذا الأمر. أصغي إليّ، ستضعينه صباح السّبت تحت فستان التّفتا الأسود. أعرف أنّه سيناسبك تمامًا. هو طويلٌ نسبيًّا، ولكنّني سأرفوه قليلًا في الغد... الطيّات في الفساتين رائجةٌ هذه الأيّام. إنّه فستانٌ دون ياقةٍ، وله كُمّا كوعٍ، لذلك لن يفطن إليه أحدٌ. وحالما تصلين إلى «غال كوف» انزعي عنك فستان التّفتا. وحين ينتهي كلّ شيءٍ يمكنك أن تتركي فستان البوبلين في غال كوف وسآخذه في نهاية الأسبوع القادم عندما أذهب إلى غرين غايبلز».

«ولكن، ألن يبدو فستانًا يناسب أكثر الشّابّات اليافعات الأصغر منّي سنًّا؟».

«إطلاقًا. يمكن للمرأة في كلّ مراحل عمرها أن تلبس الرّماديّ».

قالت بولين متلعثمةً: «هل تظنّين أنّه من... المقبول... خداع ماما؟».

أجابتها آن دون حياءٍ: «نعم جدًّا في هذه الحال. تعلمين يا بولين أنّ من غير المعقول ارتداء فستانٍ أسود في حفل زفافٍ. سيجلب للعروس سوء الطالع».

«أوه، طبعًا لا يمكنني أن أكون سوء طالعٍ عليها أبدًا. وبطبيعة الحال لن يسيء ذلك إلى ماما أيضًا. آمل أن يمرّ عليها يوم السّبت بسلامٍ. أخشى ألّا تتناول ولو لقمةً واحدةً حين أكون غائبةً عن المنزل... لم تأكل شيئًا عندما ذهبت إلى جنازة ابنة عمّي ماتيلدا. قالت لي الآنسة براوتي الّتي بقيت إلى جانبها إنّها لم تضع شيئًا في فمها. لقد استثارها موت ماتيلدا كثيرًا ... أعني ماما».

«ستأكل... أعدك بذلك».

قالت بولين بإذعانٍ: «أعلم أنّك بارعةٌ في التّعامل معها. ولا تنسَي أن تناوليها دواءها في الأوقات المحدّدة، هلّا تفعلي ذلك يا عزيزتي؟ أوه، ربّما ليس لزامًا عليّ أن أذهب في نهاية الأمر».

نادتها السّيّدة جيبسون بغضبٍ شديدٍ: «لقد أمضيتِ وقتًا يكفي لقطف أربعين باقةً. لا أعرف ما الّذي ستفعله الأرملتان بأزهارك. لديهما الكثير منها في حديقة منزلهما. وفي مقابل ذلك سيكون بيتنا دون أزهارٍ ولمدّةٍ طويلةٍ جدًّا، إذا ما طلبتُ من ريبيكا ديو أن ترسل إليّ بعضها. أكاد أموت من أجل شربة ماءٍ. ولكنّني أعرف أنّه لا قيمة لي في هذا المنزل».

هاتفت بولين آن ليلة الجمعة وهي في حالةٍ من الاضطراب الشّديد. كانت مصابةً بالتهابٍ في الحلق، وسألت الآنسة شيرلي عمّا إذا كانت قد أصيبت بعدوى النكاف. ذهبت آن لتهدّئ من روعها، وأخذت معها الفستان الرّماديّ من البوبلين ملفوفًا في ورق تغليفٍ. خبّأته في أجمة اللّيلك، وفي وقتٍ متأخّرٍ من تلك اللّيلة، تمكّنت بولين، وهي تتصبّب عرقًا، من تهريب الفستان إلى الغرفة الصّغيرة الّتي تضع فيها ملابسها في الطّابق العلويّ، وارتدته بالرّغم من أنّه لم يكن يُسمح لها مطلقًا بأن تبيت هناك. كانت بولين مرتبكةً وخائفةً بشأن هذا الفستان. ربّما كان ألم حلقها عقابًا لها على مخاتلتها وخداع أمّها. ولكنّها في الآن ذاته لا يمكنها أن تذهب إلى العيد الفضّيّ لزواج لويزا وهي ترتدي ذلك الفستان الأسود من قماش التّفتا... لا يمكنها ذلك أبدًا.

(14)

وصلت آن يوم السّبت إلى منزل عائلة جيبسون منذ الصّباح الباكر. كانت دائمًا بأفضل حالاتها في مثل هذا الصّباح المشرق والمفعم بالحيويّة من أيّام الصّيف. بدت آن وكأنّها تتوهّج بتوهّجه، وتتحرّك في هذا الجوّ الذّهبيّ المتلألئ وكأنّها جسمٌ أهيف على جرّةٍ إغريقيّة[1]. أكثر الغرف الموحشة والمعتمة لمعت وأبرقت أيضًا... وعادت إليها *الحياة*... حين دخلتها آن.

علّقت السّيّدة جيبسون بسخريّةٍ: «تختالين في مشيتك وكأنّ العالم بين يديك».

قالت آن بابتهاجٍ: «هو فعلًا كذلك».

فأجابتها السّيّدة جيبسون وقد ثار جنونُها: «آه، أنت مازلت في عنفوان شبابك وهذا كلّ ما في الأمر».

قالت آن مقتبسةً: «لن أمنع قلبي من كلّ فرحٍ»، ثمّ همست: «هذه كلماتٌ من الكتاب المقدّس، أيّتها السّيّدة جيبسون».

---

(1) في إشارة إلى قصيدة «على جرّة إغريقيّة» للشّاعر الرّومنطيقيّ الإنجليزيّ جون كيتس.

فردّت عليها السّيّدة جيبسون سريعًا: «"ولكنّ الإنسان مولودٌ للمشقّة كما أنّ الجوارح لارتفاع الجناح". هذا أيضًا من الكتاب المقدّس». الحقيقة أنّ السّيّدة جيبسون وجدت نفسها في مزاجٍ جيّدٍ نسبيًّا بعد أن عكست الهجوم على الآنسة شيرلي المتحصّلة على اللّيسانس. ثمّ قالت: «أنا لستُ من الّذين يداهنون يا آنسة شيرلي، ولكنّ قبّعتك السّعفيّة الّتي تعلوها تلك الوردة الزّرقاء تلائمك كثيرًا. وبدا لي شعرك تحتها غير ممعنٍ في الحمرة. ألا تُعجَبين بفتاةٍ يافعةٍ ومفعمةٍ بالحياة مثل هذه، يا بولين؟ ألا تريدين أن تكوني نَضِرةً وشابّةً مثلها؟».

كانت بولين مبتهجةً ومتحمّسةً جدًّا إلى درجة أنّها لم تكن تريد في تلك اللّحظة سوى أن تكون نفسها. إثر ذلك صعدت معها آن إلى الغرفة العُلويّة لتساعدها في ارتداء فستانها.

«كم هو رائعٌ أن أتذكّر كلّ الأشياء الجميلة الّتي حصلت اليوم، يا آنسة شيرلي. فحلقي على ما يرام، وماما في مزاجٍ رائقٍ جدًّا. قد لا تصدّقين ذلك، ولكنّني أعلم أنّها منشرحة الصّدر حين أسمعها تتحدّث، حتّى وإن كان حديثًا يخالطه الكثير من السّخريّة. لو كانت غاضبةً أو متكدّرةً لَوَجَمَت طيلة اليوم. لقد قشّرتُ البطاطا. شرائح اللّحم في صندوق الثّلج، والبلان مانج[1] في قبو المُؤَنِ. توجد دجاجةٌ معلّبةٌ للعشاء وكعكةٌ إسفنجيّة في حجرة الأطعمة. مازلتُ متوتّرةً وأخشى أن تغيّر ماما رأيها. لن أطيق نفسي إن فعلت ذلك.

(1) نوع من المهلّبيّة.

أوه، يا آنسة شيرلي، أتعتقدين أنّ عليّ لباس الفستان الرّماديّ... فعلًا؟».

قالت لها آن بنبرة المدرّسة الحازمة: «فقط ارتديه».

أطاعت بولين أمرها، وظهرت بعد دقائق من الغرفة متغيّرة المظهر. لقد لاءمها الفستان الرّماديّ على نحوٍ بديعٍ. كان دون ياقةٍ، ومكشكشا بطيّاتٍ أنيقةٍ من الدّانتيلا في كُمَّي الكوع. عندما انتهت آن من تسريح شعر بولين، كادت هذه الثانية ألّا تعرف نفسها.

«أكره أن أغطّيه بذلك الفستان الأسود الفظيع من التّفتا، يا آنسة شيرلي».

ولكن كان عليها أن تخفيه في كلّ الأحوال. وسيفي فستان التّفتا بالغرض بكلّ أمانٍ. وضعت بولين قبّعتها القديمة... والّتي ينبغي عليها نزعها حال وصولها إلى منزل لويزا... وجعلت في ساقها حذاءً جديدًا. في الواقع، سمحت لها السّيّدة جيبسون بالحصول على زوجٍ جديدٍ، بالرّغم من أنّها وجدت الكعب «عاليًا على نحوٍ فاضحٍ».

«سأتسبّب في بعض الإثارة وأنا أستقلّ القطار وحدي. آمل ألّا يعتقد الرّكّاب أنّني ذاهبةٌ إلى مأتمٍ. لا أريد للعيد الفضّيّ لزواج لويزا أن يقترن بأيّ شيءٍ يُحيل على الموت. أوه، قليلٌ من العطر يا آنسة شيرلي! بزهر التّفّاح! أليس رائعًا؟ سأضع قطرةً واحدةً فقط... أشعر دائمًا أنّه يجعلني مثل السّيّدات. وماما لا تدعني أشتري منه مطلقًا. أوه يا آنسة شيرلي، لا تنسي أن تطعمي الكلب. لقد تركت

له بعض العظام في حجرة المُؤَن على ذلك الطّبق المغطّى. آمل أن ..». وخفضت من صوتها وهي تهمس باحتشامٍ «... لا يسيء... السّلوك... في المنزل أثناء غيابي».

كان على بولين أن تمرّ عبر نظرات أمّها الثّاقبة قبل أن تشدّ الرّحال. كان تحمّسها إلى هذا الخروج وشعورها بالذّنب بسبب ذلك الفستان المستتر من البوبلين قد امتزجا وجعلا وجنتيها تتورّدان على نحوٍ غير مألوفٍ. ظلّت السّيّدة جيبسون تحدّق فيها بامتعاضٍ.

«أوه، ما هذا! هل أنت ذاهبةٌ للقاء الملكة في لندن؟ ألوانك فاقعةٌ جدًّا. سيخالك النّاس مدهونةً. ألم تَرَي نفسك؟».

قالت بولين مصدومةً: «أوه، كلّا يا أمّي... كلّا».

«انتبهي إلى آداب السّلوك من الآن فصاعدًا، وحين تجلسين أَبْقِي على كاحليك متشابكين باحتشامٍ. انتبهي إلى ألّا تجلسي قبالة مجرًى للهواء، وألّا تتحدّثي كثيرًا».

قالت بولين وهي تعدها بجدّيّةٍ وترمق بتوتّر السّاعة: «لن أفعل ذلك ماما».

«سأرسل معك إلى لويزا قارورةً من شراب السّرسبريلا، نخبَ عيد زواجها. لم أكترث يومًا إلى لويزا، ولكنّ أمّها من عائلة تاكابيري. انتبهي إلى أن تعيدي القارورة، ولا تدعيها تعطيك قطًّا صغيرًا. لويزا متعوّدةٌ على إهداء القطط».

«حاضر، يا أمّي».

«هل أنت متأكّدةٌ أنّك لم تتركي الصّابون في الماء؟».

«متأكّدةٌ جدًّا ماما». وألقت نظرةً أخرى بائسةً على السّاعة.

«هل ربطت حذاءك بشكلٍ جيّدٍ؟».

«نعم، ماما».

«رائحتك غير محترمةٍ... وكأنّك منقوعةٌ في العطر».

«أوه لا يا أمّي العزيزة... فقط قليلٌ منه... قطرةٌ صغيرةٌ..».

«حين أقول إنّك منقوعةٌ في العطر فأنت كذلك. أليس ذلك فتقًا تحت ذراعك؟».

«أوه، كلّا يا ماما».

«دعيني أرى..». بعنادٍ.

ارتجفت بولين. تخيّل لو ظهرت تنّورة الفستان الرّماديّ وهي ترفع ذراعيها!

«حسنًا، يمكنك الذّهاب الآن». على إثرها أطلقت بولين زفرةً طويلةً. «وإذا متُّ حين تعودين، تذكّري أنّني أريد أن أسجّى في وشاحي من الدّانتيلا وخُفّيّ الأسودَين من السّاتان. وتأكّدي كذلك من أنّ شعري معقوصٌ».

«هل تشعرين بوعكةٍ يا ماما؟» لقد جعل فستان البوبلين ضميرَ بولين مرهفًا جدًّا. «إذا كنت مريضةً... فلن أذهب..».

«ونبدّد بذلك الأموال الّتي اشترينا بها الحذاء! ستذهبين بطبيعة الحال. وانتبهي إلى ألّا تتزحلقي على عمود الدّرابزين».

في تلك اللّحظة بدأ صبر بولين ينفد.

«ماما! هل تظنّين فعلًا أنّني سأفعل ذلك؟».

«فعلتِ ذلك في زفاف نانسي باركر».

«كان ذلك منذ خمسةٍ وثلاثين عامًا! هل تظنّين أنّني سأعيد الكرّة الآن؟».

«لقد حان وقت الرّحيل من هنا. ما هذه الثّرثرة الّتي تجري هنا؟ هل تريدين أن يفوتك القطار؟».

خرجت بولين مسرعةً، وتنفّست آن الصّعداء. لقد خشيت لوهلةٍ أنّ السّيّدة جيبسون قد دفعتها غريزةٌ جهنّميّةٌ في اللّحظات الأخيرة لإبطاء بولين حتّى يفوتها القطار».

قالت السّيّدة جيبسون: «قليلًا من الهدوء الآن. المنزل في حالةٍ مزريةٍ وغير مرتّبٍ بالمرّة، يا آنسة شيرلي. أظنّك لاحظت أنّه ليس دائمًا في هذه الحال. لقد كانت بولين متوتّرةً ولا تعرف ماذا تفعل في الأيّام الأخيرة. هلّا حرّكت تلك المزهريّة إنشًا واحدًا إلى اليسار؟ لا، أرجعيها إلى الوراء ثانيةً. مظلّة المصباح مائلةٌ قليلًا. الآن هي مستقيمةٌ أكثر من اللّازم. ذلك السّتار منخفضٌ بإنشٍ واحدٍ عن الآخر، عدّليه من فضلك».

لسوء الحظّ جذبت آن السّتارَ بقوّةٍ مبالغٍ فيها، فانفلت من بين أصابعها وانطلق يئزّ نحو الأعلى.

قالت السّيّدة جيبسون: «آه، رأيت الآن».

لم تر آن شيئًا، ولكنّها عدّلت السّتار بدقّةٍ فائقةٍ.

«والآن، هل تريدين أن أعدّ لك كأسًا شهيّةً من الشّاي، أيّتها السّيّدة جيبسون؟».

قالت السّيّدة جيبسون على نحوٍ مثيرٍ للشّفقة: «*فعلًا* أنا أحتاج *إلى شيءٍ مّا*... لقد سئمتُ من كلّ هذا الجزع والهرج والمرج. معدتي تكاد تفلت منّي. هلّا أعددتِ لي كأسًا مقبولةً من الشّاي؟ قريبًا سأشرب الوحل من فرط بشاعة الشّاي الّذي يعدّه البعض».

«علّمتني ماريلا كوثبيرت طريقة إعداد الشّاي. سترين بنفسك. دعيني في البداية أدفع بك الكرسيّ إلى السّقيفة حتّى تتمتّعي بأشعّة الشّمس».

قالت السّيّدة جيبسون ممانعةً: «لم أخرج إلى السّقيفة منذ سنواتٍ».

«أوه، إنّه يومٌ جميلٌ، ولن يضرّك الخروج في شيءٍ. أردتك فقط أن تتمتّعي بمنظر شجرة التّفّاح المزهرة. لا يمكن أن تريها إلّا إذا خرجت. ثمّ إنّ الرّيح تهبّ من الجنوب اليوم، وستتمتّعين برائحة البرسيم القادمة من حقل السّيّد نورمان جونسون. سأحضر لك الشّاي وسنشربه معًا، ثمّ سآتي بالثّوب الّذي بدأت بتطريزه، وسنجلس هناك وسننتقد كلّ المارّين من هنا».

قالت السّيّدة جيبسون بتعفّفٍ: «لا أستسيغ انتقاد النّاس. ليس ذلك في المسيحيّة من شيءٍ. هل تمانعين حين أسألك هل كلّ هذه الضّفائر شعركِ؟».

قالت آن ضاحكةً: «كلّ شعرةٍ فيه».

«خسارة أنّه أحمر. بالرّغم من أنّ الشّعر الأحمر أصبح شائعًا

هذه الأيّام. تعجبني ضحكتك. القهقهة المتوتّرة لبولين المسكينة تثير أعصابي. حسنًا، إذا كان لا بدّ أن أخرج إلى السّقيفة، فسأفعل. الراجح أنّي سأصاب ببردٍ يذهب بحياتي، وستكونين أنت المسؤولة يا آنسة شيرلي. تذكّري أنّ لي ثمانين سنةً... بالتّمام والكمال، بالرّغم من أنّني سمعتُ العجوز دافي أكهام يقول في كلّ أنحاء سامرسايد إنّ عمري تسعةٌ وسبعون عامًا. أمّه كانت من عائلة واط. وهذه العائلة كانت دائمًا تحسدنا على ما نحن فيه».

حرّكت آن الكرسيّ ذي العجلات بحذاقةٍ، وبرهنت أنّ لها خبرةً في ترتيب الوسائد. ثمّ سرعان ما أحضرت الشّاي وتكرّمت السّيّدة جيبسون بقبوله.

«نعم، هذا الشّاي قابلٌ للشّرب، يا آنسة شيرلي. آه يا بنيّتي، كان عليّ أن أعيش مدّة عامٍ كاملٍ على السّوائل. لم يتخيّلوا أثناءه يومًا أنّي سأبقى على قيد الحياة. غالبًا ما أفكّر في أنّه كان من الأفضل ألّا تتحسّن حالتي. هل تلك هي شجرة التّفّاح الّتي تهذين بها؟».

«نعم... أليست بديعةً... وشديدة البياض قبالة زرقة السّماء الغامقة؟».

«الجوّ ليس شاعريًّا». كان ذلك التّعليق الوحيد للسّيّدة جيبسون، ولكنّها أصبحت بعد كأسين من الشّاي أكثر مرحًا وليّنًا. ثمّ شارف وقت الضّحى على الانتهاء، وحان وقت التّفكير في الغداء.

«سأذهب لإعداده ثمّ إحضاره إلى هنا على طاولةٍ صغيرةٍ».

«لا، لن تفعلي ذلك يا آنسة. لا مجال لمثل هذه التّصرّفات السّخيفة

والمجنونة! سيظنّ النّاس أنّ ذلك غريبٌ جدًّا، أن نأكل في الخارج هكذا أمام الملإ. أنا لا أنكر أنّ المكان لطيفٌ هنا في الخارج... بالرّغم من أنّ رائحة البرسيم تجعلني أصاب دومًا بالغثيان... والضّحى قد مرّ بسرعةٍ رهيبةٍ على غير العادة، ولكنّني لن أتناول الغداء في الهواء الطّلق أمام كلّ النّاس. لستُ من الغجر. وانتبهي إلى أن تغسلي يدك وتنظّفيها قبل أن تعدّي الغداء. يا إلهي، لا شكّ في أنّ السّيّدة ستوري تتوقّع زيارة عددٍ من الضّيوف. فقد أخرجت جميع فُرُش الأسرّة من غرفة مبيت الضّيوف، ووضعتها للتّهوية على حبل الغسيل. ليس هذا من الضّيافة في شيءٍ... هي فقط رغبةٌ في البهرج. لقد كانت أمّها من عائلة كاري».

كان الغداء الّذي طبخته آن وأعدّته قد أعجب السّيّدة جيبسون كثيرًا.

«لم أكن أتصوّر أنّ الأشخاص الّذين يكتبون في أعمدة الصّحف قادرون عل الطّهي جيّدًا. ولكنّك تتلمذتِ بطبيعة الحال على يد ماريلا كوثبيرت. كانت أمّها من عائلة جونسون. أعتقد أنّ بولين ستأكل ما لا ينفع صحّتها في ذلك الزّفاف. إنّها لا تعرف متى تتوقّف عن الطّعام... تمامًا مثلما كان أبوها يفعل. لقد رأيته يلتهم أعدادًا كبيرة من الفراولة وهو يعلم أنّه سيتلوّى من الألم إثرها بساعةٍ واحدةٍ. هل سبق أن أريتك صورته يا آنسة شيرلي؟ حسنًا، اذهبي إلى الغرفة المخصّصة للضّيوف أعلاه وأحضريها. ستجدينها تحت الفراش. احذري من أن تسوّل لك نفسك التّطفّل

على محتويات الأدراج حين تكونين في الأعلى. ولكن تفحّصي المكان وانظري إن كانت هناك بعض اللّفائف من الغبار تحت المكتب. أنا لا أثق ببولين... آه، نعم، إنّه هو. كانت أمّه من عائلة وولكر. لن تجدي رجلًا مثله هذه الأيّام. إنّه عصر الانحلال يا آنسة شيرلي».

قالت آن مبتسمةً: «لقد قال هوميروس الكلام نفسه قبل ميلاد المسيح بثمانية قرونٍ».

ردّت السّيّدة جيبسون: «بعض الكتّاب من العهد القديم ينعقون مثل الغربان. أحسبك مصدومةً حين تسمعين مثل هذا الكلام يا آنسة شيرلي. ولكنّ زوجي كان منفتحًا جدًّا في آرائه. سمعتُ أنّك مخطوبةٌ.. إلى طالبٍ في الطّبّ. أكثر طلبة الطّبّ يشربون الخمر، أعتقد.. أنّهم مجبرون على ذلك، حتّى يتحمّلوا غرفة التّشريح. حذار من أن تتزوّجي رجلًا يعاقر الخمرة، يا آنسة شيرلي، أو رجلًا لا يقدر على إعالتك. النّفخ في زغب الأشواك وتأمّل ضوء القمر لن يطعمك الخبز، أنا أنبّهك فقط. لا تنسَي أن تنظّفي المغسلة وتغسلي بالماء مناشف الصّحون. لا أحتمل رؤية مناشف الصّحون وهي مزيّتة. أفترض أيضًا أنّ عليك إطعام الكلب. إنّه سمينٌ الآن، ولكنّ بولين تواصل حشوه بالأكل. أفكّر في كثيرٍ من الأحيان أن أتخلّص منه».

«أوه، لو كنت مكانكِ لما فعلتُ ذلك يا سيّدة جيبسون. تعلمين أنّ هناك الكثير من أعمال النّهب... ومنزلك وحيدٌ، ومنعزلٌ جدًّا. أنت تحتاجين إلى بعض الحماية».

«حسنًا، حسنًا. هذا رأيك أنت. عليّ أن أفعل شيئًا عوضًا عن

الجدال مع النّاس، وبالخصوص عندما أشعر بهذا الخفقان الغريب في قفا عنقي. أظنّه يعني أنّي سأصاب بجلطةٍ».

«أنت تحتاجين إلى قيلولةٍ. عندما تأخذين قسطًا من النّوم ستشعرين بالتّحسّن. سألفّك في ملاءةٍ وأُنزل كرسيّك. هل تريدين الذّهاب إلى السّقيفة للنّوم قليلًا؟».

«أنام أمام الملإ! هذا أشنع من الأكل. لديك أفكارٌ غريبةٌ جدًّا. فقط ثبّتي الكرسيّ هنا في قاعة الجلوس واسحبي السّتائر وأغلقي الباب لصدّ الذّباب عنّي. أظنّ أنّ عليك أنت أيضًا أخذ قسطٍ من النّوم... فلسانك لم يسكت عن الكلام البتّة».

استرخت السّيّدة جيبسون للنّوم مدّةً طويلةً، ولكنّها أفاقت ومزاجها سيّئٌ، ولم تدع آن تحرّك كرسيّها إلى السّقيفة مرّةً ثانيةً.

قالت متذمّرةً: «تريدينني أن أموت جرّاء هذا النّسيم اللّيليّ البارد». لم تكن السّاعة تشير سوى إلى الخامسة مساء. تأفّفت بعدها السّيّدة جيبسون من كلّ شيءٍ. المشروب الّذي أحضرته آن كان باردًا جدًّا... الّذي جاء إثره لم يكن فاترًا بما فيه الكفاية... طبعًا كلّ شيءٍ كان مباحًا بالنّسبة *إليها*. أين هو الكلب؟ لا شكّ أنّه بصدد إساءة السّلوك كما قالت بولين. ظهرها يؤلمها... ركبتاها تؤلمانها... رأسها يؤلمها... ضلوع صدرها تؤلمها. لا أحد يتعاطف معها... لا أحد يمكنه أن يفهم معاناتها. كرسيّها عالٍ جدًّا... كرسيّها منخفضٌ كثيرًا... تريد وشاحًا تضعه على كتفيها، وشالًا أفغانيًّا على ركبتيها، ومسندًا تحت قدميها. وهل تستطيع الآنسة شيرلي أن تتفقّد أيضًا

من أين يأتي تيّار الهواء هذا؟ تودّ كثيرًا لو تناولت كأسًا من الشّاي، ولكنّها لا تريد إقلاق راحة أحدٍ، وسترتاح في قبرها قريبًا جدًّا. ربّما سيُقدّرونها أكثر حين تُوارى التّراب.

«سواء طال النّهار أم قصُر، فإنّه سيفضي حتمًا إلى نشيد المساء».
شعرتْ آن أنّ ذلك اليوم لن ينتهي، ولكنّه ولّى في نهاية المطاف. غربت الشّمس وبدأت السّيّدة جيبسون تتساءل عن السّبب الّذي جعل بولين تتأخّر في العودة. وحلّ الغسق... ولا أثر لبولين. ثمّ اللّيل وضوء القمر، ولا حياة لمن تنادي.

قالت السّيّدة جيبسون بغموضٍ: «كنتُ أعلم ذلك».

قالت لها آن مطَمئنةً: «تعرفين أنّها لا تستطيع المجيء إلاّ برفقة السّيّد غريغور، وهو عادةً آخر من يغادر الحفلات. هلّا تركتني أضعك في فراشك، أيّتها السّيّدة جيبسون؟ أنت مجهدةٌ... أعلم أنّ التّوتّر يتفاقم حين يكون بجانبك شخصٌ غريبٌ عوضًا عن الشّخص الّذي تعوّدت عليه».

زادت خطوط التّجاعيد حول فم السّيّدة جيبسون من تغضّنها في كثيرٍ من العناد.

«لن أخلد للنّوم حتّى تعود تلك الفتاة إلى الدّار. ولكن إذا كنتِ متلهّفةً إلى الذّهاب، *فاذهبي*. يمكنني أن أبقى بمفردي... أو أموت بمفردي».

على السّاعة التّاسعة والنّصف، كانت السّيّدة جيبسون متأكّدةً أنّ جيم غريغور لن يحلّ ركبه حتّى يوم الاثنين.

«لا أحد يمكنه أن يعوّل على أن يحافظ جيم غريغور على الرّأي نفسه لمدّة أربعٍ وعشرين ساعة. ثمّ إنّ هذا الرّجل يؤمن أيضًا بأنّه من غير الجائز السّفر يوم الأحد، حتّى وإن تعلّق الأمر بالعودة إلى الدّيار. هو عضوٌ في مجلس إدارة المدرسة، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه وفي آرائه حول التّعليم؟».

أصبحت آن شرّانيّةً في تلك اللّحظة. لقد تحمّلت في نهاية الأمر الكثير وهي بين يدي السّيّدة جيبسون.

أجابتها بنبرةٍ بليغةٍ: «أعتقد أنّه يعاني من مفارقةٍ تاريخيّةٍ نفسانيّةٍ».

لم تُظهر السّيّدة جيبسون أيّ اندهاشٍ وقالت: «أوافقك الرّأي». ثمّ تظاهرت إثر ذلك بالذّهاب إلى النّوم».

(15)

كانت السّاعة تشير إلى العاشرة حين عادت بولين أخيرًا... محمرّة الوجنتين، متلألئة العينين، وأصغر سنًّا بعشر سنواتٍ على الأقلّ، بالرّغم من أنّها عادت إلى ارتداء ثوب التّفتا الأسود والقبّعة القديمة. كانت تحمل باقةً جميلةً من الورود هرولت لتقديمها إلى العجوز المتجهّمة الوجه في الكرسيّ المتحرّك.

«أرسلت إليك العروس باقة ورودها يا ماما. أليس ذلك رائعًا؟».

«هديّةٌ لا تسمن ولا تغني من جوعٍ. لا أحد فكّر في أن يرسل إليّ ولو فتفوتةً من كعكة الزفاف. النّاس في هذه الأيّام لا إحساس لهم بقيمة العائلة. حسنًا، أنتظر ذلك اليوم..».

«ولكنّهم أرسلوا إليك قطعةً كبيرةً ولذيذةً، وهي في حقيبتي. سأل عن حالك كلّ النّاس يا ماما وبلّغوك حبّهم».

سألتها آن: «هل استمتعت بوقتك؟».

جلست بولين على كرسيٍّ صلبٍ لأنّها تعرف أنّ أمّها ستستاء حتمًا من جلوسها على مقعدٍ وثيرٍ.

قالت بحذرٍ: «لقد كان وقتًا ممتعًا، وكان عشاء زفافٍ رائعًا.

والسّيّد فريهان، وهو قسّيس غال كوف، أعاد تزويج لويزا وموريس للمرّة الثّانية..».

«أسمّي هذا تدنيسًا للمقدّس..».

«ثمّ التقط المصوّر كلّ صورنا الفوتوغرافيّة. كانت الورود في غاية الجمال. وكان البهو في شكل تعريشةٍ..».

«مثل جنازة على ما يبدو..».

«أوه يا ماما، ماري لاكلي جاءت إلى الزفاف قادمةً من «الغرب» ... السّيّدة فليمينغ الآن، كما تعلمين. تتذكّرين كم كنّا صديقتين منذ الصغر. لقد كنّا نطلق على أنفسنا «بولي» و«مولي»..».

«أسماءٌ سخيفةٌ جدًّا..».

«كم كان رائعًا أن أراها مرّةً أخرى وأن نتحدّث طويلًا عن أوقات الصّبا. أختها إيميلي كانت هناك أيضًا، كم هو لذيذٌ طفلها الرّضيع».

قالت السّيّدة جيبسون وهي تنخر كالخنزير: «تتحدّثين عن الطّفل وكأنّه مُعدٌّ للأكل. الأطفال الرّضّع في كلّ مكانٍ».

قالت آن وهي تحضر وعاءً من الماء لتضع فيه ورود السّيّدة جيبسون: «أوه، كلّا، ليس الأطفال حدثًا عابرًا وعاديًّا. كلّ واحدٍ منهم معجزةٌ على حدةٍ».

«حسنًا، لقد أنجبتُ عشرةً منهم، ولم أرَ إعجازًا في أيّ واحدٍ منهم. بولين، اجلسي دون أن تتململي. إنّك تثيرين أعصابي. لاحظتُ أنّك لم تسألي حتّى كيف قضّيتُ يومي. ولكنّي توقّعتُ ذلك».

«يمكنني رؤية أنّك تحسّنت كثيرًا دون أن أسأل يا ماما... تبدين مشرقة الوجه ومنشرحة الصّدر». كانت معنويّات بولين ما تزال مرتفعةً بعد يومٍ حافلٍ، واستطاعت أن تجيب أمّها بشيءٍ من المكر. «أنا متأكّدةٌ أنّك قضّيت وقتًا ممتعًا رفقة الآنسة شيرلي».

«لقد أمضينا وقتًا طيّبًا. تركتُها تفعل ما تريد في المنزل. وأعترف أنّها المرّة الأولى الّتي أسمع فيها منذ سنواتٍ حديثًا يثير الاهتمام. لستُ قريبةً جدًّا من القبر كما يتوهّم البعض. شكرًا للسّماء على أنّني لست صمّاء ولم يفسُد عقلي من الكبر ولم أصبح صبيانيّة السّلوك. حسنًا، أفترض الآن أنّك في المرّة القادمة ستعودين في آخر اللّيل. وأفترض أيضًا أنّهم ربّما لم يكترثوا لشراب السّرسبريلا؟».

«بالعكس لقد أعجبهم. قالوا لي إنّه لذيذٌ جدًّا».

«لقد أمضيتِ وقتًا طويلًا حتّى تخبريني بذلك. هل عدتِ بالقارورة... أم إنّ عليّ ألّا أنتظر منك تذكّر هذا؟».

تلعثمت بولين قائلةً: «القارورة... تكسّرت. لقد هشّمها أحد المدعوّين في بهو القاعة. ولكنّ لويزا أعطتني زجاجةً أخرى تشبهها تمامًا يا ماما، فلا تنزعجي لهذا الأمر».

«رافقتني تلك القارورة منذ بدأتُ تدبير شؤون هذا المنزل. وقارورة لويزا لن تكون مثلها تمامًا. إنّهم لا يصنعون مثل هذه القوارير في وقتنا هذا. أتمنّى لو أحضرت لي وشاحًا آخر. لقد بدأتُ أعطس... أظنّ أنّني أصبتُ بنزلة بردٍ رهيبةٍ. يبدو أنّكما الاثنتين لا تقدران حتّى على تذكّر إغلاق النّوافذ كي لا يتسرّب الهواء البارد

إلى جسمي. سيتسبّب ذلك على الأرجح في إصابتي بالتهاب الأعصاب من جديدٍ».

جاءتها جارةٌ عجوزٌ في تلك اللّحظة، واستغلّت بولين الفرصةَ لترافق آن قليلًا في طريق عودتها إلى المنزل.

قالت السّيّدة جيبسون بكلّ لطفٍ: «ليلةً سعيدةً يا آنسة شيرلي. أنا ممتنّةٌ لكِ. لو كان في هذه المدينة أشخاصٌ أكثر مثلك لصلح حالها». ثمّ ابتسمت ابتسامةً عريضةً كشفت عن فمٍ أدرد، وجذبت إليها آن وهي تهمس: «لا يهمّني ما يقوله النّاس... ولكنّني أجدكِ في غاية الجمال».

مشت بولين وآن على طول الشّارع في تلك اللّيلة المنعشة الخضراء، وأطلقت بولين العنان لنفسها، لأنّها لم تجرؤ على ذلك أمام أمّها.

«آه يا آنسة شيرلي، لقد كنتُ كمَن عاد من الجنّة. كيف لي أن أردّ لك الجميل؟ لم أقضِ في حياتي يومًا كهذا... سوف أعيش سنواتٍ على وقعه. لقد كان ممتعًا أن أكون الإشبينة مرّةً أخرى. وكان القبطان إسحاق إشبين العريس. لقد ... لقد كان في السّابق معجبًا بي... في الحقيقة لم يكن إعجابًا كبيرًا... لا أظنّ أنّه كانت له نوايا حقيقيّةٌ في الزّواج منّي، ولكنّنا تجوّلنا قليلًا اليوم... وأطرى عليّ مرّتين. قال لي: «أتذكّر كم كنتِ فاتنةً في زفاف لويزا الأوّل وأنت ترتدين ذلك الفستان الأحمر المائل إلى السواد». أليس رائعًا أن يتذكّر لون فستاني؟ ثمّ قال: «شعرك يبدو مثل حلوى دبس

السّكّر». هل كان كلامه غير لائقٍ حين تحدّث هكذا، يا آنسة شيرلي؟».

«إطلاقًا يا عزيزتي».

«تناولتُ أنا ولويزا ومولي عشاءً شهيًّا بعد أن غادر كلّ المدعوّين. كنتُ جائعةً جدًّا... لا أظنّ أنّني شعرتُ بمثل ذلك الجوع منذ سنواتٍ. لقد كان من الرّائع أن آكل ما أريد أكله، دون أن يوجد أحدٌ يحذّرني من الأشياء الّتي لا تتوافق ومعدتي. توجّهت بعد العشاء مع ماري إلى منزلها العتيق، وتجوّلنا في أرجاء الحديقة ونحن نتحدّث عن الأزمان الغابرة. تأمّلنا آجام نبات اللّيلك الّذي زرعناه منذ سنين. لقد كنّا قد أمضينا معًا أصيافًا ممتعةً حين كنّا صغيرتين. وحين جاء الغروب، ذهبنا إلى ذلك السّاحل الحبيب وجلسنا هناك على صخرةٍ في سكونٍ رهيب. كان جرس المرفإ يدوّي من بعيدٍ، وكم كان جميلًا أن أنتشي مرّةً أخرى بالنّسيم وهو يهبّ من البحر، وبالنّجوم وهي ترتجف على سطح الماء. لقد نسيت كم هي جميلةٌ تلك اللّيالي في السّاحل. وعندما جنّ اللّيل، عدنا إلى المنزل وكان السّيّد غريغور حينها يتأهّب للمجيء إلى هنا..»، وعندئذٍ ختمت بولين حديثها وهي تضحك، «ثمّ عادت المرأة العجوز إلى بيتها تلك اللّيلة»[1].

«أتمنّى... أتمنّى ألّا تشقَي كثيرًا في هذا المنزل، يا بولين..».

(1) آخر جملة من حكاية شعبيّة إنجليزية اسمها «المرأة العجوز وخنزيرها».

قالت بولين بسرعةٍ: «آه يا آنسة شيرلي، لن أمانع في ذلك الآن. تحتاج إليّ ماما في نهاية الأمر، ومن الجميل أن يحتاج إليك النّاس يا عزيزتي».

فعلًا، لقد كان جميلًا أنّ النّاس احتاجوا إليك. جال هذا الأمر بخاطر آن وهي في غرفة البرج، حيث استكنّ داستي ميلر في فراشها، بعد أن فرّ بجلده من ريبيكا ديو والأرملتين. أخذت تفكّر في بولين الّتي عادت تهرول إلى جلّادها، وتصاحبها رغم ذلك «تلك الرّوح الأبديّة ليومٍ كان سعيدًا»[1].

قالت آن لداستي ميلر: «أتمنّى أن يحتاج إليّ النّاس دومًا. ومن الرّائع يا داستي ميلر أن يكون المرء قادرًا على جلب السّعادة للنّاس. أن أعطي بولين اليومَ فرصةً للانعتاق جعلني أشعر بكثيرٍ من الغنى في الرّوح. ولكن، أوه يا داستي ميلر، هل تظنّ أنّني سأصبح مثل السّيّدة أدونيرام جيبسون، حتّى وإن بلغتُ الثّمانين من عمري؟ هل تظنّ ذلك يا داستي ميلر؟».

كان داستي ميلر يهرهر بحنجرته في غنًى هو أيضًا، وطمأنها أنّه لا يعتقد ذلك.



(1) من قصيدة للشّاعر الرّومنطيقيّ الإنجليزيّ وليام ووردزورث.

(16)

سافرت آن إلى بونيفيو ليلة الجمعة الّتي تسبق حفل الزّفاف. فقد أقامت عائلة نيلسون عشاءً لبعض الأصدقاء من العائلة وضيوف حفل الزّفاف القادمين في قطار نقل المسافرين من الميناء. كان ذلك المنزل الضّخم والمترامي الأطراف على مساحاتٍ مشتّتةٍ هو الإقامةَ الصّيفيّة للدّكتور نيلسون. وكان قد شُيّد بين أشجار الرّاتينجة الفضّيّة على طول مرتفعٍ من الأرض يحدّه الخليج من الجانبَين، وهناك غير بعيدٍ منه امتدّت كثبانٌ ذهبيّةٌ من الرّمل، تتذكّر ما لا يخطر ببالٍ عن صولات الرّيح فيها وجولاتها.

افتتنت آن بالمنزل حالما رأته. لطالما شعرت بأنّ المنازل العتيقة والمبنيّة بالحجارة تعطي دومًا الانطباعَ بالرّاحة والهيبة. فهي لا تهاب الأنواء ولا الرّياح ولا تقلّبات الموضة. كان المنزل في ذلك المساء من أمسيات يونيو مفعمًا بالحياة والإثارة، وبضحك الفتيات، وبتحيّات الأصدقاء القدامى، وبالسّيّارات المزمجرة جيئةً وذهابًا، وبالأطفال وهم يجرُون في كلّ مكانٍ، وبالهدايا القادمة من كلّ جهةٍ. كان الجميع منتَشين بهذه الجلبة البهيجة للحفل، أمّا قِطّا الدّكتور نيلسون الأسودان، واللّذان لاحا جَذِلَين باسميهما «بارنباس» و«صول»،

فكانا يجلسان على درابزين الفراندة، وراحا يراقبان المشهد كلّه مثل تمثالَين رمليّين لأبي الهول.

انسلّت سالي من حشد النّاس الّذي كانت برفقته، وصعدت مع آن برشاقةٍ إلى الطّابق العلويّ.

«لقد خصّصنا لكِ الغرفة الّتي توجد في الجملون الشّماليّ. وبطبيعة الحال سيشاركك فيها على الأقلّ ثلاثة ضيوفٍ آخرين. الجوّ صاخبٌ ومرحٌ جدًّا هنا. أبي بصدد وضع خيمةٍ للأولاد بين أشجار الرّاتينجة، وبعد قليلٍ سوف تكون لنا أسرّةٌ خفيفةٌ في السّقيفة ذات الواجهات البلّوريّة، في جهة المنزل الخلفيّة. وطبعًا، يمكننا عندئذٍ حشر أغلب الأطفال في مخزن التّبن. أوه يا آن، أنا متحمّسةٌ جدًّا. الزّواج في نهاية الأمر لا يعني زوال المتعة. لقد وصل فستان الزّفاف اليوم من مونتريال. إنّه أشبه *بالحلم*... فستان من الحرير النّاتئ الخيوط في لون القشدة، تعلوه صدريّةٌ من الدانتيلا وتوشيةٌ قُدَّت من اللّؤلؤ. لقد أتحِفت بأجمل الهدايا كذلك. هذا هو فراشكِ. أمّا الأسرّة الأخرى فهي لمامي غراي ودوت فرايزر والأخت بالمر. أرادت أمّي أن تضع إيمي ستوارد هنا، ولكنّني لم أتركها تفعل ذلك. إيمي تكرهكِ لأنّها كانت تتوق إلى أن تكون إشبينتي. ولكنّني لن أرضى بوصيفةٍ قصيرةٍ وبدينةٍ مثلها، أليس كذلك؟ ثمّ إنّ وجهها أخضر نيليٌّ كمن أصيب بدوار البحر. أوه يا آن، العمّة فأرة هنا. لقد وصلت منذ دقائق، وقد أصبنا بالهلع. وبطبيعة الحال كان علينا أن ندعوها إلى الزّفاف، ولكنّنا لم نتوقّع قدومها قبل الغد».

«من هي هذه العمّة فأرة بحقّ السّماء؟».

«عمّة أبي، حرم السّيّد جايمس كينيدي. أوه، في الواقع اسمها العمّة غرايس، ولكنّ تومي أطلق عليها هذه الكُنية لأنّها دائمًا ما تطوف خلسةً وتتهافت على الأشياء الّتي لا نريدها أن تعثر عليها. إنّها مثل القدر المحتوم. الأغرب أنّها تفيق باكرًا في الصّباح خشية أن يفوتها شيءٌ، ثمّ إنّها آخر من يخلد إلى النّوم في اللّيل. ولكنّ ذلك ليس أسوأ ما فيها. إذا كان هناك ما لا يجب قوله، فكوني متأكّدةً من أنّ العمّة فأرة ستقوله، فهي لم تستوعب البتّة أنّ هناك أسئلةً لا يمكن أن تُطرح. يطلق أبي على كلامها الأرعن «بركات العمّة فأرة». أعرف أنّها ستُفسد العشاء. ها هي قادمة».

فُتح الباب ودخلت العمّة فأرة... امرأةٌ داكنة اللّون، وقصيرة القامة، ومترهّلة الجسم، وجاحظة العينين، تتحرّك وملابسها تفوح برائحة كريات النّفتالين[1]، وكانت قد ارتسمت على محيّاها نظرة قلقٍ مزمنٍ. ما عدا تعابير الوجه هذه، كانت تبدو في الأكثر مثل قطٍّ يتصيّد شيئًا مّا.

«إذَن أنت الآنسة شيرلي الّتي سمعتُ عنها كثيرًا. لا تبدين مطلقًا مثل آنسةٍ اسمها شيرلي كنتُ قد التقيتها ذات مرّةٍ. كانت *لها* عينان جميلتان جدًّا. حسنًا يا سالي، إذَنْ ستتزوّجين أخيرًا. المسكينة نورا هي الوحيدة الّتي بقيت عزباء. والحقّ أنّ أمّك محظوظة لأنّها تخلّصت من خمس بناتٍ. قلت لها منذ ثمانية أعوامٍ: «جاين، هل

(1) كريات مزيلة للرّائحة تُستعمل عند خزن الملابس حفاظا عليها من التّلف.

تظنّين أنّك ستتمكّنين من تزويج كلّ هؤلاء البنات؟» يا إلهي، الرّجل بالنّسبة إليّ ليس سوى كومةٍ من المشاكل، ومن بين كلّ الأمور الغامضة والملتبسة في هذا العالم فإنّ الزّواج هو أكثرها لبسًا، ولكن ما الّذي يمكن لامرأةٍ أن تفعله ما عدا ذلك؟ هذا ما كنتُ أردّده للمسكينة نورا. قلتُ لها: «سجّلي كلماتي يا نورا، لا متعة ولا حياة لفتاةٍ كبرت ولم تتزوّج». ثمّ أضفتُ: «ما الّذي ينتظره جيم ويلكوكس؟».

«أوه أيّتها العمّة غرايس، ليتك لم تقولي ذلك! لقد تخاصمت نورا وجيم في يناير الماضي، ولم نره منذ ذلك الحين».

«أنا أؤمن كثيرًا بضرورة أن نقول ما نفكّر فيه. تكون الأمور أفضل هكذا. لقد سمعت بذلك الخصام، ولذلك سألتها عنه. قلتُ لها: «من حقّكِ معرفةُ أنّ البعض رأوه يقود سيّارته وإلى جانبه إيليانور برينغل». احمرّ وجهها، وانتفضت خارجةً وقد علاها الغيظ. ما الّذي تفعله فيرا جونسون هنا؟ إنّها ليست من الأقارب».

«كانت فيرا دائمًا صديقةً مقرّبةً منّي أيّتها العمّة غرايس. ستعزف اللّحن الّذي يصاحب سَيْر موكب الزّفاف».

«أوه، فعلًا؟ حسنًا، آمل ألّا تخطئ وتعزف لحنًا جنائزيًّا، مثلما فعلت زوجة السّيّد توم سكوت في زفاف دورا باست. يا لها من علامة شؤمٍ! لا أعرف أين ستضعون كلّ هذه الحشود الّتي دعوتموها اللّيلة. سيُضطرّ بعضنا إلى النّوم على حبل الغسيل في ما أظنّ».

«أوه، سنجد مكانًا يتّسع لكلّ واحدٍ من المدعوّين يا عمّة غرايس».

«حسنًا يا سالي، أرجو ألّا تغيّري رأيك في اللّحظة الأخيرة مثلما فعلت هيلين صامرز. ستتسبّبين وقتئذٍ في الكثير من الفوضى. أبوك في مزاج عالٍ جدًّا وعلى نحوٍ فظيعٍ. أنا لم أكن قطُّ من النّاس الّذين يبحثون عن المتاعب، ولكن آمل ألّا يكون ذلك من أعراض جلطةٍ في القلب. لقد رأيت ذلك يحدث من قبل».

«أوه، أبي بخيرٍ أيّتها العمّة غرايس. هو متحمّسٌ قليلًا وهذا كلّ ما في الأمر».

«آه، أنت يا سالي أصغر بكثيرٍ من معرفة أنّ كلّ شيءٍ يمكن حدوثه. أخبرتني أمّك أنّ حفل عقد القران سيكون غدًا في منتصف النّهار. العادات في حفلات الزّفاف تتغيّر مثل كلّ شيءٍ آخر، ولكن ليس إلى الأفضل. حين تزوّجت، كان الحفل في المساء، وكان أبي قد وضع جانبًا عشرين جالونًا من المشروبات الكحوليّة للزّفاف. آه يا عزيزتي، لقد ولّت تلك الأزمان. ما خَطْبُ «رحمة دانيالز»؟ لقد التقيتها عند السّلالم وسحنتُها داكنةٌ على نحوٍ رهيبٍ».

قالت سالي مقهقهةً وهي تتلوّى في فستان العشاء: «لا إلزام في مشاعر الرّحمة»[1].

نهرتها العمّة فأرة قائلةً: «لا تقتبسي من الكتاب المقدّس بكلّ صفاقةٍ. اعذريها أيّتها الآنسة شيرلي. إنّها فقط غير معتادةٍ على

(1) سطر من مسرحيّة «تاجر البندقيّة» لوليام شكسبير.

الزّواج. حسنًا، ما أرجوه هو ألّا تكون للعريس تلك النّظرة العصبيّة الّتي تميّز الكثيرين منهم. أفترض أنّهم في غاية التوتّر، ولكن عليهم ألّا يظهروا ذلك للعلن. وأرجو أيضًا ألّا ينسى الخاتم. لقد فعلها أبتون هاردي. وكان على قرانهما هو وفلورا أن يُعقَد بخاتمٍ نُزِع من أحد أعمدة السّتائر. حسنًا، سألقي نظرةً أخرى على هدايا الزّفاف. لقد تحصّلتِ على الكثير من الأشياء الجميلة يا سالي. ما أرجوه هو ألّا يكون من الصّعب عليك الحفاظ على مقابض الملاعق لمّاعةً، وهو على الأرجح ما لن تقدري عليه».

كان العشاء الّذي أقيم تلك اللّيلة في السّقيفة الفسيحة والمحاطة بالواجهات البلّوريّة في غاية البهجة. وكانت المصابيح الخزفيّة تتدلّى من حول السّقيفة، وترسِل أضواءَها الرّخيمة على الفساتين الفاتنة وعلى الشّعر اللّمّاع للفتيات وحواجبهنّ الشّقراء غير المرسومة. أمّا القِطّان «بارنباس» و«صول» فقد جلسا مثل تمثالين من الأبنوس على الذّراعين العريضين لمقعد الدّكتور الوثير، وكان هو يطعمهما بالتّناوب قطعًا شهيّةً من الطّعام.

قالت العمّة فأرة: «هذا عملٌ شنيعٌ، تمامًا مثل تلك الأفعال الشّنيعة الّتي كان يأتيها باركر برينغل. لقد *كان* يُجلس إلى الطّاولة كلبَه الّذي كان له كرسيّه ومنديله الخاصّان به. سيأتي يوم الحساب لا محالة، عاجلًا أم آجلًا».

لقد كان حفلًا حضر فيه جمعٌ غفيرٌ من النّاس، إذ كان هناك جميع بنات نيلسون وأزواجهنّ، فضلًا عن الأدلّاء والإشبينات. لقد كان

حفلًا بهيجًا، رغم «بركات» السّيّدة فأرة... أو ربّما بفضلها. لم يكن أيّ أحدٍ يأخذ بكثيرٍ من الجدّ ما تقوله. لقد كانت بوضوحٍ مُضحكةً وخفيفة الرّوح لدى اليافعين في السّنّ. حين قالت وهي تقدِّم لغوردون هيل، «حسنًا، حسنًا، أنت لا تشبه إطلاقًا الشّخص الّذي توقّعته. لطالما ظننتُ أنّ سالي ستختار رجلًا طويل القامة ووسيم الملامح»، انفجر الجميع ضاحكين في كلّ أرجاء السّقيفة. كان غوردون هيل بالفعل قصيرًا وكان أقربُ أصدقائه يلقّبونه بصاحب «الوجه المقبول»، لذلك فقد كان يعرف أنّه سيسمع الكثير من هذا الكلام. عندما قالت لدوت فرايز، «حسنًا، حسنًا، فستانٌ جديدٌ كلّ مرّةٍ أراكِ فيها! ما أرجوه هو أن تصمد حافظة نقود والدكِ بضعَ سنواتٍ أخرى»، كان بإمكان دوت حينها أن تسكب عليها الزّيت الحارق، ولكنّ بعض الفتيات الأخريات وَجَدْنَ ذلك مضحكًا جدًّا. وحين أبدت بحزنٍ شديدٍ ملاحظتها بشأن تحضيرات عشاء الزّفاف قائلة «كلّ ما أرجوه هو أن يعيد الجميع ملاعق الشّاي إثر استعمالها، فقد فُقِدت خمسةٌ منها بعد حفلة زفاف غيرتي بول، ولم تظهر إثرها البتّة»، شعرت كلٌّ من السّيّدة نيلسون الّتي اقترضت ثلاث دزازن منها، وسِلفاتها اللّاتي أقرضنها، بغصّةٍ في الحلق، بينما قهقه الدّكتور نيلسون ضاحكًا بكلّ مرحٍ.

«سنجبِر الجميع على إظهار ما في جيوبهم قبل أن يغادروا، أيّتها العمّة غرايس».

«آه، يمكنك أن تضحك يا صامويل. ليس من الدّعابة أن ندع شيئًا مثل ذلك يحصل في عائلتنا. لقد استولى أحدهم على

تلك الملاعق. لم أذهب إلى مكانٍ إلّا وأجَلتُ النّظر لعلّي أجدها. سأتعرّف عليها حين أراها، بالرّغم من أنّه مضى على الحادث أكثر من ثمانيةٍ وعشرين عامًا. لقد كانت المسكينة نورا رضيعةً آنذاك. هل تتذكّرين يا جاين حين كنتِ تضعينها هناك في ذلك الفستان الأبيض الموشّى؟ ثمانيةٌ وعشرون سنةً. آه يا نورا، أنت تكبرين، بالرّغم من أنّ هذا الضّوء لا يحيل كثيرًا على عمرك الحقيقيّ».

لم تنضمّ نورا إلى جوقة الضّحك الّتي تلت ذلك، وبدت وكأنّها ستنفجر في أيّ لحظةٍ. وبالرّغم من فستان نورا الملوّن بالنّرجس، والجواهر المرصّعة في شعرها الأسود الفاحم، فقد ارتسمت في ذهن آن صورة فراشة ليلٍ سوداء. وفضلًا عن ذلك، وفي تباينٍ سافرٍ مع سالي الّتي كان شعرها أشقر فاترًا مثل الثّلج، كان لنورا شعرٌ أسود بديعٌ، وعينان في لون الشّفق، وحاجبان داكنان وكثيفان، ووجنتان مخمليّتان مائلتان إلى الحمرة. كان أنفها قد بدأ يتعقّف قليلًا كمنقار الصّقر ولم تكن البتّة تُعَدّ من الفتيات الجميلات، ولكنّ آن شعرت بانجذابٍ غريبٍ إليها رغم سحنتها الواجمة والمتأجّجة غضبًا، وأحسّت أنّها تفضّلها صديقةً لها أكثر من أختها سالي المحبوبة من الجميع.

رقص الجميع بعد العشاء، وكانت الموسيقى والأصوات الضّاحكة تتدفّق متعثّرةً من النّوافذ الخفيضة والواسعة لذلك المنزل العتيق من الحجارة. وفي العاشرة اختفت نورا. كانت آن قد أحدثت قليلًا من الضّوضاء والعربدة، فتسلّلت عبر ردهة البهو إلى بابٍ خلفيٍّ يطلّ تقريبًا على الخليج، وانتهت إلى الشّاطئ بعد أن

نزلت مجموعةً من الدّرجات الصّخريّة الّتي لفّتها من الجانبين أكمةٌ صغيرةٌ من أشجار التّنّوب المدبّبة. كم هو ساحرٌ هذا الهواء المنعش الّذي يعبق برائحة الملح والبحر بعد تلك الأمسية الخانقة! كم هي بديعةٌ تصاميم ضوء القمر الفضّيّ على مياه الخليج! كم هو شبيهٌ بالحلم مشهد تلك السّفينة الّتي أقلعت عند طلوع القمر وتقترب الآن من مدخل الميناء! لقد كانت ليلةً يمكن، من فرط سحرها، أن تتوه في رقصةٍ مع حوريّات البحر.

كانت نورا قد جلست محنيّة الظّهر في ظلٍّ أسود موحشٍ لصخرةٍ على حافّة الماء، وهي تبدو كعاصفةٍ رعديّةٍ هوجاء، في منظرٍ لم تره آن من قبل.

سألتها آن: «هل تمانعين في أن أجلس إلى جانبك برهةً من الزّمن؟ لقد تعبتُ قليلًا من الرّقص، وإنّها لخسارةٌ أن يفوت المرء عليه هذه اللّيلة الرّائقة. أنا أغبطك على أن يكون كلّ هذا المرفإ ساحةً خلفيّةً لمنزلكم».

سألتها نورا على نحوٍ مفاجئٍ وكئيبٍ: «بماذا ستشعرين لو كنت بلا حبيبٍ في وقتٍ مثل هذا؟» ثمّ أضافت وقد زادت كآبتها: «أو حتّى شبه حبيبٍ».

قالت آن وهي تجلس بجانبها: «أظنّ أنّها غلطتك إذا لم تفوزي بأيٍّ منهم». وجدت نورا نفسها تروي للجالسة حذوها كلّ ما يؤرّقها. كان هناك شيءٌ مّا في آن يجعل الجميع يبوحون لها بكلّ متاعبهم.

«تقولين هذا بدافع الأدب واللّباقة بطبيعة الحال. لا تُتعبي نفسكِ. أنت تعلمين كما أعلم جيّدًا أنّني لستُ من نوع الفتيات اللّاتي يقع الرّجال في حبّهنّ... فأنا دائمًا «الآنسة نيلسون العاديّة البسيطة». ليست غلطتي إذا لم يرضَ أحدٌ بي. ولم أعد أحتمل أن أبقى في ذلك المنزل. لهذا نزلتُ إلى هنا لأنغمس في تعاستي وحدي. لقد سئمتُ الابتسام والتّحلّي بحسن الخلق، ثمّ التّظاهر بعدم الاكتراث حين يوجّهون إليّ أقذع الملاحظات عن عدم زواجي. لن أتصنّع من هنا فصاعدًا. إنّ الأمر يزعجني... وعلى نحوٍ رهيبٍ جدًّا. فمن بين فتيات عائلة نيلسون أنا الفتاة الوحيدة الّتي لم يلتفت إليها البخت إلى حدّ الآن. خمسٌ منّا تزوّجن، أو سيكتمل عقد زواجهنّ غدًا. لقد سمعتِ العمّة فأرة وهي تعيّرني بعمري على طاولة العشاء، وسمعتُها تقول لأمّي قبل العشاء إنّ «علامات الكبر قد بدأت تظهر على وجهي» منذ الصّيف الفارط. طبعًا، لقد بدأت أكبرُ. عمري الآن ثمانيةٌ وعشرون عامًا، وفي غضون اثنتي عشرة سنةً سوف يكون أربعين. كيف لي أن أطيق حياتي في الأربعين يا آن، إذا لم تنبت جذوري إلى ذلك الحين؟».

«لو كنت مكانك لما اكترثتُ كثيرًا لما تقوله امرأةٌ عجوزٌ خرقاء».

«أوه، حقًّا؟ ليس لك أنفٌ مثل أنفي. سيصبح أنفي معقوفًا أكثر مثل أنف أبي خلال عشر سنواتٍ أخرى. وأظنّ أيضًا أنّك لن تبالي حين تنتظرين لسنواتٍ طويلةٍ رجلًا يطلب يدك... ولكنّه لا يريد؟».

«أوه، سأنزعج لذلك كثيرًا بطبيعة الحال».

«تلك هي محنتي بالضّبط. أوه، أعلم أنّك سمعتِ عن حكايتي أنا وجيم ويلكوكس. إنّها قصّةٌ قديمةٌ جدًّا. لقد ظلّ سنواتٍ يحوم حولي... ولكنّه لم يقل شيئًا عن نيّته التّقدّم للزّواج».

«هل مازال يهمّكِ أمره؟».

«طبعًا يهمّني. لطالما تظاهرت بعكس ذلك، ولكن كما قلت لك، لقد ولّى عهد التّكلّف. لم يأتِ إلى هنا منذ شهر يناير الماضي. لقد تخاصمنا... ولكنّنا تخاصمنا قبلها مئات المرّات. كان يعود لي دائمًا... ولكنّه لم يعد هذه المرّة... ولن يفعل أبدًا. إنّه لا يريد ذلك. انظري إلى منزله وهو يتلألأ تحت ضوء القمر في الجانب الآخر من الخليج. أفترض أنّه هناك... وأنا هنا... وكلّ هذا المرفإ يفصل بيننا. سنظلّ على هذه الحال إلى الأبد. يا له من وضعٍ مقيتٍ جدًّا! ولا يمكنني فعل أيّ شيءٍ».

«هل سيعود إليك إذا بعثتِ في طلبه؟».

«أبعثُ في طلبه! هل تظنّين أنّني سأفعل *ذلك*؟ أفضّل أن أموت قبلها. إذا كان يريد المجيء فعلًا، فلا شيء يمنعه من ذلك. وإذا كان لا يريد، فليست بي حاجةٌ إليه. ولكن بلى، أنا أريده أن يأتي! إنّني أحبّ جيم... وأريد الزّواج منه. أريد أن يكون لي منزلي الخاصّ وأن أكون «حرم السّيّد فلان» لأغلق فم العمّة فأرة. آه، كم أتمنّى أن أكون لبعض الوقت القطّ «بارنباس» أو «صول»، فقط لأوجّه إليها أقذع الشّتائم! إن أطلقت عليّ نعت «المسكينة نورا»

مرّةً أخرى فسألقي على وجهها وعاء الفحم. ولكن في النّهاية هي تقول ما يفكّر به الآخرون كلّهم. لقد يئسَت أمّي منذ أمدٍ طويلٍ من رؤيتي في منزل زوجي، لذلك أخلت سبيلي، ولكنّ البقيّة لم يكفّوا عن إغاظتي. أكره أختي سالي... طبعًا هذا شعورٌ مقيتٌ... ولكنّني أمقتها. لقد فازت بزوجٍ رائعٍ ومنزلٍ جميلٍ. من الظّلم أن تتحصّل هي على كلّ شيءٍ ولا أتحصّل أنا على شيءٍ. ليست أفضل منّي ولا أكثر ذكاءً، ولا تفوقني كثيرًا في الجمال... فقط هي أكثر حظًّا منّي. أحسبك تقولين في نفسك يا لها من فتاةٍ بغيضةٍ... ولكن لا أبالي كثيرًا بما تظنّينه».

«أعتقد أنّك مجهدةٌ جدًّا، بعد كلّ هذه الأسابيع من التّحضيرات والشّدّ العصبيّ، وأنّ الأشياء الّتي كانت دائمًا صعبةً أضحت كلّها وفي الوقت نفسه أكثر صعوبةً».

«لقد فهمت بلواي... أوه نعم، لطالما عرفت أنّك ستفهمين ما أشعر به. كنت دائمًا أريد أن نكون صديقتين يا آن شيرلي. تعجبني طريقتك في الضّحك. لطالما تمنّيتُ أن تكون لي مثل تلك الضّحكة. لست بذاك العبوس الّذي أبدو عليه... والسّبب في ذلك حاجباي. أعتقد جازمةً أنّهما يجعلان الرّجال ينفضّون من حولي. لم أحظَ قطّ بصديقةٍ في حياتي. ولكن بطبيعة الحال كان هناك جيم، وكنّا أصدقاء منذ نعومة أظافرنا. كلّما أردته لأمرٍ مّا كنتُ أشعل ضوءًا في تلك النّافذة بالعلّيّة، فيستقلّ مركبه في الحال ويقطع الخليج ليأتي إلى هنا. ذهبنا إلى كلّ مكانٍ معًا. لم تكن لأيّ فتًى الفرصة حتّى للحديث

معي... وأفترض أنّهم لم يكونوا أصلًا يريدون ذلك. والآن انتهى كلّ شيءٍ. لقد ضجر منّي، ولعلّه استغلّ سبب الخصام الّذي دار بيننا لينفذ بجلده منّي. أوه، هل سأكرهك غدًا لأنّني بُحت لك بكلّ أسراري!».

«لماذا؟».

قالت نورا بنبرةٍ متكدّرةٍ: «نحن نكره دائمًا النّاس الّذين يتملّكون أسرارنا. ولكن هناك أشياء كثيرةٌ فينا لا تتجلّى إلاّ خلال أوقات الزّفاف مثل هذه... ولكن لا أبالي... لا أبالي بأيّ شيءٍ مطلقًا. أوه يا آن شيرلي، يا لشقائي! دعيني أبكي طويلًا على كتفك. إذ عليّ أن أبتسم وأبدو سعيدةً كامل يوم الغد. سالي تظنّ أنّني لا أريد أن أكون إشبينتها لأنّني أؤمن بالخرافات... وأنّني أعتقد في المثل القائل: إن كنتِ وصيفة العروس ثلاث مرّاتٍ فلن تكوني عروسةً ما حييتِ. ولكن ليست تلك الحقيقة! فقط لم أعد أطيق أن أقف بجانب العروس وأصغي إليها وهي تقول «نعم، قبلت»، وأنا أعلم أنّه لا حظّ لي مع جيم. لكم وددتُ حينها لو حنيتُ رأسي إلى الوراء وصرختُ بأعلى صوتي. أريد أن أكون عروسًا... وأحظى بجهاز العروس... وبمفروشاتٍ موقّعةٍ بحروف اسمي... وبهدايا تسرّ النّاظرين، وسأقبل حتّى بطبق الزّبدة الفضّيّ الّذي تهديه العمّة فأرة. إنّها تقدّم لكلّ عرائس العائلة طبق زبدةٍ من الفضّة... آنية قبيحة يعلوها غطاءٌ مثل قبّة القدّيس بطرس. يمكن أن تكون فقط على طاولة فطور الصّباح ليسخر منها جيم. آن، هل تظنّين أنّني فقدتُ صوابي؟».

كانت وصلات الرّقص قد انتهت حين عادت الفتاتان إلى المنزل ويداهما متشابكتان. كانت عائلة نيلسون وقتئذٍ تأوي ضيوفها للمبيت في المنزل تلك اللّيلة. وكان السّيّد تومي نيلسون قد أخذ «بارنباس» و«صول» إلى المخزن، أمّا العمّة فأرة فقد لبثت جاثمةً فوق الأريكة، وهي تفكّر في كلّ الأحداث الرّهيبة الّتي تأمل ألّا تقع في اليوم الموالي.

«آمل ألّا يفيق أحدهم من نومه في الغد، ويقدّم مانعًا شرعيًّا لهذه الزّيجة. لقد وقع *ذلك* في زفاف تيلي هاتفيلد».

قال لها إشبين العريس: «سيكون حظّ غوردون حينها من السّماء».

رمقته العمّة فأرة بعينين كستنائيّتين قاسيتَين وقالت: «الزّواج ليس مدعاةً للتندّر أيّها الشّاب اليافع».

أجابها الشّابّ دون ندمٍ: «أنت مَن تقولين هذا الكلام». ثمّ التفت إلى نورا قائلًا: «أهلًا نورا، متى تتسنّى لنا فرصة الرّقص في زفافك؟».

لم تجبه نورا بالألفاظ. اقتربت منه وصفعته بكلّ هدوءٍ على خدّه الأوّل، ثمّ الثّاني. ولم تكن الصّفعات زائفةً أو من قبيل الدّعابة. ثمّ صعدت السّلالم دون أن تنظر خلفها.

قالت العمّة فأرة: «تلك الفتاة في حالةٍ عصبيّةٍ مخيفةٍ فعلًا».

(17)

انقضى وقت الضّحى يوم السّبت في عجلٍ، ومرّ في قضاء حوائج الدّقائق الأخيرة. كانت آن الّتي التفّت في أحد مآزر السّيّدة نيلسون قد قضّته بالمطبخ وهي تساعد نورا في إعداد السّلطات. بدت نورا في مزاجٍ عصبيٍّ، وكانت تتندّم، كما توقّعت من قبل، على اعترافاتها وأسرارها الّتي باحت بها في اللّيلة السّابقة.

انفجرت قائلةً: «سنكون جميعنا منهكين طوال الشّهر القادم، وأبي لا يمكنه فعلًا تحمّل كلّ هذا الإسراف والتّبذير. ولكنّ سالي سعت إلى أن يكون «زواجًا رائعًا» كما تقول، وقد قبِل أبي ذلك بكلّ إذعانٍ. كان دائمًا يدلّلها كثيرًا».

أطلّت العمّة فأرة برأسها فجأةً من غرفة المُؤَن وقالت: «إنّه الكيد والغيرة». وكانت السّيّدة نيلسون قبلها قد نفدَ صبرها وجنّ جنونها وهي تصغي إلى «بركاتها» وآمالها الّتي لا أمل في تحقّقها.

قالت نورا لآن بمرارةٍ: «إنّها على حقٍّ. على حقٍّ تمامًا. *إنّني* حقودةٌ وغيورةٌ... فأنا أكره أن أرى النّاس سعداء. ومع ذلك، فإنّني لستُ نادمةً على صفع جاد تايلور على وجهه ليلة الأمس. أنا آسفةٌ فقط لأنّني فوق ذلك كلّه لم أفكّر في اقتلاع أنفه. حسنًا، لقد

أنهينا إعداد السّلطات. تبدو رائعةً جدًّا. أنا مولعةٌ بتنميق الأشياء حين أكون في مزاجٍ عاديٍّ. أوه، آمل في النّهاية أن يسير كلّ شيءٍ على ما يرام من أجل سالي. أظنّ أنّني أحبّها رغم كلّ شيءٍ، ولكنّني الآن أشعر بكرهٍ غريبٍ لكلّ النّاس، ولاسيّما جيم ويلكوكس».

تردّد صوتُ العمّة فأرة من حجرة المؤن في نبرةٍ جنائزيّةٍ وهي تقول: «حسنًا، كلّ ما أرجوه هو أنّ العريس لن يختفي قبل مراسم الزّواج بقليلٍ. لقد فعلها أوستين كريد في السّابق. إذ نسي أنّه سيتزوّج في ذلك اليوم. كلّ عائلة كريد مصابون بآفة النّسيان، ولكن هذا ما أسمّيه الزّيادة عن الحدّ».

نظرت الفتاتان إحداهما إلى الأخرى وأفلتت منهما ضحكةٌ صاخبةٌ. لقد تبدّل وجه نورا بالكامل حين علته تلك الضّحكة... فأصبح لونه فاتحًا... وأشرق... وترقرق. ثمّ أتى أحدهم ليخبرها أنّ بارنباس مريضٌ ويتلوّى من الألم على درجات السّلّم... على الأرجح أنّه تناول الكثير من كبد الدّجاج. أسرعت نورا خارج المطبخ لمعالجة الأمور، بينما جاءت العمّة فأرة من حجرة المؤن ليكون أملها ورجاؤها هذه المرّة ألّا تختفي كعكة الزّفاف كما حصل من قبل في زفاف ألما كلارك منذ عشر سنواتٍ.

كان كلّ شيء عند الظّهيرة على أتمّ الاستعداد... نُصبت الطّاولات، وفُرشت الأسرّة على نحوٍ بديعٍ، ووُضعت سلال الزّهور في كلّ مكانٍ. وفي الغرفة الكبيرة الشّماليّة من الطّابق العلويّ كانت سالي وإشبيناتها الثّلاث في بهاءٍ ورونقٍ لا يوصف. كانت آن

تنظر إلى نفسها في المرآة وقد ارتدت فستانها وقبّعتها اللذَين تلوّنا بالأخضر النّيلّي، وتمنّت لو رآها جيلبرت في تلك اللّحظة.

قالت لها نورا وهي تكاد تحسدها: «أنت رائعةٌ».

«أنت أيضًا تبدين رائعةً يا نورا. فستانك الأزرق المدخّن من قماش الشّيفون[1] وتلك القبّعة العريضة يزيدان من لمعان شعرك ويُمعنان من زرقة عينيك».

قالت نورا بمرارةٍ: «لا أحد هنا يهتمّ بما أبدو عليه. حسنا، انظري إليّ يا آن كيف أكشّر حين أبتسم. أظنّ أنّه لا ينبغي عليّ أن أكون مثل الجمجمة الّتي توضع على المأدبة لإفساد الحفل. وبالنّهاية، عليّ أن أعزف اللّحن الّذي سيصاحب سير موكب الزّفاف... لقد أحسّت فيرا بصداعٍ شديدٍ ولا تستطيع العزف. أشعر أنّني سأعزف لحنًا جنائزيًّا كما أنذرت بذلك العمّة فأرة».

كانت العمّة فأرة، الّتي ما فتئت تجول كلّ فترة الصّباح معترضةً سبيل كلّ المدعوّين وهي ترتدي ثوبًا نسويًّا فضفاضًا قديمًا وملطّخا قليلًا وقبّعة نومٍ ذابلةً، قد أطلّت الآن في ألقٍ بديعٍ وهي تلبس فستانًا من قماشٍ مضلّعٍ حريريٍّ. قالت لسالي إنّ أحد كُمّيها لم يكن ملائمًا، وأنّها تأمل ألاّ يُبرِز ذلك تنّورتها الدّاخليّة من تحت فستانها كما حدث في زفاف آني كروسن. وفي تلك اللّحظة قدمت السّيّدة نيلسون وبكت حين رأت جمال سالي الفتّان وهي في فستان عرسها.

---

(1) نسيج حريريّ شفّاف.

قالت لها العمّة فأرة وهي تخفّف عنها: «ما هذا يا جاين، لا تكوني مرهفة العواطف كثيرًا. فما تزال لديك ابنةٌ أخرى لتزوّجيها.. والأرجح أنّها ستمكث إلى جانبك في كلّ الأحوال. الدّموع لا تجلب الحظّ في حفلات الزّفاف. وعلى أيّة حال، آمل ألّا يخرّ أحدهم ميّتًا، كما فعل العمّ كروموال في خضمّ مراسم عقد القران خلال زفاف روبيرتا برينغل. بقيت العروس طريحة الفراش إثرها لأسبوعَين من وقع الصّدمة».

وعلى إيقاع هذا الفأل الملهم، نزلت العروس ومن معها إلى الطّابق السّفليّ، على ألحان موكب الزّفاف الّتي كانت تعزفها نورا على نحوٍ عاصفٍ، وتزوّج غوردون من سالي دون أن يخرّ أحدهم ميّتًا أو ينسى العريس الخاتم. لقد *كان* موكب زفافٍ رائعًا، وحتّى العمّة فأرة تخلّت عن هلوساتها وشواغلها الكونيّة لبعض اللّحظات. أسرّت لسالي بعد ذلك وهي ترجو كعادتها: «حتّى وإن كنتِ غير سعيدةٍ جدًّا وأنت تتزوّجين، فإنّك ستكونين أقلّ سعادةً بكثيرٍ لو لم تتزوّجي». كانت نورا الوحيدة الّتي تغيّر لون وجهها وظلّت تحملق بغضبٍ من على مقعد البيانو، ولكنّها لم تلبث أن صعدت إلى سالي وضمّتها إليها بشراسةٍ وهي مازالت تلبس فستان الزّفاف.

قالت نورا بنبرةٍ كدرةٍ وقد انتهى العشاء وحفلة الزّفاف وغادر أكثر المدعوّين: «ها قد انتهى كلّ شيءٍ الآن». أجالت عينيها في الغرفة من حولها، فبدت بائسةً وغير مرتّبةٍ كحال أيّ غرفةٍ بعد مثل

هذا الحدث... صِدارٌ باهت اللّون مُداسٌ ومرميٌّ على الأرض... كراسيّ مائلةٌ وغير منظّمةٍ... قماشٌ ممزّقٌ من الدانتيلا... منديلان قد وقعا على الأرض... فتات الكعك الّذي نثره الأطفال الصّغار... بقعةٌ سوداء في السّقف نضح منها الماء الّذي سكبته العمّة فأرة من دورق كان في غرفة الضّيوف.

قالت نورا وقد استشاطت غضبًا: «عليّ أن أنظّف كلّ هذه الفوضى. هناك شبابٌ كثيرون ينتظرون القطار الّذي سيقلّهم إلى الباخرة، والبعض الآخر سيبقى هنا إلى يوم الأحد. قالوا إنّهم سيختمون هذا الزّفاف بإشعال نارٍ على الشّاطئ، والرّقص تحت ضوء القمر على أنغام موسيقى الرّوك. يمكنك أن تتخيّلي كم أتوق الآن وأنا في مثل هذه الحال إلى الرّقص تحت ضوء القمر. *أريد* أن آوي إلى فراشي وأبكي».

قالت آن: «كلّ المنازل تبدو مهجورةً بعد أن ينتهي حفل الزّفاف فيها. ولكنّني سأساعدك في ترتيبه، ثمّ سنتناول كأسًا من الشّاي».

«آن شيرلي، هل تعتقدين أنّ كأسًا من الشّاي هو الدّواء لكلّ داءٍ؟ أنت الأكبر سنًّا منّي والأرجح عقلًا، ولستُ أنا. على أيّ حالٍ، لا أريد أن أكون بغيضةً، ولكن أظنّ أنّ ذلك من طبعي الغريزيّ. إنّني أكره التّفكير في ذلك الرّقص على الشّاطئ أكثر من كرهي لحفل الزّفاف ذاته. لطالما حضر جيم في مثل حفلات الرّقص هذه الّتي كنّا نقيمها. آن، لقد قرّرت أن أذهب وأتلقّى تدريبًا لأصبح ممرّضةً. أعرف أنّني سأمقت هذه المهنة... وكانت السّماء في عون مرضاي

في المستقبل... ولكنّني لن أمضي الوقت كلّه هنا بسامرسايد في تحمّل المضايقات حول عنوستي. حسنًا، فلنهجم على هذه الكومة من الأطباق المزيّتة، ولنقرّر بعدها ما إذا كان الأمر سيعجبنا».

«أنا أحبّ ذلك... كنتُ دائمًا مولعة بغسيل الأواني. من الممتع أن نجعل الأشياء المتّسخة نظيفةً ولمّاعةً من جديدٍ».

قالت نورا فجأةً: «أوه، مكانك في متحفٍ، يا آن».

حين طلع القمر كان كلّ شيءٍ جاهزًا لحفلة الرّقص على الشّاطئ. أضرم الأولاد نارًا ضخمةً أجّجوها بالأخشاب الطّافية الّتي جُرفت إلى الشّاطئ، وكانت مياه الخليج حينئذٍ قد بدأت تُزبد وتتلألأ تحت نور القمر. كانت آن تتوقّع أن تستمتع كثيرًا بهذا الحفل الرّاقص ولكنّها لمحت وجه نورا المتجهّم وهي تنزل الدّرجات حاملةً سلّةً من الشّطائر، فعدلت عن ذلك.

قالت في نفسها: «إنّها منكودةٌ جدًّا. كم أودّ لو فعلت شيئًا يرسم الابتسامة على وجهها!».

فجأةً قفزت فكرةٌ إلى رأس آن. لطالما كانت الآنسة شيرلي فريسةً لمثل هذا الاندفاع الغريزيّ. انطلقت كالسّهم نحو المطبخ، وتلقّفت مصباحًا يدويًّا كان يشتعل هناك، وحثّت الخطى لتصعد من السّلالم الخلفيّة إلى الطّابق العلويّ، ومنه إلى العلّيّة. وضعت نورا المصباح قبالة الشّبّاك الّذي يطلّ على الجانب الآخر من المرفإ. وكانت الأشجار قد حجبت نوره عن أنظار الرّاقصين على الشّاطئ.

قالت في نفسها: «ربّما سيلحظ هذا الضّوء ويأتي. أظنّ أنّ نورا ستغتاظ منّي، ولكن لن يهمّ ذلك كثيرًا إذا ما قدِم إلى هنا. والآن حان وقت لفّ قطعةٍ من الكعكة لريبيكا ديو».

لم يأت جيم ويلكوكس. وتخلّت آن بعد برهةٍ عن فكرة البحث عنه، ونسيت الأمر في خضمّ السّعادة الّتي غمرت تلك الأمسية. اختفت نورا، ومن المعجزات أن خلدت العمّة فأرة إلى النّوم. كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة حين توقّفت العربدة الصّاخبة، وبدأ الرّاقصون تحت ضوء القمر يتثاءبون وهم في طريقهم إلى الطّابق العلويّ. كان النّعاس قد أخذ من آن كلّ مأخذٍ، ولم تنتبه إلى الضّوء الّذي تركته في العلّيّة. ولكن في السّاعة الثّانية صباحًا زحفت العمّة فأرة إلى الغرفة وأشعلت شمعةً في وجه الفتيات النّائمات.

قالت دوت فرايزر وقد انقطع نفسها وهي تجلس على حافّة السّرير: «يا إلهي، ما الأمر؟».

أنذرتها العمّة فأرة وعيناها تكادان تخرجان من مقلتيها: «صه، صه. أظنّ أنّ هناك أحدًا في المنزل... أنا متأكّدةٌ من *ذلك*. ما هذا الصّوت؟».

قالت دوت ضاحكةً: «إنّه يشبه صوت قطٍّ يموء أو كلبٍ ينبح».

ردّت عليها العمّة فأرة بحدّةٍ: «كلّا ليس ذلك الصّوت الّذي تعنيه. أعلم أنّ هناك كلبًا ينبح في المخزن، ولكنّه ليس الصّوت الّذي أيقظني. لقد كان ارتطامًا... صوت ارتطامٍ عالٍ ويمكن تمييزه من الأصوات الأخرى».

تمتمت آن: «إنّها أصواتٌ صادرةٌ عن أشباحٍ وغِيلان ووحوشٍ ذات سيقانٍ طويلةٍ وأشياء أخرى يصطدم بعضها ببعضٍ أثناء اللّيل. يا ربّ نجّنا».

«ليس هذا مجالًا للتندّر يا آنسة شيرلي. هناك لصوصٌ في المنزل. سأذهب لأنادي صامويل».

اختفت العمّة فأرة، وظلّت الفتيات ينظرن بعضهنّ إلى بعض.

قالت آن: «هل تصدّقون ذلك... كلّ هدايا الزّفاف وُضعت في المكتبة في الأسفل».

قالت مامي: «أنا سأنهض على أيّة حالٍ. آن، هل رأيتِ في حياتك شيئًا يشبه وجه العمّة فأرة عندما انحنت وهي تمسك بالشّمعة الّتي انعكست ظلالها إلى أعلى... وخصلات شعرها تتدلّى من حوله؟ بدت وكأنّها ساحرة إندور!»[1].

تسلّلت أربع فتياتٍ إلى البهو في ثيابهنّ النّسويّة الفضفاضة. كانت العمّة فأرة قد أتت من الجهة الأخرى منه، وتبعها الدّكتور نيلسون في رداء نومه وخُفَّيه. أمّا السّيّدة نيلسون الّتي لم تعثر على روبها فقد كانت تطلّ برأسها من الباب في ذعرٍ شديدٍ.

«أوه يا صامويل... لا تجازف بنفسك... إذا كان هناك لصوصٌ ...».

قال الدّكتور: «هذا هراءٌ! لا أظنّ أنّ هنالك شيئًا».

(1) هي امرأة استشارها الملك شاؤول لاستحضار روح النّبيّ صموئيل.

قالت العمّة فأرة وهي ترتعش: «قلت لك إنّني سمعتُ خبطةً».

انضمّ إلى الجمع شابّان آخران. زحفا بحذرٍ إلى أسفل السّلالم ومعهما الدّكتور في المقدّمة، أمّا العمّة فأرة فكانت تؤمّن المؤخّرة، ممسكةً بشمعةٍ في إحدى يديها ومسعار نارٍ في اليد الأخرى.

لا ريب في وجود أصواتٍ تنبعث من داخل مكتبة المنزل. فتح الدّكتور الباب ودخل الغرفة.

كان القطّ بارنباس، الّذي أوجد وسيلةً لتركه في المكتبة بينما نُقل القطّ صول إلى المخزن، جالسًا على ظهر الأريكة وأجفانه ترفّ في متعةٍ كبيرةٍ. وكانت نورا وشابٌّ يافعٌ واقفَيْن في وسط الغرفة الّتي كان ضوؤها الخافت ينبعث مرتعشًا من شمعةٍ أخرى. كان الشّابّ يطوّق نورا بذراعيه، ويمسك بمنديلٍ أبيض عريضٍ قبالة وجهها.

صاحت العمّة فأرة وقد سقط من يدها مسعار النّار محدثًا طرطقةً كبيرةً. «إنّه يريد أن يخدّرها!».

التفت الشّابّ وسقط المنديل من يده، وبدا في غاية الارتباك. بدا رغم ذلك رجلًا وسيم الملامح، ذا عينين مجعّدتين وخمريّتي اللّون، وشعرٍ مجعّدٍ وأحمر بنّيٍّ، هذا فضلًا عن ذقنٍ كان يطمئن الجميع أنّه ذقنٌ.

اختطفت نورا المنديل من الأرض ومسحت به وجهها.

قال الدّكتور بصرامةٍ مبالغٍ فيها: «جيم ويلكوكس، ما الّذي يعنيه كلّ هذا؟».

أجابه جيم ويلكوكس في وجوم: «لا أعرف ماذا يعني. ما أعرفه هو أنّ نورا ألحّت في طلبي. لم أَرَ الضّوء إلّا حين عدتُ إلى منزلي من مأدبةٍ ماسونيّةٍ في سامرسايد. فركبتُ قاربي على الفور وجئتُ إلى هنا».

انفجرت نورا قائلةً: «لم أشر إليك لتأتي. بحقّ السّماء يا أبي. لم أكن نائمةً... كنتُ جالسةً إلى النّافذة... لم أخلع ملابسي بعد... ورأيت رجلًا يأتي من ناحية الشّاطئ. عندما اقترب من المنزل أدركتُ أنّه جيم، فنزلت إليه أجري. ولكنّني اصطدمتُ بباب المكتبة وبدأ أنفي ينزف. لقد كان فقط يحاول إيقاف النّزيف».

«لقد قفزتُ من النّافذة إلى الدّاخل وطرحتُ ذلك المقعد أرضًا».

قالت العمّة فأرة: «ألم أقل لكم إنّني سمعتُ خبطةً؟».

«.. والآن نورا تقول إنّها لم ترسل إليّ أيّة إشارةٍ، إذَن سأخلّصكم من حضوري غير المرحّب به، مع خالص اعتذاري لكلّ من سبّبتُ لهم قلقًا».

قالت نورا بنبرةٍ فيها الكثير من القسوة، وهي تبحث عن بقعةٍ غير ملطّخة بالدّم في منديل جيم: «من السّيّئ جدًّا أن تقضّ مضجعك في هذه اللّيلة، وتعبر الخليج كلّه من أجل سرابٍ».

قال الدّكتور: «فعلًا، إنّها محاولةٌ لا طائل منها».

وقالت العمّة فأرة: «عليك أن تجد تفسيرًا آخر لفعلتك».

قالت آن وقد تملّكها الخجل: «أنا من أشعل الضّوء قبالة النّافذة، ثمّ نسيتُ..».

صاحت نورا: «لقد فعلتِها! لن أغفر لك..».

قال الدّكتور في غضبٍ: «هل أصبتم كلّكم بالجنون؟ ما كلّ هذا الهراء؟ بحقّ السّماء، أغلق تلك النّافذة يا جيم... لقد تجمّدت عظامنا من تلك الرّيح الّتي تنفخ منها. نورا، اجعلي رأسك يتدلّ إلى الخلف وسيكون أنفك على ما يرام».

كانت نورا تذرف دموع غيظٍ وعارٍ اختلطت بالدّم الّذي لطّخ وجهها، فأضفى عليه ذلك مشهدًا مرعبًا. أمّا جيم ويلكوكس فبدا وكأنّه يتمنّى لو انشقّت الأرض وبلعته داخل سرداب المنزل.

قالت العمّة فأرة وكأنّها تعلن الحرب: «حسنًا، ما تستطيع فعله الآن يا جيم ويلكوكس هو أن تتزوّجها. لن يلتفت إليها أيّ رجلٍ إذا شاع الخبر أنّهم عثروا عليها برفقتك هنا عند السّاعة الثّانية فجرًا».

صاح جيم وقد ثارت ثائرته: «أتزوّجها! لم أرد شيئًا في حياتي سوى أن تكون زوجتي... لم أرد شيئًا آخر في هذه الدّنيا».

سألته نورا وقد استدارت نحوه لتواجهه: «ولماذا لم تقل هذا الكلام منذ أمدٍ بعيدٍ؟».

«أقول ماذا؟ لقد زجرتني وجمّدتني وسخرت منّي طوال سنواتٍ. ولم يسعني حتّى أن أحسب المرّات الّتي أظهرتِ فيها احتقارك الشّديد لي. لم أكن أظنّ أنّ من الممكن التّقدّم لخطبتك. وفي يناير الماضي، قلت لي..».

«لقد دفعتني إلى قول ذلك..».

«دفعتكِ إلى ذلك! عجيبٌ قولكِ! لقد اختلقتِ خصومةً بيننا حتّى تتخلّصي منّي..».

«لم أفعل ذلك... أنا..».

«ومن الحمق فعلًا أن أشقّ الخليج لآتي إلى هنا تحت جنح اللّيل، لأنّني ظننتُ أنّك وضعت تلك الإشارة القديمة على النّافذة وتريدين رؤيتي! هل سأطلب يدك الآن؟ حسنًا فليكن ذلك إذَنْ، ويمكنك إثرها أن تنتشي برفضي أمام كلّ هذه الزّمرة المجتمعة. نورا إيديث نيلسون، هل تقبلين الزّواج منّي؟».

قالت نورا بلا حياءٍ: «أوه، بطبيعة الحال أقبل... طبعًا أقبل!» وبكت كثيرًا حتّى تورّدت وجنتا القطّ بارنباس من أجلها.

نظر إليها جيم وهو لا يكاد يصدّق نفسه... ثمّ هبّ من مكانه نحوها. ربّما توقّف أنفها عن النّزيف... وربّما لم يتوقّف. لم يكن ذلك مهمًّا في تلك اللّحظة.

قالت العمّة فأرة وقد خطر ببالها شيءٌ للتّوّ: «أظنّكم نسيتم كلّكم أنّ اليوم هو يوم القدّاس. سأتناول كأسًا من الشّاي إذا أراد أحدكم إعداده لي. لم أعتد مثل هذه العروض العاطفيّة. كلّ ما أرجوه هو أن تتصيّده المسكينة نورا في النّهاية. ولها في ذلك شهودٌ عيانٌ».

ذهبوا جميعهم إلى المطبخ، ونزلت السّيّدة نيلسون وأعدّت لهم الشّاي... كلّهم ما عدا جيم ونورا اللّذَيْن بقيا مختليَيْن بنفسيهما في المكتبة، والقطّ بارنباس ناطورهما الرّقيب. لم ترَ آن نورا إلى أن طلع

صباح اليوم الموالي... كانت مختلفةً كثيرًا عن اللّيلة السّابقة، وأصغر بعشر سنواتٍ، وكانت تتوهّج سعادةً.

«أنا مدينةٌ لك بهذا يا آن. لو لم تشعلي المصباح... بالرّغم من أنّني ولمدّةٍ دقيقتين ونصفٍ وددتُ لو أنّني قضمتُ أذنك!».

تأوّه تومي نيلسون وقال بنبرةٍ منكسرةٍ: «لا أصدّق أنّني كنتُ نائمًا بينما حدث كلّ ذلك في بيتي!».

ولكنّ الكلمة الأخيرة كانت بطبيعة الحال للعمّة فأرة:

«حسنًا، آمل ألّا يؤدّي هذا الزّواج المتعجّل إلى النّدم والتّعاسة».

(18)

(مقتطف من رسالة إلى جيلبرت)

أغلقت المدارس أبوابها اليوم. وفي الأفق شهران سأقضيهما في غرين غايبلز، شهران من التّجوّل بين نبات السّرخس الخفيض والمفعم بالحيويّة والمبلّل بقطرات النّدى، ومن التّنزّه على طول الجدول والظّلال المرقّشة لدرب العشّاق. شهران من المشي بين ثمرات الفراولة البرّيّة في مراح السّيّد «بال»، وفي العتمة البديعة لأشجار التّنوب بـ«الغابة المسكونة». أشعر أنّ روحي قد نبتت لها أجنحةٌ وتتأهّب للطّيران».

أهدتني جان برينغل باقةً من زنابق الوادي، وتمنّت لي عطلةً سعيدةً. ستأتي في إحدى نهايات الأسبوع لتقضّي بعض الوقت معي في غرين غايبلز. إنّه زمن المعجزات!

ولكنّ الصّغيرة إليزابيث مكسورة الخاطر هذه الأيّام. أردتها أن تزورني هي أيضًا، ولكنّ السّيّدة كامبل اعتبرت الأمر «غير منصوحٍ به». من حسن الحظّ أنّني لم أقل لإليزابيث أيّ شيءٍ حول هذا الموضوع، ووفّرتُ عليها خيبة أملٍ كانت وشيكةً.

قالت لي: «أعتقد أنّني سأكون «ليزي» في الوقت الّذي ستكونين

فيه بعيدةً عنّي، يا آنسة شيرلي. سأشعر وكأنّني «ليزي» على أيّة حالٍ».

قلتُ لها: «ولكن فكّري بتلك المتعة والمرح الّذي ينتظرنا حين أعود إلى هنا. طبعًا لن تكوني «ليزي». لا يوجد شخصٌ باسم ليزي في داخلك. وسأكتب إليك كلّ أسبوعٍ أيّتها الصّغيرة إليزابيث».

«أوه يا آنسة شيرلي، هل ستفعلين ذلك حقًّا؟ لم أتلقّ رسالةً واحدةً في حياتي. سيكون الأمر ممتعًا جدًّا! وسأردّ على رسائلك إذا ما سمحتا لي بالحصول على طابعٍ بريديٍّ. إذا منعتاني من ذلك فكوني متأكّدةً أنّني أفكّر فيك بالقدر نفسه. لقد أسميتُ السّنجاب الّذي يعيش في فنائنا الخلفيّ باسمك.. شيرلي. هل تمانعين في ذلك؟ فكّرتُ في البداية أن أسمّيه آن شيرلي... ثمّ أدركتُ أنّ ذلك قد يقلّل من احترامي لك... وفي كلّ الأحوال، اسم «آن» لا يلائم السّناجب كثيرًا. ثمّ إنّه ربّما يكون سنجابًا ذكرًا. السّناجب مخلوقاتٌ لطيفةٌ جدًّا، أليس كذلك؟ ولكنّ «المرأة» تقول إنّهم يأكلون جذور الورود».

قلت لها: «ربّما هي مَن تأكلها!».

سألتُ كاثرين بروك أين ستقضي عطلة الصّيف، فأجابتني باقتضابٍ: «هنا بطبيعة الحال. ماذا كنتِ تظنّين؟».

هممتُ بدعوتها إلى غرين غايبلز، ولكنّني عدلتُ عن ذلك. طبعًا لن تأتي في كلّ الأحوال، ولكنّني لم أدعُها أيضًا لأنّها مُفسدةٌ للبهجة. سوف تُفسد كلّ شيءٍ. ولكن حين أتخيّلها بمفردها في تلك اللّوكاندة الرّخيصة كامل الصّيف، أشعر بوخزاتٍ من ضميري وهو يؤنّبني.

أحضر داستي ميلر ثعبانًا حيًّا منذ أيّام، ورماه على بلاط المطبخ. لو كان بإمكان وجه ريبيكا ديو أن يصفرّ حينها لفعل ذلك. قالت كالمعتاد: «لقد طفح الكيل فعلا!» ولكنّ ريبيكا ديو حادّة المزاج نسبيًّا هذه الأيّام، لأنّ عليها أن تقضي وقت فراغها في التقاط الخنافس الرماديّة المائلة إلى الخضرة من على أغصان الورود، ووضعها في صفيحةٍ مملوءةٍ بالكاز.

قالت إنّ هناك الكثير من الحشرات في هذا العالم.

وتنبّأت بأسًى: «سوف تلتهم هذه الحشرات العالم كلّه يومًا مّا».

ستتزوّج نورا نيلسون من جيم ويلكوكس في سبتمبر القادم. سيكون زفافًا هادئًا... لا جلبة، ولا مدعوّين، ولا إشبينات. قالت لي نورا إنّ ذلك هو الحلّ الوحيد للتّخلّص من العمّة فأرة، وبذلك لن تراها وهي تتزوّج. سأكون حاضرةً بالرّغم من ذلك، ولكن على نحوٍ غير رسميٍّ. قالت إنّ جيم لم يكن ليرجع إليها لو لا ذلك الضّوء الّذي أشعلته قبالة النّافذة. سيبيع متجره وسيرحل إلى «الغرب». آه، حين أفكّر في كلّ هذه الزّيجات الّتي كنتُ سببًا فيها...

قالت أختها سالي إنّهما سيتخاصمان أكثر الوقت، ولكنّهما سيكونان سعيدين بخصامهما أكثر من التّوافق مع أيّ شخصٍ آخر. ولكنّني لا أظنّ أنّهما سيتعاركان... كثيرًا. أعتقد أنّ سوء التّفاهم هو الّذي يشكّل أكثر المتاعب في هذه الدّنيا. أمّا أنا وأنت فلن نتخاصم إلى الأبد...

ليلةً سعيدةً يا أكثر من أحبّ في هذه الدّنيا. سيكون نومك هادئًا وناعمًا إذا كان تحت تأثير أعذب أمنيات حبيبتِك.

ملاحظة: اقتبستُ الجملة أعلاه حرفيًّا من رسالةٍ لجدّة العمّة تشاتي.

العام الثّاني

(1)

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

14 سبتمبر

لم أستطع أن أصالح نفسي بفكرة أنّ الشّهرين الجميلين اللذَين قضّيناهما معًا قد انتهيا. لقد كانا *بالفعل* رائعَين، أليس كذلك يا عزيزي؟ والآن علينا انتظار عامين آخرين قبل...

(حذف صفحاتٍ عديدةٍ)

ولكنّ العودة إلى عزبة الصّفصاف هي في حدّ ذاتها متعةٌ تدفئ القلب... العودة إلى برجي الخاصّ بي، وإلى مقعدي المميّز وفراشي العالي... وحتّى إلى داستي ميلر وهو يتشمّس على عتبة النّافذة في المطبخ. ابتهجت الأرملتان لرؤيتي بينهنّ من جديدٍ، وقالت ريبيكا ديو بنبرةٍ صادقةٍ: «كم تسعدني عودتكِ». وقد كان للصّغيرة إليزابيث الشّعور نفسه، وكان لنا لقاءٌ مبهجٌ عند البوّابة الخضراء.

قالت لي الصّغيرة إليزابيث: «كنت خائفةً قليلًا من تسلّلك إلى عالم «الغد» قبلي».

قلتُ لها: «أليست هذه أمسيةً رائقةً؟».

أجابتها إليزابيث: «أينما حللتِ يكون المساء دائمًا في أرقّ حالاته».

لم أسمع في حياتي أرقّ من هذا الإطراء!

سألتها: «كيف قضّيتِ الصّيف يا عزيزتي؟».

قالت إليزابيث بهدوءٍ: «قضّيتُه في التّفكير بكلّ الأشياء الجميلة الّتي ستحدث في عالم «الغد»».

ثمّ صعدنا إلى غرفة البرج وقرأنا حكايةً عن الفيلة. فالصّغيرة إليزابيث شغوفةٌ بالفيلة هذه الأيّام.

قالت بنبرةٍ جادّةٍ وهي تضع ذقنها بين يديها الصّغيرتين كما تفعل ذلك كثيرًا: «هناك شيءٌ ساحرٌ وأخّاذٌ في اسم الفيل في حدّ ذاته، أليس كذلك؟ أتوقّع أن ألتقي بأعدادٍ هائلةٍ من الفيلة في عالم «الغد»».

رسمنا حديقةً للفيلة على خارطة عالم الجنّ والعجائب. لا جدوى من الشّعور بالتّعالي والازدراء يا جيلبرت، كما أتوقّع منك حين تقرأ هذه الرّسالة. لا فائدة من ذلك على الإطلاق. سيكون لهذا العالم حتّى نهايته عالمٌ آخر موازٍ من الجنّيّات. لا يمكنه أن يدوم من دونهنّ. وعلى أحدٍ مّا أن يخلق هذا العالم.

من الرّائع أيضًا العودة إلى المدرسة. وبالرّغم من إمعان كاثرين بروك في عزلتها ونفورها فقد بدا التّلاميذ فرحين لرؤيتي، وطلبت منّي جان برينغل أن أساعدها في صنع أكاليل من الصّفيح ليضعها

الصّغار على رؤوسهم حين يؤدّون دور الملائكة في الحفل المدرسيّ يوم الأحد.

أعتقد أنّ موادّ التّدريس هذه السّنة ستكون مثيرةً للاهتمام أكثر من العام الفارط. فقد أضيفت مادّة التّاريخ الكنديّ إلى البرنامج الدّراسيّ، وعليّ أن أقدّم محاضرةً صغيرةً في الغد عن حرب 1812. غريب هو الشّعور الّذي ينتابك عند قراءة الحكايات عن الحروب القديمة... أشياء لن تقع بالتّأكيد مجدّدًا. ولا أعتقد أنّ أيّ أحدٍ منّا سيهتمّ بهذه المعارك الغابرة إلّا من منظورٍ أكاديميٍّ بحتٍ. ومن المستحيل التّفكير في أنّ كندا ستدخل حربًا أخرى، لذلك أنا ممتنّة للسّماء لانتهاء تلك الحقبة المظلمة من تاريخنا.

سنعيد بسرعةٍ تنظيم نادي الفنون الدّراميّة، وسنلتمس من كلّ عائلة لها طفلٌ أو طفلةٌ في المدرسة أن تدفع مساهمةً لدعم النّادي. أنا ولويس آلان اخترنا شارع دوليش مجالًا لطوافنا على ساكنيه في مساء يوم السّبت القادم. سيسعى لويس إلى ضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ، فقد دخل في منافسةٍ على جائزةٍ تمنحها مجلّة *«منازل الرّيف»* لأحسن صورةٍ فوتوغرافيّةٍ لبيتٍ ريفيٍّ جذّابٍ. تقدّر الجائزة الماليّة بخمسةٍ وعشرين دولارًا، ممّا يعني شراء لويس بدلةً ومعطفًا جديدين هو في أشدّ الحاجة إليهما. لقد عمل طوال الصّيف في إحدى المزارع، وسيقوم هذه السّنة أيضًا بالأعمال المنزليّة وإعداد طاولات الأكل في الإقامة الّتي يسكنها. لا شكّ أنّه يمقتُ هذا العمل، ولكنّه لا يتذمّر مطلقًا. أحبّ الطّفل لويس... فهو مقدامٌ وطموحٌ، ولم يكن يبتسم البتّة، ولكن كثيرًا ما تعلو محيّاه تكشيرةٌ ساحرةٌ. ثمّ إنّه لم يكن قويّ

البنيان، وخشيت أن ينهار في العام الفارط. ولكن يبدو أنّ عوده قد اشتدّ قليلًا من عمله في المزرعة هذا الصّيف. هذا هو آخر عامٍ له في الثّانويّة العامّة، ويأمل إثرها أن يدرُس عامًا في جامعة كوينز. كانت الأرملتان قد اعتزمتا أن تدعواه قدر الإمكان على العشاء في ليالي الأحد من هذا الشّتاء. حصل نقاشٌ بيني وبين العمّة كايت حول صيغ التكفّل بالمصاريف، وحاولتُ إقناعها أن تتركني أدفع كلّ النّفقات الإضافيّة. وبطبيعة الحال لم أسعَ إلى إقناع ريبيكا ديو بذلك، ولكنّني وعلى مسمعٍ منها، طلبت فقط من العمّة كايت أن توافق على حضور لويس آلان للعشاء في ليالي الأحد، وذلك مرّتين في الشّهر. أجابتني العمّة كايت ببرودٍ قائلةً إنهنّ لا يقدرن على تحمّل نفقات أكله وأكل الطّفلة الأخرى الّتي تعيش وحدها وعادةً ما تأتي إليهم للعشاء.

أطلقت ريبيكا ديو صيحة لوعةٍ وأسًى.

«لقد طفح الكيلُ. وأصبحنا فقيراتٍ وغير قادراتٍ على توفير لقمةٍ من حين إلى آخر لولدٍ مُعدَمٍ ورصينٍ، يكدّ في عمله ويسعى إلى الحصول على تعليمٍ جيّدٍ. إنّكما تدفعان أموالًا أكثر لشراء قطع الكبد لذلك القطّ الّذي سينفجر من السّمنة. حسنًا، اخصما دولارًا من راتبي ودعْنَه يأتي».

آمنت الأرملتان بقولها وكأنّه إنجيلٌ منزّلٌ كما تقول ريبيكا، ووافقتا على مجيء لويس آلان دون التّخفيض من راتب ريبيكا أو من قطع الكبد للقطّ داستي ميلر. كم أحبّ ريبيكا ديو!

البارحة تسلّلت العمّة تشاتي إلى غرفتي في الأعلى، وأخبرتني أنّها كانت تريد الحصول على رداءٍ مطرّزٍ بالخرز، ولكنّ العمّة كايت قالت إنّ عمرها لا يناسب هذه الأشياء، فجرحت مشاعرها.

«هل تعتقدين أنّني كبرتُ عن ذلك يا آنسة شيرلي؟ بطبيعة الحال لا أريد أن أكون غير محترمةٍ... ولكنّني كنت دائمًا أتوق إلى الحصول على رداءٍ مطرّزٍ بالخرز. لطالما ظننتُ أنّه لباسٌ أنيقٌ... ويساير الموضة هذه الأيّام».

قلتُ لها مطَمئنةً: «كبرتِ عن ذلك؟ طبعًا لا يا عزيزتي. لا أحد يتقدّم به العمر إذا كان يعرف بالضّبط ما يريد أن يلبسه. لن تتوقي إلى ارتدائه لو كنتِ طاعنةً في السّنّ».

قالت العمّة تشاتي: «سأحصل عليه وأتحدّى كايت». كانت نبرتها تنمّ عن كلّ شيءٍ ما عدا التّحدّي. ولكنّني أعتقد أنّها ستفعلها... وأظنّني أعرف كيف أجبر بعد ذلك خاطر العمّة كايت.

أنا الآن وحيدةٌ في برجي. في الخارج مازال اللّيل جاثمًا على سامرسايد والصّمت المخمليّ يكتنفها. وحتّى أشجار الصّفصاف لا تحرّك ساكنًا. انحنيتُ من عند نافذتي، ونفختُ قبلةً في اتّجاه شخصٍ يوجد على بعد أقلّ من مائة ميلٍ عن كينغسبورت.

(2)

كان شارع دوليش طريقًا فيها شيءٌ من التواءٍ، والمساء فيه قد جُعل بطبعه للمتجوّلين الهائمين على وجوههم... أو هكذا خيّل للويس وآن وهما يجوبانه. كانا بين فينةٍ وأخرى يتوقّفان للتمتّع بنظرةٍ خاطفةٍ من بين الأشجار على المضيق الّذي تلوّن بزرقة الياقوت، أو لالتقاط صورةٍ لمنظرٍ طبيعيٍّ خلّابٍ أو لمنزلٍ صغيرٍ بديع التّصوير في وادٍ أجوف لفّته أوراق الشّجر. ربّما لم يكن الطّواف على المنازل في حدّ ذاته والتماسُ المساهمات لصالح نادي الفنون الدّراميّة عملًا فيه الكثير من المتعة، ولكنّ آن ولويس تبادلا الأدوار عند الحديث إلى ساكنيها... تكفّل هو بالنّساء وانشغلت هي بالرّجال.

نصحتها ريبيكا ديو قائلةً: «خذي أنت الرّجال إذا كنتِ ستطوفين عليهم بهذا الفستان والقبّعة. لقد كانت لي تجارب سابقةٌ في جمع المشاركات وأنا في ريعان شبابي، وأؤكّد لك أنّه إذا كنتِ ستتكفّلين بالرّجال، فإنّه كلّما كان اللّباس جميلًا والوجه حسنًا تدفّقت الأموال أكثر... أو على الأقلّ زادت الوعود بمنحها. وإذا كنت ستطوفين على النّساء فارتدي أرذل لباسٍ لديك وأقبحه».

قالت آن بنبرةٍ حالمةٍ: «أليست الطّريق في حدّ ذاتها شيئًا مثيرًا للاهتمام والشّعور يا لويس؟ لا أتحدّث عن الشّوارع المستقيمة، بل أتحدّث عن تلك الّتي تنطوي على نهاياتٍ والتواءاتٍ، ويمكن أن تتوارى في منعطفاتها أشياء في منتهى الجمال والبهجة. لطالما كنت مولعةً بالتّعاريج في الطّرق الّتي أسلكها».

سألها لويس على نحوٍ عمليٍّ: «إلى أين يفضي شارع دوليش هذا؟»، بالرّغم من أنّه كان عند تلك اللّحظة يفكّر منتشيًا في صوت الآنسة شيرلي الّذي جعله يستحضر فصل الرّبيع.

«ربّما أكون فظيعةً وأبدو مثل مدرّسةٍ صارمةٍ يا لويس، وأخبرك بأنّه لا يفضي إلى أيّ مكانٍ... فهو ينتهي هنا. غير أنّي لن أفعل ذلك. ولكن إلى أين يذهب أو إلى ماذا يفضي... فمن يبالي بذلك؟ ربّما يفضي بنا إلى نهاية العالم ثمّ يعود بنا إلى هنا. تذكّر ما قاله الشّاعر إمرسون... «آه، ماذا عساي أن أفعل بالزّمن؟» هذا هو شعارنا اليوم. أتوقّع أن يتخبّط الكون ثمّ يتجاوز لخبطته إذا ما تركناه وحده برهةً من الزّمن. انظر إلى ظلال الغيوم تلك... وتلك السّكينة الّتي تكتنف الوديان الخضراء... وذلك المنزل الّذي نبتت في كلّ ركنٍ منه شجرة تفّاح. تخيّله في فصل الرّبيع. إنّه لَيومٌ يشعر فيه المرء بأنّه حيٌّ يرزق، وأنّ كلّ نسمةٍ في هذا العالم شقيقةٌ له. تغمرني البهجة حين أرى الكثير من آجام السّرخس على طول الطّريق... نباتات سرخس تتكاثف فيها شبكات العنكبوت المتدلّية. إنّها تنعش ذاكرتي بتلك الأيّام الّتي كنتُ أظنّ... أو أعتقد فعلًا... والأرجح

أنّني كنتُ أؤمن بذلك فعلًا... أنّ شبكات العنكبوت تلك لم تكن سوى مفارش مائدةٍ تأكل عليها الجنّيات».

وجدا عين ماءٍ في تجويفٍ ذهبيّ اللّون على جانب الطّريق، فجلسا على الطّحالب أو ما بدا وكأنّها نباتات سرخسٍ صغيرة الحجم، ليشربا من كأس بَرَمَها لويس من لحاء شجرةٍ تامول.

قال لويس: «لن يعرف الإنسان الفرحة الحقيقيّة لشرب الماء حتّى يبلغ منه الظّمأ مبلغه، ثمّ يجد الماء. كنتُ خلال الصّيف في المنطقة الغربيّة، وكنت أعمل في السّكك الحديديّة الّتي كانوا بصدد إنشائها. وذات يومٍ قائظٍ، تهتُ في البراري وهمتُ على وجهي لساعاتٍ طويلةٍ. خلتُ نفسي ميتًا لا محالة من فرط العطش، ثمّ بلغتُ كوخ أحد المستوطنين وكانت له عينٌ صغيرةٌ مثل هذه في أكمةٍ من شجر الصّفصاف. شربتُ حتّى كدت أنفجر يومها! ومنذ تلك اللّحظة فهمتُ أكثرَ تقديسَ الإنجيل للماء العذب».

قالت آن بشيءٍ من القلق: «سيتدفّق علينا الماء من مكانٍ آخر. ستنهمر المطر بين فينةٍ وأخرى... يا لويس. أحبّ زخّات المطر، ولكنّني ارتديتُ أجمل قبّعةٍ لديّ وثاني أفضل فستانٍ عندي. ولا يوجد أيّ منزلٍ على بعد نصف ميل».

قال لويس: «توجد هناك ورشة حدادةٍ قديمةٌ ومهجورةٌ، ولكن علينا أن نهرول ناحيتها».

جريا بالفعل في اتّجاهها، ومن ذلك المأوى استمتعا بالأمطار المنهمرة، كما استمتعا من قبل بكلّ شيءٍ آخر في تلك الظّهيرة الهانئة

البال والّتي تشبه عيشة الغجر. فقد خيّم قبلها سكونٌ مطبقٌ على العالم. وطوت كلّ تلك النّسائم العليلة -الّتي كانت همساتها وحفيفها يملأ شارع دوليش- أجنحتها، وخبا صوتها وجمدت في مكانها. لم تهتزّ أيّ ورقة شجرٍ، ولم يختلج أيّ ظلٍّ من الظّلال. واستدارت إلى الجانب الآخر أوراق القيقب في منعطف الطّريق، حتّى بدت الأشجار شاحبةً ومتغيّرًا لونها من الخوف. ثمّ بدا وكأنّ ظلًّا قد خيّم عليها مثل موج أخضر... فقد بلغتها السّحبُ. ثمّ انهمرت الأمطار وصاحبها هبوبٌ سريعٌ للرّياح. وكانت زخّات المطر تدمدم بسرعةٍ على أوراق الشّجر، وترقص على طول الطّريق الحمراء الّتي اكتنفها الضّباب، وترشق بكلّ ابتهاجٍ سقف ورشة الحدادة القديمة.

قال لويس: «إن تواصلت هذه..».

ولكنّها لم تدم طويلًا. فقد توقّف المطر على حين غرّةٍ، تمامًا مثلما بدأ بالتّساقط، وأرسلت الشّمس أشعّتها على الأشجار المبلّلة والبرّاقة. كانت تلوح في السّماء قطعٌ زرقاء ساطعةٌ تطلّ من بين السّحب البيضاء الممزّقة. وفي الأفق البعيد لاحت لهما تلّةٌ مازالت مغشّاةً بالضّباب والمطر، وتحتها بدا مجرى الوادي وكأنّه يفيض بغمامٍ صُبغ بلون الخوخ. كانت الغابة المحيطة بهما مبهرجةً بلمعانٍ وبريقٍ يذكّر بوقت الرّبيع، وصدح طائرٌ بالغناء على شجرة القيقب الّتي علت ورشة الحدادة، وكأنّه انخدع وظنّ أنّه الرّبيع فعلًا. لقد بدا العالم في تلك اللّحظة ناضرًا وساحرًا على نحوٍ بديعٍ.

استأنفت آن ولويس طوافَهما، ولاح لآن مسلكٌ جانبيٌّ صغيرٌ يمتدّ بين أسيجةٍ حديديّةٍ مكسوّةٍ بنبات القضبان الذّهبيّة[1]. قالت آن: «فلنكتشف هذا».

قال لويس وقد تملّكه الشّكّ: «لا أظنّ أنّه يوجد متساكنون يعيشون على طول هذا المسلك. أعتقد أنّه ممرٌّ يؤدّي مباشرةً إلى المرفإ».

«لا عليك... فلنسر على طوله. لطالما رقّ قلبي لهذه الطّرق الجانبيّة... إنّها مسالك تائهةٌ في الغابة وبعيدةٌ عن الطّرق المعبّدة، وخضراء، ووحيدةٌ. تنشّقْ العشب المبلول يا لويس. ثمّ إنّني أشعر في قرارة نفسي بأنّ هناك منزلًا على هذا الطّريق... نوعًا مميّزًا من المنازل... منزلًا يستحقّ أن تلتقط له صورةً بآلتك».

لم يخنها حدسها، وسرعان ما لاح بيتٌ... يستحقّ التّصوير فعلًا. كان منزلًا عتيقًا وغير مألوفٍ، ذا أفاريز منخفضةٍ ونافذةٍ مربّعة الشّكل ذات ألواح زجاجٍ صغيرةٍ. كانت أشجار صفصافٍ باسقةٌ قد بسطت أذرعها فوقه مثل أبٍ حنونٍ، وتكاثف من حوله دغلٌ من الشّجيرات والنّباتات المعمّرة. لقد كان منزلًا رثّ الهيئة ورماديّ اللّون جرّاء تقلّبات الطّقس، ولكنّ الإسطبلات الّتي بُنيت خلفه وفقًا لآخر طرازٍ كانت أنيقةً وبدا عليها الرّخاء.

قال لويس وهما يمشيان الهوينى على طول ممرٍّ ضيّقٍ محفّرٍ ومكسوٍّ بالأعشاب: «لطالما سمعتُ يا آنسة شيرلي أنّه حين تكون

---

(1) نوع من النّباتات المزهرة.

إسطبلات أحدِهم أفضل من منزله، فتلك إشارةٌ إلى أنّ مداخيله زادت عن المصاريف».

ضحكت آن وقالت: «أظنّ أنّ ذلك يشير إلى اهتمامه بأحصنته أكثر من عائلته. لا أنتظر أن تأتينا مساهمةٌ للنّادي من هذا المنزل، ولكنّه أكثر منزلٍ يمكنه أن يفوز بجائزة المسابقة. ولن يفسُد لونُه الرّمادي أبدًا بتلك الصّورة الفوتوغرافيّة الّتي ستلتقطها له».

قال لويس وهو يهزّ كتفيه: لا يبدو ممرًّا وطئه كلّ خفٍّ وحافرٍ. من البديهيّ ألّا يكون ساكنو هذا البيت على قدرٍ كبيرٍ من حسن المخالطة. وأخشى أن نجدهم لا يفهمون حتّى معنى نادٍ للفنون الدّراميّة. على أيّة حالٍ، سأضمن التقاط صورةٍ للمنزل الآن، قبل أن نوقظ أيّ أحدٍ منهم من عرينه».

بدا المنزل مهجورًا، وبعد أن التُقطت الصّورة، فتحا بوّابةً صغيرةً بيضاء، واجتازا الفناء وطرقا باب المطبخ الّذي تلوّن بمسحةٍ زرقاء شاحبةٍ. كان من الواضح أنّ الباب الأماميّ جُعل للأبّهة أكثر منه للاستعمال، تمامًا مثل باب عزبة الصّفصاف... هذا إذا سلّمنا بأنّ بابًا توارى بأكمله خلف كرمةٍ عذراء متسلّقة يمكن أن يقال عنه إنّه للأبّهة.

كانا يتوقّعان على الأقلّ شيئًا من الكياسة الّتي عرفاها في طوافهما على المنازل الأخرى، سواء لحقها الجود من أهلها أو لم يلحقها. لذلك أصابتهما الدّهشة حين انتفض الباب عند فتحه، ولم تكن الّتي أطلّت من عتبته زوجة مزارعٍ أو ابنته وهي تبتسم كما كانا

يمنّيان النّفس، بل رجلًا عريض المنكبين في الخمسين من عمره، له شعرٌ أشيب وحاجبان كثيفان مثل الدّغل الّذي يعيش فيه.

سألهما الرّجل بنبرةٍ تعوزها اللّباقة: «ماذا تريدان؟».

بدأت آن بالحديث على نحوٍ أعرج قائلةً: «لقد جئنا إل هنا آملين في أن نسترعي اهتمامك إلى نادي الفنون الدّراميّة بالمدرسة الثّانوية». ولكنّ الرّجل وفّر عليها مجهودًا إضافيًّا، وقاطعها دون أدنى مساومةٍ:

«لم أسمع به من قبل. ولا أريد أن أسمع عنه. لا دخل لي في ذلك». ثمّ سرعان ما أغلق الباب في وجهيهما.

قالت آن وهما يبتعدان عن المنزل: «أعتقد أنّنا عوملنا بازدراءٍ شديدٍ».

ابتسم لويس ابتسامةً عريضةً وقال: «رجلٌ لطيفٌ وودودٌ جدًّا. أشفق على زوجته، إن كانت له بالفعل زوجةٌ».

قالت آن وهي تحاول استعادة رباطة جأشها وترميم وقارها المنهار: «لا أظنّ أنّه يستطيع الحصول على زوجةٍ، وإلّا كانت دلّته على الحضارة قليلًا. تمنّيتُ لو أنّ ريبيكا ديو معنا. ولكن لدينا صورةٌ لمنزله، على الأقلّ، وقلبي يحدّثني أنّه سيفوز بالجائزة. تبًّا! لقد علقت حصاةٌ داخل حذائي، وسأجلس على الحاجز الصّخريّ لهذا الرّجل اللّطيف لأزيلها، سواء أَذِن بذلك أو لم يأذَن».

قال لويس: «من حسن الحظّ أنّنا بعيدان عن أنظار المنزل».

ما إن أعادت آن ربط حذائها حتّى سمعا على يمينهما شيئًا

يتقدّم نحوهما بهدوءٍ من جهة الأدغال والشّجيرات. ثمّ لاح طفلٌ صغيرٌ في الثّامنة من عمره تقريبًا، ووقف يراقبهما في خجلٍ، ماسكًا بين يديه المترعتَين فطيرة تفّاحٍ محشوّةً وكبيرةً. كان طفلًا وسيم المظهر، ذا ضفائر بنّيّةٍ لمّاعةٍ، وعينَين كستنائيّتين كبيرتَين تنمّان عن حسن الظّنّ بالنّاس، ووجهٍ رقيق الملامح. كان شكله يشي بكثيرٍ من الأدب والتّربية، بالرّغم من رأسه العاري وقدميه الحافيتَين. لم يكن يرتدي بين رأسه وقدميه سوى قميصٍ أزرق باهتٍ من الصّوف وبنطلونٍ قصيرٍ رثٍّ من القطيفة. ولكنّه بدا وكأنّه أميرٌ صغيرٌ في لباس تنكّرٍ.

كان خلفه مباشرةً كلبٌ أسود وضخمٌ من فصيلة نيوفاوندلاند، يكاد رأسه يبلغ مستوى كتف الولد الصّغير.

نظرت إليه آن في ابتسامةٍ لطالما كسبت بها قلوب الأطفال.

قال لويس: «أهلًا بنيّ، من أنت؟».

ردّ الطّفل بابتسامةٍ وتقدّم نحوه ملوّحًا بفطيرته.

قال في خجلٍ: «هذه لك لتأكلها. أعدّها بابا لي، ولكنّني أفضّل أن أعطيك إيّاها. لديّ الكثير منها في المنزل».

كان لويس يهمّ، ودون كياسةٍ، بأن يرفض لمجة هذا الصّديق الصّغير، ولكنّ آن وكزته في خفّةٍ. فهم لويس الإشارة وقبِل الهديّة على نحوٍ مهيبٍ، ثمّ ناولها آن الّتي قسمتها هي أيضًا على نحوٍ مهيب إلى شطرين، وأرجعت نصفها إليه. كانا يدركان أنّ عليهما أكل الفطيرة، وكانت تساورهما الشّكوك بشأن قدرات الأب في

مجال الطّبخ، ولكنّ اللّقمة الأولى بدّدت تلك الشّكوك. ربّما كانت تعوز «بابا» الدّماثة والكياسة، ولكن من المؤكّد أنّه قادرٌ على إعداد الفطائر المحشوّة الشّهيّة.

قالت آن: «إنّها لذيذةٌ. ما اسمك يا عزيزي؟».

أجابها صاحب الإحسان الصّغير: «تيدي أرمسترونغ. ولكنّ بابا يناديني دائمًا «الرّفيق الصّغير». أنا كلّ ما لديه. أبي مولعٌ جدًّا بي، وأنا شديد الولع به. أخشى أن تظنّا بأبي سوء الأدب لأنّه أغلق ذلك الباب بسرعةٍ، ولكنّه لا يقصد أن يكون كذلك. سمعتُ أنّكما طلبتما شيئًا لتأكلاه». (قالت آن في نفسها: «لم نطلب شيئًا، ولكنّ ذلك لا يهمّ كثيرًا»).

«كنتُ في الحديقة وراء الخطميّات[1]، ففكّرتُ في أن أحضر لكما فطيرتي، لأنّني أشفق كثيرًا على الفقراء الّذين ليس لهم ما يطردون به الجوع. والحال أنّ لديّ الكثير دائمًا، فأبي طبّاخٌ ماهرٌ. عليكما أن تتذوّقا حلويّات الأرزّ الّتي يعدّها».

سأله لويس وقد لمعت عيناه: «هل يضع فيها الزّبيب؟».

«الكثير والكثير. بابا ليس شحيحًا كما تتصوّران».

سألته آن هذه المرّة: «هل أمّك في البيت يا عزيزي؟».

«كلّا، لقد ماتت منذ زمنٍ. قالت لي السّيّدة ميريل ذات مرّةٍ إنّها ذهبت إلى الجنّة، ولكنّ بابا قال إنّه لا وجود لمثل هذا المكان،

---

(1) جنس نباتي مزهر ومتعدّد الألوان.

وأظنّه يعرف ما يقول. بابا رجلٌ حكيمٌ جدًّا. لقد قرأ آلاف الكتب. أريد أن أكون مثله تمامًا عندما أكبر... ولكنّني سأعطي النّاس دومًا أشياء ليأكلوها حين يكونون في حاجة إليها. لا يحبّ بابا النّاس كثيرًا، ولكنّه لطيفٌ جدًّا معي».

سأله لويس: «هل تذهب إلى المدرسة؟».

«كلّا، بابا يعلّمني في المنزل. ولكن أخبره الأوصياء أنّ عليّ الالتحاق بالمدرسة في العام المقبل. أظنّ أنّني أحبّ الذّهاب إلى المدرسة واللّعب مع أولاد آخرين. طبعًا لديّ كارلو، وبابا نفسه رفيق لهوٍ رائعٌ حين لا يكون مشغولًا. بابا مشغولٌ كثيرًا، فعليه أن يدير المزرعة ويحافظ على نظافة المنزل. لذلك لا يستطيع تحمّل أن يأتيه أناسٌ إلى هنا. عندما أكبر سأساعده كثيرًا، وسيتسنّى له الوقت حينها ليكون مهذّبًا مع النّاس».

قال لويس وهو يبتلع آخر قطعةٍ من الفطيرة. «إنّها شهيّةٌ بالفعل».

لمعت في تلك اللّحظة عينا «الرّفيق الصّغير»، وقال: «أنا سعيدٌ لأنّها أعجبتك».

قالت له آن وقد شعرت أنّ من غير اللاّئق مجازاةَ هذه الرّوح السّخيّة ببعض المال:

«هل تريد أن نلتقط لك صورة؟ إذا أعجبتك الفكرة فإنّ لويس سيأخذ لك صورة».

أجابها «الرّفيق الصّغير» بشغفٍ: «أوه، وكيف لا! كارلو أيضًا؟».

«بطبيعة الحال، كارلو أيضًا سيكون في الصّورة».

وضعت آن الاثنين أمام خلفيّةٍ جميلةٍ من الشّجيرات. كان الطّفل الصّغير واقفًا وذراعه تحيط بالعنق الكبير والأجعد لرفيق اللّعب، وبدا الطّفل والكلب كلاهما فرحيْن حين التقط لويس الصّورة بآخر صفيحةٍ بقيت لديه.

قال له لويس: «إذا خرجت الصّورة بشكلٍ جيّدٍ، أعدك أن أرسلها إليك عبر البريد. إلى أيّ عنوانٍ أرسلها؟».

قال «الرّفيق الصّغير»: «تيدي أرمسترونغ، في وصاية جايمس أرمسترونغ، شارع غلانكوف. أوه، يا لها من متعةٍ أن أتلقّى بنفسي شيئًا من مكتب البريد! سأكون فخورًا جدًّا. ولن أقول شيئًا لبابا بشأن الصّورة حتّى تكون مفاجأةً رائعةً له».

قال لويس وهما يودّعانه: «حسنًا، انتبه إذَن إلى الطّرد البريديّ الّذي سيصلك خلال أسبوعَين أو ثلاثةٍ». ولكنّ آن انحنت فجأةً وقبّلت وجهه الصّغير الّذي لفحته الشّمس. شيءٌ مّا فطر قلبها بشأن هذا الطّفل. كم كان عذبًا... وشهمًا... وبلا أمٍّ!

حين وصلا عند منعطف الممرّ التفتا إلى الوراء فوجداه جالسًا على الحاجز الصّخريّ مع كلبه وهو يلوّح بيده في اتّجاههما.

وبطبيعة الحال ستحدّثها ريبيكا ديو باستفاضةٍ عن عائلة أرمسترونغ هذه.

قالت لها: «لم يستطع جايمس أرمسترونغ تجاوز موت زوجته منذ خمس سنواتٍ. لم يكن بذلك السّوء قبل أن يفقدها... بل كان

ودودًا إلى حدٍّ مّا، بالرّغم من اعتكافه قليلًا في منزله مثل النّسّاك. تلك كانت طبيعته. لَشَدَّ مَا بزوجته الشّابّة... كانت أصغر منه بعشرين عامًا. وقد مثّل موتها صدمةً بليغةً له، وسمعتُ أنّ رحيلها غيّر طبيعة حياته بالكامل. أصبح متجهّمًا وغريب الأطوار، ولم يرغب حتّى في أن يأتي بمدبّرة منزلٍ... واعتنى بمنزله وبابنه بنفسه. لقد طالت عزوبيّته كثيرًا قبل أن يتزوّج تلك الشّابّة، لذلك فهو معتادٌ على التّدبير».

قالت العمّة تشاتي: «ولكنّ مثل هذه العيشة لا تناسب الطّفل أبدًا. لم أرَ أباه مرّةً يأخذه إلى الكنيسة أو إلى أيّ مكانٍ آخر ليختلط بالنّاس».

قالت العمّة كايت: «سمعتُ أنّه يعبُد ابنَه».

فأجابتها ريبيكا ديو على الفور، مقتبسةً من الكتاب المقدّس: «لا يَكُنْ لَكَ آلِهَة أُخْرَى أَمَامِي».

(3)

مضت ثلاثة أسابيع تقريبًا قبل أن يجد لويس الوقتَ لتحميض صوره. وفي ليلة الأحد الأولى الّتي دُعي فيها للعشاء، أتى ومعه الصّور. كان المنزل و«الرّفيق الصّغير» كلاهما بديعَين في الصّورة الّتي التقطت لهما. قالت ريبيكا ديو إنّ «الرّفيق الصّغير» ظهر في الصّورة وهو يبتسم ابتسامةً «حقيقيّةً مثل الحياة ذاتها».

وقالت آن في تعجّبٍ: «يا إلهي، إنّه يشبهك يا لويس!».

نظرت ريبيكا إلى الصّورة شزرًا، وقالت موافقةً بنبرةٍ حصيفةٍ: «إنّه بالفعل يشبهه. ذكّرني وجهه منذ الوهلة الأولى الّتي رأيته فيها بشخصٍ أعرفه، ولكنّني لم أستطع تبيّنه».

قالت آن: «نعم، العينان... والجبين... وملامح وجهه كلّها... كلّها تشبهك يا لويس».

هزّ لويس كتفَيه وقال: «لا أظنّني أصدّق أنّني كنتُ في وسامة هذا الطّفل الصّغير. لديّ صورةٌ التُقطت لي وأنا في الثّامنة، وتوجد في مكان مّا. لا بدّ أن أعثر عليها وأقارن بين الصّورتين. ستضحكين كثيرًا عندما ترينْها يا آنسة شيرلي. لقد كنتُ طفلًا ذا عينين يشعّ منهما الكثير من الرّصانة والجدّيّة، وضفائر طويلةٍ

وياقةٍ من الدّانتيلا تجعلانني أبدو صارمًا مثل مدكّ البندقيّة. أعتقد أنّهم قد أطبقوا على رأسي حين كنتُ صغيرًا بإحدى تلك الآلات المبتدعة ذات الثّلاث كمّاشات. إذا كانت هذه الصّورة تشبهني، فلا شكّ أنّها مجرّد مصادفةٍ. لا يمكن أن يكون «الرّفيق الصّغير» من أقربائي. ليس لديّ أيّ أحدٍ من معارفي في مقاطعة جزيرة الأمير... إلى حدّ الآن».

سألته العمّة كايت: «أين وُلدت؟».

«في مقاطعة نيو برونزويك. لقد مات أبي وأمّي كلاهما وأنا في العاشرة، وقدمتُ إلى هنا للعيش مع ابنة عمٍّ لأمّي... كنتُ أناديها العمّة عيدا. ماتت هي أيضًا... منذ ثلاث سنواتٍ».

قالت ربيكا ديو: «جيم أرمسترونغ نفسُه أتى من نيو برونزويك. فهو في الواقع ليس من السّكّان الّذين ينحدرون من جزيرة الأمير... لن يكون بتلك الطّباع السّيّئة لو أنّه وُلد هنا. لدينا خصائصنا الغريبة والمميّزة نسبيًّا، ولكنّنا على الأقلّ *متحضّرون*».

ضحك لويس ضحكةً رافقتها تلك التّكشيرة المعتادة، وهجم على خبز القرفة المحمّص الّذي أعدّته العمّة تشاتي، ثمّ قال: «لستُ متأكّدًا من أنّني أريد إيجاد علاقة قرابةٍ بيني وبين السّيّد أرمسترونغ الودود جدًّا. ورغم ذلك، سأذهبُ بنفسي إلى شارع غلانكوف عندما أنتهي من إعداد الصّور الفوتوغرافيّة، وسأستقصي الأمر قليلًا. ربّما يكون ابن عمٍّ أو خالٍ بعيدًا، أو شيئًا من هذا القبيل. لا أعلم في الحقيقة الكثير عن أهل أمّي، هذا إذا كان لها بطبيعة الحال

أقرباء ما يزالون أحياء. لطالما خالجني انطباعٌ بأنّه لا أهل لها. أمّا أبي، فأنا متأكّدٌ أنّه مُنبتٌّ لا أقرباء له».

قالت له آن: «إذا أخذت بنفسك الصّورة إلى هناك، ألن يصاب «الرّفيق الصّغير» بشيءٍ من الخيبة حين تنعدم الإثارة بعدم تلقّيه الطّرد من مكتب البريد؟»

«سأعرف كيف أتصرّف معه... سأرسل له شيئًا آخر عبر البريد».

أتى لويس في مساء السّبت الموالي وهو يقود على طول درب الأشباح عربةً عتيقة الطّراز، خلف فرسٍ أكثر عتاقةً.

«سأذهب إلى غلانكوف لأعطي الصّغير تيدي صورتَه يا آنسة شيرلي. إذا لم يسبّب لك مجيئي المفاجئ قصورًا في القلب فأنا أودّ كثيرًا أن ترافقيني. أؤكّد لك أن لا عجلة من بين عجلات العربة ستنحرف عن مكانها».

سألته ريبيكا ديو: «من أين أتيت بهذه الخردة بحقّ السّماء يا لويس؟».

«لا تهزئي بجوادي الأغرّ يا آنسة ديو. احترمي عمرها. لقد أقرضني السّيّد باندر كلًّا من الفرس والعربة بشرط أن أقضي له حاجةً في شارع دوليش. ليس لديّ اليوم متّسعٌ من الوقت لأذهب إلى غلانكوف وأعود منها مشيًا على الأقدام».

قالت ريبيكا ديو: «متّسعٌ من الوقت! يمكنني أن أذهب إلى هناك وأعود مشيًا على نحوٍ أسرع من هذه الدّابّة».

«وحمل كيس من البطاطا من هناك إلى السّيّد باندر، أليس كذلك؟ أنت امرأةٌ رائعةٌ فعلًا!».

احمرّت وجنتا ريبيكا ديو من الخجل أكثر من ذي قبل.

قالت له معاتبةً: «ليس لطيفًا أن تهزأ بمن هم أكبر منك سنًّا». ثمّ بنبرةٍ أرادت من خلالها أن تشعره بالذّنب والنّدم... «هل تأخذ معك بعض الكعك الحلقيّ قبل أن تواصل رحلتك؟».

لقد كانت للفرس البيضاء، رغم كلّ شيءٍ، قدراتُ تنقّلٍ فاجأت الجميع حين ركضت في الهواء الطّلق. كانت آن تضحك في قرارة نفسها وهما يهتزّان وينتفضان على طول الطّريق. ماذا ستقول عنها السّيّدة غاردينر أو العمّة جايمسينا إذا ما رأتاها الآن؟ حسنًا، لم تبالِ بذلك كثيرًا. لقد كان يومًا رائقًا وهي تشقّ طريقها عبر هذه الأرض الّتي حافظت على طقوس الخريف القديمة والجميلة، ثمّ إنّ لويس كان مرافقًا جيّدًا. لا شكّ أنّ لويس سيحقّق كلّ طموحاته. قالت في نفسها إنّه لن يخطر مثلًا ببال أحدٍ من معارفها أن يطلب منها ركوب عربة السّيّد باندر، وخلف فرسه. ولكن لم يكن يبدو على لويس مطلقًا أنّه شعر بغرابة ذلك. لا تهمّه وسيلة التنقّل بقدر وصوله إلى الوجهة المنشودة. وتلك الحواشي الزّرقاء الهادئة للتّلال البعيدة، وتلك الطّرق الحمراء، وأشجار القيقب الأنيقة، لن تتغيّر مهما كانت العربة الّتي يقودها. لقد كان لويس حكيمًا، ولا يكترث كثيرًا لما قد يقوله النّاس، كما كان يفعل حين يناديه تلاميذ المدرسة الثّانويّة «المخنّث»، لأنّه يقوم بأعمالٍ منزليّةٍ في

الإقامة الّتي يسكن فيها. دعهم يلقّبونه بما شاؤوا! يومًا مّا سيتحوّل الضّحك والاستهزاء إلى النّاحية الأخرى. ربّما يكون جيبه خاويًا، ولكنّ رأسه لم يكن كذلك. وفي الأثناء كان وقت الظّهيرة شاعريًّا، وهما يتطلّعان إلى رؤية «الرّفيق الصّغير» مرّة أخرى.

عندما وضع صهر السّيّد باندر كيس البطاطا في الجهة الخلفيّة من العربة، أخبراه بفحوى جولتهما. فقال السّيّد ميريل في دهشةٍ: «هل يعني ذلك أنّ لديك صورةً للطّفل تيدي أرمسترونغ؟».

قال لويس وهو ينزع الغلاف عن الصّورة ويمسك بها في فخرٍ شديدٍ: «نعم سيّدي، وهي صورةٌ رائعةٌ أيضًا».

خبّط السّيّد ميريل على ساقه بشكلٍ مدوٍّ.

«إنّه لأمرٌ يفوق الخيال! لقد مات الصّغير تيدي أرمسترونغ..».

قالت آن في رعبٍ شديدٍ: «مات! أوه أيّها السّيّد ميريل... لا... لا تقل لي... إنّ ذاك الطّفل الصّغير..».

«أنا آسف جدًّا يا آنسة. إنّها الحقيقة. وأبوه في حالةٍ يرثى لها، والأسوأ من ذلك أنّه لا يملك أيّ صورةٍ له. وها هي الآن صورةٌ رائعةٌ يمكن أن تخلّد ذكراه. حمدًا للرّبّ على ذلك!».

قالت آن وقد اغرورقت عيناها بالدّموع: «لا يمكن أن يحصل ذلك... مستحيل». تراءى لها في تلك اللّحظة مشهد ذلك الجسم الأهيف عند الحاجز الصّخريّ وهو يلوّح بيده مودّعًا».

«آسف أن أقول لك إنّها الحقيقة. لقد مات منذ ثلاثة أسابيع بسبب التهابٍ في الرّئة. لقد عانى كثيرًا، ولكن يقول النّاس إنّه كان شجاعًا

وصبورًا كأفضل ما يكون. لا أعلم مصير جيم أرمسترونغ الآن. لقد سمعتُ أنّه أصبح كالمجنون، يتسكّع ويحدّث نفسه كلّ الوقت. وكان دائمًا يردّد: «آه لو كانت لديّ صورةٌ واحدةٌ لرجلي الصّغير».

قالت السّيّدة ميريل فجأةً: «أشفق كثيرًا على ذلك الرّجل». لم تتكلّم إلى حدّ تلك اللّحظة، وكانت واقفةً إلى جانب زوجها. كانت امرأةً مهزولةً ومربّعة الكتفين، وقد علا رأسَها شيبٌ واضحٌ، وكانت ترتدي إزارًا من البفتة منقّطًا بالألوان، تركت عليه سياطُ الرّيح أثَرها. «لقد كان ميسور الحال، وكنتُ دائما أشعر أنّه يحتقرنا لأنّنا معدمون. ولكن لدينا ابنُنا... ولن يهمّ إثرها إذا ما كنت غنيًّا أم فقيرًا مادام لك ابن تحبّه».

نظرت آن إلى السّيّدة ميريل بنظرة احترامٍ جديدٍ. لم تكن جميلة الوجه، ولكنّ عينيها الرّماديّتين الغائرتين التقتا بعينَيْ آن، وبدا وكأنّ نوعًا من القرابة الرّوحيّة سرت بينهما. لم تكن آن قد رأت السّيّدة ميريل من قبلُ، وعلى الأرجح أنّها لن تراها أبدًا في المستقبل، ولكنّها ستتذكّر دائمًا أنّها امرأةٌ اهتدت إلى سرّ الحياة السّرمديّ. لا معنى للفقر والغنى المادّيّ إذا كان لك شخصٌ تحبّه.

لم تعد آن تجد طعمًا في ذلك اليوم الذّهبيّ الرّائع. لقد تمكّن «الرّفيق الصّغير»، وبطريقةٍ مّا، من أسر قلبها في ذلك اللّقاء الوجيز. توجّهت العربة إلى شارع غلانكوف ومنه إلى الممرّ الضّيّق المعشّب، وقد أطبق عليهما صمتٌ رهيبٌ. كان الكلب كارلو ممددًّا على الصّخرة أمام الباب الأزرق. نهض ونزل في اتّجاههما وهما

يترجّلان من العربة، ثمّ أخذ يلعق يد آن وينظر إلى أعلى في وجهها بعينيه الكبيرتين والحزينتين، وكأنّه يسألها عمّا إذا كان هناك خبرٌ عن رفيق اللّعب. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه، في الغرفة المظلمة وراءه لمحَا رجلًا جالسًا ورأسه منحنٍ على الطّاولة.

حين طرقت آن الباب، انتفض الرّجل واتّجه نحوهما. أصابها الذّهول حين لاحظت التّغيّر المريع في سحنته. فقد ظهرت تجاويف غائرةٌ في خدَّيه، وبان عليه الإجهاد. لم تكن لحيته محلوقةً، وأمّا عيناه الغائرتان فقد تطاير منهما شررٌ على نحو متقطّعٍ.

توقّعت أن يصدّهما في البداية، ولكن بدا وكأنّه تعرّف عليها إذ قال بنبرةٍ فاترةٍ:

«إذَن عدتِ في النّهاية؟ قال لي «الرّفيق الصّغير» إنّك تحدّثت إليه وقبّلته. لقد أحبّك كثيرًا. آسف لأنّني كنت فظًّا معك. ما سرّ زيارتكما؟».

قالت آن بلطفٍ: «نريد أن نريك شيئًا».

قال بشكلٍ موحشٍ: «هلّا تفضّلتما وجلستما؟».

ودون أن ينطق لويس بأيّ حرفٍ، أخذ صورة «الرّفيق الصّغير» من لفائفه، وأراها السّيّد أرمسترونغ. اختطفها من يده وألقى عليها نظرةً فيها الكثير من الذّهول والأسى، ثمّ خرّ على كرسيّه وانفجر باكيًا في نشيجٍ. لم تر آن في حياتها رجلًا يبكي بتلك اللّوعة. ظلّت هي ولويس واقفين في تعاطفٍ أصمّ مع الرّجل، إلى أن تمالك نفسه واستعاد بعض هدوئه.

وفي نهاية الأمر قال بنبرةٍ فيها الكثير من الانكسار: «أوه، لن تتخيّلا ما تعنيه هذه الصّورة لي. لم تكن لي أيّ صورةٍ له. ولستُ مثل الآخرين... لا يمكنني أن أتذكّر وجهًا رأيته... لا يمكنني أن أرى الوجوه كما يراها البعض في أذهانهم. لقد فقدت الحياة كلّ معنًى منذ فارق «الرّفيق الصّغير» الحياة... لم يكن باستطاعتي حتّى تذكّر ملامح وجهه. وها أنتما الآن قد جلبتما لي صورته... بعد أن كنتُ غليظًا معكما. اجلسا... اجلسا. أتمنّى لو عبّرتُ عن مشاعري بطريقةٍ أخرى. أظنّ أنّكما أنقذتما عقلي من التّلف... وربّما أنقذتما حياتي كلّها. أوه، يا آنسة، ألا تشبهه الصّورة تمامًا؟ وكأنّه سينطق فيها. يا عزيزي أيّها «الرّفيق الصّغير»! كيف لي أن أحيا من دونك؟ لا شيء أعيش من أجله الآن. أمّك في البداية... والآن أنت».

قالت آن بصوتٍ رقيقٍ: «لقد كان طفلًا صغيرًا غاليًا علينا كلّنا».

«نعم، لقد كان كذلك. تيدي الصّغير... ثيودور، كما سمّته أمّه... «هديّة الرّبّ لها» كما كانت تقول. لقد كان طفلًا صبورًا ولم يتذمّر يومًا. ذات مرّةٍ ابتسم في وجهي وقال «بابا، أظنّك مخطئًا في أمرٍ... أمرٍ واحدٍ فقط. أظنّ أنّ هناك جنّةً، أليس كذلك، يا بابا؟» قلتُ له نعم توجد جنّةٌ يا عزيزي... فليغفر لي الرّبّ إن كنت علّمته شيئًا مخالفًا لهذا. ابتسم ابني مرّةً أخرى، وهو يشعر بالرّضا، وقال «حسنًا يا بابا، سأذهب إليها حيث توجد أمّي والرّبّ، وسأكون بخيرٍ هناك. ولكنّني قلقٌ بشأنك يا بابا. ستكون في منتهى الوحدة

من دوني. ولكن قم بكلّ ما في وسعك، واسعَ إلى أن تكون لطيفًا مع النّاس، ثم انضمّ إلينا لاحقًا». لقد أخذ منّي عهدًا أن أحاول ذلك، ولكن حين فارق الحياة لم أعد أطيق هذا الفراغ في حياتي. ربّما كنت سأفقد صوابي لولا هذه الصّورة الّتي أتيتماني بها. لن أكون بتلك الغلظة والفظاظة بعد الآن».

تكلّم لبعض الوقت عن رجُله الصّغير، وكأنّه وجد بعض السّلوى في الحديث عنه. وبدأ انطواؤه وجلافته يضمحلّان شيئًا فشيئًا مثل رداءٍ سقط عنه. وحينها أخرج لويس صورته الفوتوغرافيّة الصّغيرة والباهتة وأظهرها له.

سألته آن: «هل رأيت أيّها السّيّد أرمسترونغ شخصًا يشبه الطّفل الّذي في الصّورة؟».

حملق فيها السّيّد أرمسترونغ بارتباكٍ وذهولٍ.

قال بعد وهلةٍ: «إنّها صورةٌ طبق الأصل من «الرّفيق الصّغير». من يكون يا ترى؟».

قال لويس: «إنّه أنا حين كنتُ في الثّامنة من عمري. لقد جعلتني الآنسة شيرلي أحضِر هذه الصّورة أيضًا لأريك إيّاها بسبب هذا الشّبه الغريب مع تيدي. أظنّ أنّ من الممكن أن توجد قرابةٌ بعيدة بيني وبينك أو بيني و«الرّفيق الصّغير». اسمي لويس ألان، بينما اسم أبي هو جورج ألان، وولدت في نيو برونزويك».

هزّ جايمس أرمسترونغ رأسه نافيًا. ثمّ قال: «ما اسم أمّك؟».

«ماري غاردينر».

بقي جايمس أرمسترونغ يحدّق فيه طويلًا بصمتٍ.

قال أخيرا: «إنّها أختي غير الشّقيقة. لم أكن أعرفها بالمرّة... لم أرها إلاّ مرّةً واحدةً. لقد ترعرعتُ في عائلة أحد أعمامي بعد موت أبي. تزوّجت أمّي مرّةً أخرى وانتقلت لتعيش بعيدًا. أتت ذات مرّةٍ لتزورني ومعها ابنتها الصّغيرة. ثمّ ماتت بعد ذلك بقليلٍ ولم أتمكّن من رؤية أختي غير الشّقيقة ثانيةً. وعندما جئتُ إلى جزيرة الأمير للعيش فيها، انقطعت أخبارها عنّي تمامًا. أنتَ إذَن ابن أختي، و«الرّفيق الصّغير» ابن خالك».

لقد كان هذا النّبأ مفاجئًا جدًا لولدٍ لطالما تخيّل أنّه وحده في هذا العالم. قضّى لويس وآن كامل فترة المساء مع السّيّد أرمسترونغ، ووجداه رجلًا متّقد الذّهن ومطّلعًا على الكثير من الأمور. ومن حيث لا يعلمان، بدأ الرّجل يروق لهما كثيرًا، وسرعان ما نسيا عدم حفاوته بهما في استقباله الأوّل. لقد بدآ يدركان عندئذٍ القيمة والطّبع الحقيقيّين للرّجل، من تحت تلك القوقعة الّتي أخفاهما فيها.

قالت آن للويس وهما يقودان العربة في طريق العودة إلى عزبة الصّفصاف عند الغروب: «بطبيعة الحال، ما كان للرّفيق الصّغير أن يحبّ أباه بتلك القوّة لو أنّه لم يكن بتلك القيمة والطّبع الحقيقيّين».

حين ذهب لويس ألان في نهاية الأسبوع الموالي لرؤية خاله، قال له هذا خاله:

«بنيّ، تعال واسكن معي هنا. أنت ابن أختي ويمكنني أن أفعل من أجلك... ما كنتُ سأفعله لو بقي «الرّفيق الصّغير» حيًّا.

أنت وحيدٌ في هذا العالم مثلي تمامًا. أنا أحتاج إليك. سأصبح قاسيًا وثقيل الوطأة مرّةً أخرى إذا واصلت في العيش وحيدًا. أريدك أن تساعدني على الإيفاء بوعدي للرّجل الصّغير. مكانه شاغرٌ هنا. تعالَ أنت واملأه».

أجابه لويس وهو يشدّ على يده: «شكرًا، خالي. سأحاول ذلك».

«وأحضرْ معك تلك المدرّسة إلى هنا من حينٍ إلى آخر. تعجبني كثيرًا تلك الفتاة. كان «الرّفيق الصّغير» يحبّها أيضًا». قال لي قبل أن يموت «بابا، لم أكن أظنّ البتّة أنّي سأسعد بقبلة شخصٍ آخر سواك، ولكنّني شعرتُ بسعادةٍ كبيرةٍ حين فعلت ذلك. كان في عينيها شيءٌ مّا ساحرٌ».

(4)

ذات ليلةٍ من ليالي الشّتاء الّتي لفّها الصّقيع البارد، قالت آن ملاحِظةً: «يشير مقياس الحرارة القديم في السّقيفة إلى درجة الصّفر، بينما يؤكّد المقياس الجديد على الباب الجانبيّ أنّ الحرارة تبلغ عشر درجاتٍ فوق الصّفر. لذلك أنا في حيرةٍ من أمري، هل عليّ أن آخذ معي كمَّي التّدفئة أم لا؟».

قالت لها ريبيكا ديو محذّرةً: «من الأفضل أن تثقي بالمحرار القديم. فهو على الأرجح أكثر تعوّدًا على طقسنا. إلى أين أنت ذاهبةٌ في هذه اللّيلة الباردة؟».

«سأذهب ناحية «شارع تامبل» لأطلب من كاثرين بروك قضاء عطلة أعياد الميلاد معي في غرين غايبلز».

قالت ريبيكا ديو بنبرةٍ جادّةٍ: «إذَن ستفسدين عطلتكِ. ستحوم تلك المرأة في منزلك مترفّعةً حتّى على الملائكة نفسها، ولا شكّ في أن تتعالى... حتّى عن الدّخول إلى الجنّة. والأسوأ من ذلك كلّه أنّها فخورةٌ بسوء أخلاقها... ولا شكّ في أنّها ترى ذلك تعبيرًا عن قوّة شخصيّتها!».

قالت آن: «يتوافق عقلي مع كلّ كلمةٍ نطقتِ بها، ولكنّ قلبي

يرفض ذلك. فبالرّغم من كلّ شيءٍ أشعر أنّ تحت تلك القشرة البغيضة، الّتي تصرّ كاثرين بروك على التّقوقع فيها، لا توجد في حقيقة الأمر سوى فتاةٍ خجولةٍ وتعيسةٍ. لا يمكنني أن أحرز تقدّمًا معها في سامرسايد، ولكن إذا ما أفلحتُ في جلبها إلى غرين غايبلز، أظنّ أنّني قادرةٌ على جعل الجليد يذوب في داخلها».

قالت ريبيكا ديو متنبّئةً: «لن تفلحي في ذلك. لن تقبل دعوتك. ربّما ستعتبر هذه الدّعوة شتيمةً... ستخالك تتصدّقين عليها. لقد *دعوناها* مرّةً إلى هنا في عشاء عيد الميلاد المجيد... في العام الّذي سبق مجيئك إلى هنا... تتذكّرين ذلك أيّتها السّيّدة ماك كومبر، في السّنة الّتي أعطونا فيها ديكين روميّين ولم نعرف ماذا نفعل بهما... وكلّ ما قالته هو «لا، شكرًا. إذا كان هناك شيءٌ أمقته في هذه الدّنيا، فهي كلمة أعياد الميلاد».

«يا له من أمرٍ فظيعٍ أن... تكره أعياد الميلاد! عليّ أن *أفعل* شيئًا مّا يا ربيكا ديو. سوف أطلب منها المجيء إلى غرين غايبلز، ويخامرني شعورٌ غريبٌ يقول لي في إصبع خنصري إنّها ستأتي».

قالت ريبيكا ديو بتردّدٍ: «حين تقولين إنّ شيئًا سيحدث، علينا أن نصدّق ذلك. لا تملكين القدرة على التّنبّؤ، أليس كذلك؟ كانت أمّ القبطان ماك كومر قادرةً على هذا. وكان جسمي حينها يقشعرّ من الرّعب».

«أظنّ أنّه ليس لديّ شيءٌ يقشعرّ له بدنك. إنّه فقط... ذلك الشّعور الّذي ينتابني أحيانًا بأنّ كاثرين بروك تكاد تفقد عقلها من

الوحدة رغم ما يظهر عليها من فظاظةٍ ومرارةٍ، وستكون دعوتي لها في الحالة النفسيّة المناسبة، يا ريبيكا ديو».

قالت ريبيكا ديو بتواضعٍ بغيضٍ: «لستُ متحصّلةً على اللّيسانس، ولا أحرمك حقّك في استعمال الكلمات الّتي لا أفهمها. ولا يمكن أيضًا أن أنكر قدرتك على جعل النّاس خاتمًا في إصبعك. انظري كيف روّضتِ عائلة برينغل. ولكن عليّ أن أقول أيضًا إنّني أشفق عليك من أن تجلبي إليك في أعياد الميلاد تلك المرأة. إنّها مزيجٌ غريبٌ من جبل جليدٍ قاسٍ ومبرشةٍ حادّةٍ لجوز الطّيب».

لم تكن آن واثقةً من نفسها كما تظاهرت بذلك وهي تتقدّم مشيًا على الأقدام نحو شارع تامبل. لقد كانت كاثرين بروك فعلًا لا تطاق في الآونة الأخيرة. لطالما صدّت آن نفسها عن هذه الفكرة في المرار العديدة، ولطالما ردّدت بنبرةٍ كالحةٍ كلمات غراب الشّاعر إدغار بو حين قال «أبدا لن أفعل ذلك»[1] فبالأمس فقط تعمّدت كاثرين بروك أن تقذع في كلامها في اجتماعٍ لإطار التّدريس. ولكن وفي لحظةٍ تركت فيه كاثرين نفسها مكشوفةً، رأت آن شيئًا يعتمل في عينيْ تلك المرأة الّتي شارفت على منتصف العمر... شيئًا محتدمًا وشبه مسعورٍ مثل كائنٍ وُضع في قفصٍ ويكاد يُجنّ من فرط الضّجر والسّخط. قضّت آن النّصف الأوّل من تلك اللّيلة وهي تحاول أن يستقرّ رأيها على دعوة كاثرين بروك من عدمها إلى غرين غايبلز. وخلدت للنّوم في النّهاية وقد قرّرت أمرًا لا رجعة فيه.

(1) من قصيدة «الغراب» للشّاعر والقصّاص الأمريكيّ إدغار آلان بو.

رافقتها صاحبة اللّوكاندة الّتي تسكن فيها كاثرين إلى صالة الاستقبال، وهزّت كتفيها المترعتَين حين سألت آن عن الآنسة بروك.

«سأخبرها أنّك هنا، ولكن لستُ متأكّدة من أنّها ستنزل إليك. إنّها في حالة من الوجوم الشّديد. قلتُ لها عند العشاء إنّ السّيّدة رولينز تلومها على طريقتها المبتذلة في اللّباس وهي المدرّسة في ثانويّة في سامرسايد، فأثّر ذلك فيها كالمعتاد على نحوٍ مبالغٍ فيه».

قالت لها آن معاتبةً: «لم تكن فكرةً جيّدةً أن تخبري الآنسة بروك بذلك».

فردّت عليها السّيّدة دينيس بشكلٍ لاذعٍ: «ولكنّني فكّرتُ في أنّ من واجبي إخبارها».

سألتها آن: «هل فكّرتِ أيضًا في إخبارها بأنّ متفقّد التّعليم قال عنها إنّها من بين أفضل المدرّسين في المقاطعات البحريّة كلّها؟ هل كنتِ تعرفين ذلك؟».

«أوه، لقد سمعت بذلك. ولكنّها متشامخةٌ هكذا بما فيه الكفاية، ولا فائدة في جعلها أكثر غرورًا. الغرور ليست الكلمة المناسبة... بالرّغم من أنّني *لا أعرف* بالضّبط سبب كلّ تلك الغطرسة. لقد فقدَت صوابها هذه اللّيلة أيضًا لأنّني قلتُ لها إنّها لا يمكن أن تربّي كلبًا هنا. لقد غرست في رأسها فكرة الحصول على كلبٍ. قالت إنّها ستتكفّل بمصاريف طعامه وستعمل على ألّا يكون مصدرًا للقلق. ولكن ما الّذي سأفعله بالكلب حين تكون في المدرسة؟ تمسّكتُ في الحقيقة بموقفي وقلتُ لها «لن آوي كلابًا في هذا المكان».

«أوه، أيّتها السّيّدة دينيس، هلّا سمحتِ لها بالحصول على كلبٍ؟ لن يقلق راحتك... كثيرًا. يمكن أن تحتفظي به في الدّور تحت الأرضيّ عندما تكون هي في المدرسة. والكلب في واقع الأمر حمايةٌ لك خلال اللّيل. أتمنّى أن تقبلي ذلك... *أرجوك*».

كان هناك دائمًا شيءٌ مّا في عيني آن شيرلي يصعُب مقاومته حين تقول «أرجوك». ثمّ إنّه بالرّغم من الكتفين الممتلئتين للسيّدة دينيس ولسانها الفضوليّ، لم يكن قلبها قاسيًا. كلّ ما في الأمر أنّ كاثرين بروك سبّبت لها المتاعب بتصرّفاتها السّمجة.

«لا أدرك سبب اكتراثك لها وإصرارك على أن تحصل على كلبٍ. لم أكن أعلم أنّكما صديقتان. ليس لديها في الواقع *أيّ* صديقٍ. لم يُقِم عندي في حياتي شخصٌ بمثل هذه الانطوائيّة والشّراسة».

«ولهذا تريد كلبًا أيّتها السّيّدة دينيس. لا يمكن لأيّ أحدٍ منّا أن يستمرّ في العيش دون شكلٍ من أشكال الرّفقة».

قالت السّيّدة دينيس: «حسنًا، هذه أوّل سمةٍ آدميّةٍ ألاحظها فيها. في الحقيقة لا أعلم إذا كان لي اعتراضٌ حقيقيٌّ على وجود كلبٍ هنا، ولكنّها أثارت حفيظتي بأسلوبها التّهكّميّ في طلب ذلك... لقد قالت لي بنبرةٍ متعجرفةٍ «أفترض أنّك سترفضين طلبي في الحصول على كلبٍ أيّتها السّيّدة دينيس». فرددتُ إليها بضاعتها وقلتُ بغطرسةٍ مشابهةٍ «افتراضك في محلّه». لا أريد أن أرجع في كلامي، ولكن يمكنكِ أن تقولي لها إنّ بإمكانها الحصول على كلبٍ إذا كانت متأكّدةً أنّه لن يسيء التّصرّف في بهو الاستقبال».

جالت بذهن آن فكرة أنّ صالة الاستقبال لن تكون أسوأ ممّا هي عليه في تلك اللّحظة حتّى وإن أساء الكلب التّصرّف. فقد سرت في جسمها قشعريرةٌ حين لمحت السّتائر المغبرّة من الدّانتيلا والورود الأرجوانيّة البشعة على السّجّاد.

قالت في نفسها: «أنا أشفق على أيّ زائرٍ يريد أن يقضي عطلة عيد الميلاد المجيد في لوكاندة مثل هذه. لا عجب إذَن أن تمقت كاثرين كلمة أعياد الميلاد. آه لو استطعتُ تهوية هذا المكان... تفوح منه رائحة ألف وجبةٍ. *لماذا* تصرّ كاثرين على الإقامة هنا رغم راتبها الجيّد؟».

«تقول لكِ يمكنك الصّعود إليها»، كانت تلك الرّسالةَ الّتي أتت بها السّيّدة دينيس على نحوٍ مريبٍ، لأنّ الآنسة بروك تصرّفت معها بفظاظةٍ كما كان متوقّعًا.

كانت السّلالم الضّيّقة والشّديدة الانحدار تثير الاشمئزاز، وكأنّها لا تريدها أن تصعد. ولا أحد في الحقيقة يريد تسلّق مثل هذه الدّرجات إلّا إذا كان مضطرًّا إلى ذلك. كان مشمّع فُرُش الأرض في الرّواق ممزّقًا إلى أشتاتٍ. أمّا غرفة النّوم الصّغيرة في الخلف، والّتي اتّخذت شكل ردهةٍ وجدت آن نفسها فيها، فكانت بائسةً أكثر من بهو الاستقبال، ومضاءةً بلهبٍ غازيٍّ غير مظلّلٍ يخطف الأبصار. كان هناك فراشٌ حديديٌّ يتوسّطه أخدودٌ، ونافذةٌ ضيّقةٌ، ذات ستائر متجعّدةٍ ومتناثرةٍ، وتطلّ على الحديقة الخلفيّة الّتي علا فيها محصولٌ كبيرٌ من العلب القصديريّة. ولكن ما وراء ذلك، لاحت

السّماء بديعةً، وانتصب طابورٌ من شجر الحَوْر قبالة تلالٍ عظيمةٍ وأرجوانيّةٍ كانت تظهر من بعيدٍ.

جلست آن بإشارةٍ جافيةٍ من كاثرين على كرسيٍّ هزّازٍ أحدث صريرًا، وكان دون حشيّةٍ.

ثمّ قالت بانتشاء: «أوه يا آنسة بروك، انظري إلى مشهد الغروب».

قالت كاثرين بجفاءٍ ودون أن تلتفت إلى النّافذة: «لقد رأيت أوقاتًا لغروب الشّمس أفضل من هذا». (وقالت في نفسها بمرارةٍ: «تتشامخين عليّ بأوقات غروب الشّمس!»).

قالت لها آن: «أنتِ لم ترَيْ هذا الغروب بالذّات. لا يمكن أبدًا أن يشبه غروبًا آخر. فقط اجلسي هنا ولندَع قرص الشّمس يغوص في أعماقنا». ثمّ قالت في نفسها: «ألا تنطقين بكلامٍ لطيفٍ أبدًا؟».

«لا تكوني سخيفةً من فضلك».

كانت تلك أكثر الشّتائم إهانةً! وزادت من إساءتها تلك النّبرة المتهكّمة الّتي صاحبتها. أشاحت آن بوجهها عن غروب الشّمس ونظرت إلى كاثرين، وهي تهمّ أكثر من أيّ شيءٍ آخر بالنّهوض والمغادرة. ولكن بدت عينا كاثرين على غير العادة نسبيًّا. هل *كانت* تبكي؟ بالتّأكيد لا... لا يمكن تخيّل كاثرين تبكي يومًا مّا.

قالت آن بهدوءٍ: «أنت تجعلينني أشعر أنّني شخصٌ غير مرحّبٍ به هنا».

«لا يمكنني أن أتصنّع. ليست لديّ موهبتك الفذّة في التّصرّف

مثل ملكةٍ لَبِقةٍ... ولا يمكنني قول الشّيء المناسب تمامًا لكلّ النّاس. أنت لست مرحّبًا بك. كيف لي أن أرحّب بك في غرفةٍ مثل هذه؟».

وأشارت كاثرين بازدراءٍ في اتّجاه الحيطان الباهتة، والمقاعد المتهرّئة والعارية من كلّ شيءٍ، ومنضدة التّسريحة المتمايلة الّتي كساها قماشٌ مترهّلٌ من الموسلين.

«ليست غرفةً رائعةً، ولكن لماذا تصرّين على المكوث هنا إذا كنتِ لا تطيقينها؟».

أوه... لماذا... لماذا؟ *لن* تفهمي. لا يهمّ ذلك كثيرًا. لا أبالي بما يفكّر به النّاس. ما الّذي أتى بك اللّيلة؟ لا تخبريني أنّك أتيت فقط ليغوص قرص الشّمس في أعماقك؟».

«جئتُ لأطلبَ منك قضاء عطلة عيد الميلاد معي في غرين غايبلز».

(قالت آن في نفسها: «والآن إلى جولةٍ أخرى من التّهكّم! أتمنّى أن تجلس على الأقلّ. إنّها تقف هناك وكأنّها تريد منّي أن أغرب عن وجهها»).

ولكن خيّم الصّمت وهلةً. ثمّ قالت كاثرين بتؤدةٍ: «لماذا تطلبين منّي ذلك؟ ليس لأنّك تحبّينني... ولا يمكنك حتّى التّظاهر *بذلك*».

قالت آن بنبرةٍ فيها الكثير من الصّراحة: «لأنّني لا أتحمّل مجرّد التّفكير في إنسانٍ يقضّي عيد الميلاد في مكانٍ مثل *هذا*».

وحينئذٍ عاد التّهكّم من جديدٍ.

«أوه، فهمت. طفرةٌ من الإحسان. لستُ إلى حدّ الآن المرشّحة المناسبة لتقبل صدقتك، يا آنسة شيرلي».

نهضت آن من مكانها وقد نفدَ صبرها مع هذا المخلوق الغريب والمنطوي على نفسه. شقّت الغرفة ونظرت إلى كاثرين في عينيها. «كاثرين بروك، سواء تعلمين ذلك أو لا، ما*تحتاجين إليه* هو الصّفع على مؤخّرتك».

حملقت إحداهما في الأخرى برهةً.

قالت كاثرين: «لا شكّ أنّ بالك قد ارتاح الآن بعد أن قلتِ هذا». ولكن، وعلى نحوٍ مّا، اختفت تلك النّبرة اللّاذعة من صوتها. ولمحت آن اختلاجةً طفيفةً في زاوية من فمها.

قالت آن: «نعم لقد ارتحتُ الآن. كنتُ أودّ قول ذلك منذ مدّةٍ طويلةٍ. لم أدعُك إلى غرين غابيلز بدافع الإحسان والشّفقة... تعلمين ذلك جيّدًا. وقد أخبرتك بالسّبب الحقيقيّ. لا ينبغي على *أحدٍ* أن يقضّي عيد الميلاد المجيد هنا... والفكرة في حدّ ذاتها مروّعةٌ».

«دعوتني إلى غرين غابيلز فقط لأنّك ترثين لحالي».

«نعم أنا أرثي لحالك. لأنّك تصُدّين الحياة... والحياة الآن تصدّك هي أيضًا. يجب أن تتوقّفي عن ذلك يا كاثرين. افتحي أبوابك للحياة... وستدخل منها الحياة».

قالت لها كاثرين: «هذه آن شيرلي في نسخةٍ عجوزٍ مُضجرةٍ وهي تقول «إذا وقفت بطلعةٍ باسمة أمام المرآة، فإنّها ستبادلك الابتسام»[1].

(1) سطر من قصيدة للشّاعرة الأمريكيّة أليس كاري.

«مثل كلّ العجائز، نعم هذا صحيحٌ تمامًا. والآن هل ستأتين معي إلى غرين غايبلز أم لا؟».

«ماذا ستقولين إذا قبلتُ دعوتك... لنفسك وليس لي؟».

ردّت عليها آن: «سأقول إنّك بدأت تُظهرين أوّل بصيصٍ ضعيفٍ من الرّصانة والحسّ السّليم لم أكتشفه فيك من قبل».

ضحكت كاثرين... على حين غرّةٍ. شقّت الغرفة في اتّجاه النّافذة، ونظرت وهي مقطّبة الجبين إلى ذلك الشّريط النّاريّ الّذي كان آخر ما تبقّى من غروب الشّمس الّذي ازدرته منذ حينٍ.

«حسنًا جدًّا... سأذهب معك. يمكنك أن تقومي الآن بتلك الحركات من قبيل أنّك سعيدةٌ جدًّا وسنمضي وقتًا رائعًا هناك».

«أنا بالفعل مبتهجةٌ. ولكنّني لا أعرف ما إذا كنتِ ستتسلّين هناك أم لا. سيتوقّف الأمر عليك كثيرًا يا آنسة بروك».

«أوه، سأتصرّف على نحوٍ لائقٍ هناك. سوف تُفاجئين. أظنّك لن تجديني ضيفةً طروبًا، ولكنّي أعدك أنّني لن آكل بالشّوكة، ولن أشتم النّاس حين يقولون لي إنّه يومٌ جميلٌ. سأخبرك بصراحةٍ عن السّبب الوحيد الّذي يجعلني أذهب معك، فحتّى أنا لا يمكنني تخيُّل نفسي أقضي العطلة وحيدةً هنا. ستُمضي السّيّدة دينيس أسبوع عيد الميلاد مع ابنتها في شارلوتاون. سيكون حملًا ثقيلًا عليّ أن أعدّ وجبات أكلي. أنا طبّاخةٌ تعيسةٌ. هذا هو ما يسمّى تفوّق المادّة على الرّوح. ولكن هل تعاهدينني بشرفك أنّك لن تتمنّي لي عيد ميلادٍ سعيدًا؟ فقط لا أريد أن أكون سعيدةً في أعياد الميلاد».

«لن أتمنّى لك ذلك، ولكن لا يمكنني أن أعدك عوضًا عن التّوأمين».

«لن أدعوك إلى الجلوس هنا... ستتجمّدين بردًا... ولكنّني أرى قمرًا مهيبًا قد أخذ مكان قرص شمسك، وسأتمشّى معك إلى منزلك وأساعدك على تأمّله بشكلٍ جيّدٍ إذا أردت ذلك».

قالت آن: «فكرةٌ جميلةٌ، ولكنّني أريد إعلامك بأنّ لدينا أقمارًا أجمل من هذا بكثيرٍ في آفونلي».

قالت ريبيكا ديو وهي تملأ قارورة آن بالماء السّاخن: «إذَن ستذهب؟ حسنًا يا آنسة شيرلي، آمل ألّا تجعليني أعتنق دين محمّدٍ... لأنّك على الأرجح ستنجحين في ذلك. أين *ذلك* القطّ؟ ينطّ مرحًا في أنحاء سامرسايد ودرجة الحرارة صفر!».

«ليس ذلك ما يشير إليه مقياس الحرارة الجديد. ثمّ إنّ داستي ميلر قد استكنّ على الكرسّي الهزّاز قرب مدفأتي في البرج، وبدأ يغطّ في نومٍ عميقٍ وبهيجٍ».

قالت ريبيكا وقد ارتجفت قليلًا من البرد وهي توصد باب المطبخ: «آه حسنًا، أتمنّى لكلّ إنسانٍ في هذا العالم أن يكتنفه الدّفء ويكون فوقه سقفٌ يحميه كما نحن الآن».

(5)

لم تكن آن تدرك أنّ الحزن قد ألقى بظلاله على الصّغيرة إليزابيث، وكانت هذه تراقبها من إحدى نوافذ الغرفة العلويّة للمنزل «الدّائم الخضرة» وهي تغادر عزبة الصّفصاف... طفلةٌ صغيرةٌ ملأت الدّموع عينيها، وأحسّت أنّ كلّ شيءٍ جعل من هذه الأرض مصدرًا للحياة قد خرج من حياتها في ذلك الوقت، وأنّها منذ تلك اللّحظة ستعيش تحت اسم «ليزي» أكثر من أيّ وقتٍ مضى. وما إن توارت عربة الجليد المؤجّرة عن أنظارها عند منعطف درب الأشباح حتّى عادت إليزابيث ناحية فراشها وجثت على ركبتيها.

همست قائلةً: «يا ربّ، أعرف أنّه لا فائدة من التّضرّع إليك ليكون عيد الميلاد المجيد سعيدًا، لأنّ جدّتي و«المرأة» لا يسعهما أن تكونا سعيدتَين، ولكن رجاءً أن تجعل السّعادة تغمر الآنسة شيرلي في عيد الميلاد وأن تعيدها سالمةً إليّ عند انتهاء العطلة».

ثمّ قالت وهي تنهض من جثوّها: «الآن، فعلتُ كلّ ما استطعت فعله».

كانت آن حينها قد بدأت تستطعم النّكهة البهيجة لأعياد الميلاد. فقد تألّق وجهها بوضوحٍ والقطار يغادر المحطّة. انطوت

الشّوارع القبيحة من ورائها... إنّها عائدةٌ إلى موطنها... عائدةٌ إلى غرين غايبلز. وهناك خارج المدينة في عمق الفلاة، اكتسى العالم حلّةً من الذّهب الأبيض والبنفسجيّ الفاتح، معانقًا هنا وهناك سحرَ أشجار الرّاتينجة القاتمة ورقّة أشجار التّامول العارية من الأوراق. بدت الشّمس الخفيضة خلف الغابات العارية في عجلةٍ من أمرها وهي تتسلّل خلف الأشجار كإلهٍ عظيمٍ، بينما زمجر القطار على السّكّة مسرعًا. كانت كاثرين جالسةً إلى جانبها في صمتٍ، ولكن لم يكن يبدو عليها الجفاء والغلظة.

قالت لآن باقتضابٍ وبنبرةٍ محذّرةٍ: «لا تنتظري منّي أن أتكلّم».

«لا، لست أنتظر منك ذلك. آمل أنّك لا ترينني مثل أولئك النّاس الّذين يُشعرونك بأنّ عليك التّحدّث إليهم كامل الوقت. سنتبادل أطراف الحديث متى شئنا. أعترف أنّني أتكلّم كثيرًا في أغلب الأحيان، ولكنّك لست مجبرةً على أن تعيري اهتمامًا لما أقوله».

جاء دايفي لاستقبالها عند محطّة برايت ريفر بعربة جليدٍ مملوءةٍ بالأردية المكسوّة بالفرو... وبعناقٍ طويلٍ خصّ به آن. تضامّت الفتاتان التماسًا للدّفء وهما تجلسان في المقعد الخلفيّ. لطالما كانت الرّحلة من محطّة القطار إلى غرين غايبلز من أكثر الأوقات متعةً عندما كانت آن تعود إلى منزلها في نهايات الأسبوع. وتتذكّر جيّدًا السّفرة الأولى من برايت ريفر إلى المنزل رفقة ماثيو. لقد كان ذلك في فصل الرّبيع ونحن الآن في ديسمبر، ولكن كلّ شيءٍ على طول الطّريق كان يناديها ويقول لها «هل تتذكّرين يا آن؟» تموّج الثّلج

تحت زلّاجات العربة، وانبعثت موسيقى الأجراس رنّانةً في طوابير أشجار التّنّوب الباسقة والمدبّبة والمثقلة بالثّلج. كانت «الطّريق البيضاء للسّعادة» مزدانةً بأكاليل من النّجم تشابكت مع الأشجار. وحين بلغوا الهضبة ما قبل الأخيرة، لمحوا تحت ضوء القمر ذلك الخليج العظيم، ببياضه وغموضه الصّوفيّ، والّذي لم تحط به الثّلوج بعدُ من كلّ جانبٍ.

قالت آن: «هناك بقعةٌ وحيدةٌ على هذه الطّريق أشعر فيها وعلى نحوٍ مباغتٍ أنّني بلغتُ موطني. إنّها قمّة التّلّة الموالية، ومن أعلاها سنرى أضواء غرين غايبلز. لم أتوقّف لحظةً عن التّفكير في العشاء الّذي أعدّته لنا ماريلا. أشعر وكأنّني أستنشق رائحته من هنا. أوه، كم هو رائعٌ... رائعٌ أن يعود المرء إلى الدّيار مرّةً أخرى».

في مزرعة غرين غايبلز، لاحت كلّ شجرةٍ في السّاحة وكأنّها ترحبّ بها في حرارةٍ... وبدت كلّ نافذةٍ وكأنّها تلوّح لها. وكم كان رائحة مطبخ ماريلا شهيّةً حين فتحوا الباب! كان هناك عناقٌ حارٌّ تلته هتافاتٌ وقهقهاتٌ. حتّى كاثرين نفسها لم تبدُ غريبةً عن الدّار، بل بدَت من أحد سكّانه. كانت السّيّدة ليند قد وضعت مصباح الصّالون المفضّل لديها على طاولة العشاء وأشعلت نوره. لقد كان مصباحًا بشعًا مثل غطائه الأحمر النّاثر للضّوء، ولكن كم كان جميلًا ذلك النّور الزّهريّ الدّافئ الّذي انبعث منه منسكبًا على كلّ شيءٍ في الغرفة! كم كانت تلك الظّلال مليئةً بالدّفء والألفة! أمّا دايفي فقد أصبح تقريبًا رجلًا كامل الصّفات.

كانت هناك بعض مستجدّاتٍ أُعلِن عنها. رُزقت ديانا بمولودةٍ جديدةٍ... ورُزقت جوزي باي بشابٍّ يافعٍ... ويقال إنّ شارلي سلون رُزقت أيضًا بخطيبٍ. لقد كانت أخبارًا مثيرةً ولا تقلّ شأنًا عن أخبار الإمبراطوريّة. وقد اكتمل للتّوّ اللّحاف المرقّع للسّيّدة ليند، والّذي يضمّ أكثر من خمسة آلاف قطعةٍ، وعُرِض أمام الحاضرين ليفوز بنصيبٍ كبيرٍ من الإطراء.

قال دايفي: «كلّ شيءٍ يُبعث إلى الحياة من جديدٍ عندما تعودين إلى الدّار يا آن».

وبدا قطّ دورا الصّغير وكأنّه يقول في هرهرته: «آه، هكذا ينبغي أن تكون الحياة».

قالت آن بعد العشاء: «لطالما تعسّر عليّ مقاومة سحر ضوء القمر في اللّيل. ما قولك في نزهةٍ بالأحذية الثّلجيّة يا آنسة بروك؟ أظنّني سمعت أنّك تهوين التّزحلق بالأحذية الثّلجيّة».

قالت كاثرين وهي تهزّ كتفيها: «نعم... إنّه الشّيء الوحيد الّذي يمكنني فعله... ولكنّني لم أتزحلق على الثّلج منذ ستّ سنواتٍ».

اقتلعت آن حذاءها الثّلجيّ من غرفة السّطح، وانطلق دايفي مسرعًا إلى «أورشارد سلوب»[1] لاقتراض زوجٍ قديمٍ لكاثرين كان على ملك ديانا. شقّتا طريقهما عبر درب العشّاق الّذي عجّ بظلال الأشجار البديعة، وعبر الحقول الّتي حدّت أسيجتَها أشجارُ التّنّوب، وعبر الغابة الحبلى بالأسرار، الغابة الّتي دائمًا ما تهمّ

(1) مزرعة في منطقة آفونلي تقطنها عائلة باري.

بالإفصاح عنها همسًا دون أن تفعل ذلك حقًّا... وعبر الفسحات المفتوحة الّتي بدت وكأنّها أحواضٌ شاسعةٌ من الفضّة.

لم تتكلّما البتّة، ولم تكونا تريدان ذلك، وكأنّهما تخشيان أن يفسد الحديث سكون هذا الجوّ الجميل. ولكنّ آن لم تشعر قطٌّ من قبل أنّها قريبةٌ من كاثرين بروك كما اللّيلة. لقد قرّب هذا الشّتاء بسحره الخاصّ بينهما... ألّف بينهما تقريبًا، ولكن ليس تمامًا.

حين عادتا إلى الطّريق الرّئيسيّة ورأتا عربة الجليد وهي تلمع، وسمعتا أصوات جرسها والضّحك المنبعث منها، تنهدّت الفتاتان دون أن تشعرا بذلك. لقد بدا وكأنّهما قد تركتا وراءهما عالمًا لا يشترك في شيءٍ مع ذلك الّذي ستعودان إليه... عالمٍ توقّف فيه الزّمن... عالمٍ سرمديّ الصّبى... يتسارّ فيه النّاس بعضهم إلى بعضٍ بواسطةٍ لا تحتاج إلى شيءٍ جافٍّ مثل الكلمات.

قالت كاثرين: «لقد كانت نزهةً رائعةً». بدت وكأنّها قالت ذلك لنفسها، فلم تردّ آن عليها.

ذهبتا أسفل الطّريق ثمّ صعدتا الممرّ الطّويل المؤدّي إلى مزرعة غرين غايبلز، ولكن قبل أن تبلغا بوّابة السّاحة الأماميّة، توقّفتا للرّاحة وكأنّ غريزةً مشتركةً دفعتهما إلى ذلك.

وقفتا في صمتٍ متّكئتين على السّياج القديم المكسوّ بالطّحالب، وتأمّلتا ذلك المنزل العتيق المنتصب في سكينةٍ، والحنون مثل أمٍّ، والمستتر في حجابٍ من الأشجار. كم يبدو جميلًا منزل غرين غايبلز في ليالي الشّتاء!

وتحته كانت «بحيرة المياه المتلألئة» قد زحف إليها الجليد بالكامل، وتزخرفت حواشيها بظلال الأشجار. كانت السّكينة تلفّ المكان، ما عدا جلجلةً متقطّعةً لحصانٍ يخبّ فوق الجسر. ابتسمت آن حين عاودتها الذّكرى وهي في الصّبى مستلقيةً بغرفة الجملون، وتتظاهر لنفسها بأنّها تصغي إلى خبب الخيول الجنّيّة وهي تمرّ في اللّيل.

وفجأةً بدّد سكينة اللّيل صوتٌ آخر.

«كاثرين... أنت... ما الأمر؟ هل تبكين؟».

بدا أمرًا مستحيلًا أن تخامر آن فكرةُ بكاء كاثرين. ولكنّها كانت تذرف الدّموع حقًّا. ولوهلةٍ جعلتها الدّموع تسترجع آدميّتها. ولم تعد آن منذ تلك اللّحظة تخشاها.

«كاثرين.... عزيزتي كاثرين.... ما خطبك؟ هل يمكنني أن أساعدك؟».

قالت كاثرين وهي تشهق: «أوه، لا يمكنك أن تفهمي! *تأتيك* الأشياء سهلةً ودون جهدٍ. وتبدين... وكأنّك تعيشين داخل حلقةٍ سحريّةٍ صغيرةٍ من الجمال والرّوايات الغراميّة. 'ما هو الاكتشاف البهيج الّذي سيصادفني اليوم؟'... تلك نظرتك إلى الحياة يا آن. أمّا أنا، فقد نسيت طعم الحياة... كلّا، لم أستطعمها يومًا. إنّني مثل حيوانٍ علِق في قفصٍ، ولا يمكنه الخروج منه... وكأنّ ثمّة شخصًا يَخِزُه بالعصيّ بلا هوادةٍ من خلال القضبان. وأنت... لديك فيضٌ من السّعادة ولا تعرفين حتّى ما تفعلين به... أصدقاء في كلّ مكانٍ،

حبيبٌ ولهانٌ بك! لا يعني ذلك أنّني أريد عاشقًا لي... فأنا أكره الرّجال... ولكن إذا متّ اللّيلة فلا كائن على وجه الأرض سيفتقدني. كيف لإنسانٍ أن يعيش وحيدًا في هذه الدّنيا دون أصدقاء؟».

انكسر صوت كاثرين مرّةً أخرى، وأطلقت العنان للنّشيج.

«كاثرين، قلت إنّك تحبّين الصّراحة. سأكون صريحةً معك. إن لم يكن لك أصدقاء فتلك غلطتك أنت. لطالما أحببت أن نكون صديقتين، ولكنّك واجهت دعواتي تلك بالصّدّ وبالأشواك والإبر».

«أوه، أعرف... أعرف. لكم كنتُ أكرهك منذ اليوم الأوّل الّذي جئتِ فيه! وأنت تتباهين بالخاتم المرصّع بالجواهر..».

«لم أكن أفاخر به يا كاثرين!».

«أوه، طبعًا لا. لم يكن ذلك سوى طبعي الحقود. ولكنّه بدا كأنّما يباهي بزينته وحده... ليس لأنّي أحسدك على خطيبك... لم أسعَ يومًا إلى أن أتزوّج... لقد رأيت ما فيه الكفاية من زواج أمّي وأبي. ولكنّني كرهتُ أن تكوني رئيستي في العمل وأنت الأصغر سنًّا... وابتهجتُ حين سبّبت لك عائلة برينغل المتاعب. لقد بدا كأنّك تملكين كلّ شيءٍ أفتقده أنا... الجاذبيّة... الصّحبة... الشّباب. آه من الشّباب! لقد حُرمتُ من شبابي. ولا يمكنك تخيُّل ذلك. لا يمكنك أن تعي ما أقول... ليست لديك أدنى فكرةٍ عمّا يشعر به إنسانٌ لا يريده أحدٌ... لا أحد بالمرّة».

قالت آن وهي تنتحب: «هل تظنّين فعلًا أنّي لا أعي ذلك؟».

وفي بضع جملٍ مثيرةٍ للعاطفة، قدّمت لها آن لمحةً عن طفولتها قبل أن تأتي إلى غرين غايبلز.

قالت كاثرين: «لم أكن أعلم كلّ هذا. كان ذلك سيبدّل الكثير من الأشياء. كنت في نظري مجرّد فتاةٍ يحالفها حسن الطّالع دومًا. لقد كان قلبي يتآكل من الحسد. فقد تحصّلتِ على المنصب الّذي تريدينه... أوه، أعلم أنّك مؤهّلةٌ أكثر منّي لهذه الوظيفة، ولكن ما باليد حيلةٌ. ثمّ إنّك بهيّة الطّلعة... أو على الأقلّ توهمين النّاس بأنّك حسناء. كانت أولى ذكريات طفولتي ممزوجةً بصوت أحدهم يقول لي «ما أقبح هذه الطّفلة!» أمّا أنت فتأتين إلى كلّ مكانٍ والبهجة باديةٌ على وجهك... أوه، أتذكّر جيّدًا ذلك الصّباح الّذي أتيت فيه إلى المدرسة أوّل مرّةٍ. ولكنّي أظنّ أنّ السّبب الحقيقيّ وراء كرهي الشّديد لك كان تلك السّعادة الخفيّة الّتي تبدو عليك... وكأنّ كلّ يومٍ من حياتك مغامرةٌ جديدةٌ. وبالرّغم من حقدي الدّفين عليك، كنتُ أحيانًا أقرّ لنفسي بأنّك كائنٌ لعلّه أتى من نجمٍ بعيدٍ جدًّا».

«لقد حبستِ أنفاسي بهذا الإطراء حقًّا يا كاثرين. ولكنّك لا تكرهينني الآن، أليس كذلك؟ يمكننا أن نصبح أصدقاء إذَن».

«لا أعلم... لم يكن لي صديقٌ من أيّ نوعٍ، ناهيك عن صديقٍ في مثل سنّي. أنا لا أنتمي إلى أيّ مكانٍ... ولم أنتمِ يومًا إلى أيّ مكان. لا أظنّني أعرف مفهوم الصّداقة. كلّا، لم أعد أكرهك على الإطلاق... لا أعرف كيف أشعر تجاهك... أوه، أفترض أنّ جاذبيّتك الّتي لا تقاوَم بدأت تؤتي أكلها. كلّ ما أعرفه هو أنّ بي رغبةً لأخبرك عن

حياتي كيف كانت. لم أكن لأخبرك لولا أنّك حدّثتني عن حياتك قبل قدومك إلى هنا. أريدك أن تستوعبي السّبب الّذي جعلني أكون ما أنا عليه الآن. لا أعلم لماذا أريدك أن تفهمي ذلك... ولكن ذلك ما أشعر به».

«قولي لي يا كاثرين. أريد أن أفهمك».

«أفترض أنّك تعلمين شعور المرء حين يكون محبوبًا من الجميع... ولكنّك لا تعلمين ما يشعر به حين لا يريده أبواه. لم يكن والداي يحبّانني. كرهاني منذ اللّحظة الّذي ولدتُ فيها... وحتّى قبل ذلك... وكانا ينفران أحدهما من الآخر. نعم، لقد كانا كذلك. كانا يتخاصمان بلا هوادةٍ... خصوماتٍ وضيعةً وتافهةً ونكدةً. لقد كانت طفولتي كابوسًا مرعبًا. فارقا الحياة عندما كنت في السّابعة من عمري، وذهبتُ للعيش مع عائلة العمّ هنري. لم تكن تلك العائلة تطيقني أيضًا. كانوا يحتقرونني لأنّني «أعيش من صدقتهم». لم أنسَ يومًا تلك النّظرات المتشامخة الّتي كانوا يرمقونني بها... كلّهم دون استثناءٍ. لا أتذكّر أنّني سمعت كلمةً طيّبةً واحدةً منهم. كان عليّ أن ألبس الثّياب المستعملة لبنات عمّي. أتذكّر بالخصوص قبّعةً... جعلتني أبدو مثل نبات الفطر. وكانوا يسخرون منّي حين أضعها. أتذكّر أنّني مزّقتُها ذات يومٍ وألقيت بها في النّار. كان عليّ إثرها أن أرتدي أقبح قلنسوة من الصّوف عند الذّهاب إلى الكنيسة، وذلك حتّى آخر الشّتاء. لم أحصل يومًا على كلبٍ... وكم كنت أودّ أن يكون لي كلبٌ صغيرٌ. كنتُ على شيءٍ من الذكاء... ووددتُ لو أنّني

تابعتُ دروس اللّيسانس... ولكنّ هذا كان كمَن يريد بلوغ القمر. وبالرّغم من ذلك، وافق العمّ هنري على التحاقي بجامعة كوينز بشرط أن أردّ الدّين حين أجد مدرسةً أعمل فيها. لقد دفع ثمن إعاشتي في إقامةٍ حقيرةٍ من الدّرجة الثّالثة، حيث كانت لي غرفةٌ فوق المطبخ، باردةٌ مثل الجليد في الشّتاء، وحارّةٌ إلى درجة الغليان في الصّيف، وتعبق في كلّ الفصول بالرّوائح العفنة للأكل البائت. ولن أحدّثك عن الملابس الّتي كنت ألبسها في كوينز! ولكنّني تحصّلتُ في الأخير على اللّيسانس، وفزت بالمرتبة الثّانية في ثانويّة سامرسايد... وتلك كانت المرّة الوحيدة الّتي ابتسم لي الحظّ فيها. ومنذ ذلك الحين وأنا أقتصد وأقتّر على نفسي لأدفع للعمّ هنري... ليس فقط ما أنفقه خلال إقامتي الجامعيّة في كوينز، بل أيضًا كلفة إقامتي عندهم طوال كلّ تلك السّنوات الّتي قضّيتها بينهم. كنتُ مصرّةً على ألّا أدين له بمليّمٍ واحدٍ. ولذلك أقمت في لوكاندة السّيّدة دينيس وارتديت تلك الملابس المبتذلة. ولقد سدّدت الآن دَيني كاملًا، وأشعر أنّني *طليقةٌ* من جديدٍ. ولكنّني في الأثناء اكتسبتُ عاداتٍ سيّئةً. أعرف أنّني منطويةٌ على نفسي... أعرف أنّني لا أنطق بالكلام الّذي ينبغي قوله. أعلم جيّدًا أنّها غلطتي حين يتجاهلونني ويستخفّون بي في المحافل الاجتماعيّة. أعلم أنّني سيّئة الطّباع وطوّرتُ ذلك إلى فنٍّ من الفنون الجميلة. أعرف أنّني أتهكّم دائمًا. وأعرف أنّ تلاميذي يرونني طاغيةً ومستبدّةً. أعرف أنّهم يكرهونني. أتظنّين أنّ من غير المؤلم معرفة ذلك؟ أرى في أعينهم الخوف منّي... أكره أن أكون مصدر فزعٍ للنّاس. أوه يا آن،... لا

شكّ أنّ الكراهية مرضٌ بداخلي. أريد أن أكون مثل الآخرين... ولا أعرف كيف السّبيل إلى ذلك الآن. وهذا ما يجعلني أشعر بمرارةٍ شديدةٍ تعصر قلبي».

وضعت آن ذراعها حول كاثرين وقالت: «أوه، ولكنّك تستطيعين ذلك! يمكنك أن تصرفي عن عقلك فكرة الكراهية ذاتها... وأن تشفَي من هذا المرض. لقد بدأت الحياة لتوّها بالنّسبة إليك... بما أنّك الآن وأخيرًا حرّةٌ ومستقلّةٌ بنفسك. ولا يمكنك أن تعرفي ما الّذي يخبّئه المنعطف التّالي في الطّريق».

«سمعتك تقولين هذا من قبل... وضحكتُ كثيرًا على «منعطف الطّريق» هذا. ولكنّ المعضلة هو أنّه لا توجد منعطفاتٌ في طريقي. إنّي أراها ممتدّةً أمامي حتّى تبلغ الأفق... حركةٌ رتيبةٌ لا تنتهي. أوه يا آن، ألا تخشين من الحياة أبدًا، من *الخواء* الّذي فيها... وحشود النّاس الجافّين وغير المهمّين الّذين يملؤونها؟ طبعًا أنت لا تخشينها. *فأنت* لست مجبرةً على مواصلة التّدريس بقيّة حياتك مثلي. وتبدين وكأنّك تهتمّين بكلّ شخصٍ، حتّى ذلك الكائن القصير والأحمر، المسمّى ريبيكا ديو. الحقيقة أنّني أكره التّدريس... ولكن لا شيء آخر يمكنني فعله. المعلّم في المدرسة ليس سوى عبدٍ للوقت. أوه، أعرف أنّك مولعةٌ بالتّدريس...

ولا أفهم كيف تقدرين على ذلك. أريد أن أسافر يا آن. إنّه الشّيء الوحيد الّذي لطالما تُقت إليه. أتذكّر الصّورة الوحيدة المعلّقة على حائط غرفتي في العلّيّة بمنزل العمّ هنري... إنّها مطبوعةٌ قديمةٌ

وشاحبة اللّون نبذتها الغرف الأخرى باحتقارٍ. كانت صورةً لواحةٍ من النّخيل حول عين ماءٍ، وقافلةٍ من الجمال وهي تسير بعيدًا عنها. لقد سحرني بالفعل ذلك المشهد. لطالما حلمتُ بالذّهاب بحثًا عنه... أريد أن أرى «صليب الجنوب» و«تاج محلّ» وأعمدة «الكرنك». أريد أن *أكتشف*... لا فقط أن *أعتقد*... أنّ الأرض كرويّةٌ. ولا يمكنني أن أفعل كلّ هذا براتب مدرّسٍ في الثّانويّة. سأقضّي حياتي فقط في الثّرثرة حول زوجات الملك هنري الثّامن والموارد الّتي لا تنضب للمستعمرة».

ضحكت آن بكلّ سعادةٍ. فقد كان من الأمان الضّحك في تلك اللّحظة، وقد اختفت المرارة من صوت كاثرين. بدت فقط كئيبةً ومتلهّفةً.

«على كلّ حالٍ، سنصبح أصدقاء... وستكون لنا هنا عشَرة أيّامٍ بهيجة لنستهلّ صداقتنا. لطالما أردت أن أكون صديقتك يا كاثرين... تلك الّتي يرسم اسمها بحرف K! لطالما شعرتُ أنّ تحت أشواكك توجد صديقةٌ ناعمةٌ وجديرةٌ بالعِشرة».

«هكذا كنت ترَينني إذَن؟ لطالما شعرتُ بذلك. حسنًا، أنت كمن يطلب من الفهد أن يغيّر من ترتيب الرّقطات الّتي تميّزه إذا كان ذلك ممكنًا. ربّما هو أمرٌ ممكن. يمكنني أن أصدّق كلّ شيءٍ يقع هنا في غرين غايبلز. إنّه أوّل مكانٍ أذهب إليه وأشعر أنّني لستُ غريبةً فيه. يجب عليّ أن أكون طبيعيّةً مثل باقي النّاس... إذا لم يكن الوقت قد فات بطبيعة الحال. وسأتمرّن حتّى على ابتسامةٍ

مشرقةٍ أقابل بها جيلبرت حين يصل غدًا ليلًا. لقد نسيت الحديث إلى الشّبّان الّذين يصغرونني سنًّا... هذا إذا كنت قد عرفت فعلًا الحديث إليهم في السّابق. سيحسبني امرأةً تقدّمت بها السّنّ وتريد أن تلعب دور الرّقيب عليكما. أتساءل حين أذهب للنّوم اللّيلة عمّا إذا كنتُ سأشعر بالغضب من نفسي لأنّني سحبتُ قناعي وتركتك تنظرين إلى نفسي المرتبكة هكذا».

«لا، لن تشعري بذلك. بل ستقولين في نفسك 'أنا سعيدةٌ اللّيلة لأنّها وجدَتني في نهاية الأمر إنسانةً'. سنستكنّ الآن في الفراش بين الملاءات الدّافئة والوبراء، وربّما سنجد قارورتين من الماء السّاخن، لأنّ ماريلا والسّيّدة ليند ستضعان كلّ واحدةٍ منهما قارورة لنا، خشية أن تنسى الأخرى فعلَ ذلك. وسيغلبك ذلك النّعاس اللّذيذ بعد هذه النّزهة في الجليد تحت ضوء القمر... وأوّل شيءٍ ستُفيقين عليه هو الصّباح، وستشعرين وكأنّك أوّل شخصٍ يكتشف زرقة السّماء. وستتعلّمين فنّ إعداد كعك البرقوق، لأنّك ستساعدينني في ذلك ليوم الثّلاثاء... سنصنع معًا كعكةً كبيرةً ورائعةً».

ذُهِلت آن حين رأت ملامح كاثرين الجميلة وهما تدخلان المنزل. كانت سحنتها برّاقةً بعد تلك الجولة الطّويلة في الهواء الطّلق، وكأنّ الحياة قد جرت في عروقها من جديدٍ.

قالت آن في نفسها: «ستكون كاثرين مليحةً أكثر لو ارتدت النّوع المناسب من القبّعات والفساتين». وتخيّلتها تضع على شعرها الأسود الفاحم قبّعةً مخمليّةً وحمراء قانيةً كانت قد رأتها في محلّ

بسامرسايد، وتسحبها إلى الأمام قليلًا على تَينك العينين في لون العنبر. «سأرى ما الّذي يمكن فعله في هذا الخصوص».

(6)

كان يوما السّبت والاثنين مليئين بالأحداث البهيجة في غرين غايبلز. أعِدّت كعكةُ البرقوق، ووصلت شجرة عيد الميلاد إلى المنزل. وكان كلّ من دايفي وكاثرين وآن ودورا قد ذهبوا جميعُهم إلى الغابة من أجل ذلك... كانت شجرةَ تنّوبٍ صغيرةً وجميلةً، لم يخفّف عن آن قطعُها سوى أنّها في فسحةٍ أمام منزل السّيّد هاريسون الّذي كان سيقوم في كلّ الأحوال بقطع الأشجار فيها وحرثها.

هاموا على وجوههم في أنحاء الغابة، وجمعوا أيضًا بعضًا من شجيرات الرّاتينجة القصيرة والصّنوبر الأرضيّ لصنع الأكاليل... وحتّى بعض نبات السّرخس الّذي حافظ على اخضراره كامل الشّتاء في غورٍ عميقٍ داخل الغابة... إلى أن شارف النّهار على الانتهاء، وابتسم لهم مودّعًا إيّاهم من أعلى التّلال ذات الجيوب البيضاء، فعادوا إلى غرين غايبلز مظفّرين... والتقوا بشابٍّ يافعٍ وطويل القامة، ذي عينين بندقيّتي اللّون، وشاربٍ بدأ يظهر فجعله يبدو أكبر سنًّا وأكثر رُشدًا، إلى درجة أنّ آن وقفت في شيءٍ من البهتة وتساءلت عمّا إذا كان هذا الشّخص جيلبرت أم رجلًا غريبًا عن الدّار.

أمّا كاثرين الّتي انبجست من محيّاها ابتسامةٌ طفيفةٌ حاولت أن تضفي عليها شيئًا من التّهكّم دون أن تُفلح في ذلك، فإنّها تركتهما في صالة الاستقبال، وذهبت لتلعب مع التّوأمين في المطبخ كامل المساء. ولدهشتها وجدت الكبيرة أنّها قد استمتعت بذلك كثيرًا، وكم كان ممتعًا ومرِحًا أن تنزل إلى القبو مع دايفي وتجد أنّه مازال في هذا العالم بعض النِّعم السّماويّة مثل قِطع التّفّاح المُحلّى.

لم تحظ كاثرين في حياتها من قبل بزيارة قبوٍ في الرّيف، ولم تكن تدري كم يصبح ذلك المكان سّحريًّا وغامضًا ومخيفًا تحت ضوء الشّموع. لقد وهبتها الحياة الآن شيئًا من الدّفء، ولأوّل مرّةٍ تحسّ كاثرين أنّ الحياة يمكن أن تكون كريمةً، حتّى معها هي.

أحدث دايفي في ساعةٍ مبكّرةٍ من صباح يوم الميلاد المجيد -وهو يقرع جلاجل قديمةً صعودًا ونزولًا من السّلّم- جلبةً كبيرةً أيقظ بها الجنّ السّبعة. أصيبت ماريلا بالذّعر بسبب فعلته، ولاسيّما أنّ في المنزل ضيوفًا، ولكنّ كاثرين نزلت من غرفتها ضاحكةً. لقد أينعت على نحوٍ مّا بعضُ الألفة بينها وبين دايفي، وكانت كاثرين قد أسرّت إلى آن ألّا شيء يجمعها صراحةً بالمعصومة من العيوب دورا، أمّا دايفي فقد كانت تشعر أنّه من طينتها.

فُتحت صالة الاستقبال ووُزّعت الهدايا قبل فطور الصّباح لأنّ التّوأمين، بما فيهما دورا، لن يأكلا شيئًا قبل أن يتسلّما الهدايا. أمّا كاثرين الّتي لم تكن تتوقّع شيئًا، ماعدا ربّما هديّة واجبٍ من عند آن، فقد ألفت نفسها مغمورةً بالهدايا من كلّ جانبٍ. شالٍ أفغانيٍّ بهيجٍ

ومحيكٍ بالكروشيه من عند السّيّدة ليند... كيسٍ من جذور السّوسن من عند دورا... مقطع ورقٍ لفتح الرّسائل من عند دايفي... سلّةٍ مُلئت جرارًا صغيرةً من المربّى والجيلاتين من عند ماريلا... وحتّى تمثالٍ صغيرٍ من البرونز لقطٍّ مبتسمٍ يمكن أن يكون ثقّالةً للورق، من عند جيلبرت.

وتحت شجرة عيد الميلاد، استكنّ جروٌ صغيرٌ في غاية الجمال داخل قطعة قماشٍ دافئةٍ من الصّوف، كان ذا عينين كستنائيّتين، وأذنين في ملمس الحرير متيقّظتين وذنبٍ يتودّد للجميع. وإلى عنقه رُبطت بطاقةٌ تقول: «من آن، الّتي تتجرّأ بالرّغم من كلّ شيءٍ على أن تتمنّى لك عيد ميلاد مجيدًا وسعيدًا».

احتضنت كاثرين بين ذراعيها الجرو الّذي ما انفكّ يتلوّى ويتكوّر، وتحدّثت وهي ترتعش.

«آن ... إنّه جميلٌ جدًّا! ولكنّ السّيّدة دينيس لن تسمح لي بالاحتفاظ به. طلبتُ منها أن أربّي كلبًا ورفضت ذلك».

«لقدت رتّبتُ كلّ الأمور مع السّيّدة دينيس. ستجدين حين تعودين إلى هناك أنّها لن تعارض في ذلك. ثمّ إنّك يا كاثرين لن تمكثي في تلك الإقامة مدّةً أطول على أيّة حالٍ. عليك أن تجدي مكانًا محترمًا للعيش فيه بعد أن سدّدتِ ثمن ما اعتبرته دينًا عليك. انظري إلى صندوق أدوات الكتابة هذا، وقد أرسلته إليّ ديانا. أليس من المشوّق التمعّن في هذه الصّفحات البيضاء والتّفكير في ما يُمكن أن يُكتب عليها؟».

شكرت السّيّدة ليند الرّبّ على أنّه عيد ميلاد أبيض بالثّلج... إذ تقول الأسطورة إنّ المقابر لن تكون دسمةً بساكنيها إذا كان عيد الميلاد أبيض... ولكنّه في مقابل ذلك بدا لكاثرين عيد ميلادٍ أرجوانيًّا وقرمزيًّا وذهبيًّا. كان الأسبوع الموالي بديعًا مثل سابقه. غالبًا ما تساءلت كاثرين بمرارةٍ فيما مضى عمّا يعنيه أن يكون المرء سعيدًا، وقد أدركت معناه الآن. لقد أينعت كوردةٍ، وعلى نحوٍ يبعث على الدّهشة، واكتشفت آن أنّها تستمتع بصحبتها.

قالت آن في نفسها بذهولٍ: «كم كنتُ سخيفةً حين خشيتُ أن تفسد علينا عيد الميلاد!».

وقالت كاثرين في نفسها: «كم كنتُ سخيفةً حين أوشكتُ على رفضِ المجيء إلى هنا عندما دعتني آن إلى ذلك!».

تنزّهتا كثيرًا ولمسافاتٍ طويلةٍ... عبر «درب العشّاق» و«الغابة المسكونة» حيث اكتنفتهما السّكينة بكلّ حفاوةٍ... وعلى التّلال الّتي انتفض فيها الثّلج الخفيف في دوّاماتٍ ترقص مثل غيلان الثّلج في الشّتاء... وعبر البساتين العتيقة الزّاخرة بالظّلال البنفسجيّة... وفي عظمة الغروب وهَيْبته بالغاب المهيب. لم تكن هناك زقزقةٌ للعصافير، ولا نشيدٌ للطّيور، ولا خريرٌ للجداول، ولا ثرثرةٌ للسّناجب. ولكنّ الرّيح عزفت بعض الألحان من حينٍ إلى آخر، وغطّت جودة أنغامها على شحّ مقدارها.

قالت آن: «دائمًا ما يجد الإنسان هنا شيئًا عذبًا يتأمّله أو يصغي إليه».

تحدّثتا في كلّ شيءٍ غثٍّ وسمينٍ، وأطلقتا العنان لأحلامهما مجنّحةً في اتّجاه النّجوم، ثمّ عادتا إلى الدّار بشهيّتين ألحقتا الضّرر بغرفة المؤن في غرين غايبلز. هبّت عاصفةٌ هوجاء ذات يومٍ ولم يمكن لهما الخروج. كانت الرّيح الّتي نفخت من الشّرق تضرب أطناف السّطح بشدّةٍ، بينما زأر الخليج الرّماديّ القاتم من بعيدٍ. ولكن حتّى العواصف في غرين غايبلز لها سحرها الخاصّ بها. كم كان الجوّ دافئًا وهما تجلسان حول الموقد وتلقيان نظرةً حالمةً على ضوء النّار وهي تختلج على السّقف بينما كانتا تأكلان بشهيّةٍ نصيبًا من التّفّاح والحلوى. كم كان بهيجًا ذلك العشاء، وتلك العاصفة تعوي خارج المنزل!

أخذهما جيلبرت ذات ليلةٍ لرؤية ديانا وابنتها الوليدة.

قالت كاثرين وهم في طريق العودة إلى المنزل: «لم أمسك في حياتي رضيعًا من قبل. أوّلًا لأنّني لم أكن أحبّ ذلك، وثانيًا لأنّني كنتُ أخشى من أن يتفتّت إلى أشتاتٍ بين قبضتيّ. لن تتخيّلا ما شعرتُ به حينها... شعرتُ أنّني ضخمةٌ وخرقاء جدًّا، وبين ذراعيّ ذلك الكائن الصّغير العذب. كنت أعرف أنّ السّيّدة رايت تخشى أن يسقط منّي في كلّ لحظةٍ. كنت قد رأيتها وهي تكابد بكلّ ما أوتيت من قوّةٍ أن تداري رعبها. ولكنّ ذلك الشّيء ترك أمرًا مّا في نفسي... أعني الرّضيع... ولم أعرف ما هو بالضّبط».

قالت آن بنبرةٍ حالمةٍ: «الأطفال الصّغار مخلوقاتٌ بديعةٌ. إنّهم، كما سمعتُ أحدهم في ريدموند يسمّيهم، «حِزَمٌ هائلةٌ من القوى

الكامنة». فكّري في الأمر قليلًا يا كاثرين... هوميروس نفسه كان طفلًا رضيعًا... رضيعًا ذا غمّازتين في وجنتيه، وعينين واسعتين يغشاهما النّور... لم يكن في ذلك الوقت أعشى بطبيعة الحال».

قالت كاثرين: «ويا للأسف، لم تكن أمّه تعلم أنّه سيصبح هوميروس العظيم».

فردّت عليها آن بهدوءٍ: «ولكنّني سعيدةٌ لأنّ أمّ يهوذا الخائن لم تكن تعلم أنّه سيصبح يهوذا. آمل أنّها لم تعرف الحقيقة مطلقًا».

كان قد انتظم حفلٌ موسيقيٌّ في إحدى اللّيالي ببهو البلديّة، تبعته حفلةٌ أخرى في منزل آبنر سلون، وكانت آن قد أقنعت كاثرين بمرافقتها إلى كليهما.

«أريدك أن تلقي بعض الشّعر ضمن البرنامج، يا كاثرين. سمعتُ أنّك تجيدين الإلقاء على نحوٍ رائعٍ».

«كنتُ في السّابق أجيد الإنشاد... وأظنّني مولعةٌ بذلك. ولكن في الصّيف قبل الماضي، ألقيت قصيدةً في حفلٍ على الشّاطئ نظّمه عددٌ من المصطافين... وسمعتهم يضحكون منّي في استهزاءٍ إثرها».

«كيف عرفت أنّهم يستهزؤون منك؟».

«أغلب الظّنّ أنّهم كانوا كذلك. لم يكن حينها أيّ شيءٍ آخر يثير السّخريّة».

أخفت آن ابتسامةً وواصلت الطّلب منها بإلحاحٍ أن تقوم بالإلقاء.

«يمكنك أن تلقي مرّةً ثانيةً قصيدة «جينيفرا»[1] لقد حُدّثتُ أنّك تتقنين ذلك على نحوٍ بديع. أخبرتني زوجة السّيّد ستيفن برينغل أنّها لم يغمض لها جفن في اللّيلة الّتي سمعتك فيها تنشدينها.

«كلّا، لستُ مغرمةً البتّة بتلك القصيدة. ولكنّها في مقرّر مادّة القراءة، وأحاول من حينٍ إلى آخر تعليم تلاميذي أسلوب قراءتها. لم أعد حتّى أطيق جينيفرا ذاتها. لماذا لم تصرخ عندما وجدت نفسها محبوسةً، والكلّ كان حينها يبحث عنها؟ لو فعلت ذلك لسمِعها أحدهم بالتّأكيد».

وافقت كاثرين في النّهاية على الإلقاء، ولكن اشتبه عليها الأمر بالنّسبة إلى الحفلة.

«سأذهب، بطبيعة الحال. ولكن لن يطلب منّي أحدٌ الرّقص معه، وسأشعر عندئذٍ بالخزي وبأنّني محلّ سخريّةٍ وتحاملٍ. أشعر دائمًا بالتّعاسة في الحفلات الرّاقصة... أعني في الحفلات القليلة الّتي ذهبتُ إليها. لا أحد يصدّق أنّني أعرف الرّقص... وتعرفين يا آن أنّني أجيد ذلك وبصورةٍ مقبولةٍ. لقد تعلّمتُ ذلك في منزل العمّ هنري لأنّ خادمةً مسكينةً كانت تعمل لديهم أرادت أن تتعلّم هي أيضًا، وكنّا نرقص معًا في المطبخ خلال اللّيل على الموسيقى الّتي تنبعث من بهو الاستقبال. أظنّ أنّني أحبّ ذلك... ولكن مع شريك الرّقص المناسب.

---

(1) الأرجح أنّها تعني قصيدة «جينيفرا» للشّاعر البريطانيّ فرانسيس هاستيغز دويل.

«لن تشعري بالتّعاسة في هذه الحفلة يا كاثرين. لن تنظري إلى الأشياء من الخارج. تعرفين أنّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين الحكم على الأشياء من الخارج، والحكم عليها وأنت داخلها. لديك شَعرٌ جميلٌ جدًّا يا كاثرين. هل تمانعين في أن أسرّحه لك بطريقةٍ جديدةٍ؟».

هزّت كاثرين كتفيها.

«أوه، طبعًا، افعلي ما يحلو لك. أفترض أنّ شعري يبدو مخيفًا... ليس لديّ متّسعٌ من الوقت لأتزيّن وأتبرّج دائمًا. وليس لديّ فستانٌ للحفلة. هل سيفي فستاني المصنوع من التّفتا بالحاجة؟».

«نعم سيفي بالحاجة... بالرّغم من أنّ الأخضر هو اللّون الوحيد من بين كلّ الألوان الّذي لا يجب أن ترتديه يا عزيزتي كاثرين. ولكنّك ستُثبّتين إليه هذه الياقة المثنيّة الحمراء من قماش الشّيفون، والّتي صنعتها خصّيصًا لك. نعم، نعم سيفي بالغرض، ولكن عليك بفستانٍ أحمر يا كاثرين».

«لطالما كرهتُ اللّون الأحمر. حين ذهبتُ للعيش مع العمّ هنري، كانت العمّة جيرترود تجعلني دائمًا ألبس مآزر حمراء زاهيةً. وكان الأطفال الآخرون في المنزل يصيحون «ها قد جاءت النّار» كلّما رأوني في أحد تلك المآزر. ولكن على أيّة حالٍ، لا أريد أن أشغل بالي بالملابس الآن.

قالت آن بقسوةٍ وهي تجدُل الياقة وتَطويها: «اللّهمّ ألهمني الصّبر! اللّباس أمرٌ مهمٌّ *جدًّا!*» ثمّ تمعّنت في الياقة الّتي صمّمتها

واطمأنّت إلى أنّها على أحسن ما يرام. ثمّ وضعت ذراعها على كتفَيْ كاثرين وأدارتها أمام المرآة.

قالت ضاحكةً: «ألا تظنّين بصدقٍ أنّنا فتاتان على قدرٍ فائقٍ من الجمال؟ أليس من الرّائع التّفكير في أن النّاس يستمتعون وهم ينظرون إلى جمالنا؟ هناك الكثير من النّساء اللواتي حبتهم الطّبيعة بجمالٍ عاديٍّ وبسيطٍ، ولكنّهنّ صرن في غاية الجاذبيّة حين بذلن قليلًا من الجهد. منذ ثلاثة أسابيع في الكنيسة... هل تتذكّرين ذلك الأحد الّذي كان فيه المسكين العجوز السّيّد ميلفاين يلقي بخطبته ومواعظه وقد أصابه زكامٌ شديدٌ إلى درجة أن لا أحد كان يفهم ما يقوله؟.. لقد قضّيتُ ذلك اليوم في جعل النّاس من حولي أكثر جمالًا.

أتحفتُ السّيّدة برانت بأنفٍ جديدٍ، وجعلتُ شعر ماري أديسون متموّجًا، وشطفت بشرة جاين ماردن باللّيمون... أوعزتُ إلى إيما ديل أن ترتدي الأزرق عوضًا عن البنّيّ... وألبستُ شارلوت بلير ثيابًا عليها خطوطٌ بدلًا من المربّعات... وأزلتُ الكثير من الرّؤوس السّوداء عن بشرة الكثيرين منهم... وحلقتُ الشّعر الطّويل الأشعث في وجه توماس أندرسون. لن تتعرّفي عليهم بعد أن أنهيتُ تجميلي لهم. ثمّ إنّهم جميعهم، باستثناء أنف السّيّدة برانت، كانوا قادرين على فعل ذلك بأنفسهم. كاثرين عزيزتي، عيناك في لون شاي العنبر. والآن عليك أن تكوني على العهد وأن تحترمي معنى الاسم الّذي تحملينه... على الجدول[1] أن يكون لمّاعًا... وصافيًا... وطروبًا».

---

(1) يُنطق جدول الماء بالإنجليزيّة «بروك»، مثل اسم عائلة كاثرين.

«يعني أن يكون كلّ الصّفات الّتي تعوِزني».

«بل كلّ شيء اكتسبتِه خلال الأسبوع الماضي. ممّا يعني أنّ بالإمكان أن تكوني كلّ هذه النّعوت».

«ذلك سببه فقط السّحر والجمال اللذين يكتنفان غرين غايبلز. عندما أعود إلى سامرسايد، ستكون السّاعة منتصف اللّيل قد دقّت حينها لسندريلّا».

«سوف تعودين إلى هناك ولن يفارقك ذلك السّحر... وستبدين حينها كما ينبغي أن تكوني في كلّ الأوقات».

حدّقت كاثرين في انعكاس صورتها على المرآة وكأنّها تشكّ في نفسها وهُويّتها.

قالت موافقةً: «بالفعل أبدو أصغر بكثيرٍ. لقد كنتِ على حقّ... للثّياب دخلها في ذلك. أوه، أعرف أنّني أبدو أكبر سنًّا من عمري الحقيقيّ. ولا أكترث لذلك. لماذا سيهمّني هذا الأمر؟ فالكلّ لا يبالي بي. وأنا لا أشبهك يا آن. من الواضح أنّك وُلدتِ وأنت تعرفين السّبيل إلى الحياة. بينما أنا لا أعرف عن الحياة شيئًا... ولا حتّى الأساسيّات فيها. دائمًا أتساءل عمّا إذا كان القطار قد فاتني لأتعلّمها من جديدٍ. لقد سخرتُ من نفسي ومن النّاس طويلًا، ولا أعرف ما إذا كنتُ أستطيع أن أكون غير ذلك. لقد بدا لي التّهكّم الوسيلة الوحيدة الّتي يمكن بها أن أترك انطباعًا لدى النّاس. ثمّ إنّه بدا لي أيضًا أنّني كنتُ أخشى من الاختلاط بالآخرين... لقد كنتُ أخاف من قول شيءٍ سخيفٍ... كنتُ أخاف من أن أكون موضع سخريّة الجميع».

«كاثرين بروك، انظري إلى نفسك في المرآة. احملي معك هذه الصّورة دائمًا... صورة شعرك البديع وهو ينسدل على طرفَي وجهك بدلًا من أن تعقصيه إلى الوراء... وعينيك اللّتين تتلألآن مثل نجوم في العتمة... وتلك الحمرة الطّفيفة في وجنتيك عندما تكونين متحمّسةً لشيءٍ مّا... عندها فقط لن تخشي أيّ شيءٍ. تعالي الآن، فإنّنا سنتأخّر. ولكن لحسن الحظّ، كلّ مقاعد المؤدّين والمنشدين في هذه الحفلة الموسيقيّة «محزوزة»، كما سمعتُ ريبيكا ديو تقول».

قادهما جيلبرت في العربة إلى بهو البلديّة. شعرت آن وكأنّ الأيّام الغابرة قد عادت من جديدٍ... فقط كاثرين كانت ترافقها في هذه المرّة بدلًا من ديانا. أطلقت آن تنهيدةً حين تذكّرت أنّ لديانا الآن أولويّاتٍ واهتماماتٍ أخرى. لقد ولّى زمن الطّواف على الحفلات بالنّسبة إليها.

ولكن كم كانت جميلةً تلك الأمسية! كم هو بديعٌ ذلك اللّون الفضّيّ والنّاعم مثل الحرير الّذي ازدانت به الدّروب، وكم هو رائعٌ ذلك اللّون الأخضر الباهت الّذي خضّب السّماء عند الغروب بعد تساقطٍ طفيفٍ للثّلوج! كانت كوكبة الجوزاء[1] تتقدّم في سيرها في موكبٍ مهيبٍ وهي تشقّ السّماء، واكتنف صمتٌ شفّافٌ مثل اللؤلؤ تلك التّلالَ والحقول والأحراج المحيطة بهم.

أسرَت قراءةُ كاثرين قلب الحاضرين منذ السّطر الأوّل، وفي الحفل الرّاقص لم تتمكّن الآنسة بروك من تلبية كلّ دعوات الرّجال

---

(1) مجموعة من أكثر النّجوم تلألأً في السّماء.

الّذين رغبوا في الرّقص معها. لقد وجدت نفسها فجأةً تضحك دون مرارةٍ. وحين عادتا إلى غرين غايبلز، أدفأتا أقدامهما الباردة أمام موقد غرفة الجلوس، على ضوء شمعتين كانتا تشتعلان بكلّ حبٍّ على رفّ المدفأة. دخلت السّيّدة ليند إلى الغرفة وهي تمشي على أطراف أصابعها في ذلك الوقت المتأخّر، لتسألهما عمّا إذا كانتا تحتاجان إلى دِثارٍ آخر، ولتُطمئن كاثرين أنّ كلبها الصّغير مستكنٌّ ودافئ داخل السّلّة الّتي توجد وراء الموقد.

قالت كاثرين لنفسها وقد بدأت تستسلم للنّعاس: «لقد بدأت تتشكّل لديّ نظرةٌ جديدةٌ إلى الحياة. لم أكن أعرف أنّ هناك أناسًا بهذا اللّطف والجمال».

قالت لها ماريلا وهي تغادر غرين غايبلز: «عودي ثانيةً».

لم تقل ماريلا هذا الكلام مطلقًا لأحدٍ من قبلُ إلّا إذا كانت صادقةً في قولها.

قالت آن: «طبعًا ستعود مرّةً أخرى. خلال نهايات الأسبوع في الشّتاء، ولأسابيع كاملةٍ في الصّيف. سنُشعل نارًا كبيرةً ونقتلع الأعشاب من الحديقة بالمعازق... وسنقطف التّفّاح ونذهب لرؤية البقرات... وسنجدّف في البحيرة ونتيه في الغابة. أريد أن أريَك يا كاثرين في المرّة القادمة جنان هيستر غراي، ومنزل إيكو لودج، و«وادي البنفسج» حين يكون زاخرًا بتلك الزّهور».

(7)

عزبة الصّفصاف

5 يناير

الشّارع الّذي (من المفترض أن) تطوف فيه الأرواح

صديقي المبجّل،

ليس هذا مستلهمًا من رسالة كتبتها جدّة العمّة تشاتي. هي فقط تحيّةٌ ربّما كتبتها بالفعل لو فكّرت في ذلك.

من بين قراراتي في هذا العام الجديد أن أكتب رسائل حبٍّ فيها الكثير من التّعقّل والرّصانة. هل تظنّ أنّ مثل هذا القرار صائبٌ وممكنٌ؟

لقد غادرتُ غرين غايبلز العزيزة، ولكنّني عدتُ إلى عزبة الصّفصاف القريبة إلى قلبي أيضًا. أشعلت ريبيكا ديو نارًا في غرفة البرج من أجلي، ووضعت قارورةً من الماء السّاخن في الفراش.

أنا سعيدةٌ جدًّا لأنّني مولعةٌ بعزبة الصّفصاف. سيكون الأمر مريعًا لو عشتُ في مكانٍ لا أطيقه... ولا يشعرني بالحميميّة... ولا يقول لي «أنا سعيدٌ لعودتك». عزبة الصّفصاف تفعل معي كلّ

ذلك. صحيحٌ أنّ المكان تفوح منه رائحة القِدم والتّزمّت، ولكنّه يحبّني.

وسعدتُ أيضًا لرؤية العمّة كايت والعمّة تشاتي وريبيكا ديو مجدّدًا. لا يمكنني التّغافل عن طباعهنّ الغريبة من حين إلى آخر، ولكنّني أحبّهنّ رغم كلّ شيءٍ.

قالت لي ريبيكا ديو بالأمس كلامًا لطيفًا وناعمًا.

«لقد أصبح درب الأشباح مكانًا مختلفًا منذ حللتِ هنا يا آنسة شيرلي».

لقد سعدتُ كثيرًا لأنّكَ أعجبتَ بكاثرين يا جيلبرت. لقد كانت لطيفةً معك على نحوٍ مذهلٍ. من المدهش أن تكتشف كم هي عذبةٌ كاثرين حين تحاول أن تكون كذلك. وأظنّ أنّها على القدر نفسه من الدّهشة كما الجميع. لم تكن تظنّ الأمر بذلك اليُسر.

الآن وقد أصبحت لي نائبةٌ ناظرةٌ يمكنني العمل معها بكلّ تعاون، فإنّني سأغيّر الكثير في المدرسة. سوف تبدّل كاثرين اللّوكاندة الّتي تقيم فيها، وكنتُ قد أقنعتها بارتداء تلك القبّعة المخمليّة، ولم أفقد الأمل في إقناعها بالانضمام إلى جوقة الغناء.

جاء بالأمس كلب السّيّد هاملتون وطارد القطّ داستي ميلر. قالت ريبيكا ديو كالعادة «لقد طفح الكيل». سرى الدّم إلى وجنتيها وازداد احمرار وجهها أكثر ممّا هو عليه، وارتجف ظهرها الغليظ من شدّة الغضب، ووضعت وهي في عجلةٍ من أمرها مؤخّرة قبّعتها إلى الأمام دون أن تنتبه إلى ذلك، وصعدت الطّريق المؤدّية إلى منزل

السّيّد هاملتون الّذي أتحفته بها أملاه عليها عقلها. وبقيتُ أنا في المنزل أتخيّل سحنة الوجه الظّريف والمرتبك للسّيّد هاملتون وهو يصغي لما تقول.

قالت لي ريبيكا ديو عندما عادت: «أنا لا أحبّ ذلك القطّ، ولكنّه فردٌ من أفراد العائلة، ولا يمكن بأيّة حالٍ من الأحوال أن يأتي كلب هاملتون إلى هنا ويلقي عليه بصفاقته وقلّة حيائه في عقر دارنا. قال لي جاباز هاملتون «لقد طارد الكلب قطّك فقط ليلاعبه ويمرح معه». فقلتُ له «مفهوم المرح عند عائلة هاملتون مختلفٌ تمامًا عن ذلك الّذي تعرفه عائلة ماك كومر أو عائلة ماك لين، أو حتّى عائلة ديو». فقال لي «صه، صه، لا شكّ أنّك قد تناولت الكثير من الكرنب على العشاء ليلة البارحة يا آنسة ديو». فقلتُ له «كلّا، ولكن كنت قادرةً على ذلك. لأنّ السّيّدة ماك كومر لم تبع كلّ محصولها من الكرنب في الخريف الماضي، ولم تترك شيئًا لعائلتها كما فعل البعض، فقط لأنّ الثّمن كان مناسبًا جدًّا. هناك بعض النّاس الّذين لا يمكنهم أن يسمعوا شيئًا بسبب جلجلة النّقود في جيوبهم». وانصرفتُ تاركةً إيّاه غاضبًا. ولكن ما الّذي يمكن أن تنتظريه من فردٍ من عائلة هاملتون؟ تلك الحثالة من الأوباش!».

بزغت نجمةٌ تلوّنت بالقرمزيّ، وتدلّت على نحوٍ خفيضٍ فوق تلّتي البيضاء الّتي أسميتها ملكة العواصف. أتمنّى لو كنتَ معي الآن لنشاهدها معًا. أعتقد أنّك لو كنتَ فعلًا هنا لقضّينا وقتًا لن نكتفي فيه بالصّداقة والتّبجيل».

12 يناير

جاءتني الصّغيرة إليزابيث منذ ليلتين لتسألني عمّا إذا كانت المراسيم البابويّة رسومًا ملوّنةً، ولتخبرني وهي تبكي أنّ معلّمتها قد طلبت منها الإنشاد في حفلٍ موسيقيٍّ ستنظّمه المدرسة العموميّة، ولكنّ السّيّدة كامبل ضربت بساقها على الأرض ورفضت ذلك دون جدالٍ. حين أرادت إليزابيث أن تستجديها قالت لها السّيّدة كامبل: «رجاءً، تعلّمي ألّا تجيبيني في المرّة القادمة».

في تلك اللّيلة ذرفت الصّغيرة إليزابيث بمرارةٍ بعض الدّموع في غرفة البرج، وقالت إنّها تشعر بأنّها ستبقى «ليزي» أبد الدّهر، ولن تكون أبدًا اسمًا من أسمائها الأخرى مرّةً ثانيةً.

قالت إليزابيث في نبرة تحدٍّ: «أحببتُ السّماء في الأسبوع الفارط، ولم أعد أحبّها هذا الأسبوع».

سيشارك في هذا الحفل كلّ أصدقائها في الصّفّ، أمّا هي فقد شعرت وكأنّها «منبوزة». أعتقد أنّ هذه الصّغيرة المسكينة أرادت أن تقول «منبوذة»، وذلك في حدّ ذاته أمرٌ مروّعٌ. فعزيزتي إليزابيث لا ينبغي أن يراودها هذا الإحساس أبدًا.

لذلك افتعلتُ جولةً قادتني إلى المنزل «الدّائم الخضرة». بدت لي «المرأة» من العصور القديمة جدًّا، وكأنّها عاشت في حقبة ما قبل الطّوفان. حملقَت إلى وجهي في برودٍ بعينيها الرّماديّتين والجامدتين، وأوصلتني بتجهّمٍ إلى غرفة المعيشة، ثمّ ذهبت لإخبار السّيّدة كامبل أنّني طلبت رؤيتها.

لا أظنّ أنّ غرفة المعيشة قد نفذ إليها أيّ ضوءٍ منذ اليوم الّذي شُيّدت فيه. كان هناك في ركنٍ منها بيانو لم يبد أنّه قد عزف عليه أيّ كائنٍ من قبل. وكانت بعض المقاعد المتيبّسة والمكسوّة بقماش القطيفة تقف قبالة الحائط... كلّ الأثاث كان يلتصق بالحائط ما عدا الطّاولة المغطّاة بالمرمر والّتي توسّطت الغرفة، ولا قطعة من هذا الأثاث تبدو في تناغمٍ مع البقيّة.

دخلت السّيّدة كامبل، وكنتُ لم أرها قبل تلك اللّحظة. كان لها وجهٌ رقيقٌ وطاعنٌ في السّنّ ومنحوتٌ على نحوٍ كان ربّما يكون ذكوريًّا، وعينان سوداوان وحاجبان كثيفان وداكنان من تحت شعر اشتعل شيبًا. لم تكن قد أعرضت تمامًا عن كلّ زينة الحياة الزّائلة، فقد كانت تضع في أذنيها قرطين أسودين من العقيق اليمانيّ تدلّيا حتّى بلغا كتفيها. كانت تكابد في إظهار التّأدّب والدّماثة، وكنتُ مهذّبةً معها دون تكلّفٍ. جلسنا وتبادلنا لبعض الوقت بعض العبارات اللّطيفة عن الطّقس... و«سحنتا وجهينا»، كما قال تاسيتوس[1] منذ آلاف السّنين، «قد تكيّفت كلتاهما مع المناسبة». قلتُ لها بصدقٍ إنّني جئتها لأطلب منها أن تقرضني لبعض الوقت السّيرة الذّاتيّة للقسّيس جايمس ولّاس كامبل، لأنّني قد علمتُ أنّها تزخر بقدرٍ كبيرٍ من التّاريخ القديم الّذي يهمّ «مقاطعة الأمير»، والّذي أنوي استعماله في المدرسة.

(1) مؤرّخ وقاضٍ رومانيّ.

انفرجت أسارير السّيّدة كامبل بوضوحٍ ونادت إليزابيث، وأمرتها بالصّعود إلى غرفتها وإحضار المجلّد. كان وجه إليزابيث يشي ببكاءٍ لم يمض عليه زمنٌ طويلٌ، وتكرّمت السّيّدة كامبل بأن تشرح لي أنّ معلّمة الصّغيرة إليزابيث بعثت برسالةٍ ثانيةٍ تترجّى فيها أن يُسمح لها بالغناء في الحفل، وأنّها هي، أي السّيّدة كامبل، كتبت إليها ردًّا لاذعًا كانت ستحمله إليزابيث إلى معلّمتها في الصّباح الموالي.

قالت السّيّدة كامبل: «لا يمكن أن أوافق على غناء أطفالٍ في سنّ إليزابيث أمام الملإ. إنّه يجعلهم أكثر وقاحةً وتطاولًا».

وكأنّ في هذا العالم ما يمكنه أن يجعل الصّغيرة إليزابيث وقحةً ومتطاولةً!

قلتُ لها بنبرةٍ مؤيّدةٍ: «أعتقد أنّك على قدرٍ كبيرٍ من الحكمة، أيّتها السّيّدة كامبل. وفي كلّ الأحوال فإنّ مابل فيليبس ستغنّي في ذلك الحفل، وسمعتُ أنّ صوتها في غاية العذوبة وسيبدو كلّ الآخرين إلى جانبها بلا موهبةٍ تمامًا. لا شكّ في أنّ من الأفضل ألّا تكون إليزابيث في منافسةٍ معها.

كان وجه السّيّدة كامبل حينها جديرًا بالدّراسة والتّحليل. ربّما كانت تبدو من عائلة كامبل في الظّاهر، ولكنّ دم برينغل كان يجري في عروقها. لم تقل شيئًا رغم ذلك، وكنت أعي جيّدًا ذلك الوقت النّفسيّ المناسب الّذي عليّ أن أتوقّف فيه عن الكلام وأغادر. شكرتها على الكتاب وعدت إلى المنزل.

عندما قدمت الصّغيرة إليزابيث في المساء الموالي إلى البوّابة لتشرب حليبها، كان وجهها الشّاحب الّذي يشبه الوردة قد أشرق مثل النّجوم. أخبرتني أنّ السّيّدة كامبل قد سمحت لها بالغناء في نهاية الأمر، إذا وعدتها بأنّها لن تعاند وتُصاب بالغرور بعد ذلك.

لقد أخبرتني ريبيكا ديو قبل ذلك اللّقاء أنّه لطالما كان هناك تنافسٌ شرسٌ بين عشيرتيْ فيليبس وكامبل في مجال الأصوات الجميلة في الغناء!

أهديتُ إليزابيث لوحةً صغيرةً بمناسبة عيد الميلاد المجيد لتعلّقها على الحائط فوق سريرها... كانت صورةً لمسلك داخل الغابة مزيّنٍ بألوانٍ مختلفةٍ، ويؤدّي إلى هضبةٍ ومنها إلى منزلٍ صغيرٍ وجذّابٍ بين الأشجار. قالت الصّغيرة إليزابيث إنّها لم تعد تخشى شيئًا الآن حين تخلد للنّوم في العتمة، لأنّه حالما تأوي إلى فراشها ستتظاهر بأنّها تسير على طول ذلك المسلك في اتّجاه المنزل، وأنّه حين تدخله سيُضاء بالأنوار وستجد أباها هناك في انتظارها.

يا لها من مسكينةٍ تلك الصّغيرة! كم أمقتُ أباها!

19 يناير

أقيم حفلٌ راقصٌ البارحة في منزل كاري برينغل. وكانت كاثرين هناك في فستانٍ أحمر داكنٍ من الحرير وكشكشاتٍ جانبيّةٍ جديدةٍ، وشعرٍ سرّحته لها ماشطةٌ. لن تصدّق يا جيلبرت أنّ النّاس الّذين عرفوا كاثرين مدرّسةً منذ قدومها إلى سامرسايد بدؤوا

يتساءلون عمّن تكون هذه الفتاة الّتي دخلت لتوّها إلى الغرفة. ولكنّني أظنّ أنّ الّذي أحدث هذا التّغيير الغامض والسّريع في كاثرين لم يكن الفستان أو تسريحة الشّعر، بقدر ما كان شيئًا في داخلها هي.

كانت تتصرّف في الماضي حين تلتقي بالنّاس على نحو تشعر فيه أنّ «النّاس يصيبونها بالضّجر، وأنّها تتوقّع أن تكون مصدر قلق لهم أيضا، بل وتأمل ذلك». ولكنّها البارحة كانت كمن وضعت شموعا مضيئة على جميع النّوافذ في منزل حياتها.

لقد كابدتُ في السّابق للفوز بودّ كاثرين وصداقتها. ولكن لا شيء جديرٌ بالمحبّة إذا توفّر بسهولةٍ ودون عناءٍ، ولطالما شعرتُ أنّ كاثرين جديرةٌ بالمحبّة.

لزمت العمّة تشاتي الفراش يومين بعد أن أصيبت بنزلة بردٍ رافقتها الحمّى، وهي تفكّر في استدعاء الطّبيب غدًا إذا أصابها التهابٌ في الرّئة. لذلك لم تكفّ ريبيكا ديو، وقد عصبت رأسها بمنشفةٍ، عن تنظيف المنزل بجنونٍ كامل اليوم ليبدو على أفضل ما يرام قبل الزّيارة المفترضة للطّبيب. وهي الآن في المطبخ تكوي رداء النّوم الأبيض القطنيّ للعمّة تشاتي، والّذي كان أعلاه من نسيج الكروشيه، حتّى يكون جاهزًا لتضعه فوق الرّداء الآخر من قماش الفانلّة. لقد كان قبل ذلك نظيفًا ودون أدنى بقعةٍ فيه، ولكنّ ريبيكا ديو رأت أنّ لونه قد تغيّر من كثرة بقائه في درج المنضدة.

28 يناير

كان يناير إلى حدّ الآن شهرًا توالت فيه الأيّام الباردة والمكفهرّة، وعصفت فيه الرّياح من حين إلى آخر على المرفإ، وملأت دربَ الأشباح بمجاري المياه. ولكنّ ليلة الأمس شهدت مسحةً زجاجيّةً من الجليد على الأشجار، وأشرقت الشّمس اليوم. بدت أجمة أشجار القيقب مكانًا على قدرٍ لا يمكن تخيّله من العظمة والرّونق. حتّى الأماكن المألوفة والعاديّة اكتست مسحةً أنيقةً من الجمال. وأصبح كلّ سلكٍ من أسلاك السّياج الحديديّ وكأنّه شريطٌ بلّوريٌّ عجيبٌ.

كانت ريبيكا ديو هذا المساء تتأمّل إحدى مجلّاتي الّتي تضمّنت مقالًا مرفقًا بالصّور عن «أصناف النّساء الجميلات».

قالت بنبرةٍ فيها الكثير من الحزن: «أليس من الرّائع يا آنسة شيرلي أن يلوّح أحدهم بعصاه السّحريّة، ويبثّ الجمال والوسامة في كلّ النّاس؟ فقط تخيّلي ما سأشعر به يا آنسة شيرلي، حين أجد نفسي من الحسناوات الفاتنات!» ثمّ أردفت قائلةً وهي تتنهّد: «ولكن إذا أصبحنا جميعنا من الحسناوات، فمن سيقوم بشتّى الأعمال الأخرى؟».

(8)

تنهّدت الآنسة إرنستين باغل، وهي تخرّ فوق كرسيّها على طاولة العشاء في عزبة الصّفصاف، وقالت: «إنّني منهكة القوى. في بعض الأحيان أخشى الجلوس خشيةَ ألّا أقدر على النّهوض مرّةً أخرى».

إرنستين هي ابنة عمٍّ من الدّرجة الثّالثة للقبطان الرّاحل ماك كومر، ومع ذلك فهي مقرّبةٌ كثيرًا من العائلة كما تصرّ على ذلك العمّة كايت، وكانت قد جاءت ذلك المساء مشيًا على الأقدام من لوفيل لزيارة عزبة الصّفصاف. لا يمكن الجزم بأنّ أيًّا من العمّتين قد رحّبتا بها ترحابًا حارًّا، بالرّغم من الأواصر العائليّة المقدّسة الّتي تربطهنّ. لم تكن الآنسة إرنستين امرأة طروبًا ومُبهجةً، وكانت من أولئك اللّاتي طحنتهنّ الحياة، فصار القلق يساورها باستمرارٍ، ليس فقط على نفسها وشؤونها، بل تجزع أيضًا ودون هوادةٍ على حياة الآخرين وشؤونهم. يجعلك مجرّد النّظر إليها، كما صرّحت ريبيكا ديو، تشعر بأنّ الحياة نهرٌ من الدّموع والأشجان.

الحقيقة أنّ إرنستين لم تكن جميلة بالمرّة في هذه السّنّ، وأغلب الظّنّ أنّها لم تكن كذلك أيضًا في شبابها. كان وجهها الصّغير جافًّا

ومنقبضًا، وعيناها الزّرقاوان ذابلتين وشاحبتين، وصوتها الأجشّ متحبًا، وغطّت بشرتها رؤوسٌ سوداء عديدةٌ في مواضع لا تُحسد عليها. كانت تلبس فستانًا أسود وعتيقَ الطّراز، وشالًا رثًّا في عنقها من فرو الفقمات الّتي تعيش في خليج هدسون، لم تنزعه حتّى وهي على طاولة الطّعام لأنّها كانت تخشى من مجاري الهواء الّتي يمكن أن تعكّر صحّتها.

كان من الممكن لريبيكا ديو أن تجلس على الطّاولة هي أيضًا إذا ما أرادت ذلك، لأنّ الأرملتين لا تعتبران إرنستين من خاصّة الضّيوف. ولكنّ ريبيكا ديو أسرّت لآن أنّها لن «تتلذّذ طعامها» في حضرة تلك الزّمرة من العجائز المُذهِبات للبهجة. فهي تفضّل أن «تأكل لقمتها» في المطبخ، ولكنّ ذلك لم يمنعها من قول ما يجول في رأسها حين كانت تتعهّد بطاولة الأكل.

قالت بنبرةٍ غير متعاطفةٍ: «إنّه على الأرجح برد الشّتاء يسري في عظامك».

«آه، آمل أن يكون ذلك فقط يا آنسة ديو. ولكنّني أخشى أن يحصل لي ما حصل لزوجة السّيّد أوليفر غايج. لقد تناولتْ بعض الفِطر في الصّيف الماضي، وكان أحدها سامًّا على ما يبدو. لم تتحسّن حالتها منذ ذلك الحين».

قالت العمّة تشاتي: «ولكن لا يمكن أن تكوني قد أكلتِ فطرًا في هذا الوقت من السّنة».

«كلّا، ولكن أخشى أنّني قد أكلتُ شيئًا آخر. لا تحاولي مواساتي

يا شارلوت. أعلم أنّ نيّتك طيّبةٌ، ولكن لا جدوى من ذلك. لقد عانيتُ الكثير. هل أنت متأكّدةٌ من عدم وجود عنكبوتٍ في ذلك الإبريق من اللّبن الدّسم؟ أخشى أنّني رأيته وأنت تملئين كأسي».

أجابتها ريبيكا ديو بتشاؤمٍ: «لا عناكب *عندنا* في أباريق اللّبن». ثمّ صفقت باب المطبخ من ورائها بعنفٍ.

قالت الآنسة إرنستين بوداعةٍ: «ربّما كان ذلك ظلًّا فقط. لم تعد عيناي تبصران كما في السّابق. أخشى أن يصيبني العمى في القريب العاجل. هذا يذكّرني... لقد عرّجتُ لرؤية مارثا ماكاي بعد الزّوال لأنّها كانت تشعر بالحمّى ولها بعض الحكّة في الجلد. قلتُ لها «يبدو لي أنّك قد أصبتِ بالحصبة. وعلى الأرجح أنّها ستذهب ببصركِ تقريبًا. فعائلتك كلّهم لديهم ضعفٌ في النّظر». لقد فكّرتُ في أنّ عليها التأهّب لذلك. وأمّها ليست في حالةٍ جيّدةٍ أيضًا. قال الطّبيب إنّ لديها عسرًا في الهضم، ولكنّني أخشى أن يكون ورمًا خبيثًا. قلتُ لها «إذا كان عليكِ أن تجري العمليّة ويقع تخديرك بالكلوروفورم، فإنّني أخشى ألّا تفيقي من البنج ثانيةً. تذكّري أنّكِ من عائلة هيليس، وكلّ أفراد عائلة هيليس يعانون من ضعفٍ في القلب. تعلمين أنّ أباك قد مات من قصورٍ في القلب».

قالت ريبيكا ديو وهي تنقل أحد الأطباق بحركةٍ خاطفةٍ: «في السّابعة والثّمانين!».

ثمّ قالت العمّة تشاتي بمرحٍ: «وتعلمين أنّ الحدّ الّذي وضعه الكتاب المقدّس هو عمر السّتّين وعشرة أعوامٍ».

وضعت إرنستين لنفسها ملعقةً ثالثةً من السّكر وحرّكت الشّاي بكثيرٍ من الحزن.

«هكذا قال النّبيّ داود يا شارلوت، ولكنّني أخشى أنّه لم يكن شخصًا لطيفًا جدًّا في بعض النّواحي».

اعترضت آن نظرةٌ من العمّة تشاتي، وكادت تنفجر ضاحكةً قبل أن تتمالك نفسها.

رمقتها إرنستين بنظرةٍ مستنكرةٍ، وقالت: «سمعتُ أنّك فتاةٌ ضحوكٌ. حسنًا، آمل أن يدوم ضحكك، ولكنّي لا أظنّ ذلك. أخشى أن أقول لكِ إنّك ستكتشفين قريبًا أنّ الحياة مليئةٌ بالشّجن والكآبة. آه، لقد كنتُ مثلك في ريعان شبابي».

سألتها ريبيكا ديو بنبرةٍ ساخرةٍ وقد أحضرت كعك المافن: «هل كنتِ فعلًا كذلك؟ لأنّه يبدو لي أنّك كنتِ دائمًا تخشين من أن تكوني شابّةً يافعةً. والأمر يتطلّب منك بعض الجرأة للاعتراف بذلك يا آنسة باغل».

قالت إرنستين متأفّفةً: «لريبيكا ديو طريقةٌ غريبةٌ نسبيًّا في رؤية الأشياء. هذا لا يعني بالطّبع أنّني أمانع في ما تقول. ومن الجيّد أن نضحك حين يكون بوسعنا ذلك يا آنسة شيرلي، ولكنّني أخشى أنّك تستفزّين العناية الإلهيّة عندما تفرطين في الشّعور بالبهجة. أنتِ تشبهين تمامًا عمّة زوجة آخر قسٍّ لنا في الكنيسة... كانت لا تتوقّف عن الضّحك، وماتت إثر إصابتها بشللٍ نصفيٍّ. ستقتلك النّوبة الثّالثة. أخشى ألّا يكون القسّ الجديد في لوفيل طائشًا

ومتهوّرا قليلًا. التفتُّ إلى لويزي منذ الوهلة الأولى الّتي رأيته فيها، وقلتُ لها «أخشى أن يكون لرجلٍ بمثل هاتين السّاقين هوسٌ بالرّقص». أعتقد أنّه تخلّى عن ذلك منذ أصبح قسّيسًا، ولكنّني أخشى أن يسري ذلك الهوس في عائلته. فلديه زوجةٌ في ريعان الشّباب، وسمعتُ أنّها تحبّه على نحوٍ فاضحٍ. لا يمكن أن تدخل رأسي فكرة زواج امرأةٍ من قسّيسٍ لأنّها تحبّه. هذا ينمّ عن كثير من عدمِ الاحترام. إنّه يقدّم خُطبًا ومواعظ جيّدةً في الكنيسة، ولكنّني أخشى أنّه متحرّرٌ أكثر من اللّازم في أفكاره حول الكتاب المقدّس، ولاسيّما حين تحدّث عن النّبيّ إيليا التشبيّ يوم الأحد الفارط».

قالت لها العمّة تشاتي: «لقد رأيتُ في صحف الأسبوع الماضي أنّ بيتر إيليس قد تزوّج من فاني باغل».

«آه، نعم. أخشى أن تكون حالةً أخرى من زواجٍ متعجّلٍ سيؤدّي حتمًا إلى النّدم والتّعاسة. لقد تعارفا منذ ثلاث سنوات فقط. أخشى أن يدرك بيتر بعد فوات الأوان أنّ الرّيش النّاعم لا يغطّي دائمًا أفضل الطّيور. أخشى أن تكون فاني خاملةً جدًّا. إنّها تكوي مناديل الطّاولة من الجهة اليمنى فقط. إنّها لا تُشبه كثيرًا أمّها الورِعة. آه، لقد كانت أمّها مُجدّةً ومتمكّنةً من بين النّساء كلّهنّ. كانت تلبس دائمًا أقمصة نومٍ سوداء في أوقات الحداد. قالت لأنّها تشعر بالحزن في اللّيل كما في النّهار. كنتُ في منزل السّيّد آندي باغل أساعدهم في الطّبيخ، وعندما نزلت السّلالم في صباح يوم الزّفاف لم أصدّق عينيّ عندما لمحتُ فاني تأكل بيضةً في فطور الصّباح...

يومَ تُزفّ إلى زوجها. لا أظنّكم تصدّقون ذلك... ولكنّني رأيتُها بأمّ عينيّ. لم تأكل الرّاحلة والمسكينة أختي شيئًا لمدّة ثلاث أيّامٍ قبل زواجها. وبعد أن مات زوجها كنّا نخشى عليها من ألّا تأكل مرّةً ثانيةً. هناك أوقاتٌ لم أعد أدرك فيها ما تريده عائلة باغل. ولّت تلك الأيّام الّتي أتفاهم فيها مع الأقرباء، لقد تغيّرت الكثير من الأمور الآن».

سألتها العمّة كايت، «هل صحيحٌ أنّ جين يانغ ستتزوّج مرّةً أخرى؟».

«أخشى أن يكون الأمر صحيحًا. من المفترض طبعًا أنّ زوجها فريد يانغ قد لقي حتفَه، ولكنّني أخشى أن يُبعث من جديدٍ. لا يمكن الوثوق بذلك الرّجل. ستتزوّج جين من آيرا روبرتس، وأخشى أنّه يريد الزّواج منها فقط ليخفّف عنها بلواها. كان عمّه فيليب يريد الزّواج منّي، ولكنّني قلتُ له «لقد ولدتُ باغل وسأموت وأنا أحمل اسم هذه العائلة». قلتُ له أيضًا إنّ «الزّواج مجازفةٌ كبرى لا يمكن تقدير عواقبها، ولن أسمح لنفسي بالخوض فيها». لقد كان هذا الشّتاء زاخرًا بحفلات زفافٍ كثيرةٍ في لوفيل. أخشى أن يكون هناك الكثير من المآتم هذا الصّيف لتعديل الكفّة. فقد تزوّجت آني إدواردز من كريس هانتر خلال الشّهر المنقضي، وأخشى ألّا يتحابّا في غضون سنواتٍ كما يتحبّان الآن. أخشى أنّه أغواها بكلامه وتصرّفاته اللّبقة. لقد فقد عمّه هيرام صوابه... كان يعتقد أنّه مُسخ كلبًا لعدّة سنواتٍ».

قالت ريبيكا ديو وهي تضع مربّى الإجّاص والكعكة المطبّقة: «لو كان نبح مثل الكلب فلا حرج عليه، ولا يحقّ لأحدٍ عندئذٍ أن يحرمه هذه المتعة».

قالت الآنسة إرنستين: «لم أسمع أنّه نبَح، ولكنّ زوجته لمحته وهو يقضم العظام ويواريها تحت التّراب، محاذرًا ألّا يراه أحدٌ».

سألتها العمّة تشاتي: «أين ذهبت السّيّدة ليلي في هذا الشّتاء؟».

«إنّها تقضّيه مع ابنها في سان فرانسيسكو، وأخشى كثيرًا أن تحصل رجّةٌ أرضيّةٌ أخرى قبل أن تغادرها. وحتّى وإن تمكّنت من ذلك، فإنّها على الأرجح ستحاول تهريب شيءٍ مّا خلسةً، وستواجه المشاكل على الحدود. إذا لم تأتِ المشاكل من جهةٍ عند السّفر، فإنّها حتمًا ستأتيك من الجهة الأخرى. ولكن يبدو أنّ التّرحال أفقد النّاس عقولها، فقد قضّى ابن عمّي جيم باغل الشّتاء في فلوريدا. أخشى أنّ المال قد بدأ يتراكم لديه فصار لا يهتمّ إلّا بأمور الدّنيا. قلتُ له قبل أن يسافر... وأتذكّر أنّ ذلك حدث في اللّيلة الّتي سبقت موت كلب عائلة كولمان... لست متأكّدةً من الأمر... بلى حدث ذلك في تلك اللّيلة... قلتُ له «قبْل الكسر الكبرياءُ، وقبل السّقوطِ تشامخُ الرّوح»[1]. ابنته معلّمةٌ في مدرسة شارع باغل، ولم يستقرّ رأيها إلى حدّ الآن على مَن ستختار مِن بين عشّاقها. قلتُ لها «هناك شيءٌ واحدٌ يمكنني أن أؤكّده لك يا ماري آنيتا، وهو أنّك لن تحظي بالرّجل الّذي ستحبّينه أكثر من غيره. لذلك عليك

(1) سفر الأمثال في العهد القديم من الكتاب المقدّس.

أن تختاري الرّجل الّذي يحبّك أكثر من غيره... إذا كنتِ متأكّدة من ذلك طبعًا». آمل أنّها ستجيد الاختيار، خلافًا لما فعلته جيسي تشيبمان. أخشى أنّها تزوّجت من أوسكار غرين فقط لأنّه كان دائمًا في الجوار. قلتُ لها «هل *هذا* هو الزّوج الّذي استقرّ عليه رأيكِ؟» لقد مات أخوه بما يسمّى «السّلّ الذّريع». قلتُ لها أيضًا «لا تتزوّجي في شهر مايو، لأنّ هذا الشّهر مشؤومٌ على حفلات الزّفاف».

قالت لها ريبيكا ديو وهي تضع على الطّاولة طبقًا من حلوى الماكارون. «كم كنتِ دائمًا تبشّرين النّاس بالخير يا آنسة إرنستين!».

قالت إرنستين متجاهلةً ريبيكا ديو، بعد أن أخذت قسطًا آخر من مربّى الإجّاص: «هلّا قالت لي إحداكنّ ما إذا كانت المرموزة زهرةً أم مرَضًا؟».

أجابتها العمّة تشاتي: «إنّها نوعٌ من الزّهور».

بدت الآنسة إرنستين وكأنّها قد أصيبت بخيبة أملٍ.

«حسنا، مهما يكن من أمرٍ، فقد تحصّلت عليها أرملة ساندي باغل. لقد سمعتها تهمس لأختها في الكنيسة أنّها جاءتها المرموزة أخيرًا. نبات إبرة الرّاعي[1] عندكم ضامرٌ ومهزولٌ يا شارلوت. أخشى أنّكنّ لا تضعن له ما يلزمه من السّماد. لقد أنهت السّيّدة ساندي حدادها ولم يمرّ على موت زوجها المسكين سوى أربعة أعوامٍ. آه، سرعان ما يصبح الأموات في طيّ النّسيان هذه الأيّام.

(1) عشبة حوليّة تثمر كل عامين، وتمتاز برائحة قويّة.

لقد لبست أختي قماش الكريب[1] إثر موت زوجها لمدّة خمسٍ وعشرين سنةً».

قالت ريبيكا ديو وهي تضع كعكة جوز الهند أمام العمّة كايت: «أتدرين أنّ شقّ تنورتك مفتوحٌ وظاهرٌ للعيان؟».

قالت الآنسة إرنستين بنبرةٍ لاذعةٍ: «ليس لديّ الوقتُ للتّحديق طويلًا في وجهي أمام المرآة. وماذا لو كانت التّنورة الّتي ألبسها مفتوحةً؟ لديّ ثلاث تنانير داخليّةٍ تحتها، أليس كذلك؟ سمعتُ أنّ الفتيات اليوم يلبسن واحدةً فقط. أخشى أنّ العالم قد أصبح أرعن وطائشًا على نحوٍ مخيفٍ. أتساءل دومًا عمّا إذا كنّ يفكّرن في يوم الحساب».

سألتها ريبيكا ديو: «هل تظنّين أنّ السّماء ستسألنا يومَ الحساب عن عدد التّنانير الدّاخليّة الّتي كنّا نلبسها؟» وأسرعت هاربةً نحو المطبخ قبل أن ترى السّخط والاستهجان في وجوه الجميع. حتّى العمّة تشاتي شعرت بأنّ ريبيكا ديو قد تجاوزت كلّ الحدود هذه المرّة.

تنهّدت الآنسة إرنستين وقالت. «أفترض أنّكنّ علمتنّ من الصّحف في الأسبوع الماضي بموت أليك كراودي. كانت زوجته قد ماتت هي أيضًا منذ عامين، وكأنّها هربت حرفيًّا نحو مثواها الأخير، يا لها من مخلوقةٍ مسكينةٍ! يقولون إنّه شعر بوحدةٍ رهيبةٍ منذ اللّحظة الّتي فارقته فيها، ولكن أخشى أن يكون الأمر أروع

---

(1) قماش من الحرير الأسود كان يُلبس سابقا عند الحداد.

من أن يُصدّق. وأخشى أيضًا أنّهم لم يرتاحوا من مشاكله حتّى بعد مواراته التّراب. سمعتُ أنّه لم يُرِد تركَ وصيّة، وأخشى أن تحصل ردود فعلٍ لا يحمد عقباها بشأن أملاكه. يقولون إنّ أنابيل كراودي ستتزوّج من رجلٍ «صاحب سبع صنائع وبخت ضائع». كان زوج أمّها الأوّل مثله، فالأمر قد يكون حينئذٍ متوارثًا في العائلة. لقد عاشت أنابيل حياة صعبةً، ولكنّي أخشى أنّها هربت من عزرائيل فلقيها قبّاض الأرواح. هذا إذا لم يتبيّن أنّ لديه قبلها زوجةٌ أخرى».

سألتها العمّة كايت: «كيف حال جاين غولدوين في هذا الشّتاء؟ إنّها لم تأتِ إلى المدينة منذ زمنٍ طويلٍ».

«آه، تلك المسكينة جاين! لقد نحُلت على نحوٍ غامضٍ، ولا يدري أحدٌ ما الّذي ألمّ بها، ولكنّني أخشى أن يكون الأمر كلّه غطاءً على شيء مّا. ما الّذي يضحك ريبيكا ديو في المطبخ مثل الضّبعة؟ أخشى أنّ عليكما معاملتها بجدّيّةٍ. هناك الكثير من فارغي العقل في عائلة ديو».

قالت لها العمّة تشاتي. «علمتُ أنّ ثايرا كوبر رزقت بمولودٍ جديدٍ».

«آه، نعم، تلك المسكينة. واحد فقط، حمدًا لله. كنت أخشى أن يكون توأمًا، لأنّ إنجاب التّوائم رائجٌ في عائلة كوبر».

قالت العمّة كايت، وكأنّها عقدت العزم على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حطام هذا العالم: «ثايرا وناد يشكّلان زوجين لطيفين جدًّا».

ولكنّ الآنسة إرنستين لم تكن لتعترف بوجود بلسمٍ ينقذ أرض جلعاد[1]، ناهيك عن مدينة لوفيل الّتي قدِمت منها.

«آه، لقد كانت محظوظةً بالزّواج منه أخيرًا. لقد ظنّت وهلةً أنّه لن يرجع أبدًا من «الغرب». وكنتُ قد حذّرتها. قلتُ لها «كوني متأكّدةً أنّه سيخذلك. لطالما خذل الكثير من النّاس. لقد توقّع الجميع حين وُلد زوجك أنّه سيموت قبل أن يبلغ العام، ولكنّه كما ترين مازال حيًّا». حين اشترى تلك الأرض من عائلة «هولي» حذّرتُها مرّةً أخرى. قلتُ لها «أخشى أن تكون تلك البئر مصدرًا لحمّى التّيفوئيد. لقد استأجرت عائلة هولي رجلًا مات منذ خمس سنواتٍ بحمّى التّيفوئيد». فلا يلومنّني أحدٌ بعد ذلك إن حصلت لهما أيّ مصيبةٍ. جوزيف هولي يعاني من آلام رهيبةٍ في ظهره. يسمّيها اللّامباجو. ولكنّني أخشى أن يكون التهابًا في السّحايا النّخاعيّة».

قالت ريبيكا ديو وهي تحضر طبق الشّاي بعد أن ملأت الكؤوس من جديدٍ: «العمّ جوزيف هولي من أطيب النّاس في هذا العالم».

قالت الآنسة إرنستين بنبرةٍ جنائزيّةٍ: «آه، هو بالفعل إنسانٌ طيّبٌ. مفرطٌ في الطّيبة! أخشى أن يكون أولاده عكسه تمامًا. يمكن رؤية هذه الحالات تحدث دائمًا. يبدو أنّ على المرء التحلّي بشيءٍ من الاعتدال. لا، شكرًا يا كايت، يكفي من الشّاي... حسنًا، ربّما قطعة أخرى من الماكارون. إنّها لن تثقل معدتي، ولكنّني أخشى

(1) مدينة شرق نهر الأردن يقال إنها كانت مليئة بالباطل وسفك الدّماء وفاعلي السّوء.

أنّني أكلتُ الكثير هذه اللّيلة. عليّ الانصراف الآن دون استئذانٍ، لأنّني أخشى أن يداهمني الظّلام قبل بلوغ المنزل. ولا أريد أن أبلّل قدميّ، لأنّني أخشى من غاز النّشادر. لديّ شيءٌ يسري في الشّتاء من أعلى ذراعي إلى أسفل ضلوعي، ولا يكاد يغمض لي جفنٌ من ليلةٍ إلى أخرى. آه، لا أحد يدرك ما أعانيه، ولكنّني لستُ من النّاس الّذين يتذمّرون من كلّ شيءٍ. لقد عزمتُ على أن آتي هنا لرؤيتكما مرّةً أخرى، ربّما لن أبقى حيّةً حتّى آخر الرّبيع. ولكنكما تبدوان شاحبتين جدًّا، وربّما ستسبقانني إلى هناك. آه حسنًا، من الأفضل دائمًا أن يغادر الإنسان هذه الحياة وله شخصٌ من عائلته ليواريه التّراب. يا إلهي، لقد بدأت الرّياح في الهبوب! أخشى أن تتحوّل إلى ريح هوجاء وممطرةٍ، ستعصف بسقف الإسطبل. لقد هبّت الكثير من الرّياح في هذا الرّبيع وأخشى أنّ المناخ قد تغيّر إلى الأبد». ثمّ قالت والعمّة كايت تساعدها على ارتداء معطفها: «شكرًا لك يا آنسة شيرلي. انتبهي إلى نفسك. تبدين خائرة القوى. وأخشى أنّ النّاس الّذين لهم شعرٌ أحمر يفتقرون إلى بنيةٍ جسديّةٍ قويّةٍ».

ابتسمت آن وهي تناول الآنسة إرنستين قبّعتها الّتي لا يمكن وصفها، والّتي رشقت فيها ريشة نعامةٍ تدلّت من خلفها، ثمّ قالت: «أظنّ أنّ بنيتي الجسديّة على ما يرام. لديّ ألمٌ طفيفٌ في حلقي يا آنسة باغل. وذلك كلّ ما في الأمر».

عاود الآنسةَ إرنستين في تلك اللّحظة هاجسٌ آخر من هواجسها المنحوسة، وقالت: «آه، عليك أن تنتبهي جيّدًا إلى آلام

الحلق. فأعراض مرض الخناق والتهاب اللّوزات هي نفسها حتّى اليوم الثّالث. ولكن يوجد عزاءٌ واحدٌ في كلّ ذلك... ستوفّرين على نفسك الكثير من المتاعب إذا متّ في ريعان شبابك».

(9)

غرفة البرج
عزبة الصّفصاف

20 أبريل

عزيزي المسكين جيلبرت،

يقال إنّ الضّحك ضربٌ من الجنون، وإنّ البهجة ماذا؟ أخشى أن يشيب شعري وأنا مازلتُ يافعةً... وأن ينتهي بي الأمر في ملجإٍ للفقراء... أخشى ألّا ينجح أحدٌ من تلاميذي في الامتحانات النّهائيّة... لقد نبح عليّ كلب السّيّد هاملتون ليلة السّبت، وأخشى أن أصاب بمرض الكلَب... أخشى هذه اللّيلة أن يصبح داخلُ المطريّة خارجَها حين أخرج مع كاثرين في نزهةٍ... أخشى أنّ كاثرين تحبّني جدًّا الآن وأنّها لن تحبّني في المستقبل بهذا الشّكل... أخشى ألّا يكون لون شعري في النّهاية أصحر... وأخشى أن ينبت لي رأسٌ أسود في أرنبة أنفي عندما أبلغ الخمسين من عمري... أخشى أن تكون مدرستي مكانًا معرّضًا للحريق... أخشى أن أجد اللّيلة فأرًا في فراشي... أخشى أنّك خطيبي فقط لأنّني دائمًا موجودةٌ في الجوار... أخشى أن أتذمّر في القريب من كلّ شيءٍ، حتّى غطاء السّرير.

كلّا يا حبيبي، لست معتوهةً لأفعل كلّ هذا... إلى حدّ الآن. فقط مرّرت لي الآنسة إرنستين تلك العدوى البغيضة.

عرفتُ الآن لماذا تسمّيها ريبيكا ديو «الآنسة أخشى كثيرًا». لقد راكمت المسكينة الكثير من الهواجس، ولا شكّ أنّها تدين للقدر، وعلى نحوٍ ميؤوسٍ منه، بالكثير من الأشياء.

هناك الكثير ممّن هم على شاكلة عائلة باغل في هذا العالم... ربّما ليس هناك الكثير ممّن أمعنوا في هذا الفكر «الباغليّ» مثل الآنسة إرنستين، ولكنّ كثيرين منهم مفسدون للبهجة، ويخافون الانتشاء بالحاضر خشيةَ ما يكنّ لهم الغد.

عزيزي جيلبرت، لا تخشَ أيّ شيءٍ في هذا الوجود. إنّه نوع من العبوديّة المقيتة. فلنكن مخاطرين وعاشقين للمغامرة وآملين في الغد. فلنرقص مع الحياة وكلّ ما يمكن أن تهبنا إيّاه، حتّى وإن وهبتنا الكثير من المتاعب والتّيفوئيد والتّوائم!

لقد بدا هذا اليوم وكأنّه اقتُلع من شهر يونيو ووُضع في شهر أبريل. إذ تبدّد الثّلج كلّه وبدأت المروج الرّماديّة المائلة إلى الصّفرة والتّلال الذّهبيّة في الغناء احتفاءً بالرّبيع. لقد سمعتُ الإله بان[1] يعزف على مزماره في ذلك التّجويف الأخضر من أكمة أشجار القيقب، أمّا تلّتي «ملكة العواصف» فقد تغشّت برايات مرحةٍ من الضّباب الأرجوانيّ. لقد هطلت الكثير من الأمطار مؤخّرًا، واستمتعتُ بالجلوس في برجي خلال السّاعات الممطرة من غسق

(1) إله المراعي والأحراش في الميثولوجيا الإغريقيّة.

الرّبيع. ولكنّ الرّياح عصفت بشدّةٍ هذه اللّيلة الّتي كانت في عجلةٍ من أمرها... حتّى السّحب الّتي تتسابق في السّماء كانت في عجلةٍ من أمرها، وضوء القمر الّذي انبجس من بينها كان أيضًا يُسارع ليغمر العالم بنوره.

تخيّل يا جيلبرت أنّنا نمشي وحدَنا هذه اللّيلة وأيدينا متشابكةٌ، على طول أحد الدّروب في آفونلي!

جيلبرت، أخشى أنّني قد وقعتُ في حبّك على نحوٍ فاضحٍ. هل ينمّ هذا عن كثيرٍ من عدم الاحترام؟ ولكنّك في النّهاية لست قسّيسًا يا حبيبي».

(10)

أطلقت هايزل تنهيدةً عميقةً وقالت: «إنّني مختلفةٌ *جدًّا*».

من المخيف أن يكون الإنسان مختلفًا جدًّا عن سائر النّاس... ولكن في مقابل ذلك إنّه لأمرٌ رائع أيضًا أن يكون شخصًا لا يشبه الآخرين، وكأنّه قد أتى من نجمٍ آخر بعيدٍ. لم تكن هايزل تريد الانتماء إلى بقيّة القطيع مطلقًا... مهما كانت المتاعب الّتي سيسبّبها لها اختلافها عنهم.

قالت آن مداعبةً: «كلّ النّاس مختلفون».

«أنت تبتسمين». قالت هايزل ذلك، وشبكت يديها المترعتين والشّديدتي البياض، وحدّقت في آن بكلّ إعجابٍ. ثمّ تكلّمت وقد فخّمت على الأقلّ مقطعًا صوتيًّا من كلّ كلمةٍ نطقت بها: «يا لها من ابتسامةٍ ساحرةٍ... ويا لها من ابتسامةٍ *تسلب* الألباب. لقد عرفتُ منذ اللّحظة الّتي رأيتك فيها أنّك ستفهمين *كلّ شيءٍ*. نحن في مركبٍ *واحدٍ*. أشعر في بعض الأحيان أنّ لي قوّةً خارقةً للطّبيعة، يا آنسة شيرلي، تمكّنني دائمًا من أن أعرف وعلى نحوٍ غريزيٍّ ما إذا كنتُ سأحبّ شخصًا مّا أم لا، منذ الوهلة الأولى الّتي ألتقيه فيها. لقد شعرتُ في الحال أنّك حسّاسةٌ ومتعاطفةٌ... وأنّك ستفهمين.

إحساسٌ رائعٌ جدًّا أن يجد المرء من يفهمه. لا أحد يستطيع فهمي يا آنسة شيرلي... *لا أحد*. ولكن حين رأيتك همس بداخلي صوتٌ قائلًا «سوف تفهم هذه الفتاة... معها ستكونين ذاتَك الحقيقيّة. أوه يا آنسة شيرلي، فلنكن ما نحن عليه... فلنكن *دائمًا* ما نحن عليه. أوه يا آنسة شيرلي، هل تحبّينني على الأقلّ، وإن كان حبّك لي قليلًا جدًّا؟».

قالت آن: «أظنّك عزيزةً على قلبي كثيرًا». ثمّ ضحكت قليلًا وهي تنفش ضفائر هايزل الذّهبيّة بأناملها الرّقيقة. لقد كان من السّهل جدًّا أن يولع أيّ شخصٍ بهايزل.

كانت هايزل في غرفة البرج تفرغ ما في قلبها من مآسٍ لصديقتها آن. ومن شبّاك البرج كانتا تتأمّلان بدرًا لم يكتمل بعدُ وهو يتدلّى من فوق المرفإ، وتستمتعان بغسق أمسيات أواخر شهر مايو وهو يملأ بنوره الكؤوس القرمزيّة للزّنابق من تحت النّوافذ.

قالت هايزل متضرّعةً: «لا تشعلي أيّ نورٍ الآن».

أجابتها آن: «كلّا لن أفعل... الغرفة رائعةٌ حين تكون العتمة صديقتَك الودود، أليس كذلك؟ ولكن عندما تشعلين الضّوء تصبح العتمة عدوّك اللّدود... وستحملق فيك بامتعاضٍ».

تأوّهت هايزل في جذلٍ ممزوجٍ باللّوعة وقالت: «يمكنني أن أفكّر في أشياء مثل الّتي قلتِها، ولكنّني لن أقدر أبدًا على التّعبير عنها بهذا الجمال. أنت تتحدّثين لغة البنفسج يا آنسة شيرلي».

لم يكن بوسع هايزل تفسير ما تعنيه بذلك، ولكنّ هذا لم يكن مهمًّا. فقد بدا كلامها شاعريًّا جدًّا.

كانت غرفة البرج هي الوحيدة الهادئة في المنزل كلّه. قالت ريبيكا ديو ذلك الصّباح وعيناها منهكتان: «علينا أن نهيّئ غرفة الاستقبال وحجرة الضّيوف قبل أن تجتمع هنا عضوات جمعيّة «السّيّدات المعينات»». وعلى هذا الأساس، أخرجت ريبيكا ديو كلَّ الأثاث من كلتا الغرفتين لتفسح المجال للرّجل الّذي سيلصق أوراق الجدران، والّذي رفض بعد ذلك المجيء قبل اليوم الموالي. لقد كانت عزبة الصّفصاف صحراء قاحلةً من الفوضى، وفيها واحةٌ غنّاء فقط هي غرفة البرج.

كان لـ«هايزل مار» افتتانٌ معروفٌ للجميع بصديقتها آن. وعائلة «مار» هم من الوافدين الجدد على سامرسايد، وكانوا قد انتقلوا إليها من مدينة شارلوتاون خلال الشّتاء المنقضي. كانت هايزل، التي يحلو لها أن تسمّي نفسها «شقراء أكتوبر»، ذات شعرٍ ذهبيٍّ ناصعٍ مثل البرونز، وعينين كستنائيّتين، ولم تفعل أيّ خيرٍ في هذه الدّنيا، كما صرّحت بذلك ريبيكا ديو، منذ أن أدركت أنّها على قدرٍ كبيرٍ من الجمال. ولكنّ هايزل كانت تحظى بشعبيّةٍ كبيرةٍ، وبالخصوص لدى الفتيان الّذين وجدوا ذاك المزيج الرّائع بين عينيها وضفائر شعرها أمرًا لا يقاوم.

وكانت آن تحبّها أيضًا. لقد شعرت في أوّل المساء ببعض التّعب والتّشاؤم عقِب الإرهاق الّذي يصيبها دومًا بعد الظهيرة في قاعة المدرسة، ولكنّها أحسّت بعد ذلك بالرّاحة، ولم تكن تعرف أكان ذلك بسبب نسائم مايو العليلة الّتي هبّت على نافذتها وحملت معها

الأريج الفوّاح لأزهار التّفّاح، أم نتيجةً للحديث الودّيّ مع هايزل. ربّما الاثنين معًا. لقد ذكّرتها هايزل، على نحوٍ مّا، ببداية شبابها، وبكلّ ما كان يحمله من نشوةٍ ومثُلٍ عليا ورؤًى رومانسيّةٍ.

أمسكت هايزل بيد آن وضغطت بشفتيها عليها في منتهى الخشوع.

«أكره كلّ النّاس الّذين أحببتِهم قبلي يا آنسة شيرلي. وأكره كلّ النّاس الآخرين الّذين تحبّينهم *الآن*. أريد أن أمتلكك لي *وحدي*».

«ألستِ مسرفةً في شعورك هذا يا عزيزتي؟ أنت مثلًا تحبّين أناسًا آخرين في حياتك بالإضافة إليّ. ماذا عن تيري، مثلًا؟».

«أوه يا آنسة شيرلي! ذاك هو الأمر الّذي يؤرّقني وأريد الحديث فيه معك. لم أعد أحتمل السّكوت عنه طويلًا... *لم أعد* أحتمل ذلك. ينبغي عليّ أن أتحدّث فيه إلى شخصٍ مّا... شخصٍ يمكنه أن يفهم. لقد خرجتُ اللّيلة ما قبل البارحة وظللت أطوف وأطوف بالبحيرة طوال اللّيل... حسنًا، إلى أن حانت تقريبًا... السّاعة منتصف اللّيل على أيّة حالٍ.

لقد تعبتُ من كلّ شيءٍ ... *كلّ شيءٍ*».

بدت هايزل في حالة مأسويّةٍ، على قدرٍ ما يسمح به وجهها الدّائريّ الّذي تلوّن بالأبيض والورديّ، وما تسمح به عيناها ذات الأهداب الطّويلة، وهالة الضّفائر الّتي أحاطت برأسها.

«يا إلهي يا عزيزتي هايزل، ظننتُ أنّك سعيدةٌ مع تيري... وأنّ كلّ شيءٍ قد عاد إلى سابق عهده».

لا يمكن إلقاء اللّوم على آن لأنّها فكّرت على هذا النّحو، فخلال الأسابيع الثّلاثة المنقضية لم تنفكّ هايزل تهذي بتيري غارلاند، وكانت تصرّفاتها مع آن حينها تجيب عن سؤالٍ واحدٍ هو: ما فائدة الحصول على عاشقٍ ولهانٍ إذا لم يكن باستطاعتك أن تحكي قصّة حبّك له إلى شخصٍ آخر؟

أجابتها هايزل بكثيرٍ من المرارة: «*الجميع* يعتقدون ذلك. أوه يا آنسة شيرلي، يبدو أنّ الحياة مليئةٌ بالمشاكل المحيّرة. أشعر أحيانًا بأنّني أريد الاستلقاء في مكانٍ مّا... أيّ مكانٍ... ويداي مكتوفتان وألّا أفكّر في أيّ شيءٍ البتّة».

«ما الّذي حصل يا عزيزتي؟».

«لا شيء... وكلّ *شيءٍ*. أوه يا آنسة شيرلي، هل أستطيع أن أحكي لك كلّ شيءٍ... هل أستطيع أن أفرغ لك كلّ ما في قلبي؟».

«طبعًا يا عزيزتي».

قالت هايزل بشكلٍ مثيرٍ للشّفقة: «لا مكان لي كي أتحدّث عمّا يعتمل في نفسي. باستثناء دفتر يوميّاتي، طبعًا. هل تمانعين في أن أريكِ يوميّاتي الّتي أكتبها يومًا مّا يا آنسة شيرلي؟ إنّها اعترافاتٌ شخصيّةٌ. ومع ذلك لا يمكنني أن أكتب فيها عمّا يجيش بداخلي. شيءٌ مّا... يكتم أنفاسي!».

وقبضت هايزل على حنجرتها بشكلٍ مسرحيٍّ.

«بالتّأكيد أريد أن أقرأ مذكّراتك إذا أردت ذلك. ولكن ما الّذي حدث بينك وبين تيري؟».

«أوه، تيري! هل تصدّقينني يا آنسة شيرلي حين أقول لك إنّ تيري يبدو لي غريبًا الآن؟» وأضافت حتّى لا تترك أيّ مجالٍ لسوء الفهم: «إنّه فعلًا غريبٌ! شخصٌ لم أعرفه قطُّ من قبل».

«ولكن يا عزيزتي هايزل... ظننتك تحبّينه... هذا ما قلتِه لي..».

«أوه، أعلم ذلك. كنت أحسبني أحبّه أيضًا. ولكن أعرف الآن أنّها كانت غلطةً فظيعةً. أوه يا آنسة شيرلي، لا يمكنك أن تتخيّلي حتّى في أحلامك كيف أصبحت حياتي صعبةً وتعيسةً... وكيف أصبحت مستحيلةً جدًّا».

قالت لها آن بنبرة تعاطفٍ، وقد تذكّرت عشيقها أيّام الجامعة، روي غاردينر: «أقدّر تمامًا ما تشعرين به».

«أوه، يا آنسة شيرلي، أنا متأكّدةٌ أنّني لا أحبّه بما فيه الكفاية لأتزوّجه. لقد أدركتُ ذلك الآن فقط... الآن بعد فوات الأوان. لقد أغواني ضوء القمر بأنّني أحبّه. لولا وجود القمر في تلك اللّيلة لطلبتُ منه بعض الوقت للتّفكير في الأمر. لقد اجتُذبتُ إليه بقوّةٍ ومن حيث لا أدري... أستطيع أن أرى ذلك بوضوحٍ الآن. أوه، سوف أهرب بعيدًا... إنّني أشعر باليأس وبأنّني سأقدِم على شيءٍ شنيعٍ!».

«ولكن يا عزيزتي هايزل، ما دمتِ تشعرين أنّك ارتكبتِ خطأً، فلماذا لا تخبرينه بكلّ شيءٍ..».

«آه يا آنسة شيرلي، لا أستطيع ذلك! سوف يموت حسرةً إن فعلتُ ذلك. فهو يهيم بي كثيرًا. لا مخرج لي من هذا الوضع أبدًا. وقد

بدأ تيري يتحدّث عن الاستعداد للزّواج. تخيّلي ذلك... من طفلةٍ مثلي... عمرها لا يتجاوز الثّامنة عشرة. لقد هنّأني كلّ الأصدقاء الّذين حدّثتهم سرًّا عن خطبتي... ويا لها من مهزلةٍ. يعتقدون أنّ تيري صيدٌ ثمينٌ لأنّه ورث عشرة آلاف دولارٍ حين بلغ الخامسة والعشرين. لقد تركت له جدّته هذا المبلغ من المال. يظنّون أنّني أهتمّ كثيرًا لذلك الشّيء الخسيس الّذي يسّمى *المال*! أوه يا آنسة شيرلي، *لماذا* نعيش وسط عالمٍ من المرتزقة... *لماذا*؟».

«أعتقد أنّه كذلك في كثيرٍ من النّواحي، ولكن ليس الجميع مرتزقةً يا هايزل. وإذا كنتِ تظنّين أنّ تيري من ضمنهم... فكلّنا نُخطئ... ومن الصّعب أحيانًا أن نفهم ما تمليه علينا عقولنا..».

«أوه أليس كذلك؟ كنت أعرف أنّك ستفهمين. لقد كنت أحسبُني أحبّه يا آنسة شيرلي. عندما رأيته أوّل مرّةٍ، جلستُ قبالته وأطلت النّظر إليه طوال أمسيةٍ كاملةٍ. شعرتُ حين التقت عيوننا بأنّ *الأمواج تغمرني*. لقد كان وسيمًا جدًّا... بالرّغم من أنّني أحسست حتّى في ذلك الوقت أنّ شعره مجعّدٌ كثيرًا وأهدابه كثيرة البياض. كان عليّ أن أنتبه إلى مثل هذه الإشارات. ولكنّني كنتُ دومًا أتعامل مع الأشياء بالعاطفة... وقد استحكمت العاطفة فيّ على نحوٍ كبيرٍ. كنتُ أحسّ برعشةٍ خفيفةٍ كلّما اقترب منّي. أمّا الآن فلا أشعر تجاهه بشيءٍ... لا شيء! أوه، لقد كبرتُ كثيرًا خلال الأسابيع الماضية يا آنسة شيرلي... *كبرتُ كثيرًا*! لم تعد لي شهيّةٌ للأكل منذ خطوبتنا. يمكن لأمّي أن تؤكّد لك ذلك. أنا *متأكّدةٌ* الآن أنّني لا أحبّه بالقدر

الّذي يجعلني أتزوّجه. ربّما تساورني الشّكوك بشأن كلّ الأمور الأخرى، ولكنّني متأكّدةٌ من نفسي هذه المرّة».

«إذَن عليك ألّا..».

«حتّى في تلك اللّيلة المقمرة، ليلةَ عرض عليّ الزّواج، كنتُ أفكّر في الفستان الّذي سألبسه في الحفلة التّنكّريّة الّتي كانت ستقيمها جوون برينغل بمنزلها. كنتُ أفكّر حينها في ما إذا كان رائعًا أن أذهب إلى الحفل وأنا أتقمّص الملكة ماري في فستانٍ أخضر فاتحٍ، ونطاقٍ أشدّ اخضرارًا، وعددٍ من الورود الحمراء الفاتحة اللّون تزيّن شعري. كنتُ أفكّر أيضًا في سارية مايو[٦] المزيّنة بالورود الصّغيرة والّتي تتدلّى منها أشرطةٌ زهريّةٌ وخضراء اللّون. ألن يكون ذلك بديعًا؟ ثمّ كان على عمّها أن يموت، ولم تستطع جوون في النّهاية إقامة الحفل، وذهب كلّ ذلك الجهد والتّفكير سُدًى. ولكن ما أريد قوله هو أنّه... لم يكن بوسعي أن أحبّه وفكري منصبٌّ على أشياء أخرى مثل هذه، أليس كذلك؟».

«لا أعرف بالضّبط... تحوك لنا أفكارنا في بعض الأحيان الكثير من الألاعيب والحِيل الغريبة».

«في الحقيقة لا أعرف ما إذا كنتُ أنوي الزّواج أصلًا يا آنسة شيرلي. هل أجد لديك بالصدفة عودًا لتجميل الأظافر؟ شكرًا.

---

(٦) سارية مصنوعة من جذع خشبي طويل أو من عمود معدني تُنصب وتُزيّن أثناء عدّة احتفالات دينيّة، أهمّها يوم مايو.

لقد بدأت الهُليلات[1] في أظافري بالتّآكل. يمكنني أن أعتني بها ونحن نتحدّث. أليس من الرّائع أن تثق إحدانا في الأخرى ونتبادل أسرارًا مثل هذه؟ من النّادر أن يجد الإنسان الفرصة والشّخص الثّقة... فالكلّ يريد أن يتطفّل ويحشر أنفه. حسنًا، عن أيّ شيءٍ كنتُ أتحدّث... أوه، نعم، تيري. ماذا عليّ أن أفعل يا آنسة شيرلي؟ أريد النّصح منك. أوه، أشعر وكأنّني وقعتُ في مصيدةٍ!».

«ولكن يا هايزل، الأمر في غاية البساطة..».

«أوه، إنّه ليس بسيطًا بالمرّة يا آنسة شيرلي! إنّه معقّدٌ بشكلٍ مخيفٍ. ماما مبتهجةٌ على نحوٍ صارخٍ، والعمّة جين على عكسها تمامًا. فهي لا تحبّ تيري، والجميع يقول إنّ لها من الاتّزان وحسن التّمييز القدر الكثير. لا أريد أن أتزوّج بأيّ أحدٍ. إنّني أطمح إلى أشياء أخرى... أريد أن تكون لي مهنةٌ وأن أنجح فيها. تراودني في بعض الأحيان فكرة أن أصبح راهبةً. أليس من البديع أن أكون عروس السّماء؟ أعتقد أنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تثير الكثير من الصّور والأفكار في ذهني، ألا تعتقدين ذلك؟ ولكنّني لستُ كاثوليكيّةً طبعًا... ثمّ إنّه لا يمكن بأيّة حالٍ من الأحوال اعتبار المكوث أبد الدّهر في ديرٍ مهنةً يمكنني أن أنجح فيها. لطالما شعرتُ أنّني أريد أن أكون ممرّضةً. إنّها مهنةٌ شاعريّةٌ، أليس كذلك؟ أن أسكّن الألم وأروّح عن نفس مريضٍ مصابٍ بالحمّى، وكلّ هذه الأشياء... ثمّ يقع في حبّي مريضٌ وسيمٌ ومليونير، ويأخذني معه

(1) المنطقة البيضاوية التي تبدو على شكل هلال في ظفر أصابع اليد أو القدم.

لقضاء شهر العسل في فيلا رائعةٍ بالرّيفيرا الفرنسيّة، قبالة شمس الصّباح ومياه البحر المتوسّط الشّديدة الزّرقة. لقد سبق أن رأيتُني في مثل هذا المكان. قد تكون أحلامًا طائشةً ولكن، أوه، كم هي جميلةٌ. لا يمكنني أن أستبدل بها الحقيقة المبتذلة الّتي تقضي بالزّواج من تيري غارلاند والاستقرار في سامرسايد!».

سرت في جسد هايزل قشعريرةٌ لمجرّد التّفكير في ذلك، ثمّ ألقت نظرةً فاحصةً على أحد أظفارها.

همّت آن بالقول: «أظنّ أنّ..».

«لا يربطني به أيّ شيءٍ مشترك يا آنسة شيرلي. إنّه لا يهتمّ بالشّعر والرّوايات الغراميّة، الّتي هي كلّ *حياتي*. أعتقد أحيانًا أنّني تجسُّدٌ جديدٍ لكليوباترا... أم تُراني هيلين طروادة؟... المهمّ واحدة من أولئك النّساء الواهنات والفاتنات. لديّ الكثير من الأفكار والأحاسيس *الرّائعة*... لا أعرف من أين جئتُ بها إذا لم يكن ذلك هو التّفسير الوحيد. أمّا تيري، فهو إنسانٌ عمليٌّ وواقعيٌّ جدًّا... لا يمكن أن يكون إعادة تجسّدٍ لأيّ أحدٍ. ما قاله حين أخبرتُه بحكاية الرّيشة القلم الّتي تملكها فيرا فراي يبرهن على ذلك، أليس كذا؟».

قالت آن بصبرٍ: «ولكنّني لم أسمع بحكاية هذه الرّيشة من قبلُ».

«أوه، حقًّا؟ خلتُ أنّني أخبرتك بذلك. أفصحت لك عن أسرارٍ كثيرةٍ إلّا هذه. لقد أهداها خطيبها قلمًا صنعه من ريشةٍ التقطها بعد أن سقطت من جناح أحد الغربان. قال لها «فَلْتَسْمُ

روحك إلى السّماء كلّما كتبتِ بها، مثل الطّائر الّذي كان يحملها».
ألم يكن ذلك *رائعًا*؟ ولكنّ تيري قال إنّ الرّيشة ستهترئ في القريب العاجل، ولاسيّما أنّ فيرا تكتب كثيرًا مثلما تتكلّم كثيرًا، وهو في كلّ الأحوال لا يتصوّر أنّ الغربان تحلّق عاليًا في السّماوات. لقد جانب تمامًا المعاني السّامية لما قيل... وجوهرها الدّفين».

«وما كان المعنى الّذي يقصده؟».

«أوه... يا إلهي... *السّموّ*، كما تعرفين... أن تحلّق عاليًا وبعيدًا عن أتربة الأرض. هل رأيت خاتم فيرا؟ إنّه مصنوعٌ من الياقوت. أظنّ أنّ الياقوت حجرٌ شديد القتامة ولا يمكن أن يصلح لخاتم خطوبةٍ. أفضّل أن يكون لي مثل خاتمك الثّمين والرّومانسيّ والمرصّع باللّؤلؤ. لقد أراد تيري من ساعته أن يهديني خاتمًا... ولكنّني قلت له لِمَ العجلة؟... سيبدو ذلك الخاتم مثل وثاقٍ يشدّني به... وأمرًا باتًّا لا رجعة فيه. ما كان لهذه الأفكار أن تراودني لو أنّني أحبّه فعلًا، أليس كذلك؟».

«كلّا، لا أظنّ هذا..».

«من *الرّائع* جدًّا أن أبوح لشخصٍ مّا بما أحسّ به فعلًا. آه يا آنسة شيرلي، أتمنّى أن أستعيد حرّيّتي مرّةً أخرى... أتمنّى أن أكون طليقةً لأبحث عن معنى الحياة الأزليّ! لن يفهم تيري ما أعنيه بهذا القول لو أخبرته به. وأعرف أنّ له مزاجًا سيّئًا... كلّ عائلة غارلاند سيّئة المزاج. أوه يا آنسة شيرلي... لو تتحدّثين معه... وتخبرينه بما ينتابني من أحاسيس... إنّه يراك *رائعة*... وسوف يمتثل لما ستقولينه له».

«هايزل، صغيرتي العزيزة، كيف لي أن أفعل ذلك؟».

«لا أرى مانعًا في ذلك». وأنهت هايزل طلاء آخر هلالٍ جديدٍ في ظفرها، ووضعت عود التّجميل جانبًا على نحوٍ تراجيديٍّ وقالت: «إذا لم تقدري أنت على ذلك، فلن أجد المساعدة من أيّ أحدٍ. ولكنّني لا أستطيع *مطلقًا*، مطلقًا، الزّواج من تيري غارلاند».

«إذا كنتِ لا تحبّينه، فعليك أن تذهبي إليه وتخبريه ذلك بنفسك... مهما يكُن الشّعور الّذي سينتابه بعد ذلك. يومًا مّا ستلتقين بالشّخص الّذي ستحبّينه حقًّا، يا عزيزتي هايزل... ولن تساورك أيّ شكوكٍ حينها... وستعرفين ما تريدينه بالضّبط».

قالت هايزل بنبرةٍ متحجّرةٍ: «لن أحبّ *أحدًا* مرّةً أخرى. لا يجلب الحبّ سوى المآسي. لقد خلصتُ إلى *هذه* الحقيقة رغم صغر سنّي. ربّما تكون قصّتي هذه حبكةً رائعةً أخرى لإحدى رواياتك، أليس كذلك يا آنسة شيرلي؟ عليّ أن أذهب الآن... لم أكن أعرف أنّ الوقت تأخّر بهذا الشّكل. أشعر بتحسّنٍ كبيرٍ الآن وقد بحتُ لك بكلّ هواجسي... «ولامستُ مهجتك في أرض الخيال» كما قال شكسبير».

قالت آن بلطفٍ: «أعتقد أنّ بولين جونسون[1] هي من قالت ذلك».

«حسنًا، كنتُ أعرف أنّها قولةٌ لشخصٍ عظيمٍ... شخصٍ *عاش* فعلًا حياته. أظنّ أنّني سأنام اللّيلة يا آنسة شيرلي. لم يغمض

(1) شاعرة وكاتبة كنديّة.

لي جفنٌ منذ إعلان خطبتي إلى تيري، وليس لديّ أدنى فكرةٍ عن كيفيّة حدوث تلك الخطوبة».

نفشت هايزل شعرها ووضعت عليه قبّعتها. كانت قبّعةً ذات بطانةٍ ورديّة اللّون في حافّتها ونواوير باللّون نفسه في محيطها، وبدت فيها هايزل على قدرٍ من الحسن يبعث على الدّهشة، حتّى إنّ آن قبّلتها على نحوٍ غريزيٍّ وقالت بإعجابٍ: «أنت أجمل ما في هذا الوجود يا عزيزتي».

ثبتت هايزل في مكانها كالصّنم.

ثمّ رفعت عينيها وحدّقت من خلال سقف غرفة البرج، ومن خلال العليّة الّتي فوقها، باحثةً عن النّجوم.

تمتمت هايزل بنشوةٍ فائقةٍ: «لن أنسى ما حييتُ هذا الوقت الرّائع الّذي أمضيته معك يا آنسة شيرلي. أشعر الآن أنّ جمالي هذا... إن كان لي بعضٌ منه... قد تأصّل الآن. أوه يا آنسة شيرلي، لا يمكنك أن تتخيّلي كم هو مريعٌ أن يكون للفتاة صيتٌ وشهرةٌ بحسنها وجمالها، وأن تخشى دائمًا حين تلتقي النّاسَ ألّا يجدوها جميلةً كما كانوا ينتظرون. يعذّبني ذلك كثيرًا. ينتابني في بعض الأحيان شعورٌ قاتلٌ بالخزي حين أتخيّل خيبة أملهم. ربّما كان ذلك فقط وحيًا من خيالٍ... أخشى أن يكون الخيال قد سرح بي أكثر من اللّازم. لقد تخيّلتُ لوهلةٍ أنّني مغرمةٌ بتيري. أوه يا آنسة شيرلي، هل يمكنك أن تستنشقي هذا العطر المقطّر من زهر التّفّاح؟».

طبعًا كان يمكنها ذلك، لأنّ آن خبيرةٌ في الرّوائح الذّكيّة.

«أليست نفحة الطّيب هذه *ساحرةً*؟ آمل أن تكون الجنّة *كلّها* أزهارًا. ألن يكون الإنسان سعيدًا لو عاش في زنبقة مثلًا؟».

قالت لها آن على نحوٍ مشاكسٍ: «أخشى أن يكون في المكان حينئذٍ شيءٌ من الضيق».

«أوه يا آنسة شيرلي، لا... لا تسخري من عاشقتك الصّغيرة. تجعلني السّخريّة أذبل مثل أوراق الشّجر».

قالت ريبيكا ديو عندما عادت آن إلى المنزل بعد أن اصطحبت هايزل حتّى نهاية درب الأشباح: «أرى أنّك مازلتِ حيّةً رغم تلك الجعجعة الصّاخبة الّتي لا تتوقّف. لا أفهم كيف تصبرين عليها هذا الصّبر كلّه».

«إنّني أحبّها يا ريبيكا، فعلًا أحبّها. كنت مثلها ثرثارةً رهيبةً في صغري. أتساءل عمّا إذا كنتُ أبدو أحيانًا مثل هايزل بلهاء في نظر النّاس الّذين كان عليهم الاستماع إليّ».

قالت ريبيكا: «لم أكن أعرفك وأنت صغيرةٌ في السّنّ، ولكنّني متأكّدةٌ أنّك لم تكوني كذلك. وهذا لأنّك كنت ستعنين كلّ ما قلتِه مهما كانت الطّريقة الّتي عبّرتِ بها، وهايزل مار لم تكن تعني ما تقول. إنّها ليست سوى حليبٍ غير دسمٍ يدّعي أنّه نوعٌ من القشدة».

«أوه، طبعًا هي في بعض الأحيان تضخّم الأمور قليلًا وبطريقةٍ مسرحيّةٍ، مثلما تفعل كلّ البنات في سنّها،» ثمّ قالت آن وقد خطر ببالها تيري: «ولكنّني أظنّ أنّها تعني فعلًا بعض الأشياء الّتي أسرّت بها لي». ربّما صدّقت آن كلّ ما قالته هايزل عن هذا المسمّى تيري

لأنّها لا تعرف عنه الشّيء الكثير. فقد فهمت أنّ هايزل كانت تريد فعلًا التّفريط في خطيبها رغم العشرة آلاف دولارٍ الّتي سيرثها. ارتسمت في مخيّلتها فكرة أنّ تيري شابٌّ وسيمٌ ولم يشتدّ عوده بعدُ، ويمكنه أن يقع في حبّ أوّل فتاةٍ حسناء ترنو إليه بعين الغرام، ويمكنه أيضًا، وبالسّهولة نفسها، أن يأسره حبّ الفتاة الموالية إذا كانت الحسناء رقم واحدٍ قد صدّته أو تركته وحيدًا لمدّةٍ طويلةٍ.

إثر ذلك التقت آن في ذاك الرّبيع بالشّابّ تيري مرارًا عديدةً، لأنّ هايزل ألحّت في أن تُثقل آن على هذين «العاشقين» بوجودها لأكثر من مرّةٍ. ثمّ صادف أن رأته بعد ذلك مرّاتٍ أخرى، لأنّ هايزل ذهبت لزيارة بعض الأصدقاء في كينغسبورت. وخلال غيابها تعلّق تيري أكثر بالآنسة شيرلي، وأخذها في عددٍ من النّزهات وأوصلها إلى منزلها من أماكن عديدةٍ. بدآ يناديان بعضيهما بعضًا «آن» و«تيري»، لأنّهما كانا تقريبًا في سنٍّ واحدةٍ، بالرّغم من أنّ آن شعرت بحنوّ الأمومة تجاهه. شعر تيري من ناحيته بالإطراء الكبير حين رأى أنّ «الآنسة شيرلي الذّكيّة» بدأت تستظرف رفقته. وذات ليلةٍ أقامت فيها ماي كونلي حفلةً بمنزلها، اعترى تيري فيضٌ من رقّة المشاعر في الحديقة المقمرة، حيث رقصت ظلال أشجار الأكاسيا بجنونٍ، ممّا دفع آن إلى ممازحته وتذكيره بهايزل الغائبة عن الحفل.

قال تيري: «أوه، هايزل! تلك الطّفلة الصّغيرة!».

قالت آن بحدّةٍ: «أنت مخطوب إلى تلك «الطّفلة الصّغيرة»، أليس كذلك؟».

«لسنا مخطوبين بالفعل... لا شيء بيننا سوى هذيانٍ لا معنى له بين طفلٍ صغيرٍ وطفلةٍ صغيرةٍ. أظنّ... أظنّ أنّ ضوء القمر هو الّذي جذبني إليها، ليس إلّا».

أجرت آن حينئذٍ بعض التّفكير السّريع. إذا كان تيري لا يهتمّ كثيرًا لهايزل كما بيّن لها ذلك، فهذا أفضل للطّفلة لأنّها ستتحرّر منه أكثر. ربّما كانت هذه فرصةً بعثت بها السّماء لتخليصهما من هذه الورطة السّخيفة الّتي وقعا فيها، والّتي لا أحد منهما يقدر على الإفلات منها إذا ما أخذا الأمور بتلك الجدّيّة الّتي يتّسم بها الشّباب اليافع.

قال تيري مواصلًا كلامه وقد أساء تأويل صمتها: «بالطّبع أنا في مأزق. أخشى أنّ هايزل قد أخذتني على محمل الجدّ بشكلٍ مبالغٍ فيه، ولا أعرف أفضل السّبل لأفتح عينيها على غلطتها».

قالت آن باندفاعٍ وقد اكتست ملامح وجهها تلك النّظرة الأموميّة: «تيري، أنتما طفلان تتظاهران أنّكما كبرتما وبدأتما تتصرّفان بنضجٍ. الحقيقة أنّ هايزل لا تحبّك أكثر ممّا تحبّها أنت. من الواضح أنّ ضوء القمر قد أثّر فيكما معًا. إنّها تريد أن تفسخ الخطوبة ولكنّها لا تريد إخبارك بذلك خشية أن تجرح مشاعرك. هي فتاة ولهانةٌ ورومانسيّةٌ، وأنت فتًى وقع في الحبّ، وليس في حبّها، ويوما مّا ستضحكان كثيرًا على نفسيكما».

(قالت آن في نفسها باعتزازٍ: «أظنّ أنّني عبّرت عن ذلك بطريقةٍ لبقةٍ»).

أطلق تيري زفرةً طويلةً.

«لقد أزحتِ عبئًا ثقيلًا عنّي يا آن. هايزل فتاةٌ رائعةٌ وعذبةٌ بطبيعة الحال. لقد كنت أكره أن أخدش مشاعرها، ولكنّني أدركتُ غلطتي... أعني غلطتنا... منذ أسابيع. وعندما يلتقي المرء بفتاةٍ... بفتاة أحلامه... هل أنت ذاهبةٌ يا آن؟ هل سيضيع ضوء القمر هذا سُدًى؟ أنت تبدين مثل وردةٍ بيضاء في هذه اللّيلة المقمرة...آن ..».

ولكنّ آن كانت قد اختفت عن الأنظار.



(11)

توقّفت آن وهلةً خلال إحدى أمسيات منتصف يونيو كي تمسح أنفها بمنديلٍ بينما كانت تصلح أوراق الامتحانات في غرفة البرج. وكانت قد بالغت في مسحه ذلك المساء حتّى أصبح لونه ورديًّا مائلًا إلى الحمرة ومؤلمًا بعض الألم. الحقيقة أنّها كانت ضحيّة نزلة بردٍ حادّةٍ وغير رومانسيّةٍ بالمرّة، منعتها من الاستمتاع بالسّماء الّتي تلوّنت بأخضر ناعمٍ من خلف أشجار التّنّوب في المنزل «الدّائم الخضرة»، وبالقمر الفضّيّ الأبيض الّذي تدلّى من فوق «ملكة العواصف»، وبالأريج السّاحر لأزهار اللّيلك من تحت نافذتها، وبأزهار السّوسن المتجمّدة والمخطّطة بالأزرق في المزهريّة على طاولتها. لقد جعلها هذا الزّكام تشعر بقتامة الماضي، كما ألقى بظلاله على كلّ ما هو آتٍ.

قالت للقطّ داستي ميلر الّذي كان مطرقًا في تفكيره على عتبة النّافذة: «نزلة بردٍ في شهر يونيو أمرٌ غير أخلاقيٍّ بالمرّة. ولكن بعد أسبوعين من اليوم، سوف أكون في غرين غايبلز العزيزة، بدلًا من أن أغليَ هنا بالحمّى وأنا أصلح أوراق الامتحان هذه المليئة بالأخطاء الفظيعة، وأمخّط أنفي المهترئ. فكّر في ذلك مليًّا يا داستي ميلر».

الظّاهر أنّ داستي ميلر فكّر في ذلك بالفعل. ولعلّه أيضًا لاحظ خلال تفكيره العميق أنّ الشّابّة اليافعة الّتي هرولت مسرعةً على طول درب الأشباح، وأسفل الشّارع، ثمّ على طول المسلك المحفوف بالنّباتات المعمّرة، كانت غاضبةً ومشوّشة الفكر على نحوٍ لا يليق بشهر يونيو البديع. لم تكن تلك الفتاة سوى هايزل مار، بعد عودتها بيومٍ واحدٍ فقط من كينغسبورت، ولكن من الواضح أنّ مزاجها متعكّرٌ على غير العادة، لأنّها اقتحمت غرفة البرج بعد دقائق معدوداتٍ، واندفعت إلى الدّاخل كعاصفةٍ هوجاء، دون أن تنتظر ردًّا على طرقها الحادّ للباب.

«يا إلهي يا هايزل... (*هاتشوم!*)... «هل عدت من كينغسبورت بهذه السّرعة؟ لم أكن أتوقّع مجيئك قبل الأسبوع القادم».

قالت هايزل بنبرةٍ ساخرةٍ: «كلّا، لا أظنّك توقّعتِ ذلك. نعم يا آنسة شيرلي، لقد عدتُ. وماذا وجدتُ؟ وجدت أنّك تفعلين ما بوسعك لغواية تيري بعيدًا عنّي... وأنّك تنجحين في ذلك إلى حدٍّ كبيرٍ».

«هايزل!» (*هاتشوم!*).

«أوه، لقد علمتُ بكلّ شيءٍ! أخبرتِ تيري أنّني لا أحبّه... وأنّني أريد فسخ الخطوبة... ذلك الميثاق *المقدّس* الّذي بيننا».

«هايزل ... أيتها الصّبيّة! (*هاتشوم!*).

«أوه، نعم، اسخري منّي... استهزئي بكلّ شيء. ولكن لا تحاولي الإنكار. لقد فعلتِ فعلتك... وفعلتِها عن *قصدٍ*».

«بالطّبع تعمّدتُ ذلك. أنت من طلبتِ منّي هذا».

«طلبتُ... منك... ذلك!».

«نعم، هنا، وفي هذه الغرفة بالذّات. قلتِ لي إنّك لا تحبّينه ولا يمكن أن تتزوّجيه».

«أوه، مجرّد مزاجِ اعترافي في ذلك اليوم. لم أتخيّل قطُّ أنّك ستأخذين قولي على محمل الجدّ. ظننتُك ستفهمين مزاجي الفنّيّ والشّاعريّ. صحيحٌ أنّك تكبرينني بسنواتٍ طويلةٍ جدًّا، ولكن لا يمكنك أن تنسيْ الأسلوب المتنطّع الّذي غالبًا ما تتحدّث به البنات... ويعبّرن به عن مشاعرهنّ. أنت الّتي تظاهرتِ بأنّك صديقتي!».

قالت آن المسكينة في نفسها: «لا شكّ أنّه كابوسٌ». ثمّ قالت لهايزل: «اجلسي، عليك أن..».

«أجلس!» وأخذت هايزل تمشي بعصبيّةٍ في أنحاء الغرفة جيئةً وذهابًا. «كيف لي أن أجلس... كيف يمكن لأيّ *أحدٍ* أن يجلس وحياته قد أضحت حطامًا من حوله؟ أوه، هل هذا ما يفعله بك التّقدّم في السّنّ... أن تكوني غيرانةً من سعادة مَن هم أصغر منك، وأن تحرصي على تدميرها... سوف أدعو السّماء كثيرًا حتّى لا أصير مثلك».

اعترت آن فجأةً رغبةٌ غريزيّةٌ غريبةٌ ومفزعةٌ، ووخزتها يدها أن تلكز هايزل على أذنيها، ولكنّها سرعان ما كبحت تلك الرّغبة على الفور، ولم تصدّق إثرها أنّها كانت فريسةً لمثل هذه النّزوات. ومع

ذلك، شعرت بضرورة توجيه بعض اللّوم والتّأديب الطّفيف إلى محدّثتها.

«إذا لم تجلسي وتتحدّثي بتعقُّلٍ يا هايزل، فمن الأفضل أن تغادري الغرفة حالًّا». (ثمّ تبعتها عطسةٌ حادّةٌ، «*هاتشوم*»). «فلديّ عملٌ أريد أن أنهيه». (نشقةٌ أولى... فثانيةٌ... ثمّ تبعها خنينٌ طويلٌ!).

«لن أغادر حتّى أقول لك رأيي فيكِ بصراحةٍ. أوه، أعرف أنّني لن ألوم بالنّهاية إلّا نفسي... كان عليّ أن أعرف ذلك... وكنتُ أعرف. فقد شعرتُ على نحوٍ غريزيٍّ منذ رأيتك أوّل مرّةٍ أنّك خطيرةٌ. ذلك الشّعر الأحمر، وتينك العينان الخضراوان! ولكنّني لم *أتخيّل* يومًا أنّكِ ستتجاوزين كلّ الحدود وتفتعلين كلّ هذه المشاكل بيني وبين تيري. خلتكِ مسيحيّةً أصيلةً على الأقلّ. لم أسمع في حياتي من قبل أنّ أحدًا فعل ما فعلتِه. لقد حطّمتِ قلبي، إذا كان هذا ما ترتضينه وتتوقين إليه».

«أيّتها البلهاء الصّغيرة..».

«لن أتحدّث إليك مرّةً أخرى! أوه، لقد كنتُ سعيدةً مع تيري قبل أن تفسدي كلّ شيءٍ. لقد كنتُ سعيدةً جدًّا... كنتُ الفتاة الأولى من بين أترابي الّتي خُطبت. وكنتُ حتّى قد خطّطتُ لحفل الزّفاف... أربع إشبينات في فساتين بديعةٍ من الحرير الأزرق الفاتح، وأحزمةٍ مخمليّة سوداء على كشكشات الفساتين. في غاية الأناقة! أوه، لا أعرف إن كنتُ أكرهك كثيرًا أم أشفق عليك كثيرًا! أوه، كيف *استطعتِ* معاملتي على هذا النّحو... بعد كلّ ذلك

الحبّ الّذي كنتُ أكنّه لك... *والثّقة* الّتي منحتُك إيّاها... وبعد أن *صدّقتك* بجنونٍ!».

تقطّع صوت آن... واغرورقت عيناها بالدّموع... وانهارت على كرسيٍّ هزّازٍ.

قالت آن في نفسها: «لم يبق لديها الكثير من نقاط التّعجّب لاستعمالها، ولكنّ مخزونها من الأحرف المائلة لا ينضب أبدًا».

قالت آن وهي تبكي بنشيج: «سيقضي هذا الأمر حتمًا على ماما. لقد كانت مبتهجةً جدًّا... *الجميع* كانوا مبتهجين لخطبتنا... كلّهم رأوه زواجًا *مثاليًّا*. أوه، هل يمكن لكلّ هذه *الأشياء* أن تعود كما عهدناها من قبل؟».

قالت لها آن بلطفٍ: «انتظري حتّى يبزغ نور القمر من جديدٍ وسترين».

«أوه، نعم، اضحكي يا آنسة شيرلي... اسخري من عذابي. ليس لديّ أدنى شكٍّ في أنّك تنتشين بلوْعتي... الأمر ممتعٌ فعلًا بالنّسبة إليك! أنت لا تعرفين معنى الشّقاء! إنّه أمرٌ لا يطاق... لا *يطاق* أبدًا!».

نظرت آن إلى السّاعة وعطست.

قالت لهايزل دون شفقةٍ: «إذَن لا تحمّلي نفسكِ كلّ هذا الشّقاء».

«سوف ألتاع كثيرًا. أحاسيسي عميقةٌ *جدًّا*. طبعًا لن تشعر نفسٌ *سطحيّةٌ* بهذا البؤس. ولكنّني مرتاحةٌ لأنّني *لست* سطحيّة المشاعر بالرّغم من كلّ الأشياء الأخرى. هل لديك أدنى فكرةٍ عمّا يعنيه أن

تقعي في شراك الحبّ يا آنسة شيرلي؟ أن تحبّي بصدقٍ وجنونٍ وبشكلٍ غير *مألوفٍ*؟ ثمّ أن تثقي في شخصٍ ويخذلكِ؟ لقد ذهبتُ إلى كينغسبورت *والفرحة* تغمرني.. والعالم كلّه يحبّني! أوصيتُ تيري أن يكون لطيفًا معكِ وأنا بعيدةٌ عن سامرسايد... وألّا يتركك بمفردكِ. لقد عدتُ البارحة وأنا مبتهجةٌ *جدًّا*. ولكنّه لم يلبث أن قال لي إنّه لم يعد يحبّني.. وإنّها كانت غلطةً منذ البداية... *غلطة*!... وإنّك أخبرتِه أنّني لم أعد أهتمّ لعلاقتنا، وأنّني أريد أن أتحرّر من هذه الورطة!».

قالت آن ضاحكةً: «لقد كانت نواياي شريفةً». وعاودتها روح الفكاهة وأتت لتنقذها من جديدٍ، وكانت تضحك على نفسها بقدر ما كانت تضحك على هايزل.

قالت هايزل بحدّةٍ: «أوه، *كيف* استطعتُ أن أبقى على قيد الحياة طوال اللّيلة الفارطة؟ لقد قضّيتها وأنا أتنقّل جيئةً وذهابًا في أرجاء المنزل. وأنت لا تعرفين... ولا يمكنك حتّى *تخيّل* ما عانيتُه اليوم. لقد كان عليّ أن أجلس وأصغي... أن أصغي إلى النّاس وهم يتحدّثون عن افتتان تيري *بك*. أوه، لقد كان الجميع يراقبونك! وهم على علم بما كنت تفعلين. ولكن لماذا... *لماذا*! هذا هو الأمر الّذي بقي *عصيًّا* على فهمي. لديك خطيبُك الّذي يحبّك... لماذا لم تتركي لي خطيبي؟ لماذا تكنّين لي هذا العداء؟ ما الّذي *فعلتُه* لك؟».

قالت آن وقد نفدَ صبرها: «أعتقد أنّك وتيري تستحقّان الضّرب على مؤخّرتيكما. لو لم تتصرّفا بغضبٍ وأصغيتما إلى صوت الحكمة..».

قالت هايزل بصوتٍ مرتبكٍ والدّموع في عينيها: «أوه، إنّني لستُ غاضبةً يا آنسة شيرلي... لقد مسّني *الأذى*... وأُصبتُ في مقتلٍ. أشعر أنّ كلّ شيءٍ قد خذلني... الصّداقة كما الحبّ. يقولون إنّه لا مجال للألم والأسى بعد انكسار القلب. آمل أن يكون ذلك صحيحًا، ولكن أخشى أنّه ليس كذلك».

«وماذا عن طموحك يا هايزل؟ وماذا عن ذلك المريض المليونير وشهر العسل في تلك الفيلّا على ضفاف المتوسّط؟».

«أنا متأكّدةٌ أنّني لا أدرك ما تقولينه يا آنسة شيرلي. لستُ طموحةً مطلقًا... أنا لا أشبه ذلك النّوع الجديد والمخيف من النّساء. لقد كان أقصى طموحي أن أصبح زوجةً سعيدةً وأن أجعل زوجي وعائلتي سعداء. كان... *كان*! يؤسفني كثيرًا أنّه ماضٍ قد ولّى الآن. المهمّ أنّني لن أثق *بأحدٍ* بعد الآن. لقد استوعبت *ذلك*. لقد كان درسًا قاسيًا ومريرًا!».

مسحت هايزل دموعها، ومسحت آن أنفها، وحدّق داستي ميلر في كوكب الزّهرة البرّاق، وملامح وجهه تشي بكرهه للإنسانيّة جمعاء.

«أظنّ أنّ عليك فعلًا أن تذهبي يا هايزل. أنا مشغولةٌ جدًّا ولا أرى فائدةً ترجى من إطالة هذا الحديث».

اتّجهت هايزل نحو الباب وكأنّها ماري ملكة أسكتلندا وهي تتقدّم نحو المقصلة، ثمّ استدارت على نحوٍ مسرحيٍّ مفاجئٍ.

«الوداع يا آنسة شيرلي. سأتركك إلى ضميرك».

وضعت آن القلم على الطّاولة، وقد تُركت إلى ضميرها، وعطست ثلاث مرّاتٍ، ثمّ شرعت في تأنيب نفسها.

«قد تكوني متحصّلةً على اللّيسانس يا آن شيرلي، ولكن هناك بعض الأشياء الّتي مازال عليك تعلّمها... أشياء كان ربّما بإمكان ريبيكا ديو أن تُطلعك عليها... أو هي قد *أخبرتكِ* بها في السّابق. كوني صريحةً مع نفسك أيّتها الفتاة العزيزة، وتقبّلي الأمر برحابة صدرٍ مثل السّيّدات النّبيلات. اعترفي أنّ الإطراء قد أغرّكِ. أقرّي أنّ افتتان هايزل المعلن بك قد أدخلك الخديعة، وأنّك تماديتِ في الاستمتاع بحبّها الشّديد لك. اعترفي أنّك انتشيتِ لفكرة أن تكوني ملاكًا خارقًا هبّ من السّماء... لإنقاذ النّاس من طيشهم والحال أنّهم لا يريدون في الحقيقة الخلاص منه. وبعد أن تعترفي بكلّ هذا، وبعد أن تشعري بأنّك أصبحت أكثر رشدًا وحزنًا، وأكبر سنًا بمئات السّنين، تناولي قلمك وواصلي إصلاح أوراق الامتحان، وتوقّفي وأنت تمرّين مرور الكرام لتلاحظي أنّ ميرا برينغل تتصوّر أنّ السّيرافيم[1] هو «حيوان يوجد بكثرةٍ في إفريقيا»».

(1) طبقة سامية من الملائكة في المسيحيّة.

(12)

بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة تلقّت آن رسالةً كانت قد خُطّت على ورقةٍ زرقاء باهتةٍ، وذات حواشٍ من الفضّة.

عزيزتي الآنسة شيرلي:

أكتب إليك لأخبرك أنّ كلّ لبسٍ أو غشاوةٍ قد تبدّدت بيني وبين تيري، ونحن الآن سعيدان على نحوٍ *رائعٍ* وعميقٍ وشديدٍ، وقرّرنا أن نغفر لك ما فعلتِ. قال تيري إنّ ضوء القمر قد أغواه بحبّك، وإنّ قلبه لم يعلن الولاء يومًا لأحد غيري. قال إنّه يحبّ فعلًا الفتيات الرّقيقات *البسيطات*... وإنّ كلّ *الرّجال* مثله يحبّون هذا النّوع من النّساء... ولا يكترثون للاّتي *يكدن المكائد والدّسائس*. لم نفهم السّبب الّذي جعلك تتصرّفين معنا على ذلك النّحو... ولن نفهم ذلك أبدًا. ربّما كنتِ تبحثين عن مادّةٍ لقصّةٍ من قصصك، وظننتِ أنّ في وسعك إيجادها عبر العبث بمشاعر الحبّ العذبة والواجفة الّتي هزّت طفلةً صغيرةً مثلي. ولكنّني أشكرك على أنّك سمحتِ لنا بأن يكتشف *بعضنا بعضًا* من جديدٍ. قال تيري إنّه لم يكن من قبلُ يعي معنى الحياة الدّفين. إذَن فالأمر لم يكن بذلك السّوء. نحن الآن متفاهمان جدًّا... ويمكن أن يستشعر الواحد منّا أفكار الآخر.

لا أحد يفهمه غيري، وأريد أن أكون *مصدر إلهام أبديّ بالنّسبة إليه*. لستُ متّقدة الذّكاء مثلك، ولكنّني أشعر أنّ بإمكاني بلوغ *تلك* الغاية، فروحه شقيقة روحي، وقد تبادلنا العهد على الصّدق والوفاء بعضنا لبعضٍ، مهما كانت نيّة بعض النّاس الحسّاد، والأصدقاء المزيّفين الّذين يحاولون زرع الأشواك في طريقنا.

سوف نتزوّج حالما يكون جهاز الزّفاف حاضرًا. سأذهب إلى بوسطن لأشتريه. فلا يوجد شيءٌ يُذكَر في سامرسايد. سيكون فستان زفافي *أبيض ومتموّجًا*، أمّا حلّة سفري فستكون رماديّةً في لون الحمائم، مع قبّعةٍ وقفّازين وبلوزةٍ *زرقاء في لون زهرة العائق*. مازلتُ بالطّبع صغيرةً في السّنّ، ولكنّني أريد أن أتزوّج وأنا في هذا العمر، قبل أن يخبو ذلك البريق من حياتي.

تيري هو الشّخص الوحيد الّذي أراه في أكثر أحلامي جموحًا، وكلّ نبضةٍ في قلبي هي له وحده. أعلم جيّدًا أنّنا سنعيش في *سعادةٍ غامرةٍ*. كنتُ في السّابق أظنّ أنّ كلّ أصدقائي *سيبتهجون* لسعادتي هذه، ولكنّني تعلّمتُ منذ ذلك الحين درسًا مريرًا جعلني أكثر حكمةً *وواقعيّةً* في هذا العالم.

المخلصة

هايزل مار

ملاحظة أولى: كنتِ قد أخبرتني أنّ تيري فتًى ذو *طبعٍ حادٍّ*. لتعلمي إذَن أنّ أخته أكّدت لي أنّه حملٌ وديعٌ.

هـ. م.

ملاحظة ثانية: سمعتُ أنّ عصير اللّيمون يمكنه أن يبيّض النّمش. جرّبيه على أنفك.

هـ. م.

قالت آن محدّثةً داستي ميلر: «في خصوص الملاحظة الثّانية في الرّسالة، ومثلما قالت ريبيكا ديو، لقد طفح الكيل فعلًا».

(13)

حلّت العطلة الثّانية في مدرسة سامرسايد الثّانويّة، وعادت آن إلى الدّيار وقد اختلطت عليها مشاعر شتّى. فلن يكون جيلبرت في آفونلي خلال ذلك الصّيف، إذ أنّه ذهب للعمل في موقعٍ لبناء سكّةٍ حديديّةٍ جديدةٍ بمنطقة «الغرب». ولكنّ غرين غايبلز ظلّت كما هي، ولم يتغيّر شيءٌ في مدينة آفونلي. فقد شعشعت بحيرة المياه المتلألئة وتوهّجت كما العادة. وأينعت نباتات السّرخس وتكاثفت كما في السّابق حذو «ينبوع الحوريّات»، وعلى جوانب القنطرة الخشبيّة الّتي بالرّغم من أنّها أضحت هشّةً ومكسوّةً بالطّحالب سنةً بعد أخرى، فقد ظلّت الطّريق الوحيدة المؤدّية إلى «الغابة المسكونة» بظلالها وسكونها وأغاني الرّياح فيها.

وكانت آن قد استطاعت إقناع السّيّدة كامبل بالسّماح للصّغيرة إليزابيث بالذّهاب معها إلى غرين غايبلز لمدّة أسبوعين... لا أكثر. ولم تكن إليزابيث الّتي كانت تتطلّع بكلّ شوقٍ إلى قضاء أسبوعَين كاملين مع الآنسة شيرلي تريد من الحياة أكثر من ذلك.

أطلقت إليزابيث زفرة ارتياحٍ وابتهاجٍ شديدين وهما يغادران عزبة الصّفصاف في العربة، وقالت لآن: «أشعر اليوم أنّني الآنسة

إليزابيث. هلّا ناديتِني رجاءً «الآنسة إليزابيث» حين تقدّمينني إلى أصدقائك في غرين غايبلز؟ سأشعر عندئذٍ أنّي كبرتُ وازددتُ نضجًا».

أجابتها آن بنبرةٍ فيها شيءٌ من العُبوس وقد تذكّرت آنسةً صغيرةً وصهباء الشّعر كانت تتوسّل أن ينادوها باسم «كورديليا»[1]: «أعدك بذلك».

كانت السّفرة الّتي أخذت إليزابيث من برايت ريفر إلى غرين غايبلز، على طول طريقٍ لا يمكن أن تستسيغ عذوبتها إلّا في جزيرة الأمير إدوارد خلال شهر يونيو، تشبه تقريبًا في نشوتها تلك السفرة الّتي قامت بها آن منذ سنواتٍ طويلةٍ ذات أمسيةٍ لا تُنسى من أماسي الرّبيع. فقد كان العالم كلّه بديعًا، ولاحت المروج الخضراء الّتي تموّجت بفعل الرّيح في كلّ جانبٍ، وتربّصت المفاجآت في كلّ منعطفات الطّريق. لقد كانت مع حبيبتها الآنسة شيرلي، وسوف تتحرّر من قيود «المرأة» لأسبوعين بالتّمام والكمال. كانت ترتدي فستانًا جديدًا زهريّ اللّون من قماش الجنجهام، وزوجًا جديدًا ورائعًا من الأحذية الطّويلة والبنّيّة اللّون. لقد بدا الأمر وكأنّ «الغد» هلّ هلاله... وسيتبعه أربعة عشر «غدًا» أخرى. لمعت عينا إليزابيث بالأماني والأحلام حين حادتا عن الطّريق الرّئيسيّة نحو درب غرين غايبلز الّذي نبتت على جانبيه الورود الحمراء البرّيّة.

---

(1) في إشارة إلى شخصيّة أخرى في المجموعة القصصيّة اسمها آن، وهي ابنة صديقة الآنسة شيرلي، الّتي كانت تفضّل اسم «كورديليا» على «آن».

بدا وكأنّ كلّ شيءٍ أخذ يتبدّل على نحوٍ سحريٍّ منذ اللّحظة الّتي دخلت فيها إليزابيث إلى غرين غايبلز. فقد عاشت مدّة أسبوعين على وقع عالمٍ من روايات الحبّ. فلا يمكن لأيّ أحدٍ أن يتخطّى عتبة باب غرين غايبلز دون الانغماس في عالم من الرّومانسيّة. كان مقدّرًا لكلّ الأشياء أن تحدث في آفونلي... إن لم يكن اليوم فغدًا. لم يكن عالم «الغد» قد غمر إليزابيث بكلّ تفاصيله بعدُ، ولكنّها كانت تعي جيّدًا أنّها تقف بالضّبط على حافّته.

كان كلّ شيءٍ داخل غرين غايبلز وحولها يبدو وكأنّه قد تعرّف إلى إليزابيث ورحّب بها. حتّى طقم شاي ماريلا الزّهريّ اللّون والّذي تزخرف ببراعم الورود بدا وكأنّه صديقٌ قديمٌ. كانت الغرف تنظر إليها وكأنّها تعرفها وتحبّها منذ أمدٍ بعيدٍ، أمّا العشبُ فقد اخضرّ أكثر من غيره في الأماكن الأخرى، بينما كان سكّان غرين غايبلز من تلك الطّينة الّتي تعيش في عالم «الغد». لقد أحبّتهم مثلما غمروها بحبّهم. فقد كلِف دايفي ودورا بها ودلّلوها، وقبِلت بها ماريلا والسّيّدة ليند. لقد كانت صافية القلب، ومهذّبةً، وتحترم من يكبرها سنًّا. كان الجميع يعلمون أنّ آن لا تستسيغ أساليب التّربية لدى السّيّدة كامبل، ولكنّ من الجليّ أنّها قد ربّت ابنة حفيدتها وفقًا للأصول.

همست إليزابيث إلى آن حين أَوَتا إلى الفراش في الغرفة الّتي تعلو السّقيفة، بعد أمسيةٍ استطارت فيها من الفرح: «أوه، لا أرغب في النّوم يا آنسة شيرلي. لا أريد أن أنام ولو لدقيقةٍ واحدةٍ خلال

هذين الأسبوعين الرّائعين. أتمنّى أن أمضي طيلة الوقت هنا دون أن يغمض لي جفنٌ».

لم تنم لبرهةٍ طويلةٍ من الزّمن. كانت مستلقيةً هناك وكأنّها في عالم الفردوس، وهي تنصت إلى الصّوت الخفيض والباهر للرّعد، والّذي أكّدت لها الآنسة شيرلي أنّه لم يكن سوى هديرٍ لأمواج البحر. لقد هامت إليزابيث بذلك، وأيضًا بزفرات الرّيح وهي تتنهّد حول طنوف السّطح. لطالما كانت إليزابيث «تخاف اللّيل». من يدري ما الشّيء الغريب الّذي يمكنه أن يثب عليها من ظلمة اللّيل؟ ولكن لا شيء يخيفها الآن. وللمرّة الأولى في حياتها بدا لها اللّيل أنيسًا وصديقًا حميمًا.

وعدتها الآنسة شيرلي أنّهما ستذهبان ناحية الشّاطئ في اليوم الموالي، وأن تغطسا تحت تلك الأمواج الّتي تزيّنت قِممُها باللّون الفضّيّ، الأمواج الّتي شاهدتاها حين كانتا في العربة فوق التّلّة الأخيرة وهي تتكسّر على كثبان آفونلي الخضراء. كانت إليزابيث وهي على فراشها تتخيّلها وهي تقتربُ، الواحدة تلو الأخرى. وكانت إحداها موجةً ضخمةً وقاتمةً جلبت معها النّعاس... غمرتها كلّها... وغرقت إليزابيث فيها بعد أن أطلقت زفرة استسلامٍ لذيذةً.

«إنّه... من... اليسير... جدًّا... أن... يحبّ... الإنسان... ربّه ... هنا». كانت تلك آخر فكرةٍ واعيةٍ تبادرت إلى ذهنها.

ولكنّها دأبت كلّ ليلةٍ من ليالي إقامتها في غرين غابلز على المكوث صاحيةً برهةً من الزّمن وهي تفكّر في أشياء كثيرةٍ، وذلك

بعد أن تخلد الآنسة شيرلي إلى النّوم بفترةٍ طويلةٍ. لماذا لا تكون الحياة في المنزل «الدّائم الخضرة» مثل الحياة في «غرين غايبلز»؟

لم تعش إليزابيث من قبلُ في مكانٍ يمكنها أن تُحدث فيه بعض الجلبة إذا أرادت ذلك. كان الجميع في المنزل «الدّائم الخضرة» يتحرّكون بهدوءٍ... ويتحدّثون بهدوءٍ... ويفكّرون أيضًا بهدوءٍ، كما بدا لها في ذلك المكان. وكانت هناك أوقاتٌ ودّت فيها إليزابيث لو ارتفعت عقيرتها بالصّراخ عاليًا وطويلًا.

كانت آن قد قالت لها قبل ذلك: «يمكنك أن تحدثي الضّجيج الّذي تريدينه هنا». ولكنّ الغريب في الأمر أنّها لم تعد تشعر بالرّغبة في الصّراخ بهذا المكان الّذي لن يمنعها فيه أحدٌ من ذلك. فقد أنست إلى التّحرّك بهدوءٍ، والمشي بلطفٍ بين كلّ الأشياء الجميلة الّتي تحيط بها. ولكنّ الأهمّ من ذلك هو أنّها تعلّمت الضّحك خلال مُقامها في غرين غايبلز. وعندما عادت إلى سامرسايد، حملت معها الكثير من الذّكريات العذبة، وتركت وراءها أيضًا ذكرياتٍ أخرى بالعذوبة نفسها. فقد عاش أهل غرين غايبلز أشهرًا عديدةً على وقع ذكريات الصّغيرة إليزابيث. لقد كانت بالنّسبة إليهم «الصّغيرة إليزابيث»، بالرّغم من أنّ آن قدّمتها رسميًّا بصفتها «الآنسة إليزابيث». لقد كانت ضئيلة القوام وذهبيّة الطّلعة كأنّها جنّيّةٌ صغيرةٌ، ولا يمكن تسميتها بأيّ شيءٍ آخر سوى الصّغيرة إليزابيث... الصّغيرة إليزابيث الّتي كانت ترقص عند الغسق في الحديقة، بين زنابق شهر يونيو البيضاء... والّتي كانت تنحني على غصنٍ من أغصان شجرة التّفّاح الكبيرة، وهي تقرأ قصص الحوريّات دون أن يعكّر صفوَها أحدٌ...

الصّغيرة إليزابيث الّتي تكاد تغرق في حقول نبات الحوذان[1]، وهي حقولٌ بدا فيها رأسها الذّهبيّ وكأنّه حوذانة كبيرةٌ... الصغيرة التي تلاحق الفراشات الفضّيّة المائلة إلى الخضرة أو الّتي تحاول عدّ اليراعات في «درب العشّاق»... الصّغيرة إليزابيث الّتي كانت تصغي إلى طنين النّحل على نبات الجُريس[2]... والّتي كانت دورا تطعمها الفراولة والقشدة في حجرة المؤن أو الّتي كانت تأكل معها الزّبيب في فناء الدّار... «الزّبيب الأحمر في غاية الرّوعة، أليس كذلك يا دورا؟ إنّنا كمَن يأكل الجواهر، أليس كذلك؟»... الصّغيرة إليزابيث الّتي كانت تغنّي لنفسها في الظّلال القاتمة لأشجار التّنّوب... وأناملها قد أصبحت عطرةً من جمع «ورود الكرنب» الممتلئة والضّخمة والزّهريّة اللّون... والّتي كانت تحدّق في القمر المعلّق فوق جدول المياه... «أعتقد أنّ عيني القمر *متكدّرتان* قليلًا، ألا ترين ذلك يا سيّدة ليند؟»... الصّغيرة إليزابيث الّتي كانت تبكي بمرارةٍ حين تنهي قراءة فصلٍ من سلسلة حكاياتٍ في مجلّةٍ من مجلّات دايفي، فصلٍ يقع فيه البطلُ في ورطةٍ لا مخرج منها... «أوه، يا آنسة شيرلي، أنا متأكّدةٌ أنّه لن يتخلّص من هذا المأزق أبدًا!»... الصّغيرة إليزابيث الّتي كانت تستكنّ فوق أريكة المطبخ وقد تورّد وجهها الجميل مثل وردةٍ بريّةٍ، لتأخذ قسطًا من النّوم بعد الظّهيرة وهُريرات دورا تعانقها من حولها... والّتي كانت تضحك بصخبٍ عند رؤية الرّيح وهي ينفخ في أذناب الدّجاجات المسنّات والموقّرات، فيجعل ريش أذنابها فوق

---

(1) نبات أصفر للزّينة.

(2) جنس نباتّي اكتسب اسمه من شكل زهرته الّتي تشبه الجرس.

ظهورها... هل هذه هي الصّغيرة إليزابيث الّتي تضحك هكذا؟... الصّغيرة إليزابيث الّتي لم تتوانَ عن مساعدة آن في صنفرة الكعك المكوّب، والسّيّدة ليند في قصّ رقع القماش لغطاء السّرير الجديد ذي التّصاميم «الإيرلنديّة المزدوجة»، ودورا في حكّ الشّمعدانات النّحاسيّة القديمة إلى أن تنعكس صورة وجهيهما فيها... والّتي كانت تتعلّم تحت إشراف ماريلا قصَّ قِطع البسكويت الصّغيرة بطوقٍ حديديٍ. يا إلهي! لا يكاد أهل غرين غايبلز ينظرون إلى مكانٍ أو شيءٍ مّا إلّا وذكّرهم بالصّغيرة إليزابيث.

قالت الصّغيرة إليزابيث في نفسها وهي تغادر غرين غايبلز: «هل سأحظى مرّةً أخرى بأسبوعَين بهيجين مثل هذين الأسبوعين؟» كانت الطّريق المؤدّية إلى محطّة القطار جميلةً، تمامًا مثلما وجدتها منذ أسبوعَين، ولكن لم يكن بوسع الصّغيرة إليزابيث رؤيتها والدّموع تملأ عينيها.

قالت السّيّدة ليند: «لا أصدّق مطلقًا، سأشتاق إلى هذه الطّفلة كثيرًا».

حين غادرت إليزابيث، أتت كاثرين بروك وكلبها لقضاء بقيّة الصّيف في غرين غايبلز. كانت كاثرين قد استقالت في نهاية العام من إطار التّدريس بالمدرسة الثّانويّة، وعقدت العزم على الذّهاب إلى ريدموند في الخريف لمتابعة دروسٍ في السّكرتاريّة بجامعة ريدموند، بعد أن نصحتها آن بذلك.

قالت لها آن ذات مساءٍ: «أعرف جيّدًا أنّك ستحبّين ذلك،

وأنّك لم تحبّي مهنة التّدريس يومًا». كانتا تجلسان في ركنٍ امتلأ بنباتات السّرخس داخل حقلٍ من البرسيم، وتتأمّلان السّماء وقت غروب الشّمس المجيد.

قالت كاثرين بعزمٍ: «تدين لي الحياة بأشياء أكثر ممّا حبَتني به، وها أنا الآن ذاهبةٌ لأجمع هذه الأشياء». ثمّ أضافت ضاحكةً: «أشعر أنّني أصغر بكثيرٍ بالقياس إلى الوقت نفسه من العام الماضي».

«أنا متأكّدةٌ أنّه أفضل شيءٍ يمكن أن تفعليه، ولكنّني أكره أن أتخيّل سامرسايد والمدرسة من دونِك. كيف سيكون حال غرفة البرج في العام القادم دون مسامراتنا ونقاشاتنا المسائيّة، وأوقات اختبالنا حين يصبح الجميع أضحوكةً لدينا؟».

العام الثّالث

(1)

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

8 سبتمبر

عزيزي جيلبرت،

انقضى الصّيف... الصّيف الّذي لم أرك خلاله سوى في نهاية أسبوع واحدةٍ من شهر مايو. وها أنا أعود الآن إلى عزبة الصّفصاف للعام الثّالث والأخير بمدرسة سامرسايد الثّانويّة. لقد استمتعتُ صحبة كاثرين بأوقاتٍ رائعةٍ في غرين غايبلز، وسوف أشتاق إلى الآنسة بروك على نحوٍ رهيبٍ هذه السّنة. المدرّسة المبتدئة الجديدة فتاةٌ صغيرةٌ في السّنّ وظريفةٌ، ذات جسمٍ مكتنزٍ وابتسامةٍ مورّدةٍ وإقبالٍ ودود على الحياة مثل جروٍ صغيرٍ... ولكن لم يكن لديها شيءٌ آخر غير ذلك. كانت عيناها الزّرقاوان اللّامعتان توحيان بالسّطحيّة، ولا فكرة تعتمل خلفهما. إنّني أحبّها... وسأحبّها دائمًا... لا أكثر ولا أقلّ... لأنّه لا شيء يمكن *اكتشافه* فيها. وفي مقابل ذلك كان هناك الكثير لتكتشفه في كاثرين حين تتخلّى عن حذرها الشّديد.

لم يحصل أيّ تغييرٍ يُذكر في عزبة الصّفصاف... ولكن انتظر، لقد جدّ حدثٌ جديدٌ. فحين نزلتُ لتناول العشاء ليلة يوم الاثنين أخبرتني ريبيكا ديو بحزنٍ أنّ البقرة الصّهباء العجوز ماتت. وقرّرت الأرملتان ألّا تجهدا نفسيهما في تربية بقرةٍ أخرى، وأنّهما ستشتريان الحليب من عند السّيد شيري. وهذا يعني أنّ الصّغيرة إليزابيث لن تأتي مجدّدًا إلى بوّابة الحديقة لتشرب حليبها الطّازج. ولكن في مقابل ذلك، بدا أنّ السّيّدة كامبل قد تصالحت مع فكرة مجيء إليزابيث إلى هنا في أيّ وقتٍ تريد، وبذلك فإنّ موت البقرة لن يغيّر الشّيء الكثير الآن.

وهناك تغيير آخر يلوح في الأفق. فقد أخبرتني العمّة كايت، لأسفي ولوعتي الشّديدين، أنّهنّ قرّرن التّفريط في داستي ميلر حالما يجدن منزلًا ملائمًا له. ولّما عبّرتُ عن احتجاجي على ذلك، قالت لي إنّ الدّافع الحقيقيّ كان من أجل إحلال السّلم في البيت. إذ لم تنفكّ ريبيكا ديو تتذمّر منه طيلة الصّيف، ولا حيلة أخرى لديهما لإرضائها سوى التّخلّص منه. المسكين داستي ميلر... إنّه قطٌّ في غاية اللطف، وسأشتاق كثيرًا إلى جولاته في الخارج وإلى خرخرته في الدّاخل!

بما أنّ غدًا هو يوم السّبت، فإنّني سأتوجّه إلى منزل السّيّدة رايموند لأعتني بتوأميها، حتّى تتمكّن هي من الذّهاب إلى شارلوتاون وحضور جنازة أحد الأقرباء. السّيّدة رايموند أرملةٌ قدمت إلى مدينتنا في الشّتاء الفارط، وتعتقد ريبيكا ديو وأرملتا عزبة الصّفصاف -حقًّا

إنّ سامرسايد تزخر بالأرامل- أنّها «تتشامخ قليلًا» على سامرسايد، ولكنّها كانت عونًا كبيرًا لي ولكاثرين في أنشطتنا داخل نادي الفنون المسرحيّة. وعليّ أن أردّ لها الجميل.

يبلغ التّوأمان جيرالد وجيرالدين من العمر ثماني سنواتٍ، ويبدوان مثل اثنين من الملائكة، ولكنّ ريبيكا ديو قطّبت ما بين حاجبيها، وهي عبارة اقتبستها من عندها، حين أخبرتها بما أنوي فعله.

«ولكنّني أحبّ الأطفال يا ريبيكا».

«الأطفال، نعم، ولكنّ هذين الطّفلين عفريتان فظيعان يا آنسة شيرلي. ولا تؤمن السّيّدة رايموند بفكرة عقاب الأطفال مهما فعلوا من مصائب. قالت إنّها مصمّمة على أن يعيش طفلاها حياةً «طبيعيّة». يأسران قلوب النّاس بتلك الوسامة الطّاهرة، ولكنّني سمعت ما تناقله الجيران عنهما. فذات مساءٍ ذهبتْ زوجةُ القسّيس لزيارتها... الحقيقة أنّ السّيّدة رايموند كانت لطيفةً معها مثل كعكةٍ من الحلوى، ولكن حين همّت بالمغادرة انهال عليها من أعلى السّلالم وابلٌ من البصل الإسبانيّ، واقتلع أحدهما القبّعة من فوق رأسها. «يتصرّف الأطفال على نحوٍ شنيع حين نريدهم أن يكونوا مهذّبين»، كان ذلك كلّ ما قالته السّيّدة رايموند... وبنبرةٍ متساهلةٍ جدًّا وكأنّها تفخر بعدم قدرتها على ترويض طفليها. إنّهم من الولايات المتّحدة، كما تعلمين»... وكأنّ ذلك بالنّسبة إليها كان يفسّر كلّ شيءٍ. لقد كانت ريبيكا ديو تحبّ «اليانكيّين» تمامًا مثل السّيّدة ليند.

(2)

اتّجهت آن في فترة الضّحى من يوم السّبت إلى المنزل الرّيفيّ الجميل والعتيق، الّذي يقع على شارعٍ تائهٍ في البراري، حيث تسكن السّيّدة رايموند وطفلاها التّوأمان المشهوران. كانت السّيّدة رايموند تتأهّب لمغادرة بيتها... وقد ارتدت ملابس بهيجةً ربّما لم تكن لتتلاءم مع حدث الجنازة... ولاسيّما تلك القبّعة المزهرة والجاثمة فوق تموّجاتٍ من الشّعر البنّيّ النّاعم الّذي انساب حول رأسها... لكنّها مع ذلك كانت تبدو بديعةً. كان التّوأمان اللّذان يبلغان من العمر ثماني سنواتٍ، واللّذان ورثا عن أمّهما حسنها، جالسين على درج السّلالم، وقد لفّت سحنتيهما الرّقيقتين هالةٌ من الجمال الملائكيّ. كان لون بشرتهما خليطًا من الأبيض والزّهريّ، وكانت لهما أعينٌ واسعةٌ في لون الخزف الأزرق، وهالتان من الشّعر الأملس والمنفوش الّذي تلوّن بلونٍ أصفر باهتٍ.

علت محيّاهما ابتسامةٌ عذبةٌ وساحرةٌ حين قدّمتهما أمّهما إلى آن، وقالت لهما إنّه لطفٌ كبيرٌ من الآنسة العزيزة شيرلي أن تأتي إلى هنا، وأن تعتني بهما أثناء غيابها لحضور جنازة عمّتها الحبيبة إيلا، وقالت

أيضًا إنّهما سيكونان مؤدّبَين ولن يسبّبا أيّ نوعٍ من المتاعب مهما كانت صغيرةً، أليس كذلك يا أحبّائي؟

أومأ الحبيبان برأسيهما على نحوٍ رصينٍ، وحاولا جاهدَين أن يفتعلا سحنةً أكثر براءةً وملائكيّة، بالرّغم من أنّ ذلك كان مستحيلًا.

رافقت السّيّدة رايموند الآنسة شيرلي إلى آخر الممرّ المؤدّي إلى البوّابة.

قالت بنبرةٍ مثيرةٍ للشّفقة: «إنّهما كلّ ما لديّ... الآن. لعلّي دلّلتهما قليلًا... أعلم أنّ النّاس يردّدون هذا القول... هل لاحظت يا آنسة شيرلي أنّهم دائمًا يعرفون أكثر منك بكثيرٍ كيف ينبغي عليك أن تربّي أطفالك؟ ولكنّني *أعتقد* أنّ من الحكمة أن يغمر المرء أطفاله بالحبّ والحنان أفضل من ضَربهم على مؤخّراتهم كلّ يومٍ، أليس كذلك يا آنسة شيرلي؟ أنا متأكّدةٌ أنّك لن تواجهي أيّ متاعب معهما. فالأطفال يعرفون دائمًا الأشخاص الّذين يمكن مضايقتهم واستنباط الحيل لهم وأولئك الّذين لا يمكنهم ذلك، ألا تعتقدين ذلك؟ تلك الآنسة بروتي المسكينة الّتي تسكن في أعلى الطّريق... كان عليّ أن أطلب منها البقاء معهما ذات يومٍ، ولكنّ عزيزيّ الصّغيرين لم يطيقاها. فقرّرا بالطّبع مضايقتها قليلًا... تعرفين طبع الأطفال الصّغار. فثأرت الآنسة بروتي لنفسها بنسج أكثر الحكايات سخافةً عنهما وإشاعتها في كلّ أرجاء المدينة. ولكنّهما سيحبّانك كثيرًا، وأعرف أنّهما سيكونان مثل ملاكين من السّماء.

هما بطبيعة الحال مرحان ونشيطان على نحوٍ كبيرٍ... ولكن يجب على الأطفال أن يكونوا كذلك، أليس هذا صحيحًا؟ من المثير للشّفقة أن ترى الصّغار بذلك الإذعان والخوف، أليس كذلك؟ أحبّ أن أراهما على طبيعتهما. لا يبدو الأطفال المهذّبون جدًّا طبيعيّين، أليس كذلك؟ رجاءً، لا تسمحي لهما بالإبحار بقواربهم في حوض الاستحمام أو الخوض في مياه الغدير. أخشى أن يصابا بالزّكام... لقد مات أبوهما بنزلةٍ صدريّةٍ.

بدت العينان الزّرقاوان والواسعتان للسّيّدة رايموند وكأنّهما ستفيضان بالدّموع، ولكنّها سرعان ما طَرَفت بعينيها لتبدّد دمعةً كادت تسيل منهما.

«لا تجزعي كثيرًا إذا رأيتهما يتخاصمان قليلًا - فمن طَبْع الأطفال الخصامُ، أليس كذلك؟ ولكن إذا ما هاجمهما شخصٌ غريبٌ... يا إلهي! فإنّ كلًّا منهما يصير عابدًا للآخر. كان بالإمكان أخذ *أحدهما* إلى المأتم، ولكنّهما سيرفضان رفضًا قاطعًا. لم ينفصل أحدهما عن الآخر يومًا واحدًا. ثمّ إنّه لا يمكنني أن أراقب توأمين في جنازةٍ، هل كنت سأقدر على ذلك؟».

قالت آن بلطفٍ: «لا تقلقي أيّتها السّيّدة رايموند. أنا على يقينٍ من أنّني سأقضّي مع جيرالد وجيرالدين يومًا رائعًا. فأنا أحبّ الأطفال كثيرًا».

«أعرف ذلك، شعرتُ منذ الوهلة الأولى الّتي رأيتك فيها أنّك مولعةٌ بالأطفال. إنّه بادٍ على وجهك. هناك دائمًا شيء مّا ينبعث

من شخصٍ يحبّ الأطفال. كانت الآنسة بروتي المسكينة لا تطيق الأطفال الصّغار. لقد بحثَت عن أسوإ ما فيهم، ووجدته بطبيع الحال. لا يمكنك أن تتصوّري مدى الرّاحة الّتي أشعر بها حين أفكّر في أنّ طفليّ العزيزين تحت رعاية شخصٍ يحبّ الأطفال ويتفهّمهم. أنا متأكّدة أنّني سأستمتع بيومي».

صاح جيرالد فجأةً وقد نتأ رأسه من نافذة الطّابق العلويّ: «كان عليك أن تأخذينا معك إلى الجنازة. لم نستمتع بشيءٍ مثل هذا من قبل».

تأوّهت السّيّدة رايموند على نحوٍ مأسويٍّ وقالت بصوتٍ عالٍ: «أوه، إنّهما في غرفة الاستحمام. عزيزتي الآنسة شيرلي، هلّا ذهبت إليهما وأخرجتهما منها. جيرالد حبيبي، تعرف جيّدًا أنّ أمّك لا تستطيع اصطحابكما أنتما الاثنين إلى الجنازة. أوه يا آنسة شيرلي، لقد أخذ جلد ذئب البراري من أرضيّة غرفة الاستقبال، وربطه من مخالبه حول عنقه مرّةً أخرى. سوف يُتلف ذلك الجلد. رجاءً أن تجعليه ينزعه فورًا. عليّ أن أعجّل في الذّهاب حتّى لا يفوتني القطار».

ابتعدت السّيّدة رايموند بكلّ تأنّقٍ، وأسرعت آن إلى الطّابق العلويّ لتجد جيرالدين، الطّفلة الملائكيّة الصّغيرة، وهي تمسك بساقي شقيقها، وكانت على ما يبدو تحاول الإلقاء بجسمه خارج النّافذة.

قالت جيرالدين بشراسةٍ: «آنسة شيرلي، قولي لجيرالد أن يتوقّف عن إخراج لسانه لي».

سألتها آن مبتسمةً: «وما المانع من ذلك؟».

فردّت عليها جيرالدين وهي ترمق أخاها بنظراتٍ منذرةٍ بالشّرّ، وقد بادلها هو أيضًا الشّرور نفسه وأكثر: «قلتُ إنّه لن يخرج لسانه لي مرّةً أخرى».

«لساني ملكي، ولن تمنعيني من إخراجه متى شئتُ... هل تستطيع ذلك يا آنسة شيرلي؟».

تجاهلت آن السّؤال.

«عزيزيّ التّوأمين، لم تبق سوى ساعةٍ واحدةٍ على وقت الغداء. ألا نذهب جميعنا إلى الحديقة للّعب ورواية بعض الحكايات؟ وأنت يا جيرالد، هلّا أعدت جلد ذئب البراري على الأرض ثانيةً؟».

قال جيرالد: «ولكنّني أريد أن ألعب دور الذّئب».

صاحت جيرالدين، وقد انحازت فجأةً إلى جانب أخيها: «إنّه يريد أن يلعب دور الذّئب».

ثمّ صاحا معًا: «نريد أن نلعب دور الذّئب».

دوّى في تلك اللّحظة جرس الباب، وقطع العقدة العويصة الّتي كادت آن تتورّط فيها.

صرخت جيرالدين: «هيّا بنا ننظر من الطّارق». هبّا نحو السّلالم، وتزحلقا على الدرابزينات فوصلا إلى الباب الأماميّ للمنزل قبل آن بوقتٍ طويلٍ، وقد انحلّ جلد ذئب البراري من عنق جيرالد، وسقط في الأثناء.

قال جيرالد للسّيّدة الّتي وقفت على عتبة الباب: «نحن لا نشتري أيّ شيءٍ من الباعة المتجوّلين».

سألتهما الزّائرة: «هل يمكنني رؤية والدتكما؟».

«كلّا، لا يمكنك ذلك. ذهبت أمّي إلى جنازة العمّة إيلا. والآنسة شيرلي هي الّتي تهتمّ بشؤوننا الآن. ها هي تنزل السّلالم وسوف تطردك من هنا».

فكّرت آن في أن تنهر المنادية *بالفعل* حين عرفت من تكون. فلم تكن الآنسة باميلا درايك زائرةً مرغوبًا فيها كثيرًا بسامرسايد، لأنّها كانت دائمًا «تطوف وتلتمس كثيرًا» بيع شيءٍ مّا، حتّى إنّه من المستحيل التّخلّص منها دون أن تشتريه، ولم يكن يؤثّر فيها بتاتًا الزّجر أو التّلميحات المعرّضة، كما يبدو أنّ لها متّسعًا كبيرًا من الوقت لفعل ذلك. كانت في تلك المرّة تحاول أخذ طلبيّاتٍ تخصّ موسوعةً... شيء لا يمكن لأيّ مدرّسٍ أن يستغني عنه. احتجّت آن دون جدوى، وقالت إنّها لا تحتاج إلى موسوعةٍ مثل هذه... فالمدرسة الثّانويّة تملك نسخةً في غاية الجودة.

قالت الآنسة باميلا بحزمٍ: «عمرها عشر سنواتٍ. سنجلس هنا يا آنسة شيرلي على هذه المصطبة الخشنة، وسأريك نبذةً عنها».

«آسفة يا آنسة درايك. ليس لديّ متّسعٌ من الوقت. لديّ طفلان عليّ أن أعتني بهما».

«لن يستغرق الأمر سوى بضع دقائق. كنت أنوي الطّواف على منزلك، ومن حسن حظّي أنّني وجدتك هنا. هيّا، اركضا أيّها

الصّغيران والعبا، ريثما أتصفّح أنا والآنسة شيرلي هذه المطويّات البديعة».

قالت جيرالدين وقد ألقت إلى الوراء ضفائرها الرّقيقة مثل الأثير: «لقد استأجرت أمّي الآنسة شيرلي للاعتناء بنا». ولكنّ جيرالد جرّها إلى الخلف، وصفقا الباب وراءهما بقوّةٍ.

«ترين يا آنسة شيرلي كم هي قيّمةٌ هذه الموسوعة. انظري إلى تلك الأوراق الرّائعة... *تحسّسيها*... تحسّسي تلك النّقوش المذهلة... لا موسوعة أخرى في السّوق لها هذا العدد من النّقوش والصّور... انظري إلى تلك الطّباعة البديعة، حتّى الأعمى يمكنه قراءتها، وكلّ ذلك بثمانين دولارًا. ثمانية دولاراتٍ الآن وثمانيةٌ أخرى كلّ شهرٍ إلى أن تسدّدي كلّ ثمنها. لن تحظي بهذه الفرصة مرّةً أخرى... نحن الآن بصدد التّعريف بها فقط... وفي العام القادم سيصل ثمنها إلى مائة وعشرين».

قالت آن وقد نفد صبرها: «ولكنّني لا أحتاج إلى موسوعةٍ يا آنسة درايك».

«طبعًا أنت تحتاجين إليها... *الجميع* يحتاجون إلى موسوعةٍ... موسوعةٍ *وطنيّةٍ* مثل هذه. لا أعرف كيف كنتُ أعيش قبل أن أتعرّف على هذه الموسوعة *الوطنيّة*. *أعيش*! لم أكن أحيا قبلها... كنتُ فقط على قيد الحياة. انظري إلى هذا النّقش الّذي يظهر فيه هذا الشّبنم[1] يا آنسة شيرلي. هل رأيت في حياتك طائرًا مثل هذا من قبل؟».

---

(1) طائر ضخم الجسم لا يستطيع الطّيران ويشبه النّعامة.

«ولكن يا آنسة درايك، أنا..».

«إذا كنت تعتبرين شروط بيعها باهظةً قليلًا فأنا متأكّدةٌ أنّني أستطيع ترتيب عرضٍ خاصٍّ من أجلك، بما أنّك مدرّسةٌ... ستدفعين ستّة دولاراتٍ في الشّهر عوضًا عن ثمانية. وبطبيعة الحال لا يمكنك أن ترفضي عرضًا مثل هذا يا آنسة شيرلي».

شعرت آن أنّ من المستحيل تقريبًا رفض ذلك. أليست ستّة دولاراتٍ في الشّهر مبلغًا مغريًا للتّخلّص من هذه المرأة البغيضة الّتي أصرّت على ألّا تبرح المكان حتّى تفوز بطلبيّةٍ؟ والأهمّ من ذلك، *ماذا* كان الطّفلان يفعلان؟ لقد اكتنف المنزل هدوءٌ مريبٌ. ربّما كانا يبحران بقاربَيهما في حوض الاستحمام، أو تسلّلا من الباب الخلفيّ وذهبا ليغطسا في الغدير.

قامت بمحاولةٍ أخرى يائسةٍ للهروب من محدّثتها.

«سأفكّر في الأمر يا آنسة درايك، وسأعلمك بذلك..».

قالت الآنسة درايك وقد أخرجت فجأةً قلم حبرٍ سائل: «خير البرّ عاجله. تعرفين أنّك ستقتنين الموسوعة الوطنيّة عاجلًا أم آجلًا، ومن الأفضل إذَن أن تسجّلي طلبيّتك الآن وليس في وقتٍ آخر. لا يمكن الفوز بأيّ شيءٍ في هذه الدّنيا إذا ما أجّلناه إلى وقتٍ لاحقٍ. يمكن للثّمن أن يقفز في أيّ لحظةٍ، وستدفعين حينها مائة وعشرين. وقّعي هنا يا آنسة شيرلي».

شعرت آن بقلم الحبر وهو يوضع قسرًا في يدها... ثمّ مضت لحظةٌ... دوّت إثرها صيحةٌ انبعثت من الآنسة درايك تجمّد لها الدّم

في العروق، فسقط قلم الحبر من يد آن تحت الأكمة الحمراء الذّهبيّة المحاذية للمصطبة الخشنة، وحملقت في جليستها برعبٍ شديدٍ.

هل كانت *تلك* الآنسة درايك... ذلك الشّيء الّذي لا يقبل الوصف، دون قبّعةٍ، ودون نظّارتين، وتقريبًا دون شعر؟ كانت القبّعة والنّظّارتين ورقعة الشَّعر الأماميّ المزيّف تسبح في الهواء فوق رأسها في منتصف الطّريق بينها وبين نافذة بيت الاستحمام، وقد أطلّ منها رأسان أشقران مثل الذّهب. كان جيرالد يمسك بقصبةٍ لصيد السّمك شُدّ إليها خَيْطان وفي نهايتهما خطّافان. أيّ سحرٍ هذا الّذي مكّنه من استنباط تلك الحيلة للفوز بهذا الصّيد الثّلاثيّ؟ هو فقط يمكنه الإجابة على هذا السّؤال. أو ربّما كان ذلك مجرّد حظٍّ.

طارت آن مسرعةً إلى المنزل وصعدت إلى الطّابق العلويّ. وحين بلغت غرفةَ الحمّام، كان التّوأمان قد اختفيا عن الأنظار. وكان جيرالد قد ترك قصبة الصّيد تسقط من يده، وكشفت نظرةٌ خاطفةٌ من النّافذة أنّ الآنسة درايك قد استشاطت غضبًا وهي تستعيد أشياءها، بما فيها قلم الحبر السّائل، قبل أن تتوجّه مهرولةً نحو البوّابة. لقد فشلت الآنسة درايك، وللمرّة الأولى في حياتها، في أن تمرّر إحدى طلبيّاتها.

اكتشفت آن إثر ذلك أنّ التّوأمين كانا في السّقيفة الخلفيّة يأكلان التّفّاح مثل الملائكة، واحتارت في أمرها كيف تتصرّف. من المؤكّد أنّ مثل هذا السّلوك لن يمرّ هكذا دون عقابٍ... ولكنّ جيرالد كان

بلا ريبٍ قد أنقذها من تلك الورطة العصيبة، ثمّ إنّ الآنسة درايك كانت كائنًا بغيضًا وتستحقّ ذلك الدّرس. ورغم ذلك فإنّ...

صاح جيرالد: «لقد التهمتِ دودةً عملاقةً. رأيتُها تختفي داخل حلقك».

وضعت جيرالدين تفّاحتها على الأرض وسرعان ما بدأت في التّقيّؤ... وبصفة مسترسلةٍ. انشغلت آن بها بعضَ الوقت، وعندما شعرت الطّفلة بالتّحسّن كان وقت الغداء قد حان، وقرّرت آن فجأةً أن تتغافل عمّا فعله جيرالد واكتفت بتأنيبٍ خفيفٍ. وفي نهاية الأمر لم يكن هناك أيّ ضررٍ دائمٍ للآنسة درايك الّتي ربّما من صالحها أن تمسك عن الكلام بشأن هذا الحادث.

قالت بلطفٍ: «هل تعتقد يا جيرالد أنّ ما اقترفته من فعلٍ هو من شيم الرّجال؟».

قال جيرالد: «كلّا، ولكنّه كان ممتعًا جدًّا. يا للرّوعة، لقد كنتُ صيّادًا ماهرًا، أليس كذلك؟».

كان الغداء الّذي أعدّته السّيّدة رايموند قبل ذهابها إلى المأتم شهيًّا، ومهما يكن من قصورٍ في طريقة تأديبها لطفليها، فقد كانت على أيّة حالٍ طبّاخةً رائعةً. انهمك جيرالد وجيرالدين في التهام الأكل، ولم يتخاصما أو يُظهرا سلوكًا فظًّا على الطّاولة في ذلك الوقت أكثر من سائر الأطفال. وبعد الغداء غسلت آن الأواني، وجعلت جيرالدين تساعدها في تجفيفها وجيرالد في وضعها بعنايةٍ داخل الخزانة ذات الرّفوف. كان كلاهما بارعَين في ذلك، وقالت آن

في نفسها، بكلّ رضًا عن النّفس، إنّ كلّ ما يحتاج إليه هذان الطّفلان هو بعض التّعليم الرّصين مع قليلٍ من الصّرامة والحزم.

(3)

كان السّيّد جايمس غراند واقفًا أمام الباب في السّاعة الثّانية بعد الزّوال. والسّيّد غراند هو رئيس مجلس الأمناء في المدرسة الثّانويّة، وكانت لديه أمورٌ مهمّةٌ وعاجلةٌ يودّ الحديث فيها ومناقشتها بالكامل مع آن، قبل أن يغادر يوم الاثنين لحضور مؤتمرٍ حول التّربية والتّعليم في كينغسبورت. سألته آن عمّا إذا كان بإمكانه أن يزورها في عزبة الصّفصاف آخرَ المساء، ولكن للأسف، لم يكن باستطاعته ذلك.

كان السّيّد غراند من طينة الرّجال الطّيّبين، ولكن على طريقتهم. وقد فهمت آن منذ زمنٍ بعيدٍ أنّ عليها التّعامل معه بكثيرٍ من الرّفق واللّين. وفضلًا عن ذلك، كانت حريصةً على كسبه إلى صفّها في معركةٍ حادّةٍ بدأت تظهر للعيان حول بعض التّجهيزات الجديدة للمدرسة.

خرجت آن لتوصي الطّفلين:

«عزيزيّ، هلّا لعبتما بلطفٍ وهدوءٍ في السّاحة الخلفيّة ريثما أتحدّث قليلًا مع السّيّد غراند؟ لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا... ثمّ ستكون لنا بعد الزّوال نزهةٌ على ضفاف الغدير... وسأعلّمكما

طريقة النّفخ في فقّاعات الصّابون الّتي بداخلها صباغٌ أحمر... وهو أجمل شيءٍ يمكنكما رؤيته!».

سألها جيرالد. «هل ستعطي ربع دولارٍ لكلّ واحدٍ منّا إذا بقينا مهذّبَين؟».

أجابته آن بصرامةٍ: «كلّا يا عزيزي جيرالد. لن أدفع لك مقابلًا. أعرف أنّك ستكون في المستوى المأمول كما ينبغي أن يكون الرّجال النّبلاء والمؤدّبون، ولأنّني أيضًا طلبتُ منك ذلك».

قال جيرالد بجدّيّةٍ: «أعدك بأن نكون مؤدّبَين يا آنسة شيرلي».

وردّت صداه جيرالدين بالجدّيّة نفسها: «سنكون مؤدّبَين جدًّا».

كان من الممكن أن يفيا بوعدهما لو أنّ آيفي ترانت لم تصل لحظةَ اختلت آن بالسّيّد غراند في بهو الاستقبال. المشكل في قدوم آيفي ترانت هو أنّ توأمي عائلة رايموند يمقتانها كثيرًا... آيفي ترانت المعصومة من العيوب، تلك الّتي لم ترتكب في حياتها خطأً، وتبدو دائمًا وكأنّها خرجت لتوّها من صندوقٍ للألبسة.

لا شكّ في أنّ آيفي ترانت قدمت في ذلك الوقت بالذّات بعد الظّهيرة للتّباهي بحذائها الطّويل والجديد ذي اللّون البنّيّ، وبالرّبطات والأشرطة الأرجوانيّة الّتي زيّنت حزامها وكتفها وشعرها. وللسّيّدة رايموند، رغم عيوبها في أمورٍ أخرى، أفكارٌ معقولةٌ جدًّا في ما يخصّ إلباس الأطفال. كان جيرانها الأبرار يقولون إنّها تنفق أموالًا طائلةً على نفسها إلى درجة أنّه لا يبقى لها ما تنفقه على طفليها... ولم تحظَ جيرالدين قطّ بفرصة التّبختر

في الشّارع كما تفعل آيفي ترانت، الّتي كانت تملك فستانًا خاصًّا بكلّ يومٍ من الأسبوع. كانت السّيّدة ترانت تكسوها دائمًا «بأبيض ناصعٍ»، وكان هندام آيفي على الأقلّ نظيفًا وناصعًا حين تخرج من المنزل. إذا عادت إليه والبقع تلطّخ ثيابها فتلك بطبيعة الحال غلطة الأطفال الّذين «يغارون» منها، والّذين يعجّ بهم الحيّ.

كانت الغيرة قد بدأت فعلًا تعتمل في صدر جيرالدين. لطالما ودّت لو وضعت على كتفها تلك الشّرائط الحمراء وارتدت ذلك النّطاق الأرجوانيّ وتلك الفساتين البيضاء المطرّزة. ما الّذي كانت ستفعله للحصول على مثل تلك الجزمة البنّيّة ذات الأزرار؟

سألتها آيفي بافتخارٍ: «ما رأيك في ربطات الحزام والكتف الجديدة هذه؟».

قلّدت جيرالدين السّؤال نفسه وقالت بتهكّمٍ لاذعٍ: «ما رأيك في ربطات الحزام والكتف الجديدة هذه؟».

أجابتها آيفي بغرورٍ: «ولكنّك لا تملكين مثل هذه الرّبطات».

فزعقت جيرالدين مقلّدةً: «ولكنّك لا تملكين مثل هذه الرّبطات».

بدت آيفي في حيرةٍ.

«لديّ الكثير منها، ألا يمكنك رؤيتها؟».

أعادت جيرالدين السّؤال بنبرة تهكّمٍ، وقد شعرت بالسّعادة لفكرة تقليد كلّ شيءٍ تقوله آيفي باحتقارٍ: «لديّ الكثير منها، ألا يمكنك رؤيتها؟».

قال جيرالد: «لم تدفعوا ثمنها».

تعكّر مزاج آيفي، وبان ذلك على وجهها الّذي بدأ يحمرّ ويتلوّن بلون ما تضعه على كتفها من أشرطةٍ.

«لقد دفعنا ثمنها. لم تتأخّر أمّي يومًا عن تسديد ثمن فواتيرها».

هزجت جيرالدين بنبرةٍ رتيبةٍ: «لم تتأخّر أمّي يومًا عن تسديد ثمن فواتيرها».

شعرت آيفي بعدم الارتياح، ولم تكن تعرف بالضّبط كيف تتصرّف في مثل هذه الظّروف. التفتت إلى جيرالد الّذي كان بلا ريبٍ أكثر أطفال الحيّ وسامةً. كانت قد قرّرت أمرًا بشأنه.

«أتيتُ إلى هنا لأخبرك أنّني أريدك أن تكون عشيقي». قالت له ذلك بفصاحةٍ، وهي تنظر إليه بعينين كستنائيّتين كانت تعلم مسبقًا، حتّى وهي في السّابعة من عمرها، أنّ لهما تأثيرًا مدمّرًا على أغلب الأطفال الصّغار الّذين تعرفهم.

تلوّنت سحنة جيرالد باللّون القرمزيّ.

قال لها: «لن أكون عشيقكِ».

أجابته آيفي بصفاءٍ وسكينةٍ: «ولكن عليك أن تكون كذلك».

قالت جيرالدين لأخيها وهي تهزّ رأسها في تهكّمٍ: «ولكن عليك أن تكون كذلك».

صاح جيرالد بغضبٍ: «لن أكون كذلك. وأنت يا آيفي ترانت، لا أريد أن أسمعك تقولين أيّ شيءٍ».

قالت آيفي بعنادٍ: «عليك أن تكون كذلك».

قالت جيرالدين مثل ببّغاء: «عليك أن تكون كذلك».

رمقتها آيفي بنظرةٍ حانقةٍ وقالت: «أغلقي فمك يا جيرالدين رايموند!».

قالت جيرالدين: «أظنّ أنّه يمكنني الكلام وأنا في فناء منزلنا».

قال جيرالد: «طبعًا يمكنك ذلك. وأنتِ يا آيفي ترانت، إذا لم تغلقي فمك فإنّني سأذهب إلى بيتكم وأقتلع عيني دميتك».

صاحت آيفي: «ستصفعك أمّي على مؤخّرتك إذا فعلت ذلك».

«أوه، هل ستفعل ذلك حقًّا؟ هل تعلمين ما تستطيع *أمّي* فعله إذا ضربتني أمّك؟ ستسدّد لها لكمةً على أنفها».

قالت آيفي، وقد عادت بهدوءٍ إلى موضوعها الأهمّ: «حسنًا، على أيّة حالٍ، عليك أن تكون عشيقي».

صرخ جيرالد بجنونٍ: «سوف... سوف أغطّس رأسك في برميل ماء المطر. سوف أفرك وجهك على مستعمرةٍ للنّمل..». ثمّ أضاف بنبرةٍ مبتهجةٍ بالنّصر لأنّ ذلك على الأقلّ أمرٌ يمكن القيام به: «سوف... سوف أقتلع تلك الرّبطات وذلك الحزام وأمزّقها..».

صرخت جيرالدين بصوتٍ حادٍّ: «هيّا، فلنفعل ذلك».

انقضّا بكلّ ما أوتيا من قوّةٍ على المسكينة آيفي الّتي أخذت في الصّراخ وركلتهما وحاولت عضّهما، ولكنّ المعركة لم تكن متكافئةً ضدّهما معًا. جرّاها سويًّا عبر الفناء، وقاداها إلى سقيفة الحطب حتّى لا يُسمع زعيقها.

قالت جيرالدين وهي تلهث: أسرع، فالآنسة شيرلي قد تأتي في أيّ وقتٍ».

لم يكن هناك مجالٌ لإضاعة الوقت. أمسك جيرالد ساقي آيفي، وأمسكت جيرالدين معصميها بيدٍ واحدةٍ، واقتلعت بالأخرى حزامها ومزّقت ربطات شعرها وكتفها.

صاح جيرالد وقد وقعت عيناه على اثنين من علب الطّلاء الّتي تركها بعض العمّال منذ أسبوعٍ: «هيّا بنا ندهن ساقيها. سأشدّ وثاقها وأنت تطلينها».

عوَت آيفي في يأسٍ، وهي ترى جوربَيها قد جُذبا إلى الأسفل، ولم تمضِ لحظاتٌ حتّى كانت ساقاها مزركشتين بشرائط عريضةٍ من الدّهن الأحمر والأخضر. وفي الأثناء، انسكب الكثير من طشاش الدّهن على فستانها المطرّز وجزمتها الجديدة. ولاستكمال المهمّة بآخر اللّمسات، حَشَوَا ضفائرها ببقايا الصّوف الممشّط.

كان مظهرها مثيرًا للشّفقة حين أطلقا سبيلها أخيرًا. ولُول التّوأمان في بهجةٍ شديدةٍ وهما ينظران إليها. لقد ثأرا لأسابيع طويلةٍ من ترفّع آيفي وتشامخها.

قال لها جيرالد: «اذهبي الآن إلى بيتك. سيعلّمك هذا ألّا تطوفي مرّةً أخرى من مكانٍ إلى آخر وتطلبي من النّاس أن يكونوا عشّاقك».

قالت آيفي باكيةً: «سأخبر أمّي بكلّ شيءٍ. سأذهب مباشرةً إلى أمّي وأَشِي بك إلى أمّي، أيّها الطّفل البغيض الكريه *القبيح*!».

صاحت فيها جيرالدين: «لا تصفي أخي بالقبيح، أيّتها المتكبّرة المغرورة. ارحلي أنت وربطات كتفك! ها هي، خذيها معك. لا *نريدها* أن تختلط بالحطب داخل مخزننا».

ركضت آيفي في نشيجٍ خارج السّاحة وأسفل الطّريق، ولاحقتها الشّرائط والرّبطات الّتي رمتها بها جيرالدين.

قالت جيرالدين وهي تلهث: «فلنسرع... ولنتسلّل من السّلالم الخلفيّة إلى بيت الاستحمام وننظّف أنفسنا قبل أن ترانا الآنسة شيرلي».

(4)

قال السّيّد غراند ما أراد قوله، وانحنى احترامًا للآنسة شيرلي قبل أن يغادر. وقفت آن على عتبة الباب وهلةً وهي تتساءل في حيرةٍ عن مكان الطّفلين الّذين في عُهدتها. لمحت في أعلى الشّارع سيّدةً يتطاير من عينيها الشّرر وهي تتقدّم نحو البوّابة، وتمسك بيدٍ ذرّةً آدميّةً بائسةً لم تتوقّف عن النّشيج.

قالت السيّدة ترانت: «آنسة شيرلي، أين السّيّدة رايموند؟».

«السّيّدة رايموند في..».

«أصرّ على مقابلة السّيّدة رايموند. عليها أن ترى بأمّ عينيها الإثم الّذي اقترفه طفلاها في حقّ هذه الطّفلة المسكينة والبريئة آيفي، والّتي لم يكن لها حولٌ ولا قوّةٌ في مواجهتهما. انظري إليها يا آنسة شيرلي... فقط انظري إليها!».

«أوه، يا سيّدة ترانت... أنا متأسّفةٌ جدًّا! إنّها غلطتي أنا. السّيّدة رايموند غائبةٌ عن المنزل... ووعدتها أن أعتني بهما... ولكنّ السّيّد غراند أتى إلى هنا..».

«كلّا، ليست غلطتك يا آنسة شيرلي. أنا لا ألومك *أنت*. لا أحد يمكنه أن يكبح جماح هذين الشّيطانين. كلّ سكّان الشّارع

يعرفونها. إذا لم تكن السّيّدة رايموند موجودةً في البيت فلا داعي لبقائي هنا. سآخذ طفلتي المسكينة إلى المنزل، ولكن على السّيّدة رايموند أن تعرف ما حصل... عليها أن تعرف ذلك فعلًا. أنصتي إلى *هذا* يا آنسة شيرلي. هل هما بصدد تقطيع أوصال بعضهما؟».

كان «هذا» الّذي تقصده السّيّدة ترانت عاصفةً من الصّراخ والعواء والزّعيق الّذي تردّد صداه في أسفل السّلالم. أسرعت آن إلى الطّابق العلويّ، وعلى أرضيّة البهو العلويّ كانت هناك كتلتان صغيرتان لم تتوقّفا عن الانفتال والتّلوّي والعضّ والتّمزيق والخدش. فصلت آن التّوأمين المسعورين بصعوبةٍ بالغةٍ، وطلبت منهما تفسير هذا السّلوك الشائن، وهي تمسك بكلّ واحدٍ من كتفه الّتي ما انفكّت تتلوّى.

زمجر جيرالد قائلًا: «لقد قالت لي إنّ عليّ أن أكون عشيق آيفي ترانت».

صاحت جيرالدين: «يجب عليه أن يكون كذلك!».

«لن أكون كذلك!».

«بلى، عليك أن تكون كذلك!».

قالت آن: «توقّفا أيّها الطّفلان!» كان في نبرتها شيءٌ جعلهما يخمدان. نظرا إليها فرأيا الآنسة شيرلي على صورةٍ لم يرياها عليها من قبل. وللمرّة الأولى في حياتهما القصيرة أحسّا بشيءٍ من السّلطة تُفرض عليهما.

قالت آن بهدوءٍ: «أنت يا جيرالدين، ستمكثين في فراشك مدّة

ساعتين. وأنت يا جيرالد، ستقضّي المدّة نفسها في خزانة البهو. لا أريد أن أسمع كلمةً واحدةً. لقد تصرّفتما على نحوٍ شنيعٍ، ولا بدّ من عقابكما. تركتكما أمّكما في عهدتي، وستطيعان أوامري».

قالت جيرالدين وقد أخذت في البكاء: «إذَن عاقبينا نحن الاثنين *معًا*».

تمتم جيرالد قائلًا: «نعم... لا يحقّ لك أن تفصلي بيننا... لم يبتعد أحدنا عن الآخر بتاتًا».

«ستبتعدان الآن». كانت آن حينها ما تزال تحافظ على هدوئها. نزعت جيرالدين ملابسها بخنوع، وأوَتْ إلى أحد السّريرين في غرفتهما. ودخل جيرالد بخنوعٍ أيضًا خزانةَ البهو. لقد كانت خزانةً حائطيّةً واسعةً ومهوّاةً، وفيها شبّاكٌ وكرسيٌّ، ولا أحد يمكنه أن يسمّي هذا عقابًا مسرفًا في القسوة. أحكمت آن إقفال الباب، وجلست تقرأ كتابًا حذو نافذة البهو، وهي تمنّي النّفس بأن تنعم قليلًا براحة البال لمدّة ساعتين على الأقلّ.

استرقت النّظر بعد بضع دقائق إلى جيرالدين، فوجدتها نائمةً ملء جفنيها، وهي تبدو في غاية البهاء حتّى كادت آن تندم على صرامتها معها. ستكون تلك الإغفاءة في كلّ الأحوال مفيدةً لها. وعندما تُفيق من نومها ستسمح لها بمغادرة الفراش حتّى وإن لم تنقضِ السّاعتان بعدُ.

انقضت ساعةٌ كاملةٌ وجيرالدين ما تزال نائمةً. أمّا جيرالد، فقد مكث في هدوءٍ ولم يحرّك ساكنًا في الخزانة، ممّا جعل آن تقرّر

العفو عنه لأنّه تحمّل عقابه مثل رجلٍ مقدام. لقد كانت آيفي ترانت في نهاية الأمر قردةً صغيرةً ومغرورةً، وربّما ضايقتهما كثيرًا.

فتحت آن قفل الخزانة.

لم يكن فيها أيّ أحدٍ. كان الشّبّاك مفتوحًا، ورأت آن أنّ أعلى السّقيفة الجانبيّة كان تحته مباشرةً. ضاقت شفتاها كثيرًا من الغضب، ونزلت أسفل الدّرج، ثمّ خرجت إلى السّاحة. لا أثر لجيرالد. تفحّصت مخزن الحطب، ونظرت ناحية أعلى الشّارع وأسفله. ولكن لا حياة لمن تنادي.

ركضت آن عبر الحديقة، ومنها عبر البوّابة إلى الدّرب المؤدّي من خلال رقعةٍ تكاثفت فيها الأشجار الغابيّة إلى غديرٍ صغيرٍ يتوسّط حقل السّيّد كريدمور. كان جيرالد يَجْدِف حينها والسّعادة تغمره، وهو في زورقٍ صغيرٍ كان السّيّد كريدمور يحتفظ به هناك. وفي اللّحظة الّتي أطلّت فيها آن برأسها من بين الأشجار، كانت السّارية الّتي يستعملها جيرالد للتّجديف قد انغرزت في الوحل العميق، ثمّ خرجت بسهولةٍ غير متوقّعةٍ عند الجذبة الثّالثة، وسرعان ما انقلب جيرالد إلى الخلف رأسًا على عقبٍ وسقط في الماء.

أطلقت آن صيحة فزعٍ غير إراديّةٍ، ولكن لم يكن هناك سببٌ حقيقيٌّ للذّعر. فالغدير في أقصى عمقٍ له لن يصل إلى مستوى كتفَي جيرالد، وفي المكان الّذي سقط فيه كان يتجاوز مستوى خصره بقليلٍ. تمكّن جيرالد على نحوٍ مّا من النّهوض على قدميه، وبقي واقفًا في مكانه ببلاهةٍ، وكبّة شعره المكسوّة بالوحل تقطر على

وجهه. كان لصيحة آن صدًى آخر من ورائها، إذ عدت جيرالدين في قميص نومها بين الأشجار، ووقفت على حافّة المنصّة الصّغيرة الخشبيّة الّتي عادةً ما يُشدّ إليها الزّورق.

أطلقت جيرالدين صرخةً يائسةً: «جيرالد!» وقفزت قفزةً طويلةً حطّت بها إلى جانب جيرالد، محدثةً رشاشًا هائلًا من الماء كادت تُغرق به أخاها من جديدٍ.

صاحت جيرالدين: «جيرالد، هل غرقت؟ هل غرقت يا عزيزي؟».

طمأنها جيرالد قائلًا وأسنانه تصطكّ من البرد: «كلّا... كلّا... يا عزيزتي».

تعانقا في الماء وتبادلا القبل بحرارةٍ.

قالت لهما آن: «أيّها الطّفلان، تعالَيا إلى هنا حالًّا».

شقّا طريقهما بجهدٍ نحو الضفّة. لقد كان ذلك اليوم من أيّام سبتمبر دافئًا في الصّباح، ولكنّه سرعان ما أضحى باردًا بعد الظّهيرة. كانا يرتجفان بشدّةٍ... وقد علت وجهيهما زرقةٌ شديدةٌ. أسرعت آن بهما إلى المنزل دون أن تنبس بأيّ كلمة عتابٍ، ونزعت عنهما ملابسهما المبلّلة، ثمّ جعلتهما يستلقيان على فراش السّيّدة رايموند ووضعت عند ساقيهما قوارير من الماء السّاخن. لم يتوقّفا عن الارتجاف. هل أصيبا بالزّكام؟ هل سيصابان بنزلةٍ صدريّةٍ؟

قال جيرالد وأسنانه مازالت تصطكّ: «كان عليك أن تعتني بنا على نحوٍ أفضل يا آنسة شيرلي».

وقالت جيرالدين موافقةً: «طبعًا كان عليك ذلك».

أسرعت آن وقد تملّكتها الحيرة إلى الطّابق السّفلي واتّصلت بالطّبيب. وفي المدّة الّتي استغرقها قدومه كانت الحرارة قد دبّت في التّوأمين، وأكّد لها الطّبيب أن لا خشية عليهما من أيّ خطرٍ، وأنّهما إذا لازما الفراش حتّى يوم الغد فسيكونان بخيرٍ.

التقى الطّبيب بالسّيّدة رايموند وهي قادمةٌ في طريق العودة من محطّة القطار، فأسرعت إلى المنزل شاحبة الوجه وفي حالةٍ شبه هستيريّةٍ.

«أوه يا آنسة شيرلي، كيف *أمكنك* أن تتركي فلذتَي كبدي يتعرّضان إلى مثل ذلك الخطر!».

قال التّوأمان وكأنّهما جوقةٌ: «هذا ما قلناه لها يا أمّي».

«لقد وثقتُ بك... قلتُ لك...».

قالت آن بنظرةٍ باردةٍ برودةَ الضّباب الكثيف: «لا أرى وجه معاتبتك لي يا سيّدة رايموند. ستعين ما أقول حين تستعيدين هدوءك. الطّفلان في حالةٍ جيّدةٍ... لقد أرسلتُ في طلب الطّبيب كإجراءٍ احترازيٍّ فقط. لو أطاع جيرالد وجيرالدين أوامري لما حصل كلّ هذا».

قالت السّيّدة رايموند بمرارةٍ: «كنت أظنّ أنّ للمدرّسات بعض السّلطة على الأطفال».

قالت آن في نفسها: «على الأطفال ربّما... ولكن ليس على مثل هذين الشّيطانين الصّغيرين». ثمّ توجّهت بالكلام إلى السّيّدة

رايموند: «بما أنّك عدت إلى المنزل، فأعتقد أنّ عليّ العودة إلى عزبة الصّفصاف. لا أظنّ أنّك ستحتاجين إليّ في خدمةٍ أخرى، ثمّ إنّ لديّ عملًا يخصّ المدرسة سأؤدّيه هذا المساء».

هبّ التّوأمان من الفراش هبّة طفلٍ واحدٍ وأحاطاها بأذرعهما.

صاح جيرالد قائلًا: «آمل أن تكون في كلّ أسبوعٍ جنازةٌ، لأنّي أحبّكِ يا آنسة شيرلي، وأتمنّى أن تأتي وتعتني بنا كلّما ذهبت أمّي إلى مكانٍ مّا».

قالت جيرالدين. «وأنا أيضًا».

«إنّني أحبّك أكثر بكثيرٍ من الآنسة بروقي».

قالت جيرالدين: «بكثيرٍ جدًّا».

سألها جيرالد: «ألا تضعيننا في قصّةٍ من قصصكِ؟».

وقالت جيرالدين: «أوه، رجاءً افعلي ذلك».

قالت السّيّدة رايموند وهي ترتجف خجلًا: «أنا متأكّدةٌ أنّ نواياك كانت حسنةً».

أجابتها آن ببرودٍ شديدٍ وهي تحاول فكّ نفسها من الأذرع اللّصيقة للتّوأمين: «أشكرك».

توسّلت إليها السّيّدة رايموند وقد اغرورقت عيناها الكبيرتان بالدّموع: «أوه، لا تخاصميني من أجل ذلك. لا أتحمّل الخصام مع أيّ أحدٍ».

قالت آن بنبرةٍ مهيبةٍ جدًّا، ويمكن لآن في بعض الأحيان أن

تكون كذلك: «طبعًا لا. لا وجود لأيّ سببٍ نتخاصم من أجله. أظنّ أنّ جيرالد وجيرالدين قد استمتعا بيومهما، على عكس تلك المسكينة الصّغيرة آيفي ترانت».

عادت آن إلى المنزل وهي تشعر أنّ عمرها قد زاد بسنواتٍ.

قالت في نفسها: «هذا وقد ظننتُ أنّ دايفي المسكين كان عفريتًا».

وجدت ريبيكا ديو في الحديقة وقت الغسق، وهي تجمع آخر ما نبت من أزهار البنفسج المثلّثة الألوان.

«ريبيكا ديو، كنتُ أعتبر المثل القائل «على الأطفال أن يصمتوا في حضور من هم أكبر منهم سنًّا» حكمةً مبالغا في قسوتها، ولكنّني أعي ما تعنيه الآن».

قالت ريبيكا ديو: «آه يا عزيزتي المسكينة. سأعدّ لك عشاءً شهيًّا». ولكنّها في هذه المرّة لم تقل جملتها المشهورة «ألم أقل لك ذلك؟».

(5)

(مقتطف من رسالة إلى جيلبرت)

قدمت السّيّدة رايموند ليلة الأمس، وتوسّلت إليّ والدّموع في عينيها أن أغفر لها «ردّ فعلها المتسرّع». قالت لي: «لو علمتِ ما بداخل قلب أمٍّ يا آنسة شيرلي، لغفرتِ لي دون تردّدٍ».

الحقّ أنّي لم أتردّد لحظةً في الصفح عنها... فقد كان في السّيّدة رايموند شيءٌ مّا لا يمكن مقاومته ولا يسعني إلّا الإعجاب به، فضلًا عن شَغَفِها بنادي الفنون الدّراميّة. ولكنّني في الآن ذاته لم أقل لها مثلًا «إذا كنت تريدين الخروج في أيّ يومٍ من أيّام السّبت، فأنا مستعدّةٌ للبقاء مع ذرّيّتك». فالإنسان يتعلّم من تجاربه... حتّى ذلك الشّخص المتفائل وحسَن الظّنّ بالنّاس على الدّوام مثلي.

علمتُ أنّ قِسمًا لا بأس به من أهل سامرسايد مشغولٌ في الوقت الرّاهن بقصص الحبّ الّتي تجري بين جارفيس مورو ودوفي واستكوت... واللّذيْن، كما أسرّت لي ريبيكا ديو، مضى على خطوبتهما أكثر من عامٍ ولكنّهما لم يقدرا على الذّهاب أبعد من ذلك. أمّا العمّة كايت، الّتي كانت تربطها بدوفي صلةُ قرابةٍ من بعيدٍ... فهي على وجه التّحديد عمّة أحد أبناء خالة دوفي... فكانت مهتمّةً

بهذه العلاقة كثيرًا، لأنّها تعتقد أنّ جارفيس فتًى مناسبٌ جدًّا للشّابّة دوفي... ولأنّها أيضًا، على ما يبدو لي، كانت تكره فرانكلين واستكوت وتريد أن تراه مفلسًا تمامًا ومغلوبًا على أمره. لا يعني ذلك أنّ العمّة كايت كانت تقرّ بكرهها لأيّ أحدٍ، ولكنّ زوجة السّيّد فرانكلين واستكوت كانت صديقتها الحميمة أيّام الصّبى، والعمّة كايت تؤكّد جازمةً أنّه قتلها عمدًا.

بدأت تشغلني هذه الحكاية أيضًا، ويعود ذلك في جزءٍ منه إلى ولعي الشّديد بجارفيس وشغفي الأقلّ شدّةً بدوفي. أمّا السّبب الآخر فأظنّه يتعلّق بكوني أدمن التّطفّل على شؤون الآخرين... ولكن طبعًا بنوايا حسنةٍ دائمًا.

الوضع باختصارٍ هو كما يلي: فرانكلين واستكوت تاجرٌ طويل القامة ومكفهرّ الوجه وصعب المراس، وهو رجلٌ كتومٌ وكثير الانطواء على نفسه. كان المنزل الّذي يعيش فيه السّيّد واستكوت واسع الرُّقعة وعتيق المظهر ويُطلق عليه اسم «إلمكروفت»، ويوجد على أطراف المدينة عند الشّارع العلويّ المؤدّي إلى المرفإ. كنتُ قد التقيته مرّةً أو مرّتين، ولكنّني في الواقع لم أكن أعرف الكثير عنه، ما عدا أنّ لديه عادةً غريبةً تتمثّل في قول شيءٍ ثمّ الاسترسال في ضحكةٍ طويلةٍ وخافتةٍ. لم يضع ساقه في الكنيسة منذ أن أصبحت التّراتيل تُنشد فيها، وكان دائمًا يصرّ على أن تبقى نوافذ منزله مفتوحةً، حتّى عند هبوب رياح الشّتاء العاتية. أعترف بتعاطفي الخفيّ تجاهه، ولكنّي أُرجّح أنّي في سامرسايد الشّخصُ الوحيد

الّذي يعتريه هذا الشّعور. علاوةً على ذلك، دأب الرّجل على أن يكون مواطنًا صالحًا وفاعلًا في المدينة، ولا قرار بلديّ يؤخذ من دون موافقته.

كانت زوجته قد توفّيت منذ زمنٍ. ومن الشّائع ذكرُ أنّ زوجها كان يستعبدها، ولم تكن سيّدة نفسها. يقال إنّ فرانكلين أخبرها في اليوم الأوّل الّذي جلبها فيه إلى هذا المنزل أنّ سلطته على البيت ستكون مطلقةً.

دوفي، الّتي تحمل في الحقيقة اسم سيبيل، هي ابنته الوحيدة... فتاةٌ في التّاسعة عشرة من عمرها، فائقة الجمال، ومكتنزة الجسم، ومحبوبةٌ من الجميع، ذات فمٍ أحمر قانٍ دائمًا ما تراه فاغرًا قليلًا ويكشف عن أسنانٍ صغيرةٍ بيضاء، وشعرٍ بنّيٍّ تتخلّله درجاتٌ لمّاعةٌ من لون الكستناء، وعينين زرقاوين جذّابتين، وأهدابٍ بلون السّخام طويلةٍ جدًّا حتّى يخيّل للنّاظر أنّها غير حقيقيّةٍ. قالت جان برينغل إنّ عينيها هما اللتان أسَرَتا قلبَ جارفيس وأوقعتاه في حبّها. الحقّ أنّها تحدّثت مع جان طويلًا في شأنها، وكان جارفيس ابن العمّ المفضّل لديها.

(على فكرة، لن تتخيّل مدى شغفي بالفتاة جان... وشغفها بي. إنّها فعلًا أعذب مخلوقٍ في هذه الدّنيا).

لم يكن فرانكلين واستكوت يسمح لدوفي بأن تتّخذ لها أيّ عشيقٍ، وحين بدأ جارفيس «يهتمّ بها» منعه من الدّخول إلى منزله، وحذّر دوفي من أنّه لن يسمح لها «بالجري هنا وهناك مع ذلك

الشّخص». ولكن قُضي الأمر، ووقع الاثنان في الحبّ على نحوٍ لا رجعة فيه.

الجميع في المدينة متعاطفون مع العاشقين اليافعين، ولم يفهموا سبب رفض فرانكلين واستكوت هذه العلاقةَ. فجارفيس محامٍ شابٌّ وناجحٌ، ومن عائلةٍ عريقةٍ، وذو آفاقٍ واعدةٍ، ثمّ إنّه في حدّ ذاته فتًى لطيفٌ وخلوقٌ.

قالت ريبيكا ديو: «لا يوجد رجلٌ مناسبٌ مثله. كان بإمكان جارفيس مورو أن يحصل على أيّ فتاةٍ في سامرسايد. لقد استقرّ رأي فرانكلين على أن يجعل من دوفي عانسًا من العوانس وحسب. إنّه يريد أن يبقي عليها مدبّرةً لمنزله بعد أن تموت العمّة ماغي».

سألتُها: «ألا يوجد أحدٌ يمكن أن يؤثّر على قراره هذا؟».

«لا أحد يمكنه مجادلة فرانكلين واستكوت. إنّه شديد السّخريّة من محدّثيه. وإذا غلبه أحدٌ في نقاش أمرٍ مّا تنتابه سَوْرَةٌ حادّةٌ من الغضب. لم أره قطُّ في إحدى هذه النّوبات، ولكنّي سمعتُ الآنسة بروتي تصف ردّ فعله ذات مرّةٍ عندما كانت تخيط شيئًا مّا هناك. استشاط غضبًا من شيءٍ... لا أحد يعلم ما هو بالضّبط. وأمسك بكلّ ما يمكن أن تطاله يده ورماه من النّافذة، بما فيها أشعار ميلتون[1] الّتي طارت فوق السّياج لتحطّ في غدير النّيلوفر الّذي يملكه جورج كلارك. لطالما امتلأ صدره بعداوةٍ مضمَرةٍ للحياة. قالت الآنسة بروتي إنّ أمّها أخبرتها أنّ صراخه الحادّ حين وضعته

(1) شاعر إنجليزيّ من القرن السّابع عشر، عُرف بقصيدته «الفردوس المفقود».

أمّه يفوق كلّ شيءٍ سمعته من قبل. ولكن أعتقد أنّ للرّبّ حكمةً في خلق إنسانٍ مثله، ولا نستطيع سوى التّساؤل عن سبب ذلك. كلّا، لا أرى أيّ حلٍّ لجارفيس ودوفي سوى الهروب. من الوضاعة فعلُ ذلك بالتّأكيد، ويُحكى أنّ هناك الكثير من الهراء الرّومانسيّ في فرار العشيق مع عشيقته، ولكن يمكن لأيّ أحدٍ أن يتفهّم الوضع الّذي هما فيه».

لا أعرف إلى حدّ الآن ما يمكنني فعله، ولكن عليّ أن أفعل شيئًا. لا يمكنني أن أنأى بنفسي هكذا وأمكث دون فعل شيءٍ وأنا أرى النّاس يفسدون حياتهم أمام عينيّ، مهما كان عدد نوبات الغضب الّتي تصيب فرانكلين واستكوت. لن ينتظر جارفيس حبيبته إلى الأبد... وتسري بعض الشّائعات أنّ صبره قد بدأ ينفد، وشوهد وهو يمحو بشراسةٍ اسم دوفي عن جذع شجرةٍ كان قد حفره عليها في السّابق. فضلًا عن ذلك، يقال إنّ فتاةً من عائلة بالمر قد بدأت تتودّد إليه، وذكرت شقيقته أنّ أمّه قالت أن لا فتاة تستطيع شَدّ *ابنها* إلى خيوط مئزرها لسنواتٍ طويلةٍ.

حقًّا يا جيلبرت، إنّني أشعر بالتّعاسة حين أفكّر في هذا الأمر.

لقد انبعث نور القمر من السّماء هذه اللّيلة يا جيلبرت... نور القمر على أشجار الصّفصاف في ساحة المنزل... بريقه يغمر كلّ المرفإ الّذي انساب منه للتّوّ طيف سفينةٍ... نور القمر على المقبرة القديمة... وعلى الجدول الّذي أشعر وكأنّه ملكي الخاصّ... وعلى تلّتي «ملكة العواصف». وسيشعّ هذا الضّوء بعد قليلٍ على «درب

العشّاق»، و«بحيرة المياه المتلألئة»، و«الغابة المسكونة» و«وادي البنفسج». لا شكّ أنّ الجنّيات ترقص على التّلال الآن. ولكن يا عزيزي جيلبرت، نور القمر دون أن يوجد أحدٌ ليتقاسمه معك هو مجرّد... ضوء لا غير.

أتمنّى لو أنّني أخذت الصّغيرة إليزابيث في جولةٍ قصيرةٍ. إنّها تعشق التّجوال تحت ضوء القمر. لقد قمنا بنزهاتٍ رائقةٍ حين كانت معي في غرين غايبلز. ولكن حين تكون في منزلها، لا يمكن لإليزابيث التّمتّع برؤيته إلّا من خلال النّافذة.

بدأتُ أيضًا أشعر ببعض القلق عليها. لقد شارفت على العاشرة من عمرها الآن، وليس لتَيْنك السّيّدتين أدنى فكرةٍ عمّا تحتاج إليه روحيًّا وعاطفيًّا. مادامت في نظرهما تأكل وتلبس جيّدًا فلا يمكن أن تتصوّرا احتياجها إلى أيّ شيءٍ آخر. وسيزداد الأمر سوءًا بمرور السّنين. يا لها من طفولةٍ بائسةٍ تلك الّتي ستعيشها هذه الطّفلة المسكينة!

(6)

كان جارفيس مورو رفقة آن عائدَين إلى المنزل من حفلة التّخرّج في المدرسة الثّانويّة، وكان قد حدّثها عن بلواه.

«عليك أن تهرب مع من تحبّ يا جارفيس، هذا ما يردّده الجميع. من حيث القاعدة والمبدأ، أنا لا أستسيغ فكرة الفرار هذه» (وقالت آن في نفسها بابتسامةٍ عريضةٍ ومضمَرةٍ: «أقول هذا وكأنّني مدرّسةٌ لها أربعون سنةً من الخبرة»). «ولكنْ لكلّ قاعدةٍ استثناءاتٌ».

«اليد الواحدة لا تصفّق يا آن. لا يمكنني الفرار بمفردي. دوفي خائفةٌ جدًّا من أبيها، ولا يمكنني إقناعها بالموافقة. ثمّ إنّه لن يكون فرار عشّاقٍ... في حدّ ذاته. ستأتي فقط ذات مساء إلى منزل شقيقتي... السّيّدة ستيفنس... وسأحضر القسّيس إلى هناك ويمكننا أن نتزوّج في كنف الاحترام وأن يسعد كلّ النّاس بذلك، ثمّ سنتّجه إلى العمّة بيرثا في كينغسبورت لقضاء شهر العسل هناك. الأمر في غاية البساطة. ولكنّني لا أستطيع إجبار دوفي على تحمّل تبعات هذه المجازفة. لقد خضعت المسكينة لأهواء والدها ونزواته كثيرًا إلى حدّ استنزاف كلّ عزائمها».

«عليك فقط أن تقنعها بذلك، يا جارفيس».

«يا إلهي! ألا تظنّين أنّي حاولت ذلك مرارًا عديدةً يا آن؟ لقد توسّلتُ إليها حتّى اسودّ وجهي. عندما ألتقيها تعدني دائمًا بذلك، ولكن حين تكون في دارها تبعث إليّ رسالةً تقول لي فيها إنّها لا تستطيع. يبدو الأمر غريبًا جدًّا يا آن، ولكنّ الفتاة متعلّقةٌ بأبيها كثيرًا ولا تتحمّل فكرة عدم صفحه عنها أبدًا».

«عليك إخبارها بأنّ عليها الاختيار بينك وبين أبيها».

«وماذا لو اختارته هو؟».

«لا أعتقد أنّ هذه الإمكانيّة واردةٌ».

قال جارفيس بنبرةٍ موحشةٍ: «لا يمكن التّنبّؤ بذلك. ولكن عليّ أن أتّخذ قرارًا في القريب العاجل. لا يمكنني التمادي هكذا إلى الأبد. إنّني أحبّ دوفي بجنونٍ... كلّ أهل سامرسايد يعرفون ذلك. إنّها مثل وردةٍ صغيرةٍ حمراء، ولكنّها بعيدة المنال... وعليّ أن أدركها يا آن».

قالت له آن بهدوءٍ: «قول الشّعر أمرٌ جيّدٌ حين يكون في سياقه، ولكنّه لن يفضي بك إلى أيّ شيءٍ في هذه اللّحظة. يبدو ما قلتُه لك وكأنّها ملاحظةٌ نطقت بها ريبيكا ديو، ولكن تلك هي الحقيقة. ما يتطلّبه الأمر الآن هو شيءٌ من المنطق والحسّ السّليم الواضح والبسيط. قل لدوفي إنّك ضقت ذرعًا من التّلكّؤ، وتقديم رِجلٍ وتأخير أخرى، وإنّ عليها أن تقبلك كما أنت أو تتركك. إذا لم تكن تشعر نحوك بذلك الحبّ الّذي يجعلها تهجر والدها من أجلك، فمن الأفضل أن تعلم ذلك في كلّ الأحوال».

تأوّه جارفيس ثمّ قال: «أنت لا تعرفين يا آن معنى أن يكون الإنسان طيلة حياته تحت رحمة فرانكلين واستكوت. لا يمكنك تخيُّل ذلك. حسنًا، سوف أُجري محاولةً أخرى وأخيرةً. وكما قلتِ، إذا كانت دوفي تحبّني بالفعل فسوف تأتي معي... وإذا لم تكن تكترث لي، فإنّني سأعرف حقيقتها في نهاية الأمر. لقد بدأتُ أشعر أنّني جعلتُ من نفسي أضحوكةً بين النّاس».

قالت آن في نفسها: «إذا بدأ ينتابك مثل هذا الشّعور، فما على دوفي إلّا أن تأخذ حذرها».

وبعد أيّامٍ قليلة، تسلّلت دوفي نفسُها إلى عزبة الصّفصاف ذات مساءٍ لأخذ النّصح من آن.

«ماذا عليّ أن أفعل يا آن؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ يريدني جارفيس أن أهرب معه... بشكلٍ عمليٍّ. سيقضّي أبي إحدى ليالي الأسبوع القادم في شارلوتاون لحضور «المأدبة الماسونيّة»... وستكون فرصةً لن تُعوَّض. لن ترتاب العمّة ماغي في شيءٍ. يريدني جارفيس أن أذهب إلى منزل السّيّدة ستيفنس ونتزوّج هناك».

«ولماذا لا تذهبين يا دوفي؟».

رفعت دوفي وجهها الجميل والمتألّق وقالت: «أوه يا آن، هل تعتقدين فعلًا أنّ عليّ فعل ذلك؟ رجاءً، *رجاءً* قرّري في مكاني. فأنا مشتّتة الفكر». انكسر عندئذٍ صوت دوفي، واتّخذ نبرةً باكيةً: «أوه يا آن، إنّك لا تعرفين أبي. إنّه لا يطيق البتّة رؤية جارفيس... ولا أستطيع أن أعرف السّبب... هل تستطيعين ذلك يا آن؟ كيف لأحدٍ أن يكره

جارفيس؟ حينما ناداني لأوّل مرّةٍ، حظر عليه أبي المنزل، وقال له إنّه سيطلقُ الكلب خلفه إذا عاد مرّةً أخرى... كلبنا البولدوغ الضّخم. تعرفين أنّ هذه الفصيلة من الكلاب إذا أطبقت بفكّيها على أحدٍ فإنّها لا تخلي سبيله أبدًا. ثمّ إنّ أبي لن يغفر لي أبدًا إذا هربتُ مع جارفيس».

«عليك أن تختاري بينهما يا دوفي».

قالت دوفي والدّموع في عينيها: «ذلك ما قاله لي جارفيس. لقد كان متجهّم الوجه... لم أره من قبل في ذلك العبوس. ولا أقدر... لا *أقدر* على العيش من دونه يا آن».

«إذَن عيشي معه، يا عزيزتي الصّغيرة. ولا تسمّي ذلك هروبًا مع عشيقك. أن تأتي إلى سامرسايد وأن تتزوّجي في حضرة أصدقائك فذلك لا يمكن بأيّة حالٍ أن يُسمّى فرارًا».

قالت دوفي وهي تبتلع ريقها في نشيج: «سيعتبره أبي كذلك. ولكنّني سآخذ بنصيحتك يا آن. أنا أثق في أنّك لن تحثّيني على أيّ خطوةٍ ليست في صالحي. سأطلب من جارفيس أن يذهب ويجهّز التّصريح، ثمّ سآتي إلى منزل أخته ليلةَ يكون أبي في شارلوتاون».

إثر ذلك أخبر جارفيس آن بأنّ دوفي قد أذعنت لطلبه.

«سألتقيها عند نهاية الدّرب ليلة الثّلاثاء القادم... لم تدعني أذهب إلى منزلها خشيةَ أن تراني العمّة ماغي... ثمّ سنطير إلى منزل أختي جوليا لنتزوّج من ساعتنا. ستكون كلّ عائلتي هناك، وذلك سيجعل حبيبتي المسكينة تشعر بالطّمأنينة. لطالما ردّد فرانكلين واستكوت أنّني لن أفوز بابنته. سأبرهن له أنّه كان مخطئًا تمامًا».

(7)

صادف يوم الثّلاثاء يومًا من أيّام آخِر نوفمبر المكفهرّة، وكانت زخّات المطر البارد والمصحوبة بالعواصف تنساب على التّلال بشكلٍ متقطّعٍ. لقد كان العالم يبدو من خلال هذا الجوّ الرّماديّ الممطر مكانًا كدِرًا خَبَتْ فيه كلّ أوجه الحياة.

قالت آن في نفسها: «لم تحظَ دوفي بيوم رائقٍ جدًّا بمناسبة زفافها. ماذا لو... ماذا لو..». ثمّ خالجتها رعشةٌ طفيفةٌ... «ماذا لو لم تَسِر الأمور على ما يرام في نهاية الأمر. ستكون بلا شكٍّ غلطتي. ما كان لـدوفي أن توافق على ذلك لولا نصيحتي لها. وماذا لو لم يغفر لها فرانكلين واستكوت صنيعَها. آن شيرلي، توقّفي عن هذا! لقد كدّرت نفسك جرّاء هذا الطّقس الّذي أضفى عليك الكثير من التّشاؤم».

توقّف المطر عن الهطول في اللّيل، ولكن بقي الجوّ باردًا وقاسيًا، والسّماء متلبّدةً وعابسةً. كانت آن في غرفة البرج منهمكةً في إصلاح بعض أوراق المدرسة، وداستي ميلر متكوّرٌ إلى جانبها قبالة الموقد. لم تلبث أن سمعت طرقًا مدوّيًا كالرّعد على الباب الأماميّ.

نزلت آن مسرعةً، وأخرجت ريبيكا ديو رأسها في فزعٍ من وراء باب غرفتها. أشارت إليها آن بالتّراجع.

قالت ريبيكا بصوتٍ أجوف: «يوجد أحدٌ على عتبة *الباب الأماميّ!*».

«كلّ شيءٍ على ما يرام يا عزيزتي ريبيكا، حتّى إن كنتُ أخشى العكس تمامًا... ولكن، على أيّة حالٍ، إنّه فقط جارفيس مورو. لقد لمحته من الشّبّاك الجانبيّ للبرج، وأعرف أنّه جاء يطلب رؤيتي».

عادت ريبيكا إلى غرفتها وأوصدت الباب من خلفها. «جارفيس مورو! لقد طفح الكيل هذه المرّة بالفعل».

«جارفيس، ما خَطْبُك؟».

قال جارفيس وقد جُنّ جنونه: «لم تأتِ دوفي. انتظرناها ساعاتٍ طويلةً... لقد جاء القسّيس... وأصدقائي... وأعدّت جوليا العشاء... ولكنّ دوفي لم تأتِ. لقد مكثتُ في آخر الدّرب أنتظرها حتّى كدتُ أفقد صوابي. لم أجرؤ على النّزول إلى النّاحية الأخرى من الدّرب حيث يوجد منزلها لأنّي لم أكن أعرف ما حدث بالضّبط. ربّما عاد ذلك المتوحّش العجوز. أو ربّما حبستها العمّة ماغي. ولكن عليّ أن *أعرف*. آن، عليك أن تذهبي إلى «إلمكروفت» لتستجلي سببَ تخلّفها عن المجيء».

قالت آن بارتيابٍ ولَحْنٍ في اللّغة: «نفسي؟».

«نعم أنت. لا أحد غيرك يمكن أن أثق به... لا أحد يعلم ما كنّا ننوي فعله. أوه يا آن، لا تخذليني الآن. لقد وقفتِ إلى جانبنا منذ البداية، ولطالما ردّدَت دوفي أنّك صديقتها الوحيدة. لم يتأخّرِ الوقت بعد... إنّها فقط السّاعة التّاسعة. اذهبي إليها من فضلك».

قالت آن بتهكّمٍ: «أذهب إليها حتّى يمزّقني البولدوغ إربًا؟».

قال جارفيس بازدراءٍ: «ذلك الكلب الهرم! إنّه لا يستطيع حتّى النّباح على صعلوكٍ متشرّدٍ. كنتِ تظنّين أنّني خفتُ من الكلب، أليس كذلك؟ إنّهم يقفلون عليه الحظيرة في اللّيل. لا أريد الذّهاب إلى هناك كي لا أسبّب أيّة متاعب لدوفي إذا ما اكتشفوا الأمر. آن، أتوسّل إليك!».

قالت آن وهي تهزّ كتفيها في يأسٍ: «أظنّ أنّ عليّ الإذعان إذَن».

قاد جارفيس عربته على طول الدّرب الّذي يقع فيه منزل «إلمكروفت»، ولكنّ آن لم تدعه يواصل التّقدّم أكثر من ذلك.

«كما قلتَ أنت، قد يعقّد وجودك الأمور أكثر على دوفي إذا ما عاد والدها ورآك».

هرولت آن أسفل الدّرب الطّويل الّذي حدّته الأشجار من الجانبين. كان القمر يطلّ بين فينةٍ وأخرى من بين السّحب الّتي نفخت فيها الرّياح، ولكنّ الدّرب كان في أغلب الوقت مظلمًا على نحوٍ موحشٍ، وكانت آن متردّدةً بشأن الكلب.

بدا وكأنّه لم يكن ينبعث من «إلمكروفت» سوى ضوءٍ واحدٍ... وكان يشعّ من نافذة المطبخ. فتحت العمّة ماغي بنفسها البابَ الجانبيّ. العمّة ماغي امرأةٌ طاعنةٌ في السّنّ، وهي الشّقيقة الكبرى لفرانكلين واستكوت. كانت محدّبة الظّهر قليلًا، وكثيرة التّجاعيد، ولم تكن تُعرف بفطنتها وذهنها الوقّاد، بالرّغم من أنّها مدبّرة منزلٍ ممتازةٌ.

«العمّة ماغي، هل دوفي بالبيت؟».

أجابتها العمّة ماغي ببلاهةٍ: «دوفي في فراشها».

«في الفراش؟ هل هي مريضةٌ؟».

«ليس كذلك في ما أعلم. بدت مرتبكةً ومشدودة الأعصاب طيلة اليوم. وقالت بعد العشاء إنّها مجهدةٌ وصعدت لتأوي إلى فراشها».

«عليّ أن أراها برهةً من الزّمن، أيّتها العمّة ماغي. أريد... أريد فقط أن أسألها عن شيءٍ في منتهى الأهمّيّة».

«إذَن عجّلي بالصّعود إليها. الغرفة هي تلك الّتي ستعترضك على يمينك وأنت تصعدين الدّرج».

أشارت العمّة ماغي إلى السّلّم، وتهادت في مشيتها كالبطّة وهي تتّجه نحو المطبخ.

نهضت دوفي وجلست على الفراش حين دخلت عليها آن دون تكلّفٍ بعد أن طرقت الباب على عجلٍ. كان النّور المنبعث من شمعةٍ صغيرة الحجم إلى جانبها يشي بنهرٍ من الدّموع قد سال على خدّيها وأثار سخط آن.

«دوفي واستكوت، هل نسيتِ الوعد الّذي قطعته على نفسك بالزّواج من جارفيس مورو اللّيلة... *اللّيلة*؟».

قالت دوفي في نشيجٍ: «كلّا... كلّا... أوه يا آن، أنا تعيسةٌ جدًّا... لقد عشتُ عذابًا رهيبًا اليوم. لا يمكنك أن تتخيّلي ما عانيتُه اليوم».

قالت لها آن دون شفقةٍ: «أعرف في مقابل ذلك ما عاناه جارفيس هذه اللّيلة، وهو ينتظرك لساعتين عند آخر الدّرب في هذا البرد القارس وتحت زخّات المطر».

«هل هو ... هل هو غاضبٌ جدًّا يا آن؟».

أجابتها آن بنبرةٍ قاسيةٍ: «على نحوٍ لا يمكن أن تتصوّريه».

«أوه يا آن، لقد انتابني الخوف كثيرًا. لم يغمض لي جفنٌ اللّيلة الماضية. لم أستطع تحمّل ذلك... لم أستطع ذلك... فكرة الفرار شائنةٌ فعلًا وفاضحةٌ يا آن. ثمّ إنّني لن أحصل على هدايا جميلةٍ... أو كثيرةٍ على أيّة حال. لطالما وددتُ أن أتزوّج في الكنيسة... والزّينة تملأ المكان... وأن أرتدي طرحةً وفستانًا أبيضين... و... وشباشب فضّيّةً!».

«دوفي واستكوت، انهضي حالًّا من فراشك... *على الفور*... والبسي ثيابك... وتعالَي معي».

«آن، لقد فات الأوان الآن».

«لم يتأخّر الوقت بعد، إمّا الآن وإلّا فلا... عليك أن تفهمي ذلك يا دوفي، إن كانت لك ذرّةٌ من العقل. عليك أن تعرفي أنّ جارفيس مورو لن يكلّمك بعد اليوم إذا ما أظهرتِه بثوب المغفّل السّفيه كما تفعلين الآن».

«أوه يا آن، سوف يغفر لي إذا عرف أنّ..».

«لن يفعل ذلك. أعرفه جيّدًا. لن يدعك تعبثين بحياته إلى ما لا نهاية. دوفي، هل تريدين أن أجرّك جرًّا من الفراش؟».

ارتجفت دوفي وأطلقت تنهيدةً.

«ليس لديّ أيّ فستانٍ لائقٍ».

«لديك نصف دزينة من الفساتين الجميلة. ارتدي ذلك الفستان الزّهريّ من قماش التّفتا».

«وليس لديّ جهاز العروس. سيذكّرني آل مورو بذلك بقيّة حياتي..».

«يمكنك أن تجهّزي نفسك بعد الزّفاف. دوفي، لماذا لم تحرصي على هذه الأشياء من قبل؟».

«كلّا... كلّا... تلك هي المشكلة. لقد بدأت في التّفكير بها اللّيلة البارحة. وأبي... أنت لا تعرفين أبي يا آن..».

«دوفي، سأمنحك عشر دقائق فقط لتكوني جاهزةً».

أنهت دوفي ارتداء ملابسها في الوقت المحدّد.

أجهشت بالبكاء وقد أنهت آن حَبْكَ فستانها: «إنّه يزداد ضيقًا يومًا بعد يوم. إذا ازددتُ بدانةً فلا أظنّ أنّ جارفيس سيحبّني. كم أتمنّى لو كنتُ نحيفةً وشاحبةً مثلك يا آن. أوه، ماذا لو سمعتنا العمّة ماغي؟».

«لن تسمعنا. لقد أغلقتْ باب المطبخ وراءها، وتعلمين أنّ بها بعض الصّمم. هذه قبّعتكِ ومعطفكِ، وقد وضعتُ بعض الأشياء الأخرى في هذا الكيس».

«أوه، قلبي يرفرف بشدّةٍ. هل أبدو فظيعةً يا آن؟».

قالت آن بنبرةٍ صادقةٍ: «تبدين فاتنةً». كانت بشرةُ دوفي النّاعمةُ مثل الحرير في لون الورد والقشدة، ولم تفسد الدّموع الّتي ذرفتها تَيْنِكَ العينين الجميلتين. ولكنّ جارفيس لم يكن بوسعه رؤيتهما في العتمة، وكان مستاءً على نحوٍ طفيفٍ جدًّا من حبيبته الحسناء، بل ومنشرح الصّدر خلال قيادته العربة إلى المدينة.

قال جارفيس بفارغ الصّبر وهما ينزلان الدّرج في منزل عائلة ستيفنس: «بحقّ السّماء يا دوفي، لا تشعريني أنّك جزعةٌ إلى هذا الحدّ من الزّواج بي. وتوقّفي عن البكاء... سينتفخ أنفك جرّاء ذلك. إنّها تقريبًا السّاعة العاشرة، وعلينا أن نلحق بقطار السّاعة الحادية عشرة».

أصبحت دوفي أحسن بكثيرٍ حالما وجدت نفسها وقد عُقد قرانُها على جارفيس، ودون رجعةٍ. ما ستصفه آن لاحقًا في رسالةٍ إلى جيلبرت، وعلى نحوٍ فيه شيءٌ من الحسد، وما ستسمّيه لاحقًا «نظرة شهر العسل»، كان باديًا في ذلك الوقت على وجه دوفي.

«آن، عزيزتي، نحن ندين لك بكلّ شيءٍ. لن ننسى ذلك ما حيينا، أليس كذلك يا جارفيس؟ شيءٌ آخر يا عزيزتي، هلّا فعلته من أجلي؟ رجاءً أن تبلغي أبي كلّ شيءٍ. سيكون في المنزل بدايةً من مساء الغد... وعلى أحدهم أن يخبره بما جرى. لا أحد يمكنه أن يهدّئ من غضبه سواك. رجاءً افعلي ما بوسعك لتجعليه يصفح عنّي».

في تلك اللّحظة شعرت آن أنّها هي من تحتاج إلى تهدئة توتّرها،

ولكنّها شعرت أيضًا، وإن على مضضٍ، أنّها هي المسؤولة على ما آلت إليه هذه العلاقة، فوعدت دوفي بما طلبته منها.

قالت دوفي وهي تطمئنها: «طبعًا سيكون ردّ فعله فظيعًا... فظيعًا جدًّا يا آن... ولكنّه لن يقتلك في كلّ الأحوال. آه يا آن، أنت لا تعلمين... لا تتصوّرين كم أشعر بالأمان الآن مع جارفيس».

حين عادت آن إلى المنزل، كانت ريبيكا ديو في انتظارها وقد بلغت درجةً من الفضول كانت فيها آن مجبرةً إمّا على أن تشفي غليلها أو أن يجنّ جنونها. لحقت بآن إلى غرفة البرج في قميص نومها وقطعةٍ من قماش الفانلّة كانت قد عصبت بها رأسها، واستمعت إلى الحكاية كلّها.

قالت ريبيكا بنبرةٍ ساخرةٍ: «حسنًا، أعتقد أنّ هذه هي ما يسمّونها «الحياة». ولكنّني سعيدةٌ لأنّ جهود فرانكلين واستكوت قد أثمرت شيئًا في النّهاية، وستشاطرني زوجة القبطان ماك كومر هذا الشّعور. لا أحسدك بتاتًا على نيّتك الذّهاب إليه غدًا وإبلاغه الخبرَ. ستثور ثائرته وسينطق بكلامٍ غير معقولٍ. لو كنت مكانك يا آنسة شيرلي فلن يغمض لي جفن اللّيلة».

قالت آن موافقةً وبنبرةٍ كئيبةٍ: «أشعر أنّها لن تكون تجربةً سارّةً».

(8)

قصدت آن المنزل المسمّى «إلمكروفت» في المساء الموالي، وهي تشعر بانقباضٍ يسري في كلّ أوصالها، وشقّت طريقها عبر مناظر طبيعيّةٍ شبيهةٍ بالحلم كان قد اكتنفها ضباب نوفمبر الكثيف. لم تكن هذه الزّيارة مأموريّةً ممتعةً بالمرّة مثل سابقاتها، ولكنّها تذكّرت ما قالته دوفي حين طمأنتها أنّ فرانكلين واستكوت لن يقتلها في كلّ الأحوال. لم تكن آن تخشى العنف المادّيّ... بالرّغم من أنّه إذا صحّت الحكايات الّتي تُروى عنه، فإنّه قادرٌ على رشقها بأيّ شيءٍ في يده. هل سيسيئ التّكلّم حين يستعر غضبه؟ لم ترَ آن في حياتها رجلًا يهذر من فرط الغيظ، ورجّحت أنّه في غالب الأمر مشهدٌ غير سارٍّ بالمرّة. ولكن، يمكنه أيضًا أن يمارس موهبته الفذّة في التّهكّم البغيض، وهذا النّوع من السّخريّة، لدى الرّجال والنّساء على حدٍّ سواءٍ، هو السّلاح الّذي تخشاه آن وتتوجّس منه. لطالما سبّب لها الكثير من الأذى... وجروحًا أليمةً لم تندمل لأشهرٍ طويلةٍ.

قالت آن في نفسها. «كانت العمّة جايمسينا دائمًا تردّد على مسامعي: لا تكوني، ما استطعت، حاملةً للأخبار السّيّئة. لقد نطقت

العمّة جايمسينا بالحكمة وأصابت في ذلك كما في كلّ شيءٍ آخر. حسنًا، ها قد وصلتُ».

كان إلمكروفت منزلًا عتيقًا جدًّا، ويحوي أبراجًا في كلّ زاويةٍ منه وقبّةً منتفخةً على السّطح. كان الكلب رابضًا على العتبة أمام الباب الأماميّ.

تذكّرت آن مرّةً أخرى ما قالته دوفي من أنّ «هذه الفصيلة من الكلاب إذا أطبقت بفكّيها على أحدٍ فإنّها لا تخلي سبيله أبدًا.» هل عليها أن تحوم حول المنزل وتطرق الباب الجانبيّ؟ لم تلبث أن جالت بذهنها فكرة أنّ فرانكلين واستكوت ربّما كان يراقبها من النّافذة، فاستجمعت من جديدٍ قواها وشجاعتها. لن تمنحه أبدًا نشوة رؤيتها وهي مرعوبةٌ من كلبه. رفعت هامتها بكلّ إصرارٍ، وصعدت الدّرج متجاوزة الكلب، ثمّ قرعت الجرس. لم يتحرّك الكلب قيد أنملةٍ. عندما ألقت عليه آن نظرةً من فوق كتفها كان، على ما يبدو، يغطّ في نوم عميقٍ.

علمت أنّ فرانكلين واستكوت لم يكن في المنزل، وأنّ من المتوقّع أن يصل في أيّ وقتٍ، نظرًا إلى تأخّر قطار شارلوتاون. رافقت العمّة ماغي الآنسة شيرلي إلى ما أسمتها «المكتبة» وتركتها هناك. كان الكلب قد نهض حينها وتبعها، ثمّ مكث مُقعيًا عند قدمَي آن.

وجدت آن نفسها مولعةً بـ«المكتبة». لقد كانت غرفةً جرداء ومنشرحةً، وألسنة النّار المضطرمة في موقدها تبعث على الدّفء والرّاحة، وتناثرت البُسُط المصنوعة من جلود الدّببة على الحصيرة

المهترئة لأرضيّتها. لقد كان من الواضح أيضًا أنّ فرانكلين واستكوت لم يحرم نفسه قطّ إذا تعلّق الأمر بالكتب والغلايين.

لم تمض برهةٌ حتّى سمعت وقع أقدامه. علّق قبّعته ومعطفه في البهو، ووقف عند مدخل باب «المكتبة» وقد قطّب ما بين حاجبيه بعزمٍ شديدٍ. تذكّرت آن أنّ انطباعها عنه في المرّة الأولى الّتي رأته فيها كان شبيهًا برؤية قرصانٍ شهمٍ، وعاودها الانطباع نفسه في هذه المرّة أيضًا.

قال لها بفظاظةٍ: «أوه، أنت مرّةً أخرى؟ حسنًا، ماذا تريدين؟».

لم يمدّ يده حتّى ليصافحها. ومن بين الاثنين، شعرت آن أنّ للكلب أخلاقًا أكثر دماثةً.

«رجاء يا سيّد واستكوت أن تتحلّى برحابة الصّدر وتسمعني إلى الآخر قبل..».

«ها قد تحلّيت بالصّبر... بصبرٍ جميلٍ. واصلي!».

بدا لـآن أنّه لا فائدة من اللّفّ والدّوران مع رجلٍ مثل فرانكلين واستكوت، وأنّ عليها الخوض في الموضوع مباشرة.

قالت بثباتٍ: «لقد جئتُ لأقول لك إنّ دوفي عقدت قرانها على جارفيس مورو».

ثمّ تحسّبت لزلزال يميد بالأرض. ولكن لم يحدث شيءٌ. لم تتحرّك عضلةٌ واحدةٌ من عضلات وجه فرانكلين الغثّ والمتجهّم. دخل إلى آخر الغرفة، وجلس قبالة آن على الكرسيّ المتباعد السّاقين والمصنوع من الجلد.

«متى كان ذلك؟».

أجابته آن: «البارحة... في منزل شقيقته».

رمقها فرانكلين واستكوت برهةً من الزّمن بعينيه الكستنائيّتين المائلتين إلى الصّفرة، والغائرتين تحت سقائف حاجبيه الأشيبين. ولوهلةٍ تساءلت آن من جهتها عن المظهر الّذي كان يبدو عليه حين كان طفلًا رضيعًا. ثمّ ثنى رأسه إلى الخلف وانخرط في نوباتٍ من الضّحك المكتوم.

قالت له آن بنبرةٍ جدّيّةٍ، وقد استعادت قواها الكلاميّة بعد أن ولّى الخوف من ذلك البوح البغيض بما كانت تخفيه: «لا يمكنك أن تلقي باللّوم على دوفي أيّها السّيّد واستكوت. لم تكن غلطتها..».

قال فرانكلين واستكوت: «أراهن أنّها لم تكن كذلك».

هل *كانت* نبرة كلامه ساخرةً؟

قالت له آن بجرأةٍ وبكلّ بساطةٍ: «كلّا، إنّها غلطتي أنا. لقد نصحتها أن تهر...ب وتتزوّج... لقد *دفعتُها* إلى ذلك. رجاءً أن تغفر لها أيّها السّيّد واستكوت».

التقط فرانكلين واستكوت بهدوء أحدِ غلايينه وشرع في حشوه.

«إذا استطعت، يا آنسة شيرلي، أن تجعلي سيبيل تهرب مع عشيقها جارفيس مورو فقد حقّقت ما لا أتصوّر أحدًا آخر يمكنه تحقيقه. لقد بدأتُ أخشى أن تعوزها رباطة الجأش لتفعل ذلك. ثمّ إنّه كان عليّ أن أتراجع في موقفي... يا إلهي، كم نكره نحن عائلة

واستكوت أن نعترف بخطئنا! لقد حفظت ماء وجهي يا آنسة شيرلي، وأنا ممتنٌّ لك كثيرًا».

اكتنف المكان سكونٌ صاخبٌ حين كان فرانكلين واستكوت يرصّ تبغ غليونه وينظر إلى آن وقد تهلّلت أسارير وجهه. أمّا آن فكانت في حيرةٍ من أمرها ولم تكن تعرف ما تقول.

قال لها: «أفترض إذَن أنّك قدمتِ إلى هنا وأنت ترتعدين خوفًا من ردّ فعلي حين يتناهى إليّ هذا الخبر المشؤوم؟».

قالت آن باقتضابٍ: «نعم».

ضحك فرانكلين واستكوت مرّةً أخرى تلك الضّحكة الخافتة.

«لا داعي إلى ذلك. لم يكن بوسعك الإتيان بخبرٍ مفرح أكثر من الّذي أتيت به. إنّني أنا من اختار جارفيس مورو من بين كلّ الصّبيان لابنتي دوفي، وذلك منذ أيّام طفولتها. وحالما بدأ بعض الأولاد الآخرين يحومون حولها، طردتهم شرّ طردةٍ. وتلك هي المرّة الأولى الّتي انتبه فيها جارفيس إليها وبدأ يهتمّ بها. كان ذلك بالنّسبة إليه بمثابة التّحدّي لهذا الرّجل العجوز المتزمّت! ولكنّه كان محبوبًا جدًّا لدى الفتيات حتّى إنّني لم أصدّق حظّي الموفور عندما أبدى تعلّقًا حقيقيًّا بدوفي. ثمّ بدأتُ في وضع خطّةٍ للحملة الّتي سأقودها. أعرف عائلة مورو من ألفها إلى يائها. أنت لا تعرفينهم بطبيعة الحال. إنّها عائلةٌ محترمةٌ، ولكنّ الرّجال فيها لا يعيرون الأشياءَ السّهلة المنالِ اهتمامًا. ويُعرف عنهم أنّهم يصرّون في طلب كلّ شيء يُقال لهم إنّه من المستحيل بلوغه. إنّهم دائمًا يتصرّفون

على نحوٍ مناقضٍ لما هو منطقيٌّ أو متوقَّعٌ. لقد فَطَرَ والد جارفيس قلوب ثلاث فتياتٍ من قبل، فقط لأنّ كلّ عائلةٍ كانت تتلهّف طمعًا إلى أن يهتمّ لأمر ابنتها. وفي ما يخصّ جارفيس، كنتُ أعلم أنّه لن يمضي طويلًا في حبّها إذا كانت سهلة المنال. لذلك منعته من الاقتراب من هذا المكان وحذّرتُ سيبيل من الكلام معه. لقد أتقنتُ حدّ الكمال لعب دور الأب الغليظ والمتشدّد. أتحدّث هنا عن لذّة الممنوع وسحر ما لا يمكن أن تناله بعدُ! وهو لا يمتّ بأيّ صلةٍ إلى لذّة الشّيء الّذي يستحيل بلوغه. وقد سار كلّ شيءٍ على ما يرام وحسب التّخطيط، ولكنّ العقبة الحقيقيّة كانت ضُعف إرادة دوفي وهوانها. إنّها ابنةٌ لطيفةٌ جدًّا *ولكن* تعوزها رباطة الجأش. لقد كنتُ أعتقد أنّه لن تكون لها الجرأة الكافية للزّواج منه رغم أنفي. الآن وقد استعدتِ أنفاسكِ أيّتها الشّابّة العزيزة، أفضي إليّ بمكنون صدرك، وأخبريني بكلّ ما حدث».

عاودت آن من جديدٍ روحُ الدّعابة وأتت لإنقاذها مرّةً أخرى. لم يكن بإمكانها تفويت فرصة الضّحك بقوّةٍ، حتّى إن كانت هي موضوع الدّعابة. لقد أحسّت فجأةً أنّها قريبةٌ جدًّا من فرانكلين واستكوت.

أنصت إلى ما قالته بانتباهٍ وهو ينفث دخان التّبغ من غليونه في هدوءٍ ومتعةٍ. وعندما أنهت آن حديثها أومأ برأسه في ارتياح.

«أرى أنّني أدين لك بأكثر ممّا كنتُ أظنّه. لم تكن دوفي لتتحلّى بهذه الشّجاعة لولا نصحك لها. ولم يكن جارفيس مورو ليجعل

نفسه يبدو مثل الأحمق مرّتين... لأنّني أعرف جيّدًا معدن هذه العائلة. يا إلهي لقد نجوتُ بأعجوبةٍ! أنا مدينٌ لك بحياتي. إنّه لطفٌ كبيرٌ منك أن تأتي إلى هنا وأنت تعرفين كلّ الحكايات والشّائعات الّذي يردّدونها عنّي. لقد سمعت الكثير منها، أليس كذلك؟».

أومأت آن برأسها في إيجابٍ. ووضع الكلب رأسه في حجرها وغطّ في النّوم بسعادةٍ.

قالت له بنبرةٍ صريحةٍ: «كانوا يجمعون على أنّك سيّئ الطّبع ونكد المزاج وفظّ الكلام».

«وأفترض أنّهم قالوا لكِ أيضًا إنّني مستبدٌّ بالرّأي، وإنّني جعلت حياة زوجتي المسكينة تعيسةً، وإنّني كنتُ أحكم عائلتي بالحديد والنّار؟».

«نعم، ولكنّني كنتُ دومًا أتقبّل كلّ هذا الكلام بشيءٍ من الرّيبة والتّحفّظ أيّها السّيّد واستكوت. لقد كنتُ على يقينٍ أنّ دوفي لن تكون مولعةً بك إلى ذلك الحدّ إذا كنتَ بهذه المساوئ الّتي رسمتها عنك تلك الإشاعات».

«حكيمةٌ أنتِ أيّتها الفتاة! لقد كانت زوجتي سعيدةً معي يا آنسة شيرلي. وحين تخبرك زوجة القبطان ماك كومر مرّةً أخرى أنّني كنتُ أتنمّر عليها حدّ الموت، فصدّيها نيابةً عنّي. اعذري أسلوبَ كلامي الأرعن. لقد كانت مولي فائقة الحسن... كانت أجمل حتّى من دوفي. كم كانت بشرتها البيضاء والورديّة ناعمةً... كم كان ذلك الشّعر البنّيّ ذهبيًّا... كم كانت تينك العينان الزّرقاوان شبيهتَين

بقطرات النّدى! لقد كانت أجمل امرأةٍ في سامرسايد. وكان عليها أن تكون كذلك. لم أكن أطيق أن أرى رجلًا يدخل إلى الكنسية مع امرأةٍ أجمل من الّتي أحبُّ. لقد أدرتُ شؤون منزلي كما ينبغي أن يفعل ذلك أيّ رجلٍ، ولكن دون أن أكون متجبّرًا. أوه، طبعًا تنتابني بين حينٍ وآخر بعض نوبات الغضب، ولكنّ مولي لم تكن تمانع في ذلك بعد أن تعوّدت عليها. لأيّ رجلٍ الحقّ في أن يتخاصم مع زوجته بين فينةٍ وأخرى، أليس كذلك؟ فالنّساء يضجرن من الزّوج الرّتيب المملّ. ثمّ إنّني كنتُ دائمًا أهديها خاتمًا أو قلادةً أو أيّ قطعةٍ أخرى من الحليّ حين أهدأ وأسكن. لم تكن أيّ امرأةٍ في سامرسايد تملك حليًّا مثل الّذي تملكه زوجتي. عليّ أن أخرجه وأعطيه سيبيل إيّاه».

قالت آن في نبرةٍ ماكرةٍ: «وماذا عن أشعار ميلتون؟».

«أشعار ميلتون؟ أوه، نعم! لم تكن أشعار ميلتون... بل تينيسون. أنا أُجِلّ ميلتون، ولكنّني لا أطيق ألفريد تينيسون. إنّه عذبٌ حدَّ القرف. لقد جعلني البيتان الأخيران[1] من قصيدته «إينوك آردن» أفقد صوابي ذات ليلةٍ، ممّا دفع بي إلى رمي ديوانه من النّافذة. ولكنّني التقطتُه في اليوم الموالي فقط من أجل «أغنية باغل»[2]. سأغفر من أجل هذه القصيدة أيّ شيءٍ لأيّ أحدٍ. وبالمناسبة، لم يقع الكتاب الّذي رميتُ به في غدير النّيلوفر لجورج

(1) يقول فيها ألفريد تينيسون: «وهكذا رقدت تلك الرّوح القويّة والباسلة رقود الأموات/ وحين طمروها، لم ير المرفأ الصّغير جنازة نفيسة مثلها».

(2) أغنية في قصيدة نثر لتينيسون عنوانها «الأميرة».

كلارك – كانت تلك تطريزة العجوز بروتي. هل أنت ذاهبةٌ؟ ابقي وتناولي لقمة عشاءٍ مع هذا الرّجل العجوز والوحيد الّذي سرقوا منه ابنته الوحيدة».

«آسفة جدًّا، لا يمكنني ذلك أيّها السّيّد واستكوت، عليّ أن أحضر اجتماعًا لإطار التّدريس هذه اللّيلة».

«حسنا، سأراكِ حينما تعود سيبيل. عليّ أن أقيم حفلةً على شرفها. ذلك ممّا لا شكّ فيه. حمدًا لله، كم أثلج هذا الخبر صدري. لا يمكنك أن تتخيّلي كم كنتُ أكره أن أتنازل عن كرامتي وأتوسّل إليه أن «يأخذها». ما عليّ فعله الآن هو التّظاهر بأنّني مكسور الخاطر، وأنّني أذعنتُ وغفرتُ لها على مضضٍ من أجل أمّها المسكينة. سألعب ذلك الدّور على أكمل وجه... لن يشكّ جارفيس في أيّ شيءٍ. هل ستفشين سرّ هذا الأداء الرّائع؟».

قالت آن: «أعدك أنّني لن أفعل ذلك».

رافقها فرانكلين واستكوت بهدوءٍ إلى الباب. وقف كلب البولدوغ على أردافه، وذرف دمعةً وهي تغادر المكان.

وعند الباب أبعد فرانكلين غليونه عن فمه وربّت به على كتفها.

قال لها بنبرةٍ جادّةٍ: «تذكّري دائمًا أنّ هناك أكثر من طريقة لسلخ جلد الحيوان. يمكنكِ فعل ذلك دون أن يدرك الحيوان نفسه أنّه فقَد فروته. بلّغي ريبيكا ديو سَلاَمِي. إنّها مخلوقةٌ لطيفةٌ جدًّا، إذا عرفتِ كيف تعامليها بطبيعة الحال. وأشكرك... أشكرك كثيرًا».

أخذت آن طريق العودة إلى المنزل في ذلك المساء الرّقيق والهادئ.

كان الضّباب حينها قد انقشع، واتّجاه الرّيح قد تغيّر، وكانت السّماء الّتي تلوّنت بأخضر شاحبٍ تنبئ بموجة من الجليد.

قالت آن في نفسها: «لطالما ردّد النّاس على مسامعي أنّني لا أعرف فرانكلين واستكوت. وكانوا على حقٍّ... لم أكن أعرفه. ولا هم كانوا يعرفونه».

كانت ريبيكا ديو على أحرّ من الجمر في غياب آن، وكانت تتلهّف لمعرفة ما حدث.

قالت لها: «كيف تقبّل الأمر؟».

أجابتها آن على انفرادٍ: «في النهاية، لم يكن الأمر بذلك السّوء الّذي توقّعته. أعتقد أنّه سيغفر لدوفي عندما يحين الوقت المناسب».

قالت ريبيكا ديو بإعجابٍ شديدٍ: «لم أعرف في حياتي شخصًا بمثل هذه القدرة على الإقناع. لا شكّ أنّ لك طريقتك الخاصّة في فعل ذلك».

قالت آن مقتبسةً وقد شعرت بإرهاقٍ شديدٍ: «أن تحاول فعل شيءٍ، وأن يتحقّق، فذاك يستحقّ هجوع اللّيل»[1]. وصعدت الدّرجات الثّلاث إلى فراشها تلك اللّيلة. «ولكن انتظري ما سأفعله حين يطلب منّي الشّخص الموالي النّصح بشأن الفرار مع عشيقته!».



(1) من قصيدة «حدّاد القرية» للشّاعر هنري لونغفيلو.

(9)

(مقتطف من رسالة إلى جيلبرت)

دُعيتُ لتناول العشاء ليلة الغد مع سيّدةٍ مرموقةٍ من سيّدات سامرسايد. أعرف أنّك لن تصدّقني يا جيلبرت حين أخبرك أنّ اسمها هو تومغالون... الآنسة مينيرفا تومغالون. أعرف أنّك ستقول لي إنّني أقرأ الكثير من أدب تشارلز ديكنز، وفي أوقاتٍ متأخّرةٍ من اللّيل.

عزيزي، ألستَ سعيدًا أنّ اسم عائلتك هو «بلايث»؟ من المؤكّد أنّني لن أتزوّج بك لو كان «تومغالون». تخيّل... آن تومغالون! كلّا، عليك ألاّ تتخيّل ذلك.

لقد كان الشّرف الأسمى الّذي حبَتني به سامرسايد... دعوةٌ من مزرعة تومغالون. لا يمكن أن أسمّيه غير ذلك. لن أحدّثك عن الحقول الصّغيرة وأشجار الدّردار وأشجار الكستناء الّتي تملكها عائلة تومغالون.

أعلم أنّها كانت في ما مضى «عائلة ملكيّة»، وأنّ عائلة برينغل هي مجرّد فطريّاتٍ بالقياس إلى ما كانت عليه عائلة تومغالون. لم يبق منهم الآن سوى الآنسة مينيرفا، النّاجية الوحيدة من بين

ستّة أجيالٍ لعائلة تومغالون. تعيش مينيرفا في منزلٍ ضخمٍ بشارع كوين... منزلٍ ذي مداخن شامخةٍ، ومصاريع نوافذ خضراء، ويحتوى على النّافذة المزخرفة الوحيدة بمنزلٍ للسّكن الخاصّ في المدينة. إنّه منزلٌ واسعٌ يمكن له أن يتّسع لأربع عائلاتٍ، ولكن تسكنه فقط الآنسة مينيرفا وطبّاختها وخادمتها. ثمّ إنّه حافظ على بنيانه في حالةٍ جيّدةٍ، ولكنّني حين أمرّ بجانبه أشعر أنّه مكانٌ تخلّت عنه الحياة.

لا تخرج الآنسة مينيرفا إلّا قليلًا، ما عدا للذّهاب إلى الكنيسة الأنغليكانيّة، ولم ألتق بها إلّا منذ بضعة أسابيع حين حضرت اجتماعًا لإطار التّدريس ومجلس الأمناء، وذلك للإعلان عن هديّةٍ رسميّةٍ للمدرسة، تمثّلت في المكتبة القيّمة الّتي كانت على ملك والدها. كانت تبدو بالضّبط كما تتوقّع أن ترى امرأةً تحمل اسم مينيرفا تومغالون... باسقة القامة ونحيفة الجسم، وذات وجهٍ طويلٍ وناحل وأبيض، وأنفٍ وفمٍ طويلين ودقيقين. لا يبدو هذا الوصف جذّابًا، ولكنّ للآنسة مينيرفا مسحةً من جمالٍ على نحو مهيبٍ وأرستقراطيٍّ، وكانت دائمًا متأنّقةً في لباسٍ فاخرٍ ربّما كان يبدو للنّاظر غير مسايرٍ للعصر نسبيًّا. أخبرتني ريبيكا ديو أنّها كانت حسناء فاتنةً في شبابها، ومازالت عيناها السّوداوان والواسعتان تتّقدان حماسةً وبريقًا قاتمًا. كانت الكلمات لا تعوزها، ولم أسمع في حياتي شخصًا يستمتع مثلها بالحديث وإلقاء الخطب.

كانت الآنسة مينيرفا لطيفةً معي على وجه الخصوص، وتلقّيت بالأمس رسالةً رسميّةً قصيرةً تدعوني فيها إلى العشاء معها. حين

أبلغتُ ريبيكا ديو بهذا الخبر، فَغَرَتْ فَاهَا من الدّهشة وكأنّني قد دُعيتُ إلى قصر باكنغهام بالاس.

قالت ريبيكا ديو بنبرةٍ فيها الكثير من الخشوع: «إنّه لشرفٌ عظيمٌ أن تدعي إلى منزل عائلة تومغالون. لم أسمع من قبل أنّ الآنسة مينيرفا دعت إلى منزلها أيًّا من نظّار المدرسة الّذين سبقوك. لقد كانوا في الحقيقة جميعهم من الرّجال، ولم يكن من المناسب دعوتهم على ما أظنّ. على أيّة حالٍ، آمل أنّها لن تهذر في الكلام حدّ الضّجر يا آنسة شيرلي. يشتهر آل تومغالون بثرثرةٍ لا تتوقّف، ويريدون دائمًا أن يكونوا في الصّفوف الأماميّة من كلّ شيءٍ. يزعم بعض النّاس أنّ سبب اعتكاف الآنسة مينيرفا في منزلها هو أنّها قد كبرت في السّنّ ولا يمكنها أن تتزعّم كلّ شيءٍ كما كانت في السّابق، ومن المعروف عنها أنّها تكره لعب الأدوار الثّانويّة. ماذا سترتدين يا آنسة شيرلي؟ كم أحبّ أن أراك تلبسين فستانك الّذي في لون القشدة والمصنوع من قماش الشّاش الحريريّ، بالإضافة إلى شرائطك السّوداء المخمليّة. ستكونين أنيقةً جدًّا فيها».

قلتُ لها: «أخشى أن يكون ذلك إفراطًا في التّأنّق بالقياس إلى سهرةٍ هادئةٍ خارج المنزل».

«أنا متأكّدةٌ أنّ مثل هذا الهندام سيعجب الآنسة مينيرفا كثيرًا. دائمًا ما يودّ آل تومغالون من ضيوفهم أن يكونوا مهندمين على نحوٍ أنيقٍ. يقولون إنّ جدّ الآنسة مينيرفا أغلق الباب ذات مرّةٍ في وجه امرأةٍ دُعيت إلى حفلٍ راقصٍ في منزله، لأنّها أتت في ثاني أفضل

فستانٍ لديها. قال لها الجدّ إنّها حتّى لو ارتدت أفضل ما لديها، فلن يليق ذلك بعائلة تومغالون».

ومع ذلك، سألبس فستاني الأخضر المصنوع من قماش الفوال[1]، وعلى تلك الأشباح في منزل تومغالون أن تبدي رأيها فيه.

سأعترف لك يا جيلبرت بشيءٍ فعلته الأسبوع الفارط. أحسبك تظنّ الآن أنّني تدخّلتُ من جديدٍ في شؤون الآخرين. ولكنّني كنتُ مجبرةً على فعله. لن أكون في سامرسايد العام المقبل، ولا أطيق فكرة ترك الصّغيرة إليزابيث تحت رحمة تينك المرأتين العجوزين اللّتين لا تقدران على حبّها، وفيهما تتنامى القسوة وضيق الأفق سنةً بعد أخرى. ما مصير تلك الطّفولة الّتي ستعيشها بينهما في ذلك المكان القديم الموحش؟

قالت لي بنبرةٍ حزينةٍ، منذ وقتٍ غير بعيدٍ: «أتساءل دومًا عن حالي لو أنّ لي جدّةً لا أخافُها».

هذا ما فعلتُه: *كتبتُ رسالة إلى أبيها*. يعيش والدها في باريس، ولم أكن أعرف عنوانه بالضّبط، ولكنّ ريبيكا ديو سمعت ذات مرّةٍ وتذكّرت اسم الشّركة الّتي يدير فرعها هناك. فاغتنمتُ الفرصة وراسلتُه على عنوانها. كتبتُ رسالةً بطريقةٍ لبقةٍ قدرَ ما استطعتُ، ولكنّني قلتُ له بوضوحٍ إنّ عليه أن يأتي ويأخذ ابنته. قلتُ له كم كانت تترقّبه وتحلم به، وأخبرتُه أنّ السّيّدة كامبل قاسيةٌ وصارمةٌ

(1) قماش رقيق وخفيف الوزن، مصنوع من القطن الممزوج بالكتّان.

جدًّا معها. ربّما لن يتحقّق شيءٌ من ذلك، ولكنّني لو لم أكتب إليه لطاردني شبح النّدم على عدم فعل ذلك طول حياتي.

ما جعلني أقوم بهذه الخطوة هو أنّ إليزابيث قالت لي ذات يومٍ بنبرةٍ جادّةٍ إنّها «كتبت رسالةً إلى السّماء»، وتوسّلت إليها أن تعيد أباها إليها وتجعله يحبّها. قالت إنّها توقّفت عن السّير في طريق العودة من المدرسة، وسط رقعةٍ مقفرةٍ من الأرض، وقرأتها وعيناها مرشوقتان في السّماء. أعرف أنّها قامت بشيءٍ مثيرٍ للاستغراب، لأنّ الآنسة بروتي لمحت هذا الأداء وأخبرتني بشأنه حين جاءت لتَحُوك شيئًا للأرملتين في اليوم الموالي. قالت إنّ إليزابيث كانت تتصرّف على نحوٍ «شاذٍّ... وهي تتحدّث إلى السّماء هكذا».

استوضحتُ الأمر من إليزابيث فقالت لي: «أظنّ أنّ السّماء ستهتمّ للرّسالة أكثر من أدعيتي وصلواتي لها. لقد صلّيتُ كثيرًا. لا شكّ أنّها تتلقّى في الوقت الحاليّ أدعيةً كثيرةً».

وكنتُ قد كتبتُ إلى أبيها في تلك اللّيلة.

قبل أن أختم هذه الرّسالة، عليّ أن أحدّثك عن داستي ميلر. أعلمتني العمّة كايت منذ زمنٍ أنّ عليها إيجاد منزل آخر يأويه بسبب تشكّيات ريبيكا ديو المتكرّرة منه، وهي تشكّياتٌ لم تعد العمّة كايت تتحمّلها أكثر من ذلك. عدتُ في الأسبوع الفارط ذات مساءٍ من المدرسة، ولكن لم يكن لداستي ميلر أيّ أثرٍ. قالت العمّة تشاتي إنّهما أعطتاه إلى السّيّدة إدموندز الّتي تعيش في الجانب الآخر من سامرسايد. حزنتُ لذلك قليلًا، فقد كنتُ أنا وداستي ميلر

صديقين حميمين، ولكنّني منّيتُ النّفس أنّ ريبيكا ديو قد تصبح على الأقلّ أكثر سعادةً الآن.

كانت ريبيكا ديو غائبةً عن المنزل في ذلك اليوم، فقد توجّهت إلى منطقةٍ بالرّيف لتساعد أحد أقربائها في غزل السّجّاد. وحين عادت عند الغروب لم يقل لها أحدٌ شيئًا، ولكن لمّا حان وقت نومها أخذت كدأبها تنادي داستي ميلر من السّقيفة الخلفيّة. قالت لها العمّة كايت بهدوءٍ:

«لا داعي إلى أن تناديه يا ريبيكا. إنّه ليس هنا. وجدنا له منزلًا في مكانٍ آخر. لن يقلق راحتك بعد الآن».

لو كان باستطاعة ريبيكا ديو أن تغيّر لون وجهها ويصبح شاحبًا لفعلت ذلك.

«ليس هنا؟ وجدتما له منزلًا آخر؟ يا لوعتي! أليس هذا منزله؟».

«لقد أعطيناه للسّيّدة إدموندز. فشعورها بالعزلة ازداد منذ أن تزوّجت ابنتُها، وظننّا أنّ قطًّا لطيفًا مثله سوف يؤنس وحدتها».

دخلت ريبيكا ديو وصفقت الباب وراءها. بدت ثائرةً على نحوٍ مسعورٍ.

قالت جملتها المعهودة: «لقد طفح الكيل». ويبدو بالفعل أنّ الأمر كان كذلك. لم أرَ في حياتي شررًا مثل الّذي كان يتطاير من عينيها. «سأغادر المنزل في نهاية هذا الشّهر أيّتها السّيّدة ماك كومر، أو حتّى قبل ذلك إذا تفضّلتِ بهذا».

قالت لها العمّة كايت في دهشةٍ: «ولكن يا ريبيكا. لا أفهم

قصدك بالضّبط. لقد كنت لا تطيقين ذلك القطّ. فقط في الأسبوع الماضي كنتِ تقولين..».

قالت ريبيكا بمرارةٍ: «هكذا إذَن. تلقين باللّوم عليّ! ألا تعيران اهتمامًا لمشاعري؟ ذلك القطّ العزيز المسكين! لقد تعهّدته ودلّلته وقمت من فراشي في اللّيالي الطّويلة لأدعه يدخل. اختُطف خلسةً من وراء ظهري، ومن دون إذني. وأعطيتماه لجاين إدموندز، الّتي لن تكلّف نفسها وتشتري له ولو قطعةً صغيرةً من الكبد إذا كان يشتهيها! لقد كان رفيقي الوحيد في المطبخ!».

«ولكنّك يا ريبيكا، كنتِ دائمًا..».

أوه، واصلي... واصلي هكذا! لا تدفعيني إلى قول كلامٍ ليس في محلّه أيّتها السّيّدة ماك كومر. لقد ترعرع عندي ذلك القطّ منذ كان هريرًا صغيرًا... اعتنيتُ بصحّته وتربيته... وما خلاصة ذلك؟ سيكون لجاين إدموندز قطٌّ مدرّبٌ على سبيل المرافقة. آمل أن تقف مثلي في صقيع اللّيالي لتنادي ذلك القطّ لساعاتٍ طويلةٍ عوضًا عن تركه يتجمّد من البرد، ولكنّني أشكّ في ذلك... أشكّ في ذلك كثيرًا. حسنًا أيّتها السّيّدة ماك كومر، كلّ ما أرجوه هو أنّ ضميرك لن يؤنّبك عندما تنزل الحرارة إلى ما تحت الصّفر. لن يغمض لي جفنٌ إذا حدث ذلك، ولكن لن يحرّك أحدٌ منكما ساكنًا بطبيعة الحال».

«ريبيكا، لو أنّك فقط..».

«سيّدة ماك كومر، لستُ دودة أرضٍ، ولستُ ممسحةً للأرجل

ولا أقبل الإهانة. لقد كان ذلك درسًا لي... درسًا لن أنساه! لن أسمح لمشاعري في المرّة القادمة أن تحنّ إلى أيّ حيوانٍ من أيّ فصيلةٍ ونوعٍ. كنتُ سأذعن لو فعلتما ذلك جِهارًا وأمام عينيّ... ولكنكما فعلتماه من وراء ظهري... وغافلتماني بهذا الشّكل! لم أعرف في حياتي عملًا بهذه الخساسة! ولكن من أنا في النّهاية حتّى يكترث النّاس لمشاعري!».

قالت العمّة كايت بنبرةٍ يائسةٍ: «ريبيكا، إذا كنتِ تريدينني أن أسترجع داستي ميلر فلا مانع عندي».

سألتها ريبيكا ديو: «ولماذا لم تقولي هذا منذ البداية؟ إنّني أشكّ في ذلك. لقد أطبقت عليه جاين إدموندز بمخالبها. هل يمكنها فعلًا التّفريط فيه؟».

قالت العمّة كايت وقد تغيّر لون وجهها: «أعتقد ذلك. وإن عاد فإنّك لن تتركينا يا ريبيكا، أليس كذلك؟».

قالت ريبيكا على نحوٍ يُخيّل للنّاظر أنّها حقّقت تنازلًا جسيمًا: «ربّما سأفكّر في الأمر».

عادت العمّة تشاتي في اليوم الموالي بالقطّ داستي ميلر ملفوفًا في إحدى السّلال. لمحتُ نظرةً بادلتها إيّاها العمّة كايت بعد أن حملت ريبيكا القطّ إلى المطبخ وأغلقت الباب وراءها. تُرى هل كانت تلك مكيدةً مبيّتةً من تدبير الأرملتين، وساعدتهما في ذلك وحرّضتهما جاين إدموندز؟

لم تنطق ريبيكا منذ ذلك اليوم بكلمةٍ واحدةٍ تشكو فيها من

داستي ميلر، وكان صوتها حين تناديه للنّوم يجلجل على نحوٍ مظفّرٍ. لقد بدا وكأنّها تريد أن تُعلِم كلّ أهل سامرسايد أنّ داستي ميلر قد عاد بين أهله وعشيرته، وأنّها قد انتصرت مرّةً أخرى على الأرملتين!

(10)

كان مساءً متجهّمًا من أمسيات شهر مارس الّذي عصفت فيه الرّياح بشدّةٍ، وحتّى الغيوم الّتي تلبّدت في السّماء كانت تندفع بقوّةٍ وكأنّها في عجلةٍ من أمرها. حينها كانت آن تحثّ السّير متسلّقةً في سرعةٍ المجموعات الثّلاث لدرجات السّلّم العريضة والمسطّحة الّتي تحيط به من الجانبين جِرارٌ حجريّةٌ وتماثيل أسُودٍ أكثر تحجّرًا، وقد قادتها إلى الباب الأماميّ العظيم الكتلة لمنزل تومغالون. اعتادت آن في السّابق حين كانت تمرّ بجانب هذا المنزل بعد الغروب أن تجده معتمًا وكالحًا ولا ينبعث منه سوى بريقٍ خافتٍ من نافذةٍ أو اثنتين. ولكنّها ألفته ذلك المساء متوهّجًا كأنّه منارةٌ، وحتّى ملحقا البناية في كلّ جانبٍ منها كانا مضاءين، وكأنّ الآنسة مينيرفا تحتفي بالمدينة كلّها. انبهرت آن بكلّ هذه الإنارة على شرفها، وتمنّت تقريبًا لو أنّها ارتدت ذلك الفستان في لون القشدة والمصنوع من قماش الشّاش الحريريّ.

بيد أنّها بدت فاتنةً في فستانها الأخضر من قماش الفوال، أو ربّما هذا ما أنسته في الآنسة مينيرفا وهي تستقبلها في البهو، لأنّ وجهها ونبرة صوتها كانا ينمّان عن كثيرٍ من المودّة والألفة. كانت الآنسة

مينيرفا ملَكيّة المظهر سواء في لباسها المخمليّ الأسود، أو مشطها المرصّع بالألماس في الجدائل الغليظة لشعرها الرّماديّ الدّاكن، أو مشبك صدرها الضّخم والمنقوش بالجواهر، والّذي أحاطت به من الجانبين ضفائر شعرٍ لأحد الرّاحلين من عائلة تومغالون. كانت كسوتها في المُجمل عتيقة الطّراز، ولكنّ الآنسة مينيرفا كانت تلبسها بهالةٍ من العظمة جعلتها أزليّةً مثل حُلل العائلة المالكة.

قالت لـآن وقد مدّت إليها يدًا ناتئة العظام ومكسوّةً هي أيضًا بالماس: «مرحبًا بك في منزل تومغالون يا عزيزتي. يسرّني أن تكوني ضيفتي هنا في بيتي».

«أنا..».

قاطعتها الآنسة مينيرفا وهي تقودها نحو درج السّلّم الواسع، فوق سجّادٍ أحمر باهتٍ من المخمل: «لطالما كان منزل تومغالون محفلًا للجمال والشّباب في الأيّام الغابرة. لقد دأبنا في الماضي على إقامة الكثير من الحفلات والاحتفاء بزوّارنا من المشاهير. ولكن تغيّر كلّ شيءٍ الآن. لا أكاد أستقبل أحدًا الآن. فعائلتنا يا حبيبتي ترزح تحت تأثير *إحدى اللّعنات*».

أضفت الآنسة مينيرفا على نبرتها مسحةً من الغموض والرّعب كادت ترتجف لها آن. لعنة عائلة تومغالون! يا له من عنوانٍ رائعٍ لإحدى الرّوايات!

«هذا هو الدّرج الّذي سقط منه والد جدّي تومغالون، وفيه كسر رقبته أثناء اللّيلة الّتي أقامها نخبَ احتفاله بإنهاء بناء منزله

الجديد. لقد كانت نُذر المنزل دماءٌ آدميّةٌ. سقط *هناك*..». وأشارت الآنسة مينيرفا بإصبع أبيض طويلٍ، وعلى نحوٍ مسرحيٍّ، إلى بساطٍ في البهو مصنوعٍ من جلد فهدٍ. كادت آن حين نظرت إليه أن ترى الرّاحل تومغالون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة عليه. لم تكن في الواقع تعرف ما تنطق به حينها، فقالت في صيغة تعجّبٍ بدت سخيفةً: «أوه!».

رافقتها الآنسة مينيرفا على طول بهوٍ عُلّقت على جانبيه بورتريهات فنّيّةٌ وصورٌ فوتوغرافيّةٌ لأحبّاء قد رحلوا عن هذا العالم، ولاحت في نهايته النّافذة المزخرفة الشّهيرة. ثمّ دخلتا غرفة ضيوفٍ عالية السّقف وفي غاية الاتّساع والعظمة. كانت الأريكة الّتي تتوسّطها والّتي قُدّت من خشب الجوز عاليةً، وألواح الرّأس فيها ضخمة، وكانت مكسوّةً بلحافٍ من الحرير في غاية البهاء والرّوعة ممّا جعل آن تشعر أنّ مجرّد وضع معطفها وقبّعتها عليها هو من باب التّدنيس والتّنجيس.

قالت الآنسة مينيرفا بإعجابٍ فائقٍ: «شعرك جميلٌ جدًّا يا عزيزتي. أنا مولعةٌ بالشّعر الأحمر. كان للعمّة ليديا شعرٌ مماثلٌ... لقد كانت الصّهباء الوحيدة في عائلة تومغالون. كانت خلال إحدى اللّيالي تسرّحه في الغرفة الشّماليّة حين دبّت فيه النّار الّتي كانت تشتعل من شمعتها، فنزلت من غرفتها وهي تجري وتصرخ وقد لفّتها ألسنة اللّهب. كان ذلك بعضًا من اللّعنة الّتي بُلينا بها يا عزيزتي... بعضًا منها فقط».

«هل لقيَتْ حتف...؟».

«كلّا، لم تحترق حتّى الموت، ولكنّها فقدت كلّ جمالها. لقد كانت ذات حسنٍ وكبرياء شديدين. لم تتخطّ عتبة الباب منذ تلك اللّيلة وحتّى يوم مماتها، وأوصت بأن يظلّ تابوتها مغلقًا حتّى لا يراها أحدٌ والنّدوب تملأ وجهها المشوّه. هلّا جلستِ يا عزيزتي ونزعت جرموقك[1]؟ اجلسي هنا في هذا المقعد المريح. لقد ماتت شقيقتي فيه بعد أن أصابتها جلطةٌ دماغيّةٌ. لقد كانت أرملةً، وعادت إلى هذا المنزل بعد موت زوجها. احترقت ابنتها الصّغيرة حتّى الموت في مطبخنا بعد انسكب عليها ماء القدر المغليّ. أليس مأسويًّا أن تموت تلك الطّفلة المسكينة على هذا النّحو؟».

«أوه، كيف..».

«ولكن عرفنا على الأقلّ كيف ماتت. أمّا عمّة أختي غير الشّقيقة إليزا... -على الأقلّ كانت ستكون كذلك لو بقيت على قيد الحياة-... فإنّها اختفت حين كان عمرها ستّة أعوامٍ. لا أحد يعلم إلى الآن ما كان مصيرها».

«ولكن بالتّأكيد ..».

«بحثنا عنها في كلّ مكانٍ ولكنّنا لم نجد لها أثرًا. يقال إنّ أمّها... أي جدّة أختي غير الشّقيقة... كانت قاسيةً مع ابنة أخت جدّي اليتيمة الّتي كبُرت وترعرعت هنا. عاقبتها ذات يوم صيفٍ قائظٍ بأن حبستها في خزانةٍ بأعلى الدّرج وأحكمت إغلاقها، وحين

(1) حذاء خارجيّ يُلبس فوق الحذاء العاديّ للدّفء أو لمنع البلل والطّين.

ذهبت لإخراجها منها وجدتها... جثّةً *هامدةً*. اعتبر بعض النّاس اختفاء ابنتها عقابًا من السّماء على فعلتها تلك. ولكنّني أظنّ أنّ سبب ذلك هي اللّعنة الّتي ما انفكّت تلاحق العائلة كلّها».

«من حبس..؟».

«كم هما عاليان مشطا قدميكِ يا عزيزتي! لقد كانت مشطاي يثيران الإعجاب أيضًا. قيل فيهما إنّ جدولًا من الماء يمكن أن يسيل تحتهما... وهي علامة من علامات الأرستقراطية».

أبرزت الآنسة مينيرفا باحتشامٍ شبشبا من تحت فستانها المخمليّ، وكشفت عن قدمٍ لا ريب أنّها كانت فيما مضى على قدرٍ كبيرٍ من الجمال.

«من الأكيد أنّ..».

«هل ترغبين في التّعرّف إلى المنزل يا حبيبتي قبل تناول العشاء؟ لقد كان مفخرة سامرسايد بأكملها. أفترض أنّ كلّ شيءٍ عتيقٌ هنا ولا يساير العصر، ولكن ربّما توجد أشياء يمكنها أن تثير اهتمامك. ذلك السّيف في أعلى الدّرج كان على ملك جدّ جدّي الّذي عمل ضابطًا في الجيش البريطانيّ ومُنح قطعةً من الأرض في جزيرة الأمير إدوارد اعترافًا بخدماته الجليلة. لم يعش يومًا في هذا المنزل، ولكنّ جدّة جدّي عاشت فيه لأسابيع معدوداتٍ. لم تتحمّل المسكينة فاجعة موت ابنها، ولم تلبث أن لحقت به».

قادت الآنسة مينيرفا ضيفتها، دون هوادةٍ ولا رحمةٍ، إلى كلّ جزءٍ من أجزاء المنزل الّذي امتلأ بالغرف المربّعة الشّكل... صالة

رقصٍ، ومشتل نباتاتٍ زجاجيّ، وقاعة بلياردو، وثلاث غرف معيشةٍ، وغرفةٍ لفطور الصّباح، وعددٍ لا متناهٍ من غرف النّوم، بالإضافة إلى علّيّةٍ. كانت جميعها بديعةً وموحشةً.

قالت الآنسة مينيرفا وهي تشير إلى رجلين مهمّين بديا وكأنّ أحدهما يقطّب في وجه الآخر من الجهتين المقابلتين للمدفأة: «هذان الرّجلان هما العمّ رونالد والعمّ روبن. لقد كانا توأمين وكانا منذ أن وُلدا يتبادلان كرهًا شديدًا. كان المنزل يجلجل من كثرة خصامهما. لقد جعلا حياة أمّهما جحيمًا لا يُطاق. وخلال خصامهما الأخير في هذه الغرفة بالذّات، وكانت عاصفة رعديّة تزمجر حينها، تعرّض روبن لصاعقة برقٍ أردته قتيلًا. لم يتعافَ أخوه رونالد من وقع الصّدمة، وأصبح رجلًا *مسكونًا* منذ ذلك اليوم». ثمّ أضافت الآنسة مينيرفا بعد أن عاودتها الذّكرى «أمّا زوجته، فقد ابتلعت خاتم زفافها».

«يا لها من...!».

«اعتبر رونالد ذلك إهمالًا منها لا يُغتفر، ولم يُرد فعلَ أيّ شيءٍ. مجرّد دواءٍ يثير القيء كان سيفي بالحاجة... ولكنّها لم تسترجعه مطلقًا. لقد أفسد ذلك عليها حياتها، وكانت تشعر دائمًا أنّها غير متزوّجةٍ دون خاتم زفافها».

«يا لها من..!».

«أوه، نعم، وهذه كانت العمّة إيميليا... هي ليس عمّتي في حقيقة الأمر. فقط هي زوجة العمّ ألكسندر. كانت تُعرف بتلك

النّظرة الرّوحانيّة الّتي تنبعث من عينيها، ولكنّها سمّمت زوجها بحساءٍ من عيش الغراب... كان فطرًا سامًّا في الحقيقة. لطالما تظاهرنا أنّه كان مجرّد حادثٍ، لأنّ الاتّهام بالقتل العمد أمرٌ سيفضي إلى الفوضى داخل العائلة، ولكنّ الجميع كانوا على علمٍ بالحقيقة. لقد تزوّجته غصبًا عنها، إذ كانت فتاةً نَضِرةً ومرحةً، بينما كان هو أكبر منها بكثيرٍ. لقد كانا على طرفي نقيضٍ مثل الشّتاء والرّبيع، ولكنّ هذا لا يبرّر قتله بالفطر السّامّ. تعكّرت صحّتها كثيرًا بعده، ودُفنا معًا في شارلوتاون... كلّ أفراد عائلة تومغالون يُدفنون في شارلوتاون. أمّا هذه، فهي العمّة لويز. تناولت جرعةً كبيرةً من اللّودانيوم[1]، ولكنّ الطّبيب أخرجه من أحشائها وأنقذ حياتها، وشعرنا كلّنا بعد ذلك أنّه لا يمكن ائتمانها مرّةً أخرى. لقد أحسسنا ببعض الارتياح حين ماتت في كنف الاحترام بالتهابٍ في الرّئة. طبعًا لم يُلقِ البعض منّا باللاّئمة عليها، فقد كان زوجها يضربها على..».

«يضربها على مؤخّـ...؟».

«بالضّبط. هناك أشياء لا يمكن أن يفعلها أيّ رجلٍ محترمٍ يا عزيزتي، ومنها ضرب زوجته على عجزها. أن يطرحها أرضًا بضربةٍ قاضيةٍ... ذلك ممكنٌ... أمّا أن يصفعها على مؤخّرتها، فذلك من المحال!» ثمّ قالت بنبرةٍ فيها الكثير من العظمة والجلال: «أريد فقط أن أرى ذلك الرّجل الّذي يتجرّأ على صفعي في ذلك الموقع من جسدي».

(1) دواء أفيونّي ضدّ الآلام الحادّة.

شعرت آن أيضًا برغبةٍ جامحةٍ في رؤية هذا الرّجل. فقد أدركت أنّ للخيال حدودًا في نهاية المطاف، ولا يمكنها أن تتخيّل حتّى في أشرس أحلامها رجلًا يضرب الآنسة تومغالون على مؤخّرتها».

«هذه هي الغرفة الّتي تخاصم فيها أخي المسكين آرثر مع عروسه ليلة عاد بها إلى هنا بعد حفل الزّفاف. خرجت من المنزل ولم تعد منذ تلك اللّحظة. لم يعلم أحدٌ إلى الآن سبب ذلك الشّجار. لقد كانت جميلةً وذات كبرياء، وكنّا نناديها «الملكة». قال بعضهم إنّها تزوّجته فقط لأنّها لم ترغب في رفض عرض زواجه وجرح مشاعره، وقالوا إنّها عادت إلى رشدها بعد أن فات الأوان. لقد دمّر ذلك حياةَ أخي، فأصبح بائعًا متنقّلًا». ثمّ قالت الآنسة تومغالون بأسًى: «لا أحد من بين أفراد عائلة تومغالون اشتغل بائعًا متنقّلًا... وهذه قاعة الحفلات الرّاقصة. طبعًا هي خارج الخدمة الآن. ولكنّها كانت في ما مضى مسرحًا لحفلاتٍ كثيرةٍ. كانت حفلات عائلة تومغالون مشهورةً، ويأتيها النّاس من كلّ أنحاء مقاطعة جزيرة الأمير إدوارد. لقد كلّفت تلك الثّريّة أبي خمسمائة دولارٍ. ذات ليلةٍ سقطت عمّةُ أبي، واسمها بايشنس، ميّتةً وهي ترقص هنا... هناك في ذلك الرّكن بالذّات. لقد كانت مغتاظةً غيظًا شديدًا من رجلٍ كان قد خذلها. لا يمكنني أن أتخيّل امرأةً ينفطر قلبها من أجل رجلٍ، أيّا يكن ذلك الرجل». ثمّ دقّقت الآنسة مينيرفا النّظر في صورةٍ فوتوغرافيّةٍ لوالدها... وهو رجلٌ ذو شاربٍ جانبيٍّ منتفشٍ وأنفٍ معقّفٍ كالصّقر... وقالت: «لطالما بدا لي الرّجال نوعًا من المخلوقات *التّافهة*. تقول إحدى أساطيرنا إنّه في عهد جدّي، وحين

كان هو وجدّي غائبين عن المنزل، أقامت العائلة حفلًا ذات ليلة سبتٍ، وتواصل الرّقص إلى ساعةٍ متأخّرةٍ منها، ثمّ..». وخفضت الآنسة مينيرفا من صوتها في نبرةٍ ارتعدت لها فرائص آن... «دخل *الشّيطان*. يوجد رشمٌ على أرضيّة الغرفة في تلك المشربيّة، يشبه كثيرًا موطئ قدمٍ مُكتوٍ بالنّار. ولكنّني بطبيعة الحال لا أعتقد في صحّة هذه الخرافة». وتنهّدت الآنسة مينيرفا وكأنّها تأسف على عدم قدرتها تصديق ذلك.

(11)

كانت غرفة السّفرة في تماهٍ كاملٍ مع باقي أجزاء المنزل. فقد تدلّت من سقفها نجفةٌ أخرى، وعلى رفّ المدفأة انتصبت مرآةٌ مزخرفة الألوان هي أيضًا، ومذهّبة الإطار، وقد ازدانت الطّاولة بأوانٍ من الفضّة والكريستال، وطقم من الفخّار الإنجليزيّ العتيق. كان العشاء الّذي قدّمته خادمةٌ متجهّمة الوجه وعتيقة المظهر سخيًّا ولذيذًا جدًّا، فوفّته شهيّة آن اليافعة والمتمتّعة بكامل صحّتها حقّ قدره. مكثت الآنسة مينيرفا صامتةً لوهلةٍ من الزّمن، ولم تجرؤ آن على قول أيّ شيءٍ مخافة أن تسترسل مضيّفتها في زوبعةٍ أخرى من المآسي. وفي الأثناء، دخل إلى الغرفة قطٌّ أسود وأنيقٌ. قبع حذو الآنسة مينيرفا وأخذ في المواء بصوتٍ أجشّ، فأخذت صُحيفةً من القشدة ووضعتها أمامه على الأرض. في تلك اللّحظة بدت تلك السّيّدة لـآن أكثر رحمةً وإنسانيّةً، وتلاشى جزءٌ كبيرٌ من الرّهبة الّتي كانت تكنّها لآخر آدميٍّ من عائلة تومغالون.

«تناولي قسطًا آخر من الخوخ يا عزيزتي. أنت لم تأكلي شيئًا... لم تأكلي شيئًا مطلقًا».

«أوه يا آنسة تومغالون، لقد استمتعتُ..».

قالت الآنسة مينيرفا وكلّها رضًا عن النّفس: «دائمًا ما تكون طاولة الأكل لدى عائلة تومغالون وفيرةً بهذا الشّكل. لقد كانت العمّة صوفيا تُعدّ أفضل كعكةٍ إسفنجيّةٍ ذُقتها في حياتي. أعتقد أنّ الشّخص الوحيد الّذي كان أبي يكره قدومه إلى منزلنا هي شقيقته ماري، لأنّها قليلة الشّهيّة والأكل. كانت فقط تقرط الطّعام وتتذوّقه، واعتبر أبي ذلك إهانةً كبيرةً في شخصه. لقد كان رجلًا متعنّتًا جدًّا. لم يغفر البتّة لأخيه ريتشارد تزوّجه رغمًا عنه، وأمر بطرده من المنزل وبعدم السّماح له بدخوله ثانيةً. كان أبي دائمًا ما يتلو، والعائلة من حوله، الصّلاة الرّبّيّة[7] في دعائه كلّ صباحٍ، ولكن بعد أن أهانه ريتشارد أصبح يتغاضى عن الجزء الّذي يقول «واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر أيضًا لمن أخطأ وأساء إلينا»». ثمّ قالت الآنسة مينيرفا وهي تتخيّل أباها: «أستطيع أن أراه الآن جاثيًا في دعائه هناك، ومتجاهلا ذلك الدّعاء».

حين فرغنا من تناول العشاء توجّهنا إلى أصغر غرف المعيشة الثّلاث... وهي تبدو على الرّغم من ذلك واسعةً وموحشةً... وقضّينا بقيّة المساء أمام نار المدفأة العظيمة... نارٍ كانت لطيفةً ومؤنسةً بما فيه الكفاية. انهمكت آن في حياكة طقمٍ من المفارش، بينما سلّت الآنسة مينيرفا نفسها بتطريز وشاحٍ أفغانيٍّ، وواصلت ما يشبه الحديث المنفرد والموشّى هو أيضًا بالتّاريخ الحافل والمروّع

(7) صلاة مسيحيّة مذكورة في الإنجيل كان قد أوصى بها يسوع أتباعه.

لعائلة تومغالون. هذه كذبت على زوجها، ولم يصدّقها إثر ذلك مطلقًا. وتلك بدأت حدادها على زوجها الّذي توقّعت موته، ولكنّه خذلها بأن تعافت صحّته.

مات تومغالون وبُعث إلى الحياة من جديدٍ. «لم تكن العائلة تريده أن يبقى على قيد الحياة. تلك هي المأساة الكبرى». أطلق أوسكار تومغالون النّار خطأً على ابنه. تناول إدغار تومغالون الدّواء الخطأ في عتمة اللّيل ومات من جرّاء ذلك. أقسم دايفيد تومغالون لزوجته الغيورة الّتي كانت تحتضر أنّه لن يتزوّج من بعدها مرّةً أخرى، ولكنّه تزوّج، ولازمه إثر ذلك شبح الزّوجة الغيورة رقم واحد. «كانت عيناه يا عزيزتي تحدّقان من خلال أجساد النّاس في أشياء خلفهم، فبدؤوا يتجنّبون البقاء معه في الغرفة ذاتها. لم يرَ أحدٌ شبح زوجته، وربّما كان ذلك ضميره الّذي يتراءى له. هل تعتقدين في وجود الأشباح يا عزيزتي؟».

«أنا ..».

«هي موجودة بطبيعة الحال، ولتعلمي أنّ لدينا شبحًا حقيقيًّا، في الجناح الشّماليّ من المنزل. شبحًا لفتاةٍ فائقة الجمال –عمّة أبي واسمها إيثل– الّتي ماتت في عزّ شبابها. لقد كانت متشبّثةً جدًّا بالحياة، وكانت ستتزوّج لولا أن وافاها الأجل. إنّه منزل يعبق بالذّكريات التّراجيديّة يا عزيزتي».

سألتها آن وقد أكملت هذه المرّة جملتها بمجرّد ضربة حظٍّ، لأنّه كان على الآنسة مينيرفا التّوقّف عن الكلام لفترةٍ وجيزةٍ وكافيةٍ،

حتّى تمخّط أنفها: «ألا تحدث في هذا المنزل أبدًا أشياء سارّةٌ يا آنسة تومغالون؟».

قالت الآنسة مينيرفا وكأنّها تأفّفت من الاعتراف بذلك: «أوه، أظنّ ذلك. نعم، طبعًا. كانت لنا أيّامٌ مرحةٌ هنا حين كنتُ طفلةً صغيرةً. سمعتُ أنّك بصدد كتابة شيءٍ حول كلّ ما يحدث في سامرسايد يا عزيزتي».

«كلّا، لم أكتب شيئًا... ليس في هذا الكلام شيءٌ من الصّحّة..».

بدت الآنسة مينيرفا وكأنّ أملها قد خاب حين قالت: «أوه، حسنًا. ولكن إذا رغبتِ في ذلك، فلكِ كلّ الحريّة في أن تضمّني كتابك أيًّا من حكاياتنا، ربّما بأسماء مستعارةٍ. والآن ما رأيك في جولة من لعبة البارشيزي؟»

«آسفة جدًّا يا آنسة مينيرفا. لقد حان الوقت لأعود إلى..».

«أوه يا عزيزتي، لا يمكنك الخروج اللّيلة، فالمطر ينهمر بشدّةٍ... ثمّ أنصتي إلى صوت الرّيح. ليست لديّ عربةٌ الآن... فأنا لا أستعملها مطلقًا... ولا يمكنك المشي مسافة نصف ميلٍ في مثل هذا الطّوفان. أنت ضيفتي اللّيلة».

لم تكن آن متأكّدةً من قضاء تلك اللّيلة في منزل تومغالون، فضلًا عن كونها لم ترغب في العودة إلى عزبة الصّفصاف في تلك العاصفة الهوجاء من شهر مارس. لم يبق لها من خيارٍ سوى لعب البارشيزي... الّذي انغمست فيه الآنسة مينيرفا بكلّ جوارحها إلى أن نسيت الحديث عن فظائع عائلتها... ثمّ جاء وقت «لمجة ما

قبل النّوم». أكلتا خبزًا محمّصًا بالقرفة، واحتستا شراب الكاكاو في أكوابٍ عتيقةٍ وشفّافةٍ وذات جمالٍ أخّاذٍ.

وأخيرًا أخذتها الآنسة مينيرفا إلى حجرة الضّيوف في الطّابق العلويّ، وشعرت آن في البدء بالارتياح حين رأت أنّها لم تكن الغرفة الّتي ماتت فيها شقيقة الآنسة مينيرفا بجلطةٍ دماغيّةٍ.

«هذه غرفة العمّة أنابيل». قالت الآنسة مينيرفا ذلك وقد بدأت في إشعال الشّموع الّتي وُضعت في شمعداناتٍ فضّيّةٍ على منضدةٍ للزّينة تلوّنت بأخضر بديعٍ، ثمّ أغلقت غاز الوقود. فقد انفجر الغاز ذات ليلةٍ وماثيو تومغالون في هذه الغرفة... ولذلك كُتب على جدارها «رحل ماثيو من هنا». «لقد كانت أنابيل أجمل الفتيات في عائلة تومغالون. تلك صورتها المعلّقة فوق المرآة. هل لاحظت ذلك الكبرياء الشّديد الّذي كان على شفتيها؟ لقد حاكت تلك البطّانيّة المجنونة الّتي على فراشك اللّيلة. آمل أن تجدي فيه راحتك يا عزيزتي. لقد هوّت ماري الفراشَ ووضعت فيه آجُرّتين ساخنتين. وهوّت قميص النّوم هذا من أجلك..». وأشارت إلى ثوبٍ واسعٍ من قماش الفانلّة كان معلّقًا على كرسيٍّ في الغرفة وتفوح منه رائحة كريات النّفتالين. «آمل أن يناسبك. لم يلبسه أحدٌ منذ أن ماتت أمّي المسكينة فيه. أوه، كدتُ أن أنسى..». والتفتت إلى آن وهي تهمّ بالمغادرة عند الباب... «شنقت العمّة أنابيل نفسها في تلك الخزانة. لقد شعرت بالكآبة لبعض الوقت، ولم تُدعَ إلى زفافٍ كانت تظنّ أنّ عليها حضوره، فأصبحت فريسةً لهواجسها. كانت

العمّة أنابيل تعشق البقاء في دائرة الضّوء. أتمنّى لك نومًا هنيئًا يا عزيزتي».

لم تكن آن تعرف ما إذا كان سيغمض لها جفنٌ تلك اللّيلة. وفجأةً بدت تظهر لها أشياء غريبةٌ ودخيلةٌ على الغرفة... أشياء تحمل في طيّاتها نوعًا من العِداء. ولكن أليس من الطّبيعيّ أن توجد أشياء غريبةٌ في غرفةٍ تعاقبت على السّكنى فيها أجيالٌ وأجيالٌ؟ كان الموت رابضًا في كلّ ناحيةٍ منها... وكان الحبّ بلون الدّم القاني يفوح فيها... وكلّ الولادات الّتي شهدتها... وكلّ الاختلاجات والعواطف... والآمال. إنّها غرفةٌ تزخر بجميع الأطياف.

ولكنّه كان في الحقيقة منزلًا عتيقًا أيضًا تقشعرّ له الأبدان، مليئًا بالأشباح والقصص البائدة الّتي تحكي عن الكراهية وانكسار الأفئدة. لقد كان منزلًا ازدحمت فيه الأفعال الشّنيعة والسّوداء الّتي لم ترَ النّور قطُّ، أفعالٌ مازالت رائحتها العفنة تنبعث من كلّ ركنٍ ومخبإٍ فيها. لا شكّ أنّ الكثير من النّساء قد انتحبن في هذه المكان الملعون. عوت الرّيح بشكلٍ مخيفٍ بين أشجار التّنّوب المحاذية للنّافذة. وفكّرت آن وهلةً في الهروب، سواء كانت هناك عاصفةٌ أو لم تكن.

ثمّ استعادت رباطة جأشها بكلّ عزمٍ وحكّمت عقلها والمنطق في كلّ هذا. صحيحٌ أنّ الكثير من المآسي الفظيعة قد حدثت هنا منذ سنين غابرةٍ اكتنفها الغموض، ولكن حصلت أيضًا في هذا المكان أشياء جميلةٌ وممتعةٌ. فتياتٌ حِسانٌ ملؤهنّ المرح رقصن هنا وتحدّثن

عن أسرارهنّ الجميلة، ومواليد بغمّازاتٍ بديعةٍ جاؤوا إلى هذا العالم في هذا المكان بالذّات، وحفلات زفافٍ ورقصٍ وموسيقى ومرح أقيمت هنا. وقد كانت السّيّدة الّتي تصنع الكعك الإسفنجيّ امرأةً هادئة البال حتمًا، وكان ريتشارد الّذي لم يغفر له أخوه فعلته عاشقًا همامًا.

«سأفكّر في هذه الأشياء ثمّ أخلد للنّوم. يا لها من بطّانيّةٍ سأنام تحتها اللّيلة! آمل ألّا أصير مجنونةً مثلها عند طلوع الشّمس. ثمّ إنّها حجرةٌ مخصّصةٌ لمبيت الضّيوف! لم أنسَ قطُّ كم كان في السّابق مثيرًا ومروّعًا أن أبيت في غرفة الضّيوف».

حلّت آن شعرها وسرّحته على مرأى من أنابيل تومغالون الّتي حملقت فيها من فوق صورتها المعلّقة فوق المرآة، بعينين تنمّان عن الكثير من الغرور والكبرياء، وبعضٍ من الصّفاقة الّتي صاحبت ذلك الجمال الأخّاذ. سرت قشعريرةٌ في جسم آن حين نظرت في المرآة. من تراه يعرف عدد الوجوه الّتي ربّما هي بصدد النّظر إليها من خلالها؟ ربّما كانت وجوه كلّ أولئك السّيّدات المسكونات والبائسات اللّاتي نظرن إلى أنفسهنّ فيها. فتحت بشجاعةٍ باب الخزانة وهي تتوقّع انهيار عددٍ من الهياكل العظميّة فوقها، ثمّ علّقت فستانها. جلست بهدوءٍ على كرسيٍّ صلبٍ بدا وكأنّه سيحسّ بالمهانة لو قعد عليه أيّ مخلوقٍ آدميٍّ، ونزعت حذاءها. ثمّ ارتدت القميص المصنوع من قماش الفانلّة، وأطفأت الشّموع وأوت إلى الفراش الدّافئ بفضل آجرات ماري السّاخنة. زخّاتُ المطر الّتي

كانت تنقر ألواح زجاج النّافذة وعواءُ الرّيح حول الأفاريز العتيقة للمنزل لم تدعها تهنأ بنومها وهلةً. ثمّ نسيت كلّ مآسي عائلة تومغالون وهي تستسلم لنعاسٍ خلا من الأحلام والكوابيس، إلى أن فتحت عينيها عند طلوع الشّمس الحمراء على منظر الأغصان القاتمة لأشجار التّنّوب.

قالت الآنسة مينيرفا وآن تتأهّب للمغادرة بعد فطور الصّباح: «لقد استمتعتُ باستضافتك يا عزيزتي. لقد كانت زيارةً تشرح الصّدر، أليس كذا؟ وذلك بالرّغم من أنّني أعيش وحدي منذ زمنٍ طويلٍ حتّى كدتُ أنسى كيف أتكلّم. ولا يسعني القول كم أنا مسرورةٌ بلقاء فتاةٍ يافعةٍ وفاتنةٍ مثلك، فتاةٍ لم تُفسد الأيّام كرَم أخلاقها في هذه السّنّ الطّائشة. لم أخبرك بالأمس أنّه كان عيد ميلادي، وكم هو منعشٌ أن يستعيد المنزل بعض شبابه ولو ليومٍ واحدٍ. لا أحد يتذكّر عيد ميلادي الآن..». وأطلقت الآنسة مينيرفا تنهيدةً خفيفةً... «وكم كانوا كثرا فيما مضى».

قالت العمّة تشاتي في تلك اللّيلة: «أفترض أنّك قد استمعت إلى قدرٍ هائلٍ من تاريخهم الموحش».

«هل حصلت فعلًا كلّ تلك الأشياء الّتي حدّثتني عنها الآنسة مينيرفا؟».

أجابتها العمّة تشاتي: «العجيب في الأمر أنّها حصلت فعلًا. إنّه أمرٌ مثيرٌ للاستغراب يا آنسة شيرلي. لقد حصلت لتلك العائلة أشياء فظيعةٌ كثيرةٌ».

وقالت العمّة كايت: «لم تحصل حسب رأيي هذه الأشياء في أيّ واحدةٍ من العائلات الكبيرة الأخرى، وعلى مدى ستّة أجيالٍ».

«نعم أعتقد ذلك. لا شكّ أنّهم مصابون فعلًا بلعنةٍ مّا. مات الكثير منهم ميتاتٍ مفاجئةً. طبعًا يوجَد عرقٌ من الجنون في تلك السّلالة... الجميع يعرفون ذلك، وهو جزءٌ من تلك اللّعنة. ولكنّني كنتُ قد سمعتُ قصّةً قديمةً... لا يمكنني تذكّر تفاصيلها الآن... عن كون النّجّار الّذي بنى المنزل هو مَن ألقى بتعويذةٍ عليه. يتعلّق الأمر بالعقد الّذي أبرمه لبنائه... لقد أجبره بول تومغالون على الالتزام به ممّا أدّى به إلى حافّة الإفلاس، فقد كانت كلفة المنزل تفوق كثيرًا ما توقّعه».

قالت آن: «ولكنّ الآنسة مينيرفا بدت لي فخورةً بتلك اللّعنة».

قالت ريبيكا ديو: «تلك العجوز المسكينة، لقد كان ذلك كلّ ما تبقّى لها».

ابتسمت آن لفكرة أنّ الآنسة مينيرفا بجلالها وفخامتها يُشار إليها بالعجوز المسكينة. ثمّ صعدت إلى غرفة البرج وكتبت إلى جيلبرت:

أشعر أنّ منزل عائلة تومغالون مكانٌ ضاربٌ في القدم ويرقد رقودَ الأموات، فلا شيء يحدث فيه البتّة. ربّما لا يحدث فيه أيّ شيءٌ الآن، ولكن من المؤكّد أنّه شهد الكثير من الأحداث في *الماضي*. مازالت الصّغيرة إليزابيث تتحدّث عن «الغد»، ولكنّ منزل تومغالون هو جزءٌ من «الأمس». أنا سعيدةٌ لأنّني لا أعيش في

«الأمس»... ومازال «الغد» صديقي الحميم. أعتقد، بطبيعة الحال، أنّ الآنسة مينيرفا، مثل كلّ أفراد عائلة تومغالون، تريد أن تبقى تحت الأضواء، ولا يمكنها أن تشبع من الحديث عن تلك الأحداث المأسويّة. إنّها بالنّسبة إليها مثل الزّوج والأبناء لأيّ امرأةٍ أخرى. ولكن يا جيلبرت، مهما كبرنا في السّنّ، فيجب ألّا نرى حياتنا مأساةً نستمتع بسردها. أظنّ أنّني لا أستسيغ المنازل الّتي يصل عمرها إلى مائةٍ وعشرين عامًا. آمل حين نجد منزل أحلامنا أن يكون حديث العهد بلا أشباحٍ ولا أساطير، أو إذا لم يكن ذلك ممكنًا، أن يكون قد سكنه أناسٌ على قدرٍ معقول من السّعادة. لن أنسى ما حييتُ تلك اللّيلة الّتي قضّيتها في منزل تومغالون. ولعلمك يا جيلبرت، هذه هي المرّة الأولى الّتي ألتقي فيها بشخصٍ أسكتني عن الكلام المباح.

(12)

وُلدت الصّغيرة إليزابيث غرايسن وهي تنتظر أشياء لتتحقّق. وبالرّغم من أنّ هذه الأشياء لا يمكن لها أن تتحقّق بمرأى من أعين رقيبٍ هما الجدّة والمرأة، فإنّ ذلك لم يمنعها من التوقّع على الأقلّ. مصيرها المحتوم أن تحدث يومًا مّا... إن لم يكن اليوم، فغدًا.

عندما أتت الآنسة شيرلي للعيش في عزبة الصّفصاف، شعرت إليزابيث أنّ «الغد» لا بدّ أن يكون قريبًا جدًّا وعلى وشك الحدوث، وأنّ زيارتها إلى غرين غايبلز قد بشّرت بذلك. ولكن الآن، وفي شهر يونيو هذا من العام الثّالث والأخير للآنسة شيرلي في مدرسة سامرسايد الثّانويّة، أحسّت بقلبها ينقبض ثمّ يهوي إلى القاع حتّى يبلغ جزمتها البديعة ذات الأزرار الّتي كانت جدّتها تقدّمها لها دائمًا لتلبسها. كان الكثير من الأطفال في المدرسة الّتي ترتادها يغبطون الصّغيرة إليزابيث على ذلك الحذاء الجميل المزرّر. ولكنّ إليزابيث لم تكن تعير أيّ اهتمامٍ لذلك الحذاء ما لم تطأ به الطّريق نحو الحرّيّة. وها هي الآنسة إليزابيث الحبيبة تتأهّب الآن للرّحيل عنها وإلى الأبد. ستغادر سامرسايد في آخر شهر يونيو، وستعود إلى ذلك الموطن الجميل غرين غايبلز. لم يكن بوسع الصّغيرة إليزابيث حتّى

مجرّد التّفكير في هذا الأمر. لم تشفِ غليلها وعودُ الآنسة شيرلي بأن تدعوها إلى غرين غايبلز في الصّيف الّذي يسبق زواجها. كانت شبه متأكّدةٍ أنّ الجدّة لن تدعها تذهب إلى هناك مرّةً أخرى. وكانت تعلم أيضًا أنّ الجدّة لم تكن تستسيغ صداقتها الحميمة مع الآنسة شيرلي.

قالت الصّغيرة إليزابيث في نشيجٍ: «سيكون ذلك نهاية كلّ شيءٍ يا آنسة شيرلي».

قالت آن في محاولةٍ لمواساتها: «فلنأمل يا حبيبتي أنّها فقط بدايةٌ جديدةٌ». ولكنّها شعرت هي أيضًا بانقباضٍ في صدرها. لم ترِد كلمةٌ واحدةٌ من والد إليزابيث. إمّا أنّ الرّسالة لم تصله، أو أنّه لم يبالِ بها. وإذا لم يبالِ بها، فما المصير الّذي ينتظر إليزابيث المسكينة؟ الأمر سيّئٌ بما فيه الكفاية الآن في طفولتها، فكيف سيكون حين تكبر؟

كانت ريبيكا ديو قد قالت لها: «ستستبدّ بها تينك السّيّدتان العجوزان إلى أن تقضيا عليها». وشعرت آن حينها أنّ في ملاحظة ريبيكا الكثيرَ من الحقيقة رغم رعونتها.

كانت إليزابيث تعلم أنّهما «تستبدّان» بها. وكانت مستاءةً أكثر من استبداد «المرأة» بها. لم تكن هيمنة جدّتها تروق لها بطبيعة الحال، ولكنّها يمكن أن تسلّم وإن على مضضٍ بأنّ للجدّة بعض الحقّ في القسوة عليها. ولكن أيّ حقٍّ كان لتلك «المرأة»؟ لطالما أرادت إليزابيث أن تسألها هذا السّؤال وجهًا إلى وجهٍ. سوف تفعل ذلك يومًا مًا... وكم ستروق لها تلك النّظرة الّتي ستعلو محيّاها!

لم تكن الجدّة تسمح للصّغيرة إليزابيث بالخروج للتنزّه بمفردها... لأنّها تخشى كما قالت أن يختطفها الغجر. لقد حدث ذلك مرّةً وحيدةً، وكان منذ أربعين عامًا. من النّادر جدًّا الآن أن يأتي الغجر إلى جزيرة الأمير إدوارد، وشعرت إليزابيث أنّ مخاوف جدّتها لم تكن سوى ذريعةٍ لحبسها في هذا السّجن. ولكن لماذا كانت الجدّة في نهاية الأمر تأبه لسلامة حفيدتها؟ كانت إليزابيث تعرف حقّ المعرفة أنّ الجدّة والمرأة لم تكونا تحبّانها بالمرّة. لماذا لم تنادياها ولو مرّةً واحدةً باسمها حين تتحدّثان إليها؟ لقد كانت دائمًا تلك «الطّفلة». كم كانت إليزابيث تمقت مناداتها باسم «الطّفلة»، تمامًا كما لو كانتا تتحدّثان إلى «الكلب» أو «القطّ» وهما تربّيان أحدهما. ولكن حين جازفت إليزابيث واحتجّت على ذلك، تغيّر لون وجه الجدّة وغضبت، وكان مصير الصّغيرة إليزابيث العقاب على صفاقتها، بينما مكثت المرأة تتفرّج في رضًا تامٍّ عن ذلك المآل. لطالما تساءلت الصّغيرة إليزابيث عن سبب كره «المرأة» لها. لماذا تكرهها ذلك الكره الأعمى وهي في تلك السّنّ وذلك الحجم؟ هل تستحقّ إليزابيث كلّ ذلك الكره؟ لم تكن الصّغيرة إليزابيث تعلم أنّ أمّها الّتي كلّفتها ولادتها حياتها كانت الصّديقة الحميمة والحبيبة لتلك المرأة العجوز اللّدود. ولو علمت ذلك، لأدركت كم هي مضلّلة تلك الأشكال الّتي يتّخذها مثل هذا الحبّ الأرعن.

كانت إليزابيث تكره أيضًا المنزل «الدّائم الخضرة» بوجومه وترفه، حيث يبدو كلّ شيءٍ فيه غير مألوفٍ لديها بالرّغم من أنّها عاشت فيه كلّ حياتها. ولكن ما إن جاءت الآنسة شيرلي إلى عزبة

الصّفصاف حتّى تبدّل كلّ شيءٍ على نحوٍ سحريٍّ. أصبحت الصّغيرة إليزابيث تحيا في عالمٍ من قصص الخيال والحبّ منذ مجيء الآنسة شيرلي. كانت أينما ولّت وجهها ترى الجمال من حولها. ومن يُمْنِ الطّالع أنّ الجدّة والمرأة لم تقدرا على منعها من النّظر والتّأمّل، بالرّغم من أنّ إليزابيث كانت لا تشكّ في أنّهما ستصدّانها عن ذلك لو قدرتا عليه. كانت الجولات القصيرة على طول الطّريق الأحمر والسّحريّ للمرفإ، الجولات الّتي كانت يُسمح لها بالاستمتاع بها مع الآنسة شيرلي، النّقاطَ المضيئة في حياتها الموحشة. كانت شغوفةً بكلّ شيءٍ رأته معها... تلك المنارة البعيدة والمطليّة بحلقاتٍ من الأحمر والأبيض... وتلك الشّطآن النّائية الّتي تلوّنت بأزرق داكنٍ... وتلك الأمواج الزّرقاء والفضّيّة... وذلك التّفاوت في طبقات الضّوء الّذي يشعّ في أوقات الغروب البنفسجيّ... كلّ ذلك أشعرها بطربٍ وانشراحٍ إلى حدّ الأذى والعذاب. وذلك المرفأ بجزره الّتي كساها الضّباب وأوقات غروبه المتوهّجة! دأبت إليزابيث على الذّهاب إلى النّافذة في سقف الغرفة العلويّة لتشاهد تلك الأوقات من فوق أغصان الشّجر... والبواخر الّتي كانت تبحر حين يطلع البدر. سفُنٌ تُكتب لها العودة... وأخرى لا تعود أبدًا. كم كانت إليزابيث تتوق إلى الإبحار على متن واحدة منها... في رحلةٍ إلى «جزيرة السّعادة». لقد كانت السّفن الّتي لا تعود تمكث هناك، حيث لا تغيب شمس «الغد» أبدًا.

كان ذلك الطّريق الأحمر الّذي اكتنفه الغموض يمتدّ ويمتدّ إلى ما لا نهاية، وكانت قدما إليزابيث تحكّها وتدفعها إلى السّير قُدمًا على

طوله. إلى أين يؤدّي يا ترى؟ كانت أحيانًا تشعر أنّها ستنفجر شوقًا إلى معرفة نهايته. حين يأتي «الغد» ويصبح حقيقةً، ستشدّ إليزابيث رحالها وتسلك ذلك الطّريق، وربّما ستجد في آخره جزيرةً تكون لها وحدها، حيث يمكنها العيش مع الآنسة شيرلي بمفردهما دون أن تأتي الجدّة والمرأة لزيارتهما. إنّهما تكرهان لمس الماء ولن تضعا أبدًا أقدامهما في مركبٍ للبحث عنها. لقد كانت إليزابيث تتخيّل نفسها تقف على جزيرتها وتسخر من الجدّة والمرأة كلتيهما، وهما قبالتها على اليابسة تقفان عابستين ولا حيلة لهما.

ستصيح في استهزاءٍ: «هذا هو «الغد». لن تستطيعا القبض عليّ مرّةً أخرى. أنتما تعيشان فقط في «الحاضر»».

كم سيكون ذلك ممتعًا! كم ستكون مُبهجةً تلك النّظرة الواجمة الّتي ستعلو وجه «المرأة»!

وذات مساءٍ من أواخر شهر يونيو، حدث شيءٌ في غاية الغرابة. فقد أخبرت الآنسة شيرلي السّيّدةَ كامبل أنّ لها شأنًا تقضيه في اليوم الموالي بجزيرة «الغيمة الطّائرة»، وذلك لرؤية السّيّدة تومسون، وهي المسؤولة عن الدّعوة لاجتماع لجنة الأطعمة الخفيفة والمرطّبات في جمعيّة «السّيّدات المعينات»، وسألتها عمّا إذا كان يمكنها اصطحاب إليزابيث معها. وافقت الجدّة بقساوتها المعهودة... ولم تفهم إليزابيث لماذا وافقت أصلًا، لأنّها كانت تجهل تمامًا خوف آل برينغل من تلك المعلومة الخطيرة الّتي بحوزة الآنسة شيرلي... ولكنّ المهمّ هو أنّها لم تمنعها من الذّهاب.

همست آن في أذنها: «سنتوجّه مباشرةً إلى مدخل المرفإ بعد أن أقضي وطرًا لي في «الغيمة الطّائرة».

استعدّت الصّغيرة إليزابيث للذّهاب إلى النّوم والسّعادةُ تغمرها، ولم تتوقّع أن يُغمض لها جفنٌ تلك اللّيلة. ستلبّي أخيرًا نداء ذلك الطّريق الّذي فتنها منذ وقتٍ طويلٍ. وبالرّغم من تحمّسها للأمر، أدّت طقوس ما قبل النّوم بضميرٍ حيٍّ. طوت ملابسها، ونظّفت أسنانها، وسرّحت شعرها الذّهبيّ. تأمّلت شعرها فألفته رائعًا، ولكنّه لا يرقى قطعًا إلى جمال الشّعر الذّهبيّ الأحمر للآنسة شيرلي، بتموّجاته وخصلاته الصّغيرة الّتي تلتفّ حول أذنيها. كم كانت إليزابيث تتمنّى لو أنّ لها شعرًا مثل شعر الآنسة شيرلي.

وقبل أن تأوي الصّغيرة إليزابيث إلى فراشها، فتحت أحد أدراج منضدةٍ سوداء وقديمةٍ وعاليةٍ ولمّاعةٍ، وأخرجت صورةً كانت تخبّئها بعنايةٍ من تحت كدس من المناديل... صورةً للآنسة شيرلي كانت قد قصّتها من عددٍ خاصٍّ لصحيفة «السّاعي الأسبوعيّة» الّتي التقطت صورةً فوتوغرافيّة لإطار التّدريس بالمدرسة الثّانويّة.

«ليلةً سعيدةً يا آنسة شيرلي العزيزة». قبّلت الصّورة وأعادتها إلى مخبئها. ثمّ صعدت إلى الفراش واستكنّت تحت الألحفة... فقد كانت ليالي يونيو باردةً، والنّسائم القادمة من المرفإ لاذعةً. ولكنّها في الحقيقة لم تكن نسائم تلك الّتي هبّت في تلك اللّيلة، بل كانت رياحًا تصفّر وتدوّي وتنتفض وتقرع بشدّةٍ، وأدركت إليزابيث أنّ الأمواج الهائجة كانت تحت ضوء القمر ترعد وتزبد وتتكسّر على

صخور المرفإ. كم سيكون ممتعًا لو تسلّلت خارج المنزل ونزلت إلى هناك تحت ضوء القمر! ولكنّ ذلك لن يحدث إلّا في عالم «الغد».

أين توجد هذه «الغيمة الطّائرة»؟ يا له من اسم! وكأنّه اسمٌ قادمٌ على عجلٍ من عالم «الغد». من المثير للجنون أن يكون المرء قريبًا جدًّا من «الغد» ولا يستطيع الولوج إليه. كان أخشى ما تخشاه هو أن تجلب هذه الرّياح العاتية المطرَ كامل الغد! كانت تعلم أنّه لن يُسمح لها بالخروج إلى أيّ مكانٍ في مثل ذلك الطّقس الممطر.

جلست على فراشها، وشبكت يديها.

«يا ربّ، لا أعني التّدخّل في مشيئتك، ولكن اجعل طقس الغد جميلًا؟ *أتضرّع* إليك يا ربّ».

كان ظهيرة اليوم الموالي مشرقةً وبديعةً. شعرت إليزابيث وهي تبتعد مع الآنسة شيرلي عن ذلك المنزل الكالح أنّها تحرّرت من أغلالٍ لا تُرى بالعين المجرّدة. لقد تجرّعت حينها جرعةً كبيرةً من الحرّيّة، حتّى وإن كانت «المرأة» تتابعها بعينيها المتجهّمتين من وراء الزّجاج الأحمر للباب الأماميّ الكبير. كم كان مبهجًا الارتحال في هذا العالم الفردوسيّ رفقة الآنسة شيرلي! لطالما كانت صحبة الآنسة شيرلي ممتعةً، ولكن ما الّذي ستفعله حين تمضي بلا رجعةٍ؟ وبحزمٍ صرفت الصّغيرة إليزابيث هذه الفكرة عنها. لن تُفسد يومها بالتّفكير في هذا الأمر. ربّما... وتمنّت ذلك بقوّةٍ... ستدخل هي والآنسة شيرلي عالم «الغد» هذه الظّهيرة وإثر ذلك لن يفصل بينهما شيءٌ. كانت الصّغيرة إليزابيث تريد فقط أن تسير بهدوءٍ في اتّجاه

تلك الزّرقة عند نهاية العالم، وأن تنهل من ذلك الجمال الّذي يحيط بها. كان كلّ منعطفٍ وكلّ تعرّجٍ في الطّريق يكشفان عن مسحةٍ جديدةٍ من الحسن والبهاء... وكان الطّريق ينعطف ويلتوي دون توقّفٍ، متّبعًا تعرّجات مجرى وادٍ بدا وكأنّه ظهر من العدم.

كانت حقول نبات الحوذان والبرسيم الّتي لم يتوقّف فيها النّحل عن الطنين تنتشر على كلّ جانبٍ. وبين حينٍ وآخر، كانتا تشقّان طريقهما عبر مجرّةٍ من الأقاحي، وكان المضيق وأمواجه ذات الرؤوس الفضّيّة يضحكان لهما من بعيدٍ. كان المرفأ مثل قماشٍ من الحرير المبلّل بالماء، وكانت الصّغيرة إليزابيث تفضّله على هذه الحال أكثر من تلك الأيّام الّتي يكون فيها وكأنّه قماشٌ شاحبٌ من السّاتان. شربتا هواء النّسيم حتّى الثّمالة. لقد كان نسيمًا عليلًا عمّت خرخرته المكان وبدا وكأنّه يماسحهما مثل قطٍّ لطيفٍ.

قالت إليزابيث: «أليس رائعًا السّير هكذا في هذه الرّيح المعتدلة؟».

قالت آن وكأنّها تحدّث نفسها: «ريحٌ لطيفةٌ وحميمةٌ وعطرةٌ، شبيهةٌ بريح *المسترال*[1] كما كنتُ دائماً أتخيّلها. صوت هذه الرّيح يشبهها كثيرًا. ولكن لن تتخيّلي خيبة أملي حين اكتشفتُ أنّ المسترال لم تكن سوى ريحٍ جافّةٍ وبغيضةٍ!».

لم تفهم إليزابيث كثيرًا ما قالته آن... لم تسمع البتّة شيئًا عن هذا المسترال... ولكنّ اللّحن المنبعث من صوت صديقتها الحبيبة كان يكفيها. حتّى السّماء كانت مبتهجةً في ذلك اليوم. ابتسم لهما

(1) ريح شماليّة عاتية وباردة تهبّ على جنوب فرنسا.

بحّارٌ مرّ بجانبهما وفي أذنيه حلقتان من الذّهب... كان بالضّبط من بين ذلك النّوع من الأشخاص الّذين يمكن أن تعترضهم في عالم «الغد». تذكّرت إليزابيث آيةً من الكتاب المقدّس كانت قد حفظتها في مدرسة الأحد... «وتتنطّق الآكام بالبهجة». هل رأى من كتب هذا الكلام آكامًا مثل تلك الرّبى الزّرقاء الّتي تطلّ من أعلى المرفإ؟

قالت على نحوٍ حالمٍ: «أظنّ أنّ هذا الطّريق يقودنا مباشرةً إلى الله».

قالت آن: «ربّما. ربّما كلّ الطّرق تؤدّي إليه. سننحرف الآن عن هذا الطّريق. علينا أن نذهب هناك إلى تلك الجزيرة... تلك هي «الغيمة الطّائرة».

كانت «الغيمة الطّائرة» جُزيرةً هيفاء، تبعد عن اليابسة زهاء ربع ميلٍ. كانت فيها أشجارٌ ويتوسّطها منزلٌ. لطالما تمنّت الصّغيرة إليزابيث أن تكون لها جزيرتها الخاصّة، وخليجٌ صغيرٌ تكسو جنباته كثبان الرّمال الفضّيّة.

«كيف سنعبر إليها؟».

قالت الآنسة شيرلي: «سنجدف في هذا القارب». وأمسكت بمجدافٍ كان في زورق صغيرٍ شُدّ إلى شجرةٍ مائلةٍ.

كانت الآنسة شيرلي ماهرةً في التّجديف. هل يوجد شيءٌ لا تُتقنه الآنسة شيرلي؟ حين بلغنا الجزيرة تبيّن أنّها مكانٌ ساحرٌ وأخّاذٌ ويمكن أن يحصل فيه أيّ شيءٍ. لقد كانت بطبيعة الحال جزءًا من

عالم «الغد». فالجزر الّتي تشبهها لا توجد إلّا في «الغد»، ولا تمتّ بأيّ صلةٍ إلى رتابة «الحاضر» وجفائه.

استقبلتهما خادمةٌ صغيرةٌ عند باب المنزل وقالت للآنسة شيرلي إنّ السيّدة تومسون منهمكةٌ في قطف الفراولة البرّيّة عند الجانب البعيد الآخر من الجزيرة، ويمكنها أن تعثر عليها هناك. تخيّلْ جزيرةً تنبتُ فيها الفراولة!

ذهبت آن في طلب السّيّدة تومسون، وطلبت قبل ذلك من الخادمة أن تسمح للصّغيرة إليزابيث بالانتظار في غرفة المعيشة. شعرت آن أنّ الصّغيرة إليزابيث كانت مجهدةً بعد هذه الجولة الطّويلة والمضنية الّتي لم تكن معتادةً عليها، وأنّها تحتاج إلى قسطٍ من الرّاحة. لم تحسّ إليزابيث بأيّ إجهادٍ، ولكنّ طلبات الآنسة شيرلي، حتّى وإن كانت صغيرةً، أوامر عليها الانصياع لها.

كانت الغرفة غايةً في الجمال، والأزهار في كلّ ناحيةٍ، ونسائم البحر البرّية تهبّ داخلها. أعجبت الصّغيرة إليزابيث بالمرآة الّتي عُلّقت فوق رفّ المدفأة، وقد عكست على نحوٍ بديعٍ ما بداخل الغرفة، كما انعكس عليها من خلال النّافذة المفتوحة مشهدٌ ضمّ المرفأ والتلّة والمضيق.

وبينما هي كذلك إذ دخل الغرفة رجلٌ من الباب. شعرت إليزابيث لوهلةٍ بالارتباك والفزع. هل كان غجريًّا؟ لم يكن يطابق فكرتها المسبقة عن الغجر، ولكنّها بالطّبع لم ترَ أحدًا منهم من قبل. ربّما كان كذلك... ثمّ قرّرت إليزابيث، بعد أن اعتراها شعورٌ داخليٌّ

مفاجئٌ، أنّه لا يزعجها في شيءٍ أن يختطفها ذلك الرّجل. أعجبتها عيناه المجعّدتان والبندقيّة اللّون، وشعره المجعّد البنّيّ، وذقنه المربّع الشّكل، وابتسامته. فقد كانت تعلو محيّاه ابتسامةٌ عريضةٌ.

سألها قائلًا: «ومن تكونين أنت؟».

تلعثمت إليزابيث والارتباك ما يزال يلازمها: «أنا... أنا من أنا».

«أوه، هذا أكيدٌ... أنتِ هي أنتِ. أفترض أنّك طلعتِ من البحر مثل الحوريّات... أو جئت من بين كثبان الرّمل... وليس لك اسمٌ مثل الآدميّين».

شعرت إليزابيث أنّ الرّجل يمازحها ويسخر منها قليلًا. ولكنّ ذلك لا يهمّ. وأعجبها في الحقيقة كلامُه، ولكنّها أجابته باحتشامٍ: «اسمي إليزابيث غرايسن».

عمّ السّكون المكان... سكونٌ في غاية الغرابة. حملق الرّجل فيها وهلةً دون أن ينبس بكلمةٍ واحدةٍ. ثمّ طلب منها بأدبٍ أن تجلس.

قالت له وهي تشرح الأمر: «إنّني في انتظار الآنسة شيرلي. لقد ذهبت لرؤية السّيّدة تومسون بشأن العشاء الّذي ستقيمه «السّيّدات المعينات». وعندما تعود إلى هنا، سننطلق في رحلتنا إلى نهاية العالم».

والآن أيّها السّيّد الرّجل، هل من نيّةٍ لك في اختطافي أرجوك!

«بطبيعة الحال. ولكن يمكنكِ في الأثناء أن تأخذي راحتكِ

هنا. وعليّ القيام بواجب الضّيافة. ماذا أقدّم لكِ على سبيل وجبة طعامٍ خفيفةٍ؟ ربّما أحضر قطّ السّيّدة تومسون شيئًا رائعًا معه اليوم».

جلست إليزابيث، وشعرت على نحوٍ غريب بالرّاحة وكأنّها في منزلها.

«هل يمكنني أن أطلب ما أريد؟».

«أكيدٌ جدًّا».

فقالت إليزابيث وقد اعتراها شعورٌ بالظّفر: «أريد حلوى مثلّجةً وفوقها مربّى الفراولة».

قرع الرّجل جرسًا ثمّ أعطى أوامره. نعم، لا شكّ أنّها تعيش «الغد»... لا ريب في ذلك. لا يمكن للحلوى المثلّجة والفراولة أن يظهرا بهذه الطّريقة السّحريّة في عالم «الحاضر». سواء كانت حكاية القطّ صحيحةً أو لا.

قال لها الرّجل: «سنحتفظ بنصيب الآنسة شيرلي ونضعه جانبًا».

إنّهما صديقان حميمان الآن. لم يتحدّث الرّجل كثيرًا، ولكنّه لم يتوقّف عن النّظر إلى إليزابيث. كان وجهه ينمّ عن الكثير من اللّين والحنان... حنانٍ لم تره قطُّ على وجه أيّ أحدٍ، حتّى وجه الآنسة شيرلي. شعرت أنّه يحبّها، وكانت تعرف أنّها تحبّه كثيرًا.

ألقى في آخر الأمر نظرةً خارج النّافذة ونهض من مكانه.

قال لها: «أظنّ أنّ عليّ الذّهاب الآن. إنّي أرى الآنسة شيرلي على الممشى تقترب من هنا، ولن تكوني بمفردك».

سألته إليزابيث: «ألن تنتظر الآنسة شيرلي؟» ولحست بلسانها

الملعقةَ وهي تستمتع بآخر ما تبقّى من الفراولة. لو رأتها الجدّة و«المرأة» على تلك الحال لأغمي عليهما من الفزع.

قال الرّجل: «ليس هذه المرّة».

كانت إليزابيث تعلم أن لا نيّة له البتّة في اختطافها، وانتابها إحساسٌ غريبٌ بخيبة الأمل لا يوصف.

قالت له بأدبٍ: «وداعًا، وشكرًا جزيلًا. الحياة جميلةٌ هنا في عالم «الغد»».

«الغد؟».

شرحت له إليزابيث قائلةً: «هذا هو «الغد». لطالما وددتُ أن أعيش عالم «الغد»، وها أنا ذا فيه».

«أوه، فهمت. ولكنّني آسف لأنّني لا أكترث كثيرًا لعالم «الغد». كم أودّ لو عاد بي الزّمن إلى «الأمس»».

أشفقت إليزابيث عليه كثيرًا. ولكن كيف يمكنه أن يكون بهذه التّعاسة؟ هل يمكن لأحدٍ يعيش في عالم «الغد» أن يكون تعيسًا؟

نظرت إليزابيث إلى الوراء بشوقٍ ولهفةٍ في اتّجاه «الغيمة الطّائرة» وهما تجدفان بعيدًا عنها. والتفتت ثانيةً لتلقي نظرة وداعٍ أخرى وهما تشقّان طريقهما عبر أشجار التّنّوب الخفيضة الّتي تفصل الشّاطئ عن الطّريق. وفجأةً، استدارت عند المنعطف عربةٌ تجرّها بسرعةٍ كبيرةٍ كوكبةٌ من الخيول الجامحة الّتي بدا سائقها وكأنّه فقد السّيطرة عليها.

ولم تلبث إليزابيث أن سمعت الآنسة شيرلي وهي تصرخ.

(13)

كانت الغرفة تدور من حولها على نحوٍ غريبٍ، وكان أثاثها يهتزّ ويتمايل. وكان الفراش... ما الّذي حصل حتّى تكون طريحة الفراش هكذا؟ شخصٌ مّا يرتدي قلنسوة بيضاء قد خرج لتوّه من الباب. عن أيّ بابٍ نتحدّث؟ كم كان غريبًا ما يحدث داخل رأسها! كانت هناك أصواتٌ تنبعث من مكان مّا... أصواتٌ خفيضةٌ. لم تكن ترى مَن يتكلّم، ولكنّها أدركت على نحوٍ مّا أنّهما الرّجل والآنسة شيرلي.

عمّ كانا يتحدّثان؟ تناهى إلى سمع إليزابيث شتات حديثٍ هنا وهناك، وجُملٌ متفرّقةٌ في شكل تمتماتٍ مرتبكةٍ.

كان صوت الآنسة شيرلي مفعمًا بالإثارة وهي تقول: «هل أنت حقًّا..؟».

«نعم... رسالتكِ... رأيتها بنفسي... قبل أن أتّصل بالسّيّدة كامبل.. «الغيمة الطّائرة» هي المنزل الصّيفيّ للمدير عامّ للشّركة..».

آه لو تتوقّف هذه الغرفة عن الدّوران والتّمايل! من المؤكّد أنّ الكثير من الأشياء في عالم «الغد» تتصرّف بغرابةٍ. لو كان بإمكانها فقط الالتفات برأسها ورؤية المتحدّثين... أطلقت إليزابيث تنهيدةً طويلةً.

ثمّ اقتربا من فراشها... الرّجل والآنسة شيرلي. كانت الآنسة شيرلي تبدو فارعة الطّول وبيضاء جدًّا، مثل زهر الزّنبق، وكانت تبدو وكأنّها مرّت بتجربةٍ مريرةٍ لم تمنع ذلك الألق داخلها من الإشعاع على الرّغم من كلّ شيءٍ... ألَقٍ بدا وكأنّه جزءٌ من ضوء الشّمس الذّهبية عند المغيب وهو يغمر الغرفة. أمّا الرّجل فكان ينظر إليها ويبتسم. شعرت إليزابيث أنّه يحبّها كثيرًا، وأنّ سرًّا ناعمًا وحميمًا كان بينها وبينه، وستعرفه حالما يتعلّم اللّغة الّتي يتكلّمها أهل «الغد».

قالت الآنسة شيرلي: «هل تشعرين بالتّحسّن يا عزيزتي؟».

«هل كنتُ مريضةً؟».

أجابتها الآنسة شيرلي: «لقد صدمتك كوكبةٌ من الخيول الشّاردة على طريق البرّ. لم أكن سريعةً بما فيه الكفاية. لقد ظننتُ أنّك مُتِّ. عدتُ بكِ مباشرةً إلى هنا في الزّورق ثمّ اتّصل أبو... أعني هذا السّيّد المحترم... بالطّبيب والممرّضة.

قالت الصّغيرة إليزابيث: «هل سأموت؟».

«طبعًا لا يا عزيزتي. لقد أصبتِ فقط بالذّهول والصّدمة، وستتعافين قريبًا. شيءٌ آخر يا عزيزتي، هذا الرّجل هو أبوكِ».

لم يعُد شيءٌ يفاجئها بالمرّة، أليس هذا عالم «الغد»؟ ثمّ إنّ الأشياء ما تزال تدور من حولها.

قالت إليزابيث: «أبي في فرنسا. هل أنا في فرنسا الآن؟».

«أبوكِ هنا الآن يا حبيبتي.» كان صوته عذبًا وناعمًا جدًّا...

يجعلها تحبّه فقط لدى سماع صوته. انحنى الرّجل وقبّلها. «لقد أتيتُ من أجلك. لن يفصل بيننا شيءٌ بعد الآن».

عادت المرأة ذات القلنسوة البيضاء من جديدٍ. كانت إليزابيث تعلم جيّدًا أنّ ما ستقوله هذه السّيّدة قد قيل مسبقًا حتّى قبل أن تدخل الغرفة.مكتبة سُر مَن قرأ

«هل سنعيش معًا؟».

قال الأب: «إلى نهاية العمر».

«وهل ستعيش معنا الجدّة و«المرأة»؟».

قال الأب: «كلّا يا عزيزتي».

كانت أشعّة الشّمس الذّهبيّة قد بدأت تخبو، وأبدت الممرّضة امتعاضها من اكتظاظ الغرفة. ولكنّ إليزابيث لم تكترث لذلك.

قالت والممرّضة تصطحب الأب والآنسة شيرلي إلى الباب: «لقد عثرتُ أخيرًا على عالم «الغد»».

قال الأب بعد أن أوصدت الممرّضة الباب وراءه: «لقد عثرتُ على كنزٍ ثمينٍ لم أكن أعرف أنّني أمتلكه. وأنا عاجزٌ عن شكركِ على تلك الرّسالة يا آنسة شيرلي».

كتبت آن إلى جيلبرت في تلك اللّيلة: «وهكذا قاد ذلك الطّريق المليء بالأسرار الصّغيرة إليزابيث إلى السّعادة، وكان سبيلَها للخروج من عالمها القديم».

(14)

عزبة الصّفصاف

درب الأشباح

(للمرّة الأخيرة)



27 يونيو

عزيزي جيلبرت،

لقد بلغتُ الآن منعطفًا آخر من الطّريق. كنتُ قد كتبتُ لك في الأعوام الثّلاثة الأخيرة عددًا لا بأس به من الرّسائل في هذه الغرفة القديمة من البرج. أفترض أنّ هذه هي الرّسالة الأخيرة الّتي سأكتبها إليك، وسيتطلّب الأمر وقتًا طويلًا وطويلًا جدًّا لكتابة أخرى، فبعدها لن تكون هناك أيّ حاجةٍ إلى الرّسائل. وبعد بضعة أسابيع فقط سنكون معًا، جنبًا إلى جنب، وإلى الأبد. فقط تخيّل ذلك... أن نكون معًا... ونحن نتحدّث، ونمشي، ونأكل، ونحلم، ونخطّط لآتينا معًا... ونتقاسم معًا أجمل اللّحظات... ونجعل من منزل أحلامنا موطننا الأبديّ. نعم *منزلنا*! ألا تبدو هذه الكلمة، يا جيلبرت، مفعمةً بكلّ ما هو روحانيٌّ ورائعٌ؟ لقد أمضيتُ طيلة حياتي في تشييد منازل للأحلام، وها قد أضحى أحدها حقيقةً

ملموسةً. أمّا الشّخص الّذي أريد أن أشاركه العيش فيه... حسنًا، سأخبرك بذلك على السّاعة الرّابعة من العام المقبل.

لقد خلتُ في البداية هذه الأعوام الثّلاثة لا تنتهي، يا جيلبرت. وها هي الآن تمضي «مِثْل يَوْمِ أَمْسِ بَعْدَ مَا عَبَرَ، وَكَهَزِيعٍ مِنَ اللَّيْلِ»[1]. لقد كانت أعوامًا ملؤها البهجة والسّرور... ما عدا تلك الشّهور الأولى الّتي أمضيتها في الصّراع مع عائلة برينغل. بدت الحياة بعدها وكأنّها تنساب مثل نهرٍ ذهبيٍّ واسعٍ، وبدت العداوة مع عشيرة برينغل وكأنّها حلمٌ قد ولّى. هم الآن يحبّونني على ما أنا عليه... ونسوا أنّهم كانوا يكنّون لي الضّغينة. أهدتني بالأمس كورا برينغل، وهي إحدى الأرامل الكثيرات من نسل برينغل، باقة ورودٍ التفّ على سويقاتها شريطٌ ورقيٌّ كُتب عليه «إلى أحلى مدرّسةٍ في العالم كلّه». تخيّل أنّ ذلك يمكن أن يصدر عن فردٍ من أفراد عائلة برينغل!

انفطر قلبُ جان برينغل لأنّني سأرحل عن سامرسايد. سأتابع مسيرتها الدّراسيّة بكلّ اهتمامٍ، فهي متّقدة الذّكاء ولا يمكن في الغالب التّنبّؤ بما يمكن أن تفعله. فقط شيءٌ واحدٌ مفروغٌ منه... لن تكون لها حياةٌ عاديّةٌ ومبتذلةٌ. ولم أشبّهها سابقًا ببيكي شارب هكذا من العدم.

سيلتحق لويس آلان بجامعة ماك غيل، أمّا صوفي سينكلار فستذهب إلى جامعة كوينز. تريد أن تعمل مدرّسةً حتّى تدّخر ما

(1) من الكتاب المقدّس، سفر المزامير.

يكفي من المال للالتحاق بمعهد التّعبيرات الدّراميّة في كينغسبورت. أمّا ميرا برينغل فإنّها تسعى إلى «دخول المجتمع» في الخريف. إنّها فائقة الحسن ولا يهمّ كثيرًا إن كانت لا تعرف اسم المفعول إذا اعترضها في الطّريق.

لن يكون لي بعد الآن تلك الجارة الصّغيرة على الجانب الآخر من البوّابة الّتي تعلّقت عليها كرمة العنب. فقد غادرت الصّغيرة إليزابيث وإلى الأبد ذلك المنزل الّذي لا تلجه أشعّة الشّمس... غادرت إلى عالمها الّذي تطلق عليه اسم «عالم الغد». لو أنّني بقيت هنا في سامرسايد لانفطر قلبي شوقًا إليها. ولكنّني بالرّغم من ذلك سعيدةٌ جدًّا، فقد أخذها بيرس غرايسن معه. لن يعود للعمل في باريس، بل انتقل وإيّاها للعيش في بوسطن. بكت إليزابيث كثيرًا لفراقنا، ولكنّها كانت سعيدةً مع والدها، وأنا متأكّدةٌ من أنّ دموعها ستجفّ قريبًا جدًّا. غضبت السّيّدة كامبل و«المرأة» كثيرًا وألقتا عليّ باللّائمة... وقد قبلتُ ذلك بكلّ رحابة صدرٍ ودون أن ينتابني أيّ شعورٍ بالذّنب.

قالت السّيّدة كامبل بشكلٍ مهيبٍ: «لقد كانت في بحبوحةٍ من العيش هنا».

لم أنطق بكلمةٍ واحدةٍ ولكنّني قلتُ في نفسي: «حيثُ لم تسمع ولو كلمة حنانٍ واحدةً».

كانت آخر كلمات إليزابيث لي: «أعتقد أنّني سأكون «بيتي» كلّ الوقت انطلاقًا من الآن، يا عزيزتي الآنسة شيرلي». ثمّ أضافت

قائلةً: «ما عدا في الأوقات الّتي سأشتاق فيها إليكِ، وعندها سأكون «ليزي»».

قلتُ لها: «أحذّرك من أن تكوني «ليزي» يومًا مّا، مهما حصل من أمرٍ».

تبادلنا إلقاء القبلات من بعيدٍ إلى أن توارت عن الأنظار، وصعدتُ إلى غرفة البرج والدّموع تملأ عينيّ. لقد كانت عذبةً وحلوةً تلك الجنيّة الذّهبيّة الصّغيرة. كانت دائمًا تبدو لي مثل قيثارة ريحٍ صغيرةٍ، تهزّ فؤادها ألطف نسائم الحنان حين تهبّ عليها. لقد كانت صداقتها مغامرةً رائعةً جدًّا، وآمل أن يدرك بيرس غرايسن قيمة الطّفلة الّتي معه... وأظنّ أنّه يعي ذلك. لقد بدا لي ممتنًّا ونادمًا على ما سبق.

قال لي: «لم أكن أدرك أنّها لم تعد طفلةً رضيعةً، ولم أكن أعي قساوة البيئة الّتي عاشت فيها. شكرًا لك ألف مرّةٍ على كلّ ما فعلته من أجلها».

كنتُ قد جعلتُ خارطة عالم الجنّ والعجائب الّتي صنعناها معًا في إطارٍ، وأهديتُها إلى الصّغيرة إليزابيث تذكارَ وداعٍ.

يكاد قلبي ينقبض من فكرة الرّحيل عن عزبة الصّفصاف. شعرتُ طبعًا بقليلٍ من السأم بسبب العيش في غرفةٍ مثل حقيبة السّيّارة، ولكنّني متيّمةٌ بهذا المكان... وبساعات الصّباح المنعشة الّتي كنتُ أقضّيها حذو النّافذة... وبفراشي الّذي كنتُ أصعد إليه حرفيًّا كلّ ليلةٍ... وبالنّمرق الأزرق الّذي يشبه الكعكة

الحلَقيّة... وبكلّ الرّياح الّتي هبّت على غرفتي. أخشى ألّا تكون لي فرصةٌ أخرى لآنس بمثل هذه الرّياح الودودة. وهل ستكون لي مستقبلًا غرفةٌ مثل هذه يمكن أن أرى منها شروق الشّمس وغروبها؟

لقد انتهت السّنوات الّتي قضّيتُها في عزبة الصّفصاف، وكنتُ دائمًا على العهد. لم أخن الأمانة مع العمّة تشاتي بشأن مخبئها الّذي لا تريد البوح به للعمّة كايت، ولم أكشف لأيٍّ منهما عن سرّ ترطيب وجهيهما باللّبن المخيض.

أظنّ أنّهما حزينتان لفراقي... ويشعرني ذلك بالبهجة. سيكون الأمر رهيبًا لو ابتهجتا لرحيلي... أو لو لم تشتاقا إليّ وإن قليلًا حين أغادر عزبة الصّفصاف. أمّا ريبيكا ديو فقد أعدّت لي طيلة هذا الأسبوع أفضل أنواع الوجبات... وكانت قد خصّصت مرّتين على التّوالي عشر بيضاتٍ كاملة لتصنع لي كعكة الملائكة الهشّة... واستعملت حتّى الأواني الخزفيّة المخصّصة للضّيوف. وأمّا العمّة تشاتي فقد كانت عيناها العسليّتان والعذبتان تفيضان دمعًا كلّما أشرتُ إلى رحيلي. حتّى القطّ داستي ميلر بدا معاتبًا وهو يقف على قوائمه الصّغيرة ويطيل النّظر في وجهي.

تلقّيت في الأسبوع الماضي رسالةً مطوّلةً من كاثرين. لقد كانت موهوبةً في كتابة الرّسائل. ظفرتْ بمنصب السّكرتيرة الخاصّة لنائبٍ في البرلمان كثير السّفر والتّرحال. يا لها من كلماتٍ ساحرةٍ، السّفر والتّرحال! تخيّل شخصًا يقول «هيّا بنا نذهب إلى مصر»،

وكأنّه يقول «هيّا بنا إلى شارلوتاون». ثمّ يذهب فعلًا! ستلائم كاثرين كثيرًا حياة التّرحال هذه.

مازالت تصرّ على أن تعزو إليّ ذلك التّغيير الّذي طرأ على مظهرها وعلى آفاقها المستقبليّة. كتبت لي قائلةً: «أتمنّى لو أجد الكلمات الّتي تعبّر عن امتناني لما أحدثتِه في حياتي». لقد ساعدتُها في ذلك على ما أظنّ، ولم يكن الأمر هيّنًا في البداية، إذ لم تكن تقول شيئًا دون امتعاضٍ يصاحبه، وكانت تصغي إلى ملاحظاتي بشأن العمل في المدرسة كمن يحاور باستهزاءٍ مخبولًا سخيفًا. ولكنّني نسيتُ كلّ شيءٍ الآن. لقد كان مردّ ذلك نظرتها المريرة والغامضة للحياة.

في هذه الأسابيع الأخيرة دعاني كلّ النّاس إلى العشاء... حتّى بولين جيبسون. لقد فارقت السّيّدة العجوز جيبسون الحياة منذ أشهرٍ، فتجرّأت بولين على دعوتي. وقد زرتُ منزل تومغالون مرّةً أخرى للعشاء مع الآنسة مينيرفا، وكان الحديث معها مرّةً أخرى على الوتيرة نفسها ومن جانبٍ واحدٍ. ولكنّني أمضيتُ وقتًا ممتعًا، واستطبتُ الأكل اللّذيذ الّذي أعدّته الآنسة مينيرفا، واستمتعتْ هي بسرد حكاياتٍ أخرى من مآسي عائلتها. لم تُخفِ البتّة أسفَها وإشفاقها على أيّ شخصٍ لا ينتمي إلى عشيرة تومغالون، ولكنّها وجّهت إليّ بعض الإطراء وأهدتني خاتمًا مرصّعا بالزّبرجد... خليط من الأزرق والأخضر يشبه ضوء القمر... كان والدها قد أهداها إيّاه في عيد ميلادها الثّامن عشر... «حين كنتُ يافعةً وحسناء يا عزيزتي... يمكنني أن أقول الآن إنّني كنتُ فيما مضى

فائقة الحسن». فرحتُ بالخاتم ولاسيّما لأنّه من حليّ الآنسة مينيرفا وليس لزوجة العمّ ألكسندر. لم أكن لأضعه في إصبعي لو أنّه كان من حليّ هذه تلك الزوجة. كان خاتمًا غاية في الرّوعة. وكان هناك شيءٌ من السّحر والغموض ينبعث من هذا المصوغ القادم من البحر.

كان منزل تومغالون رائعًا حقًّا، ولاسيّما أنّ أرضه اكتست بالأزهار وأوراق الشّجر. ولكنّني لن أستبدل بهذا المنزل وهذه الأرض الّتي تنتشر فيها الأشباح منزلَ أحلامي الّذي لم أعثر عليه إلى حدّ الآن.

هذا لا يعني أنّ الشّبح لا يمكنه أن يكون لطيفًا وأرستقراطيًّا، وعتابي الوحيد لدرب الأشباح أنّه خالٍ منها.

ذهبتُ إلى المقبرة القديمة يوم الأمس في نزهةٍ أخيرةٍ بها... تجوّلتُ في كلّ أرجائها، وتساءلتُ عمّا إذا كان ستيفن برينغل قد أغلق عينيه أخيرًا، وعمّا إذا كان هيربرت يضحك أحيانًا ضحكته الخافتة. وها أنا أيضًا أودّع اللّيلة تلّتي «ملكة العواصف» والشّمس قد غربت على جبينها، وها أنا ألقي نظرةً أخيرةً على الوادي الصّغير المتعرّج الّذي غطّاه ضوء الشّفق.

أشعر بشيءٍ من الإجهاد بعد أشهرٍ من الامتحانات، ومن وداع الأحبّة، ومن «التّحضيرات الأخيرة»... لن يكون لي شيءٌ أفعله خلال الأسبوع الأوّل من عودتي إلى غرين غايبلز. لن أفعل شيئًا على الإطلاق سوى الشّرود حرّةً في هذا العالم البديع الخُضرة، والتّمتّع بهذا الجمال الصّيفيّ. سأظلّ أحلم قرب «ينبوع الحوريّات»

عند الغسق، وسأطفو على «بحيرة المياه المتلألئة» في قاربٍ مصنوعٍ من أشعّة القمر... أو في زورق السّيّد باري، إذا لم تتوفّر لي قوارب من ضوء القمر. سأجمع الزّهور النّجميّة ونبات الجُريس في «الغابة المسكونة». وسأعثر على رُقعٍ من الأرض مُلئت بالفراولة البرّيّة في هضبة السّيّد هاريسون الّتي ترعى فيها ماشيته الكلأ. سأنضمّ إلى اليراعات الّتي ترقص في درب العشّاق، وسأزور الغابة القديمة والمنسيّة لهيستر غراي... وسأجلس على عتبة الباب تحت النّجوم وسأصغي إلى البحر وهو يناديني في نومه.

وعندما ينتهي ذلك الأسبوع، ستكون أنت قد عُدت إلى غرين غايبلز... ولن أرغب حينها في أيّ شيءٍ آخر.

(15)

في اليوم الموالي عندما حان الوقت لتودّع آن أهلها في عزبة الصّفصاف، لم تكن ريبيكا ديو في الجوار. وعوضًا عن ذلك، ناولتها العمّة كايت في عبوسٍ رسالة من عندها:

عزيزتي الآنسة شيرلي،

أكتبُ إليك رسالة الوداع هذه لأنّني لستُ واثقةً من قدرتي على توديعك وجهًا إلى وجه. لقد أقمتِ بيننا تحت هذا السّقف مدّة ثلاث سنواتٍ. وكنتِ صاحبة روحٍ خفيفةٍ وشغفٍ ربّانيٍّ بكلّ مسرّات الشّباب، ولكنّك لم تسلّمي نفسك للملذّات الجوفاء شأن اليافعين مثلك من المتهوّرين وذوي النّفوس المتقلّبة. لقد كنتِ تتصرّفين في كلّ المناسبات ومع كلّ النّاس، ولاسيّما مع ذلك الشّخص الّذي يخطّ هذه السّطور، بكلّ رقّةٍ وأدبٍ. وكنتِ أكثر النّاس مراعاةً لمشاعري، وأشعر بقتامةٍ وكآبةٍ يجتاحان كياني لمجرّد التّفكير في رحيلك. ولكن علينا ألّا نتأفّف ممّا قدّرته العناية الإلهيّة. (سفر صموئيل الأوّل، الإصحاح 29 و18).

سيبكيكِ كلّ أهل سامرسايد الّذين كان لهم شرف معرفتك، وسيُجلّك قلبي المتواضع والمخلص لك أبد الدّهر. وستكون

دعواتي لك دائمًا بالسّعادة والصّحّة في هذه الدّنيا، وبالنّعيم الأبديّ في الآخرة.

شيء مّا يهمس في أذني أنّك لن تظلّي طويلًا «الآنسة شيرلي»، وأنّك ستنعمين بذلك الرّباط المقدّس مع من اختاره قلبك، وقد سمعتُ أنّه شابٌّ قليل الوجود في هذا العالم. لا تملك كاتبة هذه السّطور سوى بعض المحاسن وبدأت تشعر بوطأة العمر وهو يتقدّم بها (بيد أنّني مازلت أصلح لسنواتٍ أخرى قادمةٍ)، ولم تكن تسمح لنفسها بأن تكون لها أيّ تطلّعاتٍ بشأن الزّواج. ولكنّها لن تحرم نفسها بهجة الاهتمام بزفاف صديقاتها. هل تسمحين لي أن أعبّر لك عن أمنياتي الحارّة بحياةٍ زوجيّةٍ ملؤها الرّفاء والغبطة الأبديّان؟ (فقط لا تنتظري الكثير من الرّجال.)

لن يخبو إكباري ولن تنضب مودّتي لكِ ما حييتُ، وحين لا يكون لك شيءٌ أرقى وأفضل تفعلينه فأنا أطلب منك أن تتكرّمي وتتذكّري

خادمتك المطيعة

ريبيكا ديو

ملاحظة: ليبارك لك الرّبّ ويحفظك.

كانت عينا آن قد فاضتا بالدّمع وهي تطوي الرّسالة. ورغم أنّها كانت تشكّ في أنّ ريبيكا ديو قد اقتبست أغلب عباراتها من كتابها المفضّل *«حسن التّصرّف وآداب السّلوك»*، فإنّه لم يكن لذلك

أن ينتقص من صدقها وصفاء نيّتها. والأكيد أنّ تلك الملاحظة الأخيرة قد نبعت مباشرةً من قلب ريبيكا ديو الرّقيق والعطوف.

«أخبري العزيزة ريبيكا ديو أنّني لن أنساها أبدًا، وأنّني سأعود كلّ صيفٍ لزيارتكم جميعكم».

قالت العمّة تشاتي وهي تنتحب: «لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يمحو ذكراك يا عزيزتي».

وقالت العمّة كايت في تأكيدٍ: «نعم، لا شيء يمكنه ذلك».

ولكن حين كانت آن تبتعد عن عزبة الصّفصاف وهي في العربة، كانت آخرُ رسالةٍ من ذلك المكان منشفةَ حمّامٍ بيضاء وعريضةً، ترفرف بشكلٍ مسعورٍ من نافذة البرج. لقد كانت ريبيكا ديو هي الّتي تلوّح بها.



صدرت عن دار رشم ودار مسكيلياني للمؤلفة نفسها

(1)

آن في الضيعة الخضراء

ترجمة: أشرف القرقني

(2)

آن في آفونلي

ترجمة: محمّد الحباشة

مراجعة: نهاد المعلاوي

(3)

آن بنت الجزيرة

ترجمة: وليد بن أحمد

مراجعة: نهاد المعلاوي

(4)

آن في عزبة الصفصاف

ترجمة: عادل قرامي

لوسي مود مونتغومري

آن في عزبة الصفصاف

ثلاثُ سنواتٍ هي الفترةُ الزّمنيّة التي يشغلُها المتنُ الحكائيّ لـ«آنْ في عزبة الصّفصاف». تنجحُ لُوسي مُود مُونتْغُومري كعادتها في تحويلِها إلى عوالمَ شاسعةٍ، متشابكة وساحرة.

في هذا الجزء تتخرّج «آنْ» في جامعة ردْمُوندْ. وتُغادر الضّيعة الخضراء راحلةً إلى سامرْسايْد، حيثُ تُعيّنُ مُديرةً للمدرسة الثّانويّة ومعلّمة فيها. لكنّها كعادتِها، تُقابَل بأسهُم الأحكام المسبقَة والرّفض الأعمى الذي تُعلنهُ في وجهِها منذ البداية عائلةُ برينغلْ المهيمنةُ في المدينة.

لعلّ إصرارَ «آنْ» على الإخلاص لجوهرها النقيّ والخلاّق وسطَ أشواك الازدراء والكراهية هو ما ظلّ يُشير دومًا إلى مصيرها البسيط والعجيب في آنٍ واحدٍ. ومن خلال تشبّثها المؤلم الممتع بطبيعتها المختلفة التي تقرنُ العواطف المرهفةَ بالذّهن المُتّقد، تنتصرُ «آنْ» دومًا في معارِكها. وهذا ما يتجلّى على التّدريج في الرّسائل التي تُشكّلُ معظمَ البناء الروائيّ لهذا الكتاب.

أشرف القرقني







ISBN 978-9938-9990-7-5

www.rashm-store.com